

إدارة المجلة

المشرف العام

وان محمدون اللقب دودو

مدير التحرير

محمد عبد الرحمن بن عمار

لجنة التحرير

محمد ولد الشيخ سيد أحمد

مريم بنت الشيخ

ممدو دحمد

لجنة القراءة:

بودواية مبخوت: الجزائر

تركي بن ليلي الشلاقي: المملكة العربية السعودية

فاتح عبد العالي: المملكة المغربية

عبد الله العوني العنزي: المملكة العربية السعودية

أحمد حبيب الله: موريتانيا

محمد فاضل محمد الحطاب: موريتانيا

محمد ولد الشيخ سيد أحمد: موريتانيا

مريم بنت الشيخ: موريتانيا

ممدو دحمد: موريتانيا

اللجنة الاستشارية:

عبد الله ولد السيد: جامعة انواكشوط، موريتانيا

أحمد الشكري: جامعة محمد الخامس، المغرب

شريف دحه با: جامعة الشيخ آنتا جوب، السنغال

الناني ولد الحسين: جامعة انواكشوط، موريتانيا

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية، محكمة، سنوية، تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة انواكشوط
* تهتم المجلة بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى إلى
اتاحة الفرصة للباحثين للاطلاع على أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث. وتستوعب المجالات
التالية:

- دراسات وبحوث أساسية
- وثائق ونصوص
- نصوص مترجمة
- دراسات ميدانية وعروض بيبليوغرافية
- عروض لمختلف الكتب والمجلات
- * تخضع البحوث والمقالات والعروض والدراسات للتحكيم والتقييم العلمي الذي يتولاه أساتذة باحثون
مختصون، ولا تعاد البحوث والأعمال التي لم تنشر إلى أصحابها
- * تنشر البحوث والأعمال المجازة، في العدد المناسب وفق خطة هيئة التحرير
- * يشترط في الأعمال والأبحاث المقدمة أن تكون أصيلة ومبتكرة ولم تنشر من قبل وألا تكون جزءا
من أعمال أكاديمية سابقة (رسالة ماجستير، دراسات عليا أو أطروحة...)
- * يراعى في المساهمات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية المتعارف عليها
- يمكن اعتماد المواقع الالكترونية المعترف بها علميا مع الإشارة إلى عناوينها والجهة التي تسيرها.
- * يفضل ألا يقل العمل عن 10 صفحات وألا يزيد على 20 صفحة.
- * يجب أن يكون العمل مراجعا من قبل صاحبه عند طباعته أو يحمل في قرص أو يرسل على
البريد الإلكتروني.

* توجه المراسلات إلى سكرتيرية التحرير:

على العنوان الخاص بالكلية: FLSH@univ-nke.mr

الفكر الأدبي العربي والنظرية الأدبية: أسئلة المواجهة: أ. د. محمد الأمين مولاي إبراهيم	05
الأنساق المضمرة في السرد الروائي الرمضاني: قراءة ثقافية لحضور شهر رمضان المبارك في بعض نماذج الرواية العربية: د. فهد إبراهيم البكر ود. وصال وليد الهويل ود. محمود حسين	15
العزازمة	15
خروج الاستفهام بالهمزة على خلاف مقتضى الظاهر وأثره في بناء الدلالة السياقية (شعر الأعمى	29
التطيلي (نموذجاً): نوف سالم الشمري	29
البلاغة العربية القديمة وطبيعة النص النقدي: الحسن محمد محمود الشيخ الحسن	55
المدونة النقدية الموريتانية والخطاب حول الأوب: في وصف مسارات الرأي الأدبي في تشكيلاته	71
وأبعاده النظرية منذ الاستقلال إلى نهاية ثمانينات القرن الماضي: إبراهيم ولد الشيخ	71
الوظائف التركيبية والدلالية للعمد النحوية: محمد فال زايد محمد امان	89
تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية: محمد تقي الله سيدي القوم	105
ظاهرة الاغتراب في الشعر الموريتاني دراسة في الظواهر والأساليب: محمد محمدين طلحة	115
مقاربة اللسانيين العرب المحدثين للنسق الزمني في اللغة العربية (المنهجان الوصفي والتوليدي	125
نموذجاً): محمد قاري	125
إشكاليات البنية والتنوع في نظم التفسير الصرفية: اسماعيل باب حمين	139
الحركة الوطنية الديمقراطية الموريتانية: فاعلية وحضور: أحمد سالم محمد	153
الجفاف وندرة الماء وعلاقتهما بتراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية (ولاته وودان نموذجاً):	173
الطيب بلاه حمودي	173
الدبلوماسية الكنتية من خلال أحمد البكاي التنبكتي: البارة محمد الطالب	195
منطقة الساحل والصحراء عوامل التأزيم ومعوقات الاستقرار: سيدي محمد ولد حديد	217
خصائص الجغرافيا السياسية لموريتانيا وأثرها على استقرار وقوة الدولة: محمد محمود ولد محمد	243
الأمين	243
أثر إمكانات الصناعة السياحية على تنمية واحة وادان: محمد لمام عبد المومن	267
الديناميكية الحضرية في المجال الموريتاني: النشأة والمسار: محمد الأمين ولد محمدين	283
الموارد الاقتصادية في ولاية الحوض الغربي ودورها في تنمية المجال المحلي: دحان البناني الطالب	307
حمادي	307

الفكر الأدبي العربي والنظرية الأدبية: أسئلة المواجهة

أ. د. محمد الأمين مولاي إبراهيم

أستاذ النقد وتحليل الخطاب، مدير مدرسة الدكتوراه

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط

0.0.. عديدة هي الأسئلة التي واجهت وتواجه المنشغلين بتطوير الفكر الأدبي العربي، فقد تطور مجال البحث في النظرية الأدبية، ليشمل اختصاصات ومشاكل علمية، أدخلت الفكر النقدي العربي الدورة العلمية لنظرية "علم الأدب"، وهيات بيئاته العلمية للمساهمة في تعميق مداركها وحذق أدواتها في التجربة العربية، فقد اتسعت دائرة التداول العلمي للنظرية وأدواتها في الجامعات ومراكز البحث، فظهرت كتب وأعمال، وأعدت بحوث وأطاريح، وأقيمت ندوات ومؤتمرات، وتعاقت أجيال من الباحثين المدرسين لها والمشتغلين بتطبيقاتها. وقد أدى كل ذلك إلى تعميق الوعي النقدي بالنظرية الأدبية وتجذير تطبيقات مناهجها في التجربة العربية، اتسعت معه دوائر استقبالها في البيئات العلمية العربية، وامتدت مساحة دورة "علم الأدب" لتشمل الفضاءات العلمية العربية.

الفكر الأدبي العربي والنظرية الأدبية: سؤال الهوية.

1.1.. لقد ظل حظ لغات العالم، واللغة العربية من بينها، من النظرية الأدبية مرتبطا بإسهام بيئاتها العلمية (الجامعات ومراكز البحث العلمي) في تطوير النظرية العامة للأدب: بفرعيها المعرفي الأدبي (نظرية المعرفة الأدبية) والنقدي العلمي (نظرية علم الأدب). فكل اللغات التي احتضنت النقد الأدبي، تسهم في التداول العام للنظرية العامة للأدب، بإدخال نظريات أصحابها المعرفية والنقدية. التي انتهوا إليها في تطويرهم لتصورات ونظريات سائدة أو نقضهم لتصورات ونظريات قائمة. دائرة التداول المعرفي العام لـ "نظرية المعرفة الأدبية" وللدورة العلمية النشطة لـ "نظرية علم الأدب". وإنما يتفاوت إسهام لغات العالم، الحاضنة للخطاب حول الأدب، في تطوير النظرية الأدبية، في قدرة المشتغلين فيها بالنظرية على الحضور الضعيف أو المتوسط أو النشط في دائرة التداول المعرفي العام لـ "نظرية المعرفة الأدبية"، وفي قدرة هؤلاء أيضا على الإسهام الضعيف أو المتوسط أو النشط في الدورة العلمية لـ "نظرية علم الأدب".

النظرية الأدبية: "نظرية المعرفة" و "نظرية العلم"

1.1.1.. تتحد "نظرية المعرفة" بأنها " النظرية التي يحصل بها العلم بالشيء دون الاتفاق عليه، وهي لذلك تغني الفكر وتثري التصور وتوسع مدارك العقل، لكنها تظل نظرية تعبر عن رأي أو

تصور يمثل وجهة نظر صاحبه ولا يلزم الآخر، بينما تحد "نظرية العلم"، بأنها النظرية التي يحصل بها العلم والاتفاق، وهي من ثم تغني الفكر وتأسس للتصور وتقدم الأطروحة القابلة للتطبيق والاختبار عبر منهج وأدوات، وتصدر الحكم أو القانون المعبر عن وجهة نظر الجميع. وقد أدت التطورات النظرية والمنهجية، التي مرت بها النظرية الأدبية، في النصف¹، الأول من القرن العشرين إلى بروز نظرية نقدية لعلم الأدب، تميز في تصنيفها المعرفي وضبطها المنهجي للأفكار والمعارف بين النظرية الأدبية والنظرية النقدية (العلمية)، مستندة في ذلك إلى التفريق بين المعرفة والعلم، فالنظرية الأدبية تتأسس على الاختلاف في الرأي والتصور والنظرية النقدية على الموافقة والاتفاق. وينشأ الاختلاف في الأولي من أنبناء النظرية على تصور منسجم ومتسق غير قابل للتطبيق، ليس له منهج يثبت فرضيته ويختبر طرحه، بينما ينشأ الاتفاق في الثانية من أنبناء النظرية على تصور منسجم ومتسق قابل للتطبيق ومنتج للمعرفة، له منهج يبرهن على فرضيته ويختبر أطروحته ويحمي استنتاجه، ويجعله مصدرا لإنتاج المعرفة، ويدخله دائرة التداول العلمي.

2.1.1. -- ويظهر الخطاب حول الأدب في دائرة المعرفة الأدبية (النظرية الأدبية)، التي تتأسس على "نظرية المعرفة" في منجز كل لغة تحت خانة الانتساب إلى اللغة، التي كتب بها الخطاب، وأصحاب هذا الجهد في التصنيف، يرجعون النظرية الأدبية، عند تأصيلهم لها، إلى اللغة التي بها أنتجت، والحاضنة الأدبية التي إليها تنتمي، فهم ينسبون النظرية للغة التي أنتجتها. فهي عندهم غريبة لأن لغات الآخر أنتجتها، وهي عربية لأنها أنتجت بالفصحى، وعلى أساس هذا الطرح، نسب النقد إلى اللغة المكتوب بها، والمنتج بها، فعد عند أصحاب هذا التصنيف كل ما يكتب من خطاب حول الأدب بالعربية نظرية نقدية عربية سواء كان الموضوع المدروس: النص الإبداعي العربي، أم النظرية الأدبية والمناهج أدواتها. فما ينتهي إليه المشتغل بتطبيقات المناهج النقدية على النص العربي من آراء وتصورات نقدية في وصفه "للأدبي" في النص العربي هو نقد عربي. وما ينهي إليه منشغل بالتظير للأنواع الأدبية وأشكال تحققها في الأدب العربي، من تظير نقدي ونظريات أدبية، هو من النقد العربي. وما ينتهي إليه المختصون في حقل النظرية الأدبية ومناهجها من علماء الأدب المنشغلين بقضاياها وأسئلتها، من نقض لنظرية أدبية قائمة أو تعميق لمدارك لأخرى سائدة ومن تطوير للأطروحة قائمة، أو مساهمة في تحسين كفاءة تطبيقاتها المنهجية، وقدرتها على إنتاج المعرفة هو أيضا من النقد العربي. وأصحاب هذا المدخل في التصنيف يدرجون حصيلة النشاط المعرفي والنشاط

¹ - محمد الأمين مولاي إبراهيم: علم الأدب: النظرية والأدوات، مجلة "ذو المجاز" العدد 02 يناير 2021 الصادرة عن

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، ص/180

البحثي العلمي في خانة واحدة، هي عندهم "النظرية النقدية العربية"، ولذا يحضر عند هؤلاء خطاب الأيديولوجيا وسؤال الهوية. أما المخالفون لهم في التصنيف، فيقيمون تصنيفهم على أرضية مغايرة، فيرون الخطاب حول الأدب معرفة نقدية، تتأسس على "نظرية العلم"، وتظهر في خانة تطور النظرية النقدية وأدواتها، دون أن تنسب إلى اللغة التي أنتجت بها. وأصحاب هذا التصنيف ينشغلون بوصف ظهور النظرية النقدية ومناهجها في البيئات العلمية، يرصد استقبالها ومتابعة تطوراتها في الحواضن الثقافية المستقبلية لها، وتحولاتها النظرية وإبدالاتها المنهجية في البيئات العلمية المطورة لها. ونظرية الأدب عند هؤلاء "نظرية معرفة" و"نظرية علم"، تستقبلهما الحواضن الثقافية والبيئات العلمية للأمم واللغات، فتتوزع الأولي دوائر المعرفة الأدبية، ونشاط المشتغلين فيها نشاط معرفي، لتكائها على قاعدة الاختلاف في التصور والنظرية، وقبل الرأي الأدبي أو رفضه. وتوسع الثانية دورة علم الأدب وحركة تمدده في البيئات العلمية، والنشاط فيها بحثي علمي، لقيامها على قاعدة الاتفاق في الطرح المؤسس على اختبار الأطروحة بالمنهج النقدي وأدواته، وقبل الرأي النقدي والتسليم بالحكم النقدي. النظرية الأدبية ومحافل التداول العلمي العربي: للعرب نظرية نقدية عربية.

2.1. - وقد قدمت النظرية الأدبية في محافل التواصل المعرفي والتداول العلمي العربي منذ عقود، من خلال مدخلين سياقي ونصي: الأول منهما سياقي خارجي يشدد على انتماء النظرية الأدبية إلى اللغة التي تكتب بها، والأدب الذي تحتضنها، والخطاب الأدبي الذي تنتمي إليه النظرية يجعلها، من هذا المنظور، نظرية نقدية عربية لأنها تقدم الأدب العربي للغات آخر، ولأنها تحتضن التفكير النقدي عند العرب. وأصحاب هذا المدخل في تقديم النظرية الأدبية، يتحدثون عن "نظرية نقدية عربية" لا فرق فيها بين النظري المعرفي والمنهجي النقدي. فللعرب نظرياتهم الأدبية، ولهم نقدهم مثل ما أن لهم أدبهم. والتفكير النقدي عند أصحاب هذا التوصيف، هو السائد في العديد من البيئات العلمية العربية والحواضن الثقافية الواصفة، الواصفة للنظرية النقدية في التجربة العربية. ففي تقديمهم للنظرية الأدبية، يقيمون شبه قطيعة إبستمولوجية ما بين قديم النظرية وحديثها، لتكائهم على التحولات التاريخية والثقافية للفكر النقدي، مدخلا لتصنيف النظرية النقدية إلى نظرية نقدية قديمة ونظرية نقدية حديثة. وحظ هذا المدخل السياقي في تصنيف النظرية النقدية في التداول المعرفي لبعض الجامعات العربية كبير، ونصيبه من المعرفة والاطلاع في العديد من الحواضن الثقافية العربية واسع، وسطوة نسق تفكيره في إنتاج المعرفة قوية، وحضور سلطة خطابه بالغ التأثير، وآفاق استقباله مألوفة، لاستناده إلى تاريخ من التلقي والقبول ممتد، قائم على تقسيم النظرية النقدية إلى نظرية نقدية عربية تجد جذورها في التراث النقدي العربي، ونظرية نقدية غربية وافدة بمناهجها النقدية الحديثة ونظرياتها

الأدبية الغربية. والوعي النقدي عند دوائر تلقيه قائم على تصنيف النظرية الأدبية إلى نظريتين: نقدية عربية تجد جذورها في التراث النقدي العربي، ونظرية نقدية غربية من إنتاج الآخر، تتأسس على مناهج وأدوات غربية وافدة.

النظرية الأدبية ومحافل التداول العلمي العربي: النظرية النقدية نظرية في العلم.

1.2.1.. أما المدخل الثاني فنصي داخلي يشدد على أن النظرية الأدبية محتوى معرفي واحد، له جانب نظري وآخر منهجي، لا ينتمي إلى لغة دون أخرى، وإن قدم من خلالها، فهو قابل لأن يقدم من خلال أية لغة أخرى، وأن يُنتج من خلالها لكنه لا ينسب لإحداها. وهذا المحتوى المعرفي نظرية وأدوات: نظرية لأنه خطاب حول الأدب، وأدوات لأنه مناهج نقدية لإنتاج المعرفة الأدبية. والنظرية النقدية عند أصحاب هذا الطرح، نظرية في المعرفة ونظرية في العلم: نظرية معرفية، تعرفها التجارب النقدية في كل الآداب، توسع مدارك النظرية الأدبية، وتنوع الخطاب حول الأدب. ونظرية علمية ملازمة لها في الغالب، هي أطاريح المناهج النقدية وأدواتها الواصفة لخطاب للخطاب الأدبي. لذلك لا يمكن أن تنسب النظرية الأدبية، في نظر هؤلاء إلى لغة محددة، وإنما هي "نظرية علم" تحتضنها لغة وتستقبلها بيئاتها العلمية، فتكون لها تجربتها من الوعي الأدبي والتطور النقدي في تلك البيئات، ويكون للغاتها حينئذ حظها من الإسهام في دورة «نظرية علم الأدب»، وتطور مناهج وأدوات "علم الأدب". وحظ هذا المدخل النصي في تصنيف النظرية النقدية في التداول المعرفي لأغلب الجامعات العربية محدود، وتأثير نسق تفكيره في إنتاج المعرفة يتزايد، وحضور سلطة خطابه في الحواضن الثقافية ضعيف، وآفاق استقباله خارج أسوار الجامعة غير مألوفة، لاستناده إلى تاريخ من الرفض للنظرية النقدية وتطبيقاتها ممتد منذ صدور كتاب في "الشعر الجاهلي لطفه حسين". والوعي النقدي عند دوائر تلقي المدخل النصي هذا، قائم على تصنيف النظرية الأدبية إلى نظرية معرفية غير قابلة للتطبيق عمادها الاختلاف في الرأي، وأطروحة علمية قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة، عمادها الاتفاق في الرأي، لاستنادها إلى منهج يختبرها، وأدوات منهجية تحققها. وهو المحتوى العلمي التداول اليوم، بين البيئات العلمية والبيئة العلمية العربية إحداها، القائم على تجارب بحثية وممارسة منهجية لإنتاج المعرفة الأدبية، وتطوير منهجها النقدية والتحسين من كفاءة أدواتها المنهجية. وهذا المدخل النصي في تقديم النظرية الأدبية في التجربة العربية هو سند القول هنا، في وصف إسهام منظري العربية في توسيع دوائر نظرية المعرفة الأدبية (النظرية الأدبية) ودور علمائها في تطوير نظرية علم الأدب (النظرية النقدية) وتنشيط دورته العلمية.

2.2.1.. وقد ارتبطت لحظات تطور النظرية الأدبية بالبيئات العلمية التي أنتجتها، وتجارب الأماكن (البلدان) التي احتضنتها. فتطورت فكرياً أدبياً، وعياً نقدياً يبني تصورات معرفية عن الأدب ويؤسس لنظريات، هي اليوم جماع نظرية الأدب وجامع نص النظرية الأدبية، المدرسة في أقسام الأدب بلغات مختلفة ومتعددة، العربية من بينها. كما قامت فيها علماً يختبر نظرية نقدية قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة (الأطروحة)، ويؤسس اليوم لمعرفة صحيحة أو شبه صحيحة عن الأدب، في المحافل العلمية (الجامعات ومراكز البحث) ومنها المحافل العلمية العربية. ويُحد هذا العلم بأنه مجموع النظريات النقدية، ذات المناهج والأدوات النقدية، الواسعة لأطروحتها والمنتجة للمعرفة الأدبية (البنوية، الأسلوبية، الشعرية، السيميولوجيا). وهذه النظريات النقدية وأدواتها النقدية، تدرس اليوم بلغات العالم، واللغة العربية من بينها، في البيئات العلمية المحتضنة لدورة علم الأدب، باعتباره الفرع من العلوم الإنسانية، المُتخذ من الأدب موضوعاً له، المُمِلك لمناهج وأدوات قادرة على اختبار نظرية أدبية قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة (الأطروحة)، والمحقق لمعرفة أدبية صحيحة أو شبه صحيحة عن الأدب ونصوصه، والمحصل لنسبة عالية من الاتفاق تصل أحياناً إلى نسبة 70%، مثل ما هو الحال في بقية العلوم الإنسانية. وهذا الاتفاق في الرأي والحكم الحاصل عند المتخذين من النظرية النقدية (البنوية، الأسلوبية، الشعرية، السيميولوجيا) مدخلاً للدراسة ومن منهجها وأدواتها (المفاهيم، المصطلحات، التفكير النقدي، الذهنية النقدية) أداة لإنتاج المعرفة، وإصدار الحكم. هو الذي يصبغ المعرفة الأدبية الصبغة العلمية، ويدخلها دورة التداول العلمي لعلم الأدب. فهي اليوم المحتوى العلمي للمعرفة النقدية (النظريات النقدية ومناهجها) المتداول في جميع البيئات العلمية للغات العلم، ومنها البيئة العلمية العربية: مقررات لعلم الأدب مدرسة في أقسام الآداب بالجامعة الواحدة، لا يفصل بينها في حواضن كليات الآداب، إلا حاجز لغة التخصص المُدرسة بها، وجدران القاعات الفاصلة بين المنتمين لهذه الأقسام.

الفكر الأدبي العربي والنظرية الأدبية: سؤال العلم

1.2. - تختلف "نظرية المعرفة الأدبية" (النظرية الأدبية) في الفكر الأدبي عن "نظرية علم الأدب" فهي تتسب في الغالب لمنظر نقدي، تظل تتسمي بسمه (نظرية ابن قتيبة في الأغراض، نظرية الرواية عند لوكاتش مثلاً)، لأنها "قول أدبي" ومن صحة القول أن ينسب لقائله، ورأي أدبي فيه أخذ ورد وقبول ورفض، يتأسس على قاعدة الاختلاف في الرأي الأدبي، والتعدد في المدخل النقدي، والتنوع في طرائق بناء النظرية الأدبية. لذلك كان دور منظري نظرية الأدب في البيئات العلمية النقدية ومراكز البحث النشطة، تطوير الفكر الأدبي، بالعمل على توسيع النظرية، وتعميق الوعي

بمركزاتها النظرية، أو نقض طرحها وتفنيد رأيها، بتقديم نظرية بديلة يتأسس الرأي الأدبي فيها على مدخل نقدي آخر، وفي ذلك انحسار لفكرها الأدبي وضعف لسطوة تفكيرها النقدي.

1.1.2. -- أما "نظرية علم الأدب" (الأطروحة النقدية) فهي في الغالب لا تتسب لعالم من علماء علم الأدب بل لحلقة أو جماعة، تظل تتسمي باسمهم (نظرية سوسيولوجيا الأدب، نظرية البنيوية النقدية مثلاً)، لأنها "رأي نقدي" مختبر بمنهج نقدي وأدوات منهجية، ويتأسس على قاعدة الاتفاق في الرأي والحكم، ويستند إلى منهج ينقله من دائرة الاختلاف إلى دائرة الاتفاق، ومن النظرية إلى الأطروحة. فهو رأي نقدي صحيح أو شبه صحيح عن الأدب. والنظرية فيه أطروحة قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة، ومحل اتفاق، تحولت في مسار تطور النقد الأدبي ولحظات قيام علم الأدب من نظرية إلى أطروحة (البنيوية النقدية) قابلة للتطبيق ومنتجة للمعرفة.

البيئة العلمية العربية واحتضان النظرية الأدبية: كفاءة إنتاج المعرفة.

2.2. انشغلت البيئات العلمية ومراكز البحث في الجامعات الغربية في النصف الأخير من القرن العشرين بالنظرية الأدبية وتطوراتها النظرية والمنهجية ونالت حظاً من الاهتمام في البيئات الجامعية العربية في العقود الأخيرة منه. فقد أدت هذه التطورات ب وتحولاتها النظرية وإبدالها بالمنهجية في الربع الأخير من القرن الماضي إلى تغير في المعرفة الأدبية وأدوات إنتاجها، عملت على التحسين من أداء النظرية النقدية للنقد الأدبي وكفاءة مناهجه، في البيئات العلمية التي استقبلتها، ومنها البيئة العلمية العربية، وهي التغيرات التي جاءت بها لحظة البنيوية النقدية بتقديمها لنظرية نقدية نصية، واختبارها لأدوات منهجية، أكثر قدرة على وصف "الأدبي" من لحظة سوسيولوجيا الأدب، وما كرسه من تصور أدبي وممارسة منهجية، تعول على سياق النص في مقاربتها لـ "أدبي". وستؤدي المراجعات العلمية لأطروحة البنيويين الأول وتطبيقاتها المنهجية مع جيل البنيويين الجدد في لحظة تالية، إلى قيام علم الأدب بفرعيه اللفظي التعبيري (الشعرية) والدلالي التأويلي (السيمولوجيا). وقد تفاوت إسهام البيئات العلمية، في تطور النظرية الأدبية وأدواتها من بيئة لأخرى، بتباين اللغات الحاضنة لها، وبقدرة هذه البيئات على احتضان هذه النظرية والمساهمة في تطويرها.

البيئات العلمية والبحث العلمي: ضعف الأداء

1.2.2. -- ولئن لوحظ أن البحث في النظرية الأدبية، في الربع الأخير من القرن العشرين، بكلّيات الآداب في الجامعات العربية قد ظل مشغلاً نظرياً، يدفع الفكر الأدبي العربي إلى البحث في مسائل: تتعلق باستقبال النظرية نقدية في البيئة العربية، وجهود النقاد والمنظرين العرب في تعميق مداركها النظرية في المتداول العلمي، وسعيهم إلى الإسهام في تطوير "نظرية المعرفة الأدبية" - فإن تدريس

مناهجها وأدواتها النقدية، واختبار أطاريحها في محافل الدرس الجامعي لهذه البيئات، والانشغال بأسئلة المنهج والأدوات، قد عمل باستمرار على تحفيز الاشتغال بتطوير المناهج النقدية وأدواتها والانشغال بمسائل منهجية دقيقة: تتصل بتعميق الوعي بمناهج النظرية النقدية، واختبار أطروحتها، وتجذير تطبيقاتها المنهجية على النص العربي، والدفع بالمشتغلين بالمناهج وتطبيقاتها إلى مزيد من البحث والجهد العلمي لتهيئة المناخ المعرفي والمنهجي لاستقبال "نظرية علم الأدب" في البيئات العلمية العربية، والمساهمة في احتضانها لـ "عالم الأدب". فقد عملت جهود الرواد العرب من البنيويين والأسلوبيين الأول نهاية سبعينيات القرن الماضي على إشاعة وعي نقدي عميق بأطروحتي البنيوية والأسلوبية في التجربة العربية، تضمنته أطاريح وكتب مثلت في تاريخ استقبال المناهج النقدية في البيئات العلمية العربية، لحظة مهمة من تطور النظرية الأدبية بها، وحاسمة في مراجعة الموفق من نظرية سوسيولوجيا الأدب السائدة حينها، والتخفيف من سطوة تطبيقاتها المنهجية¹.

2.2.2. - وسيهم هذا الوعي النقدي تدريجيا في تعميق مدارك تطبيقات البنيوية والأسلوبية مع جيل جديد من البنيويين والأسلوبيين العرب الجدد، في ما سيعرف في تاريخ استقبال النظرية النقدية في التجربة العربية، بظهور حلقات البنيوية والأسلوبية في الجامعات العربية بالشرق والمغرب، وهي الحلقات التي ستمد الفكر النقدي العربي بأجيال من المنشغلين بالبنيوية والأسلوبية وتطبيقاتهما في التجربة العربية. وسيخرج من رحم هذه الحلقات تباعا، وعي نقدي جديد بالنظرية النقدية ومناهجها، أكثر انشغالا بقضاياها النظرية، واشتغالا بأسئلتها المنهجية، هيأ البيئة العلمية العربية لاستقبال دورة علم الأدب، وعمل على خلق مناخ نقدي علمي، ستؤدي تراكمات وعيه النقدي بالنظرية النقدية ومناهجها نهاية الثمانينيات إلى ظهور رواد الشعرية في التجربة العربية، والسيميولوجيا بعد ذلك بسنوات قليلة.

3.2.2. - وقد كان للدرس النقدي عند البنيويين والأسلوبيين الجدد في "حلقة القاهرة" و "دمشق" و "بغداد" و "تونس" و "الرباط" الدور الكبير في احتضان فكر أدبي ووعي نقدي عند هؤلاء، سيكون له الدور الأبرز في تطور النظرية النقدية ومواجهة أسئلتها المنهجية. وهو ما سيسهم في تراجع سلطة المناهج النصية (البنيوية والأسلوبية) ويترك المقاعد لرواد الشعرية والسيميولوجيا في الجامعات العربية، وهم الذين ستحتضن معهم البيئة العلمية العربية اللحظة الثالثة من تطور النظرية الأدبية في

¹ محمد الأمين مولاي إبراهيم: "الدكتور سعيد يقطين وعلم الأدب في التجربة العربية: في الوعي بالاطروحة وتطبيقاتها" ضمن كتاب "على خطى الرائي سعيد يقطين وتجديد الفكر النقدي العربي الحديث" تنسيق وإعداد الدكتور جلول قاسمي، دار خطوط وظلال، الأردن، عمان 2021، ص/26

التجربة العربية وابدالاتها المنهجية الممهدة لاستقبال دورة علم الأدب مع جيل الشعريين والسميولوجيين الشباب حينها، نهاية تسعينيات القرن الماضي. وستتبت تربة العقد الأول والثاني من الواحد والعشرين، في أغلب الجامعات العربية، وعيا بالنظرية النقدية ومناهجها، ستندعم معه سلطة اختصاصات الشعرية (الشعريات، السرديات، النقديات) والسميولوجيا (الشعريات السميولوجية، والسرديات السميولوجية) وتأخذ أبعادا تطبيقية مع أحفاد جيل الرواد.

4.2.2..- وسيصاحب هذا الوعي ب"نظرية علم الأدب" ووعي ب"نظرية المعرفة الأدبية" مواز نشط، تشكل من حقول معرفية متعددة ومتنوعة (النقد الثقافي، نظرية التلقي. نظريات تحليل الخطاب، نظريات النص الرقمي ووسائل الاتصال....) ونظريات نقدية عامة تجد منابت قولها في فروع نظرية الأدب (نظرية الأدب المقارن، نظرية الأجناس الأدبية،...). وهو وعي نقدي يجد اليوم قبولا وألفة فكرية في الأوساط الثقافية والحواضن المعرفية العربية، وبعض البيئات العلمية العربية، يسهم في إضعاف تمدد الوعي النقدي ب"علم الأدب" وقوة تأثير دورته العلمية في بعض البيئات العلمية العربية، التي مازال الهيمنة فيها لسلطة المناهج النصية (البنوية والأسلوبية) وتطبيقاتها النقدية، خاصة تلك التي لم يستطع معها الجيل الثاني من الشعريين والسميولوجيين العرب المنشغلين بالخطاب الشعري، أن يتحرر من سطوة المقاربة البنوية والأسلوبية للنص الشعري، ومن ظل سلطة خطاب جيل الرواد، الذين تتلمذوا عليهم، وإن افلح في ذلك نظراؤهم من السرديين الأول (سعيد يقطين، عبد الله إبراهيم، سيزا قاسم، محمد القاضي، سعيد بنكراد....) المنشغلين بالخطاب السردى، فقد عملوا على إبدال عدة المقاربة البنوية بعدة منهجية مغايرة (السرديات النظرية والسرديات التطبيقية)، كسروا بها حلقة التطبيقات البنوية على النص السردى، وادخلوا النظرية النقدية في التجربة العربية دورة "علم الأدب"، بإسهامهم العلمي في تعميق مدارك السريات في التجربة العربية، وانخرطهم في البحث في قضاياها النقدية وأسئلتها المنهجية المطروحة، فتحرروا، بذلك من ظل خطاب أساتذتهم، باكتشاف مساحات من سردية الخطاب، ومآتى من الإمتاع والمؤانسة في النص السردى، لم يصل إليها جهد أساتذتهم من البنويين في الوصف البنية السردية، فخرجوا بذلك من قبضة الدرس البنوي الي رحاب الدرس السردى، ومن محدودية الإضاءة البنوية إلي سعة إبصار السرديات.

تركيب

3. - لئن حقق علم الأدب، اليوم في البيئات العلمية الغربية مساحات كبيرة من التطور، تعمقت معها مدارك نظريته وتحسنت كفاءة اختبار أطروحاته، وتمثل معها علماء الأدب الفروق النظرية والمنهجية

بين النقد الأدبي (النظرية الأدبية) وعلم الأدب (الأطروحة النقدية)، وتبين لمنظريه، المسار التطوري الذي مر به الخطاب حول الأدب في انتقاله من النقد الأدبي الى علم الأدب. لأن تحقق ذلك في البيئات الحاضنة للعلم وأدواته، فإن البيئات العلمية العربية مازالت موزعة بين القبول والرفض، بين المتمسكين بالنقد فنا أدبيا الراضين لأي تفكير علمي يطبع الممارسة النقدية، ويدخلها في دائرة العلم، وبين الساعين إلى إدخال النقد في المعرفة العلمية وتجذير ممارستها النقدية في الفكر العلمي وأدواته، وبين الاثنين برزخ يتجاذبه قطبا التأثير، فتتسع دائرته وتضيق بفعل حيوية أو ضعف المتداول العلمي للنظرية النقدية في هذه البيئات العلمية.

الأنساق المضمرة في السرد الروائي الرمضاني:

قراءة ثقافية لحضور شهر رمضان المبارك في بعض نماذج الرواية العربية*

د. فهد إبراهيم البكر	د. وصال وليد الهويل	د. محمود حسين العزامة
أستاذ الأدب والنقد المشارك	أستاذ الأدب والنقد المساعد	أستاذ الأدب والنقد المشارك
جامعة حائل	جامعة الفجيرة	جامعة الفجيرة
المملكة العربية السعودية	الإمارات العربية المتحدة	الإمارات العربية المتحدة

الملخص

ترمي هذه الورقة إلى دراسة "شهر رمضان في نماذج من الرواية العربية"، مستفيدة من أدوات المنهج الثقافي، وذلك لاستجلاء الأنساق الثقافية المخبوءة تحت ظاهر النص والاشتباك معه لاستخلاص ما تسلك إليه من أنساق، تجاوزت ظاهر التعبير إلى أعماق النص، كاشفةً عن فكر الكاتب القابع في نصوصه بوعي أو دون وعي.

ومن هنا فقد تناولت هذه الورقة مجموعة من الروايات العربية - ولا أسس بعينها لاختيارها - سوى أنها تناولت بين طياتها شهر رمضان ضمن أنساق ثقافية مترسّخة داخل الروائي، فأخذت تطلّ برأسها في النص بين الفنية والأخرى، إذ نراه يصوّر العادات الاجتماعية والثقافية والدينية السائدة في مجتمعه إبّان شهر رمضان، كاجتماع العائلة، والدعوة إلى الإفطار، وليلة القدر وتأجيل ما هو سلبي لما بعد انقضاء الشهر، غير أنّ القارئ المتأمل بالسرد يرى أبعداً أخرى لذلك، ويستشف ممارسات قد تمسّ على أقل تقدير غاية الشهر الفضيل وروحانياته، وهي بلا شك أنساق ثقافية تتحصّن داخل النص، وتلفّ فكر الكاتب ووعيه؛ لذا تحاول الورقة إيقاظ تلك الأنساق والنش عنها ومحاورتها.

ومما تجدر الإشارة إليه أننا تناولنا ظاهر النص الإيجابي، ومن ثم الغور في أعماق السرد واستبطان أنساقه الخفية التي تخترق صفاء الظاهر وجماله، سائرين بموقف وسطي يجمع بين الآراء القائلة بأن المنهج الثقافي يكشف عن النسق أيّاً كان، والآراء القائلة بأن كشف القبيح هو صلب النقد الثقافي، وصميم جوهره. كما أنّ توضيح مثل هذه الأنساق القبيحة لا يعنى المس بقديسيّة الشهر وحرمة؛ وإنما تسليط الضوء على ما هو سلبي في الثقافة العربية، أملاً بتغييره كم قال الغدّامي، وريم حفر الخل والعوار.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، الرواية، العربية، شهر رمضان، النسق.

* نشر هذا البحث في العدد السابق ونتيجة لأخطاء وردت فيه أعيد نشره.

Summary

The study of the study "Ramadan in Examples of the Arabic Novel", in order to clarify the cultural patterns, by using what is under the surface of the text and its superficiality, and the clash with a clash that reads a new reading, reading the surface of the expression, and tends towards the depths of the text, revealing the thought of the subordinate writer in his texts consciously or unconsciously.

Hence, this paper has dealt with a group of Arabic novels - and there are no grounds for selecting them specifically - except that they dealt with the month of Ramadan within the cultural patterns entrenched within the novelist, so it appears in the text between the artistic and the other, perhaps intentionally or without it, as we see it depicting social, cultural and religious customs prevailing in his society during the month of Ramadan, such as the family gathering, the call to breakfast, Laylat al-Qadr, and the postponement of what is negative until after the end of the month, but the contemplative reader sees other dimensions of this, and discerns practices that may at least affect the purpose and spirituality of the holy month, and they are undoubtedly Cultural patterns latent within the text, so the paper attempts to awaken these patterns, excavate them, and discuss them. It should be noted that we dealt with the appearance of the positive text, and then delving into the depths of the narration and the introspection of its hidden patterns, a tributary that is different from its appearance, to take a middle position that combines the opinions that the cultural approach reveals the pattern, whatever it is, and the opinions that reveal the ugly is the core of his work and the core of his essence. Also, clarifying such ugly patterns does not mean violating its sanctity and sanctity. Rather, it is shedding light on what is negative that resides in Arab culture in the hope of changing it, as al-Ghudhami said.

Keywords: cultural criticism, Arabic novel, Ramadan, format.

قليلة هي الدراسات الأدبية والثقافية التي تتناول شهر رمضان المبارك، مع أن نماذج حضوره في التراث العربي كثيرة، بل إن نماذجه كثيرة في السرد الحديث أيضاً، وهذا ما يجعل فرصة دراسته من أي زاوية نقدية أمراً باعثاً على الاهتمام، والحق أن حضور (رمضان في الرواية العربية)، ميدان بحثي جديد وغزير؛ فهو موضوع سهل ممتع، والذي يراه في بادئ الأمر يحسب أنه عنوانٌ جاذب ومواكب، ولكنه في الوقت نفسه صعبٌ وشاق.

ومن هنا سنتناول في هذه الورقة حضور رمضان في الرواية العربية من زاوية النقد الثقافي ولعلي أقسم هذه الورقة إلى تمهيد، وثلاثة محاور، وخاتمة، فأما التمهيد فسيعرّف برمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب، وأما المحاور الثلاثة فسوف تركز على الأنساق المضمرة في شهر رمضان، وذلك من خلال استقباله، ثم بعض ظواهره ومتعلقاته، ثم بيان مآلاته ونهاياته ثم خاتمة الورقة، وستكون قراءتنا انطلاقاً من تصور النقد الثقافي الذي يبحث في ما وراء النص.

ويسعدنا أن نتناول موضوعاً بعنوان (رمضان في الرواية العربية: قراءة ثقافية في بعض النماذج)، والحق أن هذا الموضوع سهل ممتنع، فهو في ما يظهر عنواناً جاذباً ومواكب، ولكنه في الوقت نفسه صعبٌ وشاق، ولا سيما إذا كان وقت إعداد الورقة ضيقاً كما حدث معي الآن.

ولعلنا أقسم هذه الورقة إلى تمهيد، وثلاثة محاور، وخاتمة، فأما التمهيد فسيعرّف برمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب، وأما المحاور الثلاثة فسوف ترتكز على الأنساق المضمرة في شهر رمضان، وذلك من خلال استقباله، ثم بعض ظواهره ومتعلقاته، ثم بيان مآلاته ونهاياته، ثم خاتمة الورقة، وستكون قراءتنا انطلاقاً من تصور النقد الثقافي الذي يبحث في ما وراء النص، كما أن المدونة يسيرة ليست بالكثيرة؛ وذلك بسبب ضيق الوقت، ومحدودية النماذج. ونبدأ بتمهيد هذه الورقة حول:

(رمضان بين الأدب والنقد: جدلية الحضور والغياب):

فنقول بإيجاز بأن رمضان حضر كثيراً في الأدب، ولكنه غاب عن النقد، نقول ذلك بكل صراحة، وبكل وضوح، وحتى الذين تحدثوا عنه في عصرنا هذا، إنما انطلقوا من جمع المادة، لا نقدها، ولعلي أحيل هنا إلى كتاب مهم يعد من أوائل الكتب في العصر الحديث - في نظري - التي تناولت (رمضان في الأدب)، وهو كتاب الدكتور علي الجندي الذي سماه (رمضان في الأدب)، وهو مجموعة محاضرات أُلقيت بمقر الجمعية الجغرافية المصرية، في مساء يوم الثلاثاء الموافق 10 مارس، عام 1959م، أي قبل ما ينوف عن ستين عاماً، وقد استهله بالحديث عن اشتقاق كلمة (رمضان)، وما قاله الشعراء في استقبال الهلال، وبعض أحوالهم مع هذا الشهر الكريم، بالإضافة إلى ذكر بعض الآثار والمظاهر.

غير أن الاهتمام بالشعر كان أكثر من النثر، فلم يحضر رمضان كثيراً إلا مع الشعراء، في حين ظل متوارياً عند الكتاب، ومن يتأمل في النثر العربي يجده في استقبال رمضان تنوعاً، وإن لم يكن وافراً، وظهرت في هذا الباب بعض التهاني المفعمة بالروحانية، وعلى كل حال فقد كان أغلب الأدباء متفاوتين في استقبال هذا الشهر الكريم، مستبشرين فرحين، وإن رأينا منهم في الشعر من لم يكن كذلك، وكذا الحال في النثر أيضاً.

وليس هذا مقام استعراض وتفصيل، لكننا نود التنبيه إلى أن رمضان الذي حضر مع الأدباء في شعرهم ونثرهم، لم يكن ليتناول بالشرح، والتفصيل، أو الطرح، والتحليل، وهو الأمر الذي يجعلنا نتساءل منذ القديم: أين النقد عن رصد جماليات الإبداع المواكب لرمضان؟! وهل يرى النقد في هذا الصد والنأي مسوغاً؟! لماذا مثلاً لم يعكف النقد القدامي على التأليف في جمالية هذا الشهر

وروحانيته، ولماذا لم يتوقفوا عند مظاهره ومتعلقاته؟! وحتى إن وجد شيء من ذلك مما غاب عنا، فلماذا يظل محدوداً.

هذه التساؤلات يمكن الإجابة عنها في مواضع آخر، ليس هذا مجال كشفها، لكن طرح تلك الأسئلة كان مهماً في نظرنا؛ لأنه سيمهد الطريق للتعرف على ضرورة بحث موضوع كهذا، سواء أكان ذلك على مستوى الأدب القديم، أم الحديث، وسواء أكان ذلك على صعيد الشعر، أم على صعيد النثر. ومع ذلك فعلينا أن نتخفف قليلاً في حكمنا وأن نقول: إن من أهم الأسباب التي بعّدت بين أدب رمضان ونقده هو أن هذا الأدب كان لا يرد مخصوصاً لذاته في أكثر الأحيان وإنما يأتي عارضاً أو في سياق عام، وهو ما يجعل الناقد يتناوله ضمن أغراضه السياقية الأهم، أو توجّس الأدباء من الخوض في غمار الدين كونه من الثالوث المحرم، ومجانبة الرمي بتهمة الإيديولوجيا التي تقوده إلى شعاب يصعب الخروج منها. ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود نصوص إبداعية مستقلة تناولت رمضان في الشعر والنثر، وظلت بحاجة إلى تكثيف النقد من حولها.

إذن لا بد من تركيز الاهتمام على ثنائية الأدب والنقد في تناول رمضان؛ لأنه هذه الثنائيات هي التي سوف تفتح الباب مشرعاً على كثير من الغايات والجماليات، ولا بد أيضاً من وجود فلسفة إبداعية في هذا الصدد، أو ما يسميه الغربيون (الذِيَالْكِيَتِيك) أي المذهب الجدلي الذي يقوم على تجاذب بين قطبين، أو نقطتين مختلفتين، أو على غرار ثنائيات: الخفاء والتجلي، والحضور والغياب، والتذكر والنسيان، والسواد والبياض، والحياة والموت، والبقاء والرحيل، ونحوها من الثنائيات.

ولأن الحديث عن الأدب في رمضان أكثر ما يكون تناولاً في الشعر دون النثر، وفي القديم منه دون الحديث؛ فإننا سنبتعد عن الشعر قديمه وحديثه، كما سنأى عن النثر القديم، ونحاول تلمس رمضان في النثر الحديث، وتحديدًا في الرواية دون غيرها، متطعين إلى مقارنة هذه الفكرة من زاوية نقدية جديدة، وهي النقد الثقافي؛ لذلك سنحاول التطبيق على أبرز النماذج التي لاحت لنا متأثرة بهذا الشهر الفضيل، وسنتبع ذلك من خلال الأنساق المضمرة التي يكشفها تعامل الروائيين مع بدايات رمضان، ونهاياته، وبعض مظاهره ومتعلقاته، ومعلوم أن الأنساق المضمرة كما يقول د. عبد الله الغدامي: "ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه، وصيغته، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي، وما هو كذلك سواء بسواء، من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أفقعة البلاغي الجمالي"¹.

¹ النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغدامي، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة،

أولاً - الأنساق المضمرة لدى الروائيين في استقبال رمضان:

حين نطالع بعض الروايات العربية نجد حضور الشهر الكريم فيها متفاوتاً بين الاحتفاء به، والابتهاج بمقدمه، أو انتظاره والشوق إليه، أو الاستعداد له، والتغني به، وهي مظاهر تكشف عن جماليات متنوعة، لكنها قد تخفي وراءها شيئاً من الأنساق المضمرة التي تستتر وراء الجماليات، ففي رواية (خان الخليلي) لنجيب محفوظ يطالعنا نص استقبالي بامتياز، وذلك في مطالع الفصول الأولى من الرواية، حيث يقول: "واقترب رمضان، فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل، ولكن رمضان لا يأتي على غرة أبداً، وتسبقة عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك، وكانت في الواقع المسؤولة الأولى عن جلال الشهر وجماله، فجعلت منه يوماً حديث الأسرة قائلاً: إنه شهر له حقوقه كما له واجباته، وكان قولها موجهاً لأحمد فأدرك مغزاه، وقال مدافعاً عن نفسه: رمضان له حقوقه ما في ذلك من شك.."¹.

كما يكشف أيضاً عن نسق اجتماعي متأصل في الشخصية العربية، يتمثل بمركزية المرأة في بيتها، ومسؤوليتها نحو استقراره وبهجته، لا سيما في شهر رمضان، وطقوسه المختلفة عن غيره، "فالأم"، لا تعطل شيئاً من لوازمه، وتستقبله بفرح غامر يفوح عبيره على الأسرة بأكملها، فتتظهر وكأنها تجدد عهدها بالحياة، وترمم علاقتها بالأيام.

وإذا ما نظرنا إلى الإطار الأقصى في هذه الصورة نجد أن النسق الظاهر هنا يتمركز حول إسناد المهام الكاملة للأم ومسؤوليتها الكلية عن سعادة العائلة، وكأنها وظيفة أنيطت بها وحدها، غير قابلة للمشاركة والتجزئة، وهذه مشاهدات حية نراها في كثير من مجتمعاتنا العربية التي توطر بالمرأة بهذا الدور، وتحفظ بتلك الصورة منذ أزمان عديدة.

فالنسق الثقافي إذاً حاضر في ذهن الروائي، يستمد من واقعه، ويتلقفه من محيطه الاجتماعي، فينسب بنصه الأدبي بوعي منه أو دون وعي، ولكنّه بالطبع إضافة نوعية للنص، تضيف عليه تشويقاً وجاذبية تجعل القارئ يتفاعل معه، كأنما يعيش هو الأحداث.

وتتجلى الأنساق المضمرة في هذا المقطع في النظر إلى هذا الشهر نظرة عادية كغيره من الشهور، وقد صرح الكاتب بعد هذا المقطع حين قال: "فقالَت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح: لا قطع الله لنا من عادة، فاستيقظ بخله وقال بشيء من الحدة: ليمض رمضان كما مضى غيره من الشهور.."².

¹ خان الخليلي، نجيب محفوظ، ط/2، دار الشروق، القاهرة - مصر، 2007م، ص 75 - 76.

² خان الخليلي، نجيب محفوظ، ص 76.

ويُكشف مثل هذا النسق من خلال الدلالة الضمنية للجملة الثقافية، فالنسق هو دلالة مضمرة، وكما يقول د. عبد الله الغدامي: "منكبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كُتّاب وقراء، والنسق هنا ذو طبيعة سردية يتحرك في حبكة متقنة؛ ولذا فهو خفي ومضمر، وقادر على الاختفاء دائماً"¹.

وحين نطالع رواية (سيرة حمى) لخالد اليوسف، وهي من الروايات الحديثة الصدور، في زمن جائحة كورونا، نجده يخفي بعض الأنساق المضمرة في هذه العبارة، حيث يقول: "حدثنا أنه حل عليهم شهر رمضان في السنة الأولى بعد الأربعين والأربعمائة والألف للهجرة النبوية، والخلق في حظر، والخروج من بيوتهم خطر؛ لهذا مُنع التجوال منذ ثلاثين ليلة خلت من شهر شعبان، وقبله عشرون ليلة من شهر رجب المحرم، الذي انتشر فيه الوباء، وأجمع الخلق على أنها الحمى الصينية .."². فاستهلال الكاتب بشهر رمضان لم يكن استهلالاً جمالياً، وإنما كان يخفي خلفه مزيداً من الانزعاج الذي خلّفته جائحة كورونا، وما فيه من حظر، وخطر، وفي دلالة الأيام وطولها، وإجماع الناس عليها. وإذا ما توسّعنا بالبحث أكثر، فقد يصحّ القول بأن ثمة نسقاً سياسياً يخفيه النص خلفه، يتمثل بثنائية الشعب والسلطة، يظهر ذلك من خلال قوله "الخلق في حظر مُنع التجوال..."، ولعلّ هذه الثنائية تكشف عن النسق السياسي العربي وتمثّلته في مثل تلك المواقف، فصحيح أنّ العالم كلّهُ قد حُظر - والعالم العربي جزء منه - غير أنّ الإجراءات السياسيةّة العربيّة بمثل هذه المواقف معروفة منذ القدم، ولها في تاريخنا العربي أمثلة، يستحضر منها ذهن طاعون عمواس المشهور. أمّا الإشارة إلى المنع والحظر فتحمل في طيّاتها إلماحات إلى طقوس الشهر وبهجته، كانت قد أخدمتها تلك الإجراءات، وأطفأت شموع بريقتها.

ومن هنا يمكن القول أنّ النسق السياسي حاضر في ذهن الكاتب، يؤرّخ من خلاله لمدة زمنيّة بالغة الصعوبة في حياة العالم، تدلّ عليها مفردات وتراكيب عدّة في النص مثل "أجمع الخلق، مُنع التجوال، الحمى الصينية"، وهي مفردات ربما تكشف عن نسقٍ آخر هو النسق النفسي، وما يخفيه داخل الإنسان من استياء وألم؛ إثر المنع طيلة الشهر الفضيل، والحرمان من نسّماته وعوالمه. هذه الأنساق الثقافية المطمورة في السرد، تؤكد أنّ الكاتب رهين بيئته وأيديولوجيته مهما حاول التنكر لذلك والتبرؤ منه، تتكاثر عليه من سياقه الخارجي، لتبعث داخل نصه الإبداعي مشكلة هذه الأنساق الخفية التي يربط بينها انسجام فني محكم، لا تصدّع فيه.

¹ النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 79.

² سيرة حمى، خالد أحمد اليوسف، ط1، مركز الأديب العربي للنشر والتوزيع، النمام، 1442هـ/2021م، ص 115 - 116.

وتقول رجاء الصانع في روايتها الشهيرة (بنات الرياض): "اسمحوا لي أن أنتشلكم من أحرانكم بعد إيميلي السابق؛ لأبارك لكم هذا الأسبوع بمناسبة قرب حلول شهر رمضان المبارك، أعاده الله علينا وعلى المسلمين كافة، وأعاننا على صيامه وقيامه، أعتذر لكم عن إرسال الرسائل خلال هذا الشهر، وأعدكم بمتابعة قصص صديقاتي بعد انقضاء الشهر الفضيل، أعترف لكم مسبقاً بأنني سأشتاق إليكم، سأعود محمّلة برسائل خطيرة بعد رمضان بإذن الله، فانتظروني"¹.

فخلف هذا النص الذي يستقبل رمضان تستتر جملة من الأنساق المضمرّة التي لم يفصح عنها، وهي أنساق دلّت عليه أمارات استقبال الشهر الفضيل، فهو شهر عبادة، يتفرّغ الإنسان فيه لبذل المزيد من الطاعات، بعيداً عن ملهيات الدنيا؛ ولهذا نجد في النص اعتذاراً عن الاستمرار في إرسال الرسائل في هذا الشهر، وإرجائها إلى ما بعد انقضائه، بل إننا نقترّب أكثر من وجود تلك الأنساق المضمرّة حينما نتأمل جيداً في الاعتراف بالاشتياق، والتصريح بأن هناك رسائل ليس هذا وقت عرضها ونشرها، وبهذا تتجلى "حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي والحس النقدي"².

وخلف هذه الصورة النموذجية يقبع نسق سلوكي، يرمّله النص بلامح وديّة جميلة، غير أننا أمام شخصية يعلو فيها نسق الأنا على الآخر، فتبدو وكأنها الأفضل، وصاحبة المثل والأخلاق والآخر هو الضعيف المذنب، يُستشف هذا النسق من القول "أعدكم بمتابعة قصص صديقاتي... سأعود محمّلة برسائل خطيرة بعد رمضان"، فالسياق إذن يضمّر رؤية رافضةً للواقع، تحاول تعرية مستوره، ورصد عوراته عبر تتبع قصص الصديقات وفضحها، فتبدو الشخصية كما لو أنها تتبنّى إصلاح الآخر والبوح باسمه ونقل تجاربه، تسير في المجتمع ناقدة مصلحة، تسبر جواه، وتسرد سلبيّته فيما هي لا شوائب فيها، ولا يشملها الأمر.

وعليه، فالنص كأنّه يأخذنا إلى نسق فكري هو "الأنا والآخر" حاول الكاتب توظيفه لدعم رؤية النص، والنهوض بها غير أنّه يخفي من زاوية أخرى ما يعترّي الأنا من اعتداد بنفسها، وتميّزها عن الآخر أو السياق الجمعي الذي تعيش فيه، ولهذا فإن بعض الأحايين قد تكون "الدلالة الضمنيّة الجماليّة، هي التي تمرّر وتعرّز الدلالة المضمرّة (النسقيّة) أو فعل النسق المدمّر. فالفخر مثلاً مدح للذات، ولكنّه يمرّر تحقير الآخر، وكذا الهجاء (عيوب الآخر) يمرّر مدح الذات"³.

¹ بنات الرياض، رجاء عبد الله الصانع، ط7، دار الساقي، بيروت - لبنان، 2007م، ص 222.

² النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغدامي، ص 87.

³ عزيز ماضي، شكري (2020). مناهج النقد الأدبي مقدمات. نصوص. تطبيقات، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص 301.

كما يمكن الكشف عن نسق ثقافي آخر، يتجلى بنمط سلوكي وممارسات أخلاقية يُظهرها الفرد والجماعة في شهر رمضان المبارك، تتمثل بعجز الأشخاص وإخفاقهم روحياً في معالجة دواخلهم، وإلقاء برائن النفس الأمارة بالسوء، يظهر هذا النسق من القول "أبارك لكم هذا الأسبوع بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك... وأعدكم بمتابعة قصص صديقاتي بعد انقضاء الشهر الفضيل" فإذا ثمة نية سابقة لاستكمال المنطوق الجاف، ووضعه هدفاً مؤقتاً لنهاية الشهر المبارك، وهو نمط سلوكي نراه في حياتنا اليومية، ومعاشتنا الواقع بكل أحواله، وإلا فالأصل أن يخرج المرء منه بروح مختلفة، ويستقبله كذلك بنفس خالية مشرقة، يخبو فيها شعاع الغل والسوء، ويرتفع وهج الألفة والصفاء إلا أن ما نلاحظه هنا تأثر الكاتبة بمحيطها ومجتمعها، واستقاء فكرها ومعتقداتها منه، حيث تبدو الدلالة الظاهرة جمالية حسنة، وفيها من الاحترام للشهر، ولكن الدلالة المضمرّة على النقيض تماماً من ذلك، فالتغيّر الروحي المنشود في هذا الشهر، نراه يذهب أدراج الرياح.

ثانياً - الأنساق المضمرّة لدى الروائيين في بعض مظاهر رمضان ومتعلقاته:

ونعني بذلك كل ما يرتبط برمضان في غير استقباله، أو توديعه، كأن يشار إلى أحد أيامه، وأهم مظاهره وهو الإفطار، على نحو ما نجده عند إحسان عبد القدوس في روايته (في بيتنا رجل) حيث افتتح الرواية قائلاً: "أحد أيام شهر رمضان، والساعة الخامسة مساءً قبل الإفطار بساعة ونصف، وكان راقداً في فراشه بإحدى غرف مستشفى القصر العيني .."¹.

ويتناول الروائيون عادة الإفطار بوصفه أهم مرتكزات رمضان؛ إذ من خلاله تتجلى ثنائية الصوم والفطر، والإمساك وعدمه، وقد صورت رواية (في بيتنا رجل) كيف كانت سفرة الإفطار في البيئة المصرية في أدق تفاصيلها، ومن خلال ذلك نلاحظ كيف يشتغل الكاتب على نسق التفاصيل الصغيرة لسفرة إفطار عادية، وهنا ندرك أنه ليس شرطاً أن يكشف النقد الثقافي عن القبحيات، أو المحظورات، أو المسكوت عنه؛ إذ قد نجد فيه عكس ذلك، حين يكشف لنا طبيعة الحياة، ويصورها في عرض منته الروائي، وكأنها يمر بها مروراً سريعاً، يقول مثلاً: "كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الإفطار في حجرة (القُعد) والراديو يلقي إليهم أغانيه، كان الأب في جلبابه الأبيض الفضفاض، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التي لا يخلعها إلا ليضع مكانها الطربوش، وقد جلي على الأريكة .. وأمامه مائدة صغيرة، عليها كوب شاي فارغ.. وكانت الام الطيبة مكتنزة، وبين شفيتها ابتسامة هادئة

¹ في بيتنا رجل، إحسان عبد القدوس، د. ط، دار أخبار اليوم، القاهرة، د.ت، ص 7.

كأنها قطعة من فمها، جالسة على الطرف الآخر من الأريكة، وبجانبها علبة الخياطة، وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها¹.

ويمكن أن نلمس بعض الأنساق الأخرى التي يريد أن يلامسها الكاتب في روايته هذه، كالاستماع إلى ما يشدو به الراديو بعد نهار مفعم بالعبادة، والروحانية، وكذلك جلوس الأب في جلبابه الأبيض الفضفاض، وطاقيته التي تومئ إلى خلوده للراحة بعد يوم حارٍ من الجهد والنشاط، وآثار الصيام. وهي صورة تبدو ودية لطيفة، غير أن نسقاً ثقافياً اجتماعياً يدور في باطنها، يتمثل بنمطية الصورة للأسرة العربية وتقليديتها، فالأم تبدو بصورة ربة المنزل، وهي طيبة ما دامت ناهضة بأعباء البيت وتديره. والأب رجل تقليدي يبدو من هيئته وملابسه في حالة صمت مع الراديو والشاي، يخلد للراحة والنوم بعد ساعات الإفطار القليلة، إذ لا حوارات بينهما، ولا نقاشات، كلٌّ في شأن يغنيه، ولا من مبادر لفتح جلسة عائلية تشعلها الأحاديث والحوارات أو الأنشطة الرمضانية التي تحي الروحانية في الأسرة وتوثق العلاقة أكثر، وهذه "إشارة ضمنية صادرة عن عالم الفن، مفادها أن أزمة الإنسان/الحياة ليست مقصورة على طرف بعينه، وليست في الوقت ذاته نتاج طرف واحد دون الآخر ومن ثم فإن هذا المصير السلبي هو ناتج درامي أو بلغة علم السرد شخصية فنية تأتي في الظهور تالية بعد حزمة من الأفعال يقوم بأدائها عدد من شخصيات الحكى التي تسبقها في الظهور"².

ويمكن أن نجد في أحد فصول الرواية مثلاً إشارة إلى ظاهرة تظير الصائمين، وهي ظاهرة يكتنفها نسقان: الكرم، والأجر، يقول مثلاً: "وأطلت نوال من الباب، لم يعد باقياً على موعد الإفطار سوى نصف ساعة، وقالت وهي تتحرك في الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب: بابا بيقول لكم اتفضلوا في أودة القُعاد (...) كان إفطاراً صامتاً حزيناً (...) وكان إفطاراً سريعاً .."³.

وهي ظاهرة يكتنفها نسقان: ديني واجتماعي يتمثلان بالكرم وطلب الأجر، يبرزهما السرد الروائي عبر لغة محكية، تلقي على النص جمالية وحيوية، وتوهم بواقعيته التي تشوق القارئ، الأمر الذي يدعم بناء النص ويرفع فنيته، وإن كان يطفو على السطح نسق آخر نفسي تفسره عبارة "كان إفطاراً صامتاً حزيناً .. سريعاً" مما يشي بعلاقة مشوبة بين الأفراد، فظاهر السرد هو إفطار جماعي مبارك، ولكن عبارات كهذه تلمح إلى علاقة متناقضة، تشكل شخراً نفسياً بين أفراد الجماعة، وفضاءً مزدحماً

¹ في بيتنا رجل، إحسان عبد القدوس، ص 32.

² يحيى علي، أحمد (2020)، المبدع ورؤية العالم في الخطاب الروائي، ط1، دار راشد للنشر، الفجيرة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ص 175.

³ نفسه، ص 76، 145.

بالصمت والحزن، ولا ندري إن كان هذا مؤشراً على توتر العلاقة الجمعية ومستوى الواقع المعيش بما فيه من مشاحنات مترسّخة، أبت المفارقة حتى في شهر التسامح. ويبدو أنّ هذه المشاهدات الاجتماعية حاضرة بذهن الروائي ووعيه؛ لذا ألقت بظلالها على النص، وشكلت إفرازاتها جزءاً من تكوينه وبنائه سواء بقصد أو دون ذلك.

وإذا عدنا إلى نجيب محفوظ فإننا نجد في روايته (عصر الحب) حضوراً لرمضان ومتعلقاته، فمن ذلك إشارته إلى (مدفع الإفطار) في قوله: "ولم يبق على مدفع الإفطار إلا قليل، وعين تطعم القطط بيدها، وتؤلف بينها وبين ساعات الطعام، وساعات المؤانسة"¹، ويقول في الرواية ذاتها في مقطع آخر: "عقب الأذان غيّرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر، ثم نهضت لتصلي المغرب، على حين جلست أم سيدة إلى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهي تتمتم (لا حياء في الجوع) .. ومضى الإفطار في المضع تتخلله كلمات عابرة..²

ولعلّ هذه العبارة "لا حياء في الجوع" قد تنطوي على نسق خفيّ قد يكون الأنا والآخر، فعدم الحياء من الآخر كأنما هو إلغاء لوجوده، وعدم اكتراث له، وإن لم يكن ذلك بالمعنى السلبي، أو من جانب آخر أنّ حبّ الذات لنفسها يذوب أمامه الاكتراث للآخر والتفكير به، لا سيّما إذا ربطنا ذلك بالمعنى المعجمي لعنبة النص "عصر الحب" أو سياق الرواية العام الذي تظهر فيه شخصية "أم سيدة"، امرأة تبدو في ظاهرها خادمة لشخصية "عين" وناقلة لها الأخبار، ولكنها تحاول خفية أن تزوّج ابنها من عزّت الثري ابن السيدة عين.

ولو تساءلنا: ما علاقة ذلك برمضان؟ لقلنا أنّ الذات قد ترتدّ إلى نفسها بكلّ حين ووقت، لا تعترف في الغالب بلحظة تتهدّب فيها من أناها العليا أو تتخلّى عنها، وإن كان شهر التطهير والخشوع، إلّا ما ندر، وهذا نسق متجدّر بالذات الإنسانية منذ الخليقة الأولى، ومتراكم بالوعي الفردي والجماعي، تؤكّده الرواية عبر شخصياتها ومسار أحداثها، وحتى زمانها وبقعة المكان التي تشكّل مسرح الأحداث. ويشير في الرواية إلى (ليلة القدر) فيقول: "إنه في ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة ساحبة بيدها صغيرتها إحسان ذات الأربعة أعوام، وعندما جلستا في (الفراندة) عقب الإفطار قالت لها عين برجاء: تجنّبي ما يسبب لي الكدر..³

¹ عصر الحب، نجيب محفوظ، د. ط، مكتبة مصر، د.ت، ص 16.

² نفسه، ص 19.

³ نفسه، ص 24 - 25.

ويمكن أن نلمح في هذه المقاطع أنساقاً متعددة تتوارى خلف هذه المظاهر الرمضانية، لعل منها مثلاً: الهدوء، والراحة، والأكل، والشرب، والتفرغ للعبادة، وإن كنا قد نجد أنساقاً مضادة، وذلك بعد حديثه عن ليلة القدر حيث ألمح إلى تشاؤم بعض الشخصيات، وتعثّر حظها. أو الكشف عن نسق غزا الشخصية، ونفث سموه في المجتمع، فحيد الشهر الفضيل عن مقصدة عند جمع من الناس، إذ أمسى شهر سهرات ولهو بما فيه ليلة القدر "إنه في ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة" وهذا يضعنا أمام ثغرة ثقافية نستشفها من السرد، وإن ذكرت عارضة، أو لسياق معين.

وإذا انتقلنا إلى روايات أخرى فإننا نجد حضور ما يرتبط برمضان فيها جلياً، كالصوم مثلاً الذي يستعمله بعض الروائيين استعمال الشاهد، فمن ذلك مثلاً ما جاء في رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطبيب صالح الذي ظهر في توظيفه لشهر الصوم نسق التعب والضنى، يقول مثلاً: "أذكرها؛ لأنني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهر صوم قانظ"¹. وما هذا التشبيه الذي هطل على ذهن الكاتب دون غيره، وانقته ذائقته بقناعة إلا أيديولوجيته التي تملي عليه بهوء دون أن تشعره بسطوتها.

ثالثاً - الأنساق المضمرة لدى الروائيين في مآلات رمضان ونهاياته:

وجدنا في رواية (رقص) لمعجب الزهراني ما يشير إلى أواخر شهر رمضان حيث يقول: "اشتد عليه المرض فأركبوه في باخرة عادت به إلى هنا، وكم سعدت وهو ينتخبني لمرافقته، غادرت سايجون برفقة زوجتي، وبقينا أصدقاء إلى أن انتقل إلى رحمة ربه في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك عام 1969 وهو حول الثمانين"².

ففي هذا النص يوظف الكاتب نهاية شهر رمضان في مقابل بداية حياة جديدة لإحدى الشخصيات المهمة في الرواية، فجعل من نهاية الشهر، ووفاة تلك الشخصية بداية لعهد جديد مع زوجته، وهذا ما يؤكد عليه النقد الثقافي من كون المضمّر نقيضاً ومضاداً للعلني³.

وتنحو أكثر الروايات العربية في توظيف نهايات شهر رمضان إلى ما بعده، وهو العيد، رمز السعادة والابتهاج، وفي ذلك نسق فرائحي يسلك مسلكين: الفرج بعد الشدة، والفرح بالتمام والكمال، ويمكن أن ننثر بعض المقاطع الروائية من قبيل ما جاء في رواية (فوضى الحواس) لأحلام مستغانمي، حيث نجد هذا النص: "كنت أتمنى لو قضيت هذا اليوم معي، لا أفهم لماذا لا بد أن تقضي كل الأيام في

¹ موسم الهجرة إلى الشمال، الطبيب صالح، ط/13، دار العودة، بيروت، 1981م، ص 162.

² رقص، معجب الزهراني، ط/1، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن، 2010م، ص 232.

³ النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله محمد الغدامي، ص 78.

مكتبك، حتى الأعياد .. كنت أقصد أننا لم نعد نلتقي أبداً، حتى العطل والأعياد أصبحنا نقضيها كل على حدة"¹.

ويرد كثير من الروائيين بيت المتنبى الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد / بما مضى أم لأمر فيك تجدي

يقدم لنا هذا النصّ نسقاً مضمراً ربما يكون مفاده سطوة الحياة المادية، وهيمنتها على حياة الفرد، وهذا ما يقدمه الكاتب من خلال الحوار والمكان المغلق (المكتب) وعزلة الفرد وانفصاله عن الآخر، وكذلك عبر عنصر الزمان ودلالته (كلّ الأيام، حتى العطل والأعياد) والنص بهذه الصورة الرمادية- المنسجمة عناصرها أدبياً- يضمّر أبعاداً اجتماعية ونفسية خطيرة تحتاج إلى تصويب ونظر. يقول منذر القباني في روايته (عودة الغائب) مورداً هذا البيت: "ثلاثة أعياد قد مضت، ومع مرور كل عيد يتلاشى الأمل في العثور على دلال، أو ما تبقى منها.. كانت هدية العيد بالنسبة لجمال هذا العام مختلفة عن كل سابقتها في الأعوام الماضية، كانت هدية العيد هذا العام بالنسبة له، هي حياة جديدة في بلاد الأحلام"².

الخاتمة

أصل معكم إلى نهاية هذه الورقة المتواضعة التي أرجو أن تكون فاتحة لبعض النواذ النقدية، والثقافية، والحق أنني أكرر اعترافي بصعوبة الخوض في هذا العنوان من زاويتي: الأدبية، والنقدية، ولكننا حاولنا الوقوف عند بعض النماذج، فوجدناها ملأى بالأنساق الثقافية القائمة، يوقظها القارئ بعد تأمل وتأويل، وهي في معظمها تنتمي للنسقين الاجتماعي والديني، ونزر يسير من السياسي والنقسي، تظهر في النص الروائي وفق رؤية الكاتب أو راغمة، يفرضها اللاوعي ونسقه الثقافي الذي كان هو أصلاً صناعته وموجهه.

ونقول أيضاً إننا نأنس بالرأي القائل باتحاد النقد الأدبي مع الثقافي، فصحيح أنّ جمال الأدبي يخفي أحياناً قبح الأنساق وبشاعتها، غير أنّ العين المتفحصة يمكنها اصطيد الأنساق المتخفية والمنطبعة في ذهن الكاتب، وبالتالي فإنها قد تجعل النقد الأدبي مسانداً للنقد الثقافي، تماماً كما مرّ بنا في نموذج توظيف العميّة الذي ساندنا في استخراج النسق الثقافي، وغيره من الأمثلة الوافرة في النص.

¹ فوضى الحواس، أحلام مستغانمي، ط/4، نوفل، بيروت، 2015م، ص 176.

² عودة الغائب، منذر القباني، ط/5، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، 1433هـ/2013م، ص 28 - 29.

قائمة المراجع

- الزهراني، معجب (2010)، رقص، ط/1، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن.
- الصانع، رجاء عبد الله (2007)، بنات الرياض، ط/7، دار الساقى، بيروت-لبنان.
- صالح، الطيّب (1981)، موسم الهجرة إلى الشمال، ط/13، دار العودة، بيروت-لبنان.
- عبد القدوس، إحسان. في بيتنا رجل، د. ط، مكتبة مصر، د.ت.
- عزيز ماضي، شكري (2020)، مناهج النقد الأدبي مقدمات. نصوص. تطبيقات، ط/1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان.
- الغدامي، عبد الله محمد (2010)، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط/1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة-مصر.
- القباني، منذر (1433/2013هـ)، عودة الغائب، ط/5، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-لبنان.
- محفوظ، نجيب (2007)، خان الخليلى، ط/2، دار الشروق، القاهرة-مصر.
- محفوظ، نجيب. عصر الحب، د. ط، مكتبة مصر-القاهرة-مصر.
- مستغامي، أحلام (2015)، فوضى الحواس، ط/4، نوفل، بيروت، لبنان.
- اليوسف، خالد أحمد (1442هـ/2021)، سيرة حمى، ط/1، مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، الدمام-السعودية.
- يحيى علي، أحمد (2020)، المبدع ورؤية العالم في الخطاب الروائي، ط/1، دار راشد للنشر، الفجيرة-دولة الإمارات العربية المتحدة.

خروج الاستفهام بالهمزة على خلاف مقتضى الظاهر وأثره في بناء الدلالة السياقية (شعر الأعمى التطيلي أنموذجاً)

The exit of the interrogative in the hamza, contrary to the apparent requirement, and its impact on building the contextual indication (The Poetry of the al'aemaa altatiliias a Model)

نوف سالم الشمري
أستاذ البلاغة والنقد المشارك
كلية الآداب والفنون
جامعة حائل

الملخص:

يعد الاستفهام من أبرز موضوعات الإنشاء الطلبي في البلاغة العربية، وتشكل استخداماته في شعر التطيلي ظاهرة أسلوبية تستدعي الدراسة؛ حيث تتعدد أشكال الانزياح فيه. وقد جاءت هذه الدراسة لإبراز الصور التشكيلية التي من خلالها تم استخدام هذا النوع من الإنشاء وتحليلها للوقوف على أبرز معالمها البنائية التي تبرز فيها المستويات الحقيقية، ومستويات الانحراف والتجوز، ومن ثم محاولة قراءة هذا التنوع الأسلوبي في إطار جماليات التراكيب البلاغية، وقد تبين من خلال الدرس مدى مطاوعة النصوص في بناءاتها اللغوية للأغراض التي سبقت من أجلها، والتي تبرز في النهاية الدلالات السياقية المرادة وتتحكم في إنتاجها. وقد انطلقت هذه الدراسة في تحليل هذه الظاهرة الأسلوبية وفق المنهج الوصفي التحليلي الإحصائي مقتصرة على الاستفهام المعبر عنه بحرف الهمزة فقط؛ وذلك لكثرة التنوع في استخدامها ولاشتمالها على مفهومي التصور والتصديق.

الكلمات المفتاحية: (الأعمى التطيلي، مقتضى الظاهر، الإنشاء الطلبي، الاستفهام، الأسرار البلاغية).

Summary

The interrogative is one of the most prominent topics of demand composition in Arabic rhetoric, and its uses in Al-Tatili poetry constitute a stylistic phenomenon that calls for study. There are many forms of displacement.

This study came to highlight the forms through which this type of phraseology was used and analyzed to find out the most prominent structural features which reveals it's real levels and levels of deviation and sufferance. And then try to read this diverse stylistic within the framework of the aesthetics of rhetorical structures.

During the research it appeared the spread flexibility of texts in its linguistic constructions for which it was conceived, which ultimately highlights the desired contextual connotations and controls their creation.

This study headed to analyze this stylistic phenomenon according to the descriptive analytical and statistical approach, limited to the interrogation expressed by the letter Hamza only. This is due to the wide variety in its use and its inclusion of the concepts of perception and ratification.

Keywords: (Al Aama Al Tatili, Muktaza Al Zahir, Al-Insha Al-Talabi, Al-Istifham, Al-Asrar Al-Balagiyah)

المقدمة

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

فتتناول هذه الدراسة ديوان التطيلى بشقه المتضمن الشعر العمودي القائم على التفعيلة والبحر، بشيء من التحليل والوصف في إطار استخدام أساليب الاستفهام أحد موضوعات الإنشاء الطلبيّة، وكيفيات توظيفها في النصوص الشعرية للوصول إلى الدلالات السياقية، وتحاول استتطاق هذه الأساليب المتعددة المتنوعة لمعرفة مدى مواءمتها للاستخدام العربي العام من جهة، وخصوصية هذه الاستخدامات من قبل الشاعر، والبحث من جهة أخرى عما فيها من أسرار بلاغية كاملة في ضوء تحليل النصوص، كما تتطرق هذه الدراسة إلى معرفة عدد مرات الاستخدام في شعره لهذه الأساليب وفق المنهج الإحصائي. وقد خصصت الدراسة حرف الهمزة من بين أدوات الاستفهام لتكون مدارا للبحث، وسبب الاختيار يكمن في كون الهمزة هي أم الباب في الاستفهام، كما أنها تشمل نوعي الاستفهام التصوري والتصديقي، بخلاف بقية أدوات الاستفهام المخصصة للتصديق فقط كما هو الحال في حرف الاستفهام (هل)، أو للتصور كما هو الحال في بقية أسماء الاستفهام. ثم إن ورود همزة الاستفهام بكثرة في الديوان تستدعي النظر والدراسة باعتبارها ظاهرة أسلوبية متميزة فيه، على خلاف بقية أدوات الاستفهام.

إن اعتماد منهج الدراسة على استخراج الصيغ الاستفهامية واستعمالاتها وسياقاتها المختلفة ثم نقلها من حالة التجريد والتصور النظري إلى حالة التطبيق في المجال العملي كما يصوره المتكلم ويستوعبه المتلقي في طريق معينة يعد من الدراسات التداولية للاستفهام الذي يتطلب دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ بالصيغة من مضامين ومدلولات.

إن دراسة الاستفهام بالهمزة كسمة أسلوبية وتحديد وظيفتها في النص ودلالاتها الكاشفة عن روح السياق يعد من المباحث البلاغية الحديثة التي تعين على إبراز الذوق الشخصي الخاص للمبدع بعد تقييم الكلام وتحليله.

التمهيد:

من المعلوم أن الكلام العربي ينقسم إلى أصليين عظيمين هما الخبر والإنشاء، والخبر كما جاء في معجم (لسان العرب) تحت مادة (خبر) العلم بالشيء، يقال: خبرت بالأمر أي علمته، وخبرت الأمر أخبر إذا عرفته على حقيقته، والخبر: النبأ.⁽¹⁾

وفي الصحابي لابن فارس يقول عن الخبر: "...إنه إعلام، تقول: أخبرته أخبره، والخبر هو العلم. وينقل عن أهل النظر قولهم: أن الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه وهو إفادة المخاطب أمراً في ماض من الزمان أو مستقبل أو دائم".⁽²⁾

وفي كتاب الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح للخطيب القزويني قال: إن الخبر عند الجمهور ينحصر في الصادق والكاذب وصدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقته حكم؛ فالخبر إذن كما هو عند الجمهور: ما يحتمل الصدق أو الكذب باعتبار الواقع"⁽³⁾

وتتخصص أغراض الخبر في:

أولاً: إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الخبر ويسمى فائدة الخبر.

ثانياً: إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالخبر، ويسمى لازم فائدة الخبر.

(1) - ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، (ت: 711هـ-1311م)، معجم لسان العرب المطبعة الأميرية، مصر - القاهرة، (مادة خبر)

(2) - ابن فارس، أحمد بن زكريا، (ت: 395هـ)، الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: أحمد حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1418هـ-1907م، ص 179.

(3) - القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت: 682هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق وتعليق: لجنة من أساتذة اللغة العربية بالجامع الأزهر، القاهرة: السنة المحمدية، ص 13.

ثالثاً: وقد يفيد أغراضاً أخرى تفهم من السياقات⁽¹⁾. كالاسترحام، وإظهار الضعف،... إلخ. وينظر إلى الخبر عند البلاغيين ويدرس أيضاً من جهة كونه مؤكداً أو غير مؤكد، فإذا كان الخبر خالياً من التأكيد يسمى بالضرب الابتدائي حيث يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه، وإذا كان المخاطب متردداً فيه فهو الضرب الطلبي، قال السكاكي: "وإذا ألقاها إلى طالب لها متحيراً طرفاً عنده دون الاستناد فهو منه بين بين لينفذ من ورطة الحيرة استحسن تقوية المنفذ بإدخال (اللام) في الجملة أو (إنَّ)"⁽²⁾

"أما الضرب الثالث فهو الإنكاري، وهو الخبر الذي ينكره المخاطب إنكاراً يحتاج إلى أن تؤكد لأكثر من مؤكد..."⁽³⁾

وصنو الخبر الإنشاء: وهو الكلام الذي لا يحتمل الصدق أو الكذب. وينقسم إلى قسمين: الإنشاء الطلبي، والإنشاء غير الطلبي، فالطلبى يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل⁽⁴⁾ وأنواعه: الأمر، النهي، الاستفهام والتمني والنداء. وأما غير الطلبى فهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، ومن أنواعه: الترجي، التعجب، وصيغ المدح والذم... إلخ. وقد نص البلاغيون على أن هذا النوع من الإنشاء (غير الطلبى) تقل فيه الأسرار البلاغية، فلا يدخل عندهم في دائرة الاهتمام. يقول مطلوب: "ولا يهتم البلاغيون بهذه الأساليب الإنشائية لقلة الأغراض المتعلقة بها؛ ولأن معظمها أخبار نقلت عن معانيها الأصلية، أما الإنشاء الذي يعنون به فهو الطلبى لما فيه من تقنن في القول"⁽⁵⁾ ويعتمد الانتهاك في أساليب الإنشاء الطلبى والخروج على خلاف مقتضى الظاهر منها على الخصائص الفردية للمتكلم وعلى الفروق الفردية أو الطبقيّة أو البيئية، ومع ذلك فإن القرآن الكريم يعد النبراس الذي تقاس الأساليب في ضوء معانيه باعتباره الأثر اللغوي الخالد الواصل في الاستخدامات إلى أعلى درجات الإعجاز البلاغى، وبهذا يقول أبو العدوس: "لقد تعامل البلاغيون والنقاد والأدباء مع القرآن معاملة جعلت منه ومن قوانينه البلاغية قوانين حياتهم الأدبية ومقاييس للتفاوت في الفروقات الأدبية في مستواها الفنى... لقد اتجهت البلاغة في قوانينها

(1) عباس، فضل حسن، (ت: 2011م)، أساليب البيان، ط2، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2007م، ص 38.

(2) السكاكي، أبو يعقوب بن بكر، (ت: 626هـ-1229م)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية. لبنان-بيروت، ص 81.

(3) مطلوب، أحمد الناصري، (ت: 2018م)، معجم المصطلحات، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، 1996م، ص 479.

(1) - القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 130.

(5) - مطلوب، أحمد الناصري، ص 196.

إلى مثال ثابت فوق الزمان والمكان والبيئة وجعلت لغته مرجعا تستقى منه الأحكام اللسانية العامة ومنها البلاغية...⁽¹⁾

ومن بين أنواع الإنشاء المهمة الاستفهام بصورة المتعددة وأساليبه المتنوعة وهو موضوع الدراسة المنطلقة في تحليل ديوان التطيلي وفق المنهج الوصفي التحليلي والإحصائي باستخراج ما فيه من نكات بلاغية.

أساليب الاستفهام:

الاستفهام هو: "من فهم: الْفَهْمُ: مَعْرِفَتُكَ الشَّيْءَ بِالْقَلْبِ. فَهْمُهُ: عِلْمُهُ; الْأَخِيرَةُ عَنْ سَيِّبَوَيْهِ. وَفَهْمْتُ الشَّيْءَ: عَقَلْتُهُ وَعَزَفْتُهُ. وَاسْتَفْهَمْتُ: سَأَلْتُهُ أَنْ يُفَهِّمَهُ. وَقَدْ اسْتَفْهَمَنِي الشَّيْءُ فَأَفْهَمْتُهُ وَفَهَّمْتُهُ تَفْهِيمًا."⁽²⁾ والاستفهام مصدر استفهم أي طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل.

الاستفهام في المصطلح البلاغي: قال عنه ابن وهب: "ومن الاستفهام ما يكون سؤالاً عما لا تعلمه فيخص باسم الاستفهام."⁽³⁾

والاستفهام والاستخبار بمعنى واحد قال الزركشي: "إن الاستخبار بمعنى الاستفهام."⁽⁴⁾

وعند الإمام عبد القاهر الجرجاني: إن الاستفهام استخبار، قال: "والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك"⁽⁵⁾ وفرق ابن فارس في كتابه الصحابي بين الاستفهام والاستخبار فالاستخبار عنده "طلب خبر ما ليس عند المستخير، وهو الاستفهام، وذكر ناس أن بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق، قالوا: وذلك أن أولى الحاليين الاستخبار؛ لأنك تستخير فتجيب بشيء ربما فهمته وربما لم تفهمه،

(1) - أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية الرؤيا والتطبيق، ط2، دار المسرة للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، 1430هـ- 2010م، ص 62.

(2) - ابن منظور، معجم لسان العرب، (مادة فهم).

(3) - مطلوب، أحمد الناصري، معجم المصطلحات البلاغية، ص 109.

(4) - الزركشي، بدر الدين محمد، (ت: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن. ط2. دار المعرفة، لبنان بيروت، 1972م، ج2، ص 326. وانظر: مطلوب، أحمد الناصري، معجم المصطلحات، ص 70

(5) - الجرجاني، عبد القاهر، (ت: 471هـ)، دلائل الإعجاز، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، مصر- القاهرة، 1396هـ- 1976م، ص 108. وانظر: مطلوب، أحمد الناصري، معجم المصطلحات، ص 70.

فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم، نقول: أفهمني ما قلته لي قالوا: والدليل على ذلك أن الباري جل ثناؤه يوصف بالخبر ولا يوصف بالفهم⁽¹⁾

والاستفهام البلاغي على قسمين: إما أن يكون للتصديق، ويقصد به إدراك النسبة بين المسند والمسند إليه، وإما أن يكون للتصور، ويقصد به إدراك المفرد، وبهذا المعنى يقول السكاكي: "والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكما بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق"⁽²⁾ وقد سار على هذا المذهب الخطيب القزويني في الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح وبقية شرح التلخيص، ومنهم سعد الدين التفتازاني في شرحه.⁽³⁾

تحدث البلاغيون كثيرا عن خروج الاستفهام عن دلالة الطلب إلى دلالات أخرى تفهم من السياقات وهي كثيرة كالتحسر والتوبيخ والأمر... إلخ، وهو ما يعبر عنه بخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لنكات وأغراض بلاغية، وقد تستخدم الأداة المخصوصة في الجملة الاستفهامية وقد تحذف ويتم الاستفهام عن طريق التنعيم من خلال استخدام النغمة الصاعدة... فكل المعاني التي تخرج لها الأساليب الاستفهامية ما هي إلا معان منزاحة عن الأصل".⁽⁴⁾

همزة الاستفهام: الهمزة من حيث الدلالة الصوتية، حرف يخرج من أقصى الحلق، وهو الفراغ الواقع بين الحنجرة والفم وأقصاه مما يلي الصدر حيث مخرج الهمزة والهاء⁽⁵⁾. وتخرج من خلال انقفال الوترين الصوتيين تماما ولا يبقى مجال لمرور ذرة من الصوت فيبدأ الصوت بوترين منقفلين ثم يبتعدان.⁽⁶⁾

(1) - ابن فارس أحمد بن زكريا، الصحابي، ص 81. وانظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت: 911هـ -

1505م)، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م، ج2، ص 79.

(2) - السكاكي، أبو يعقوب بن بكر، ص 146. وانظر: مطلوب، أحمد الناصري، ص 109.

(3) - القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 131. وانظر: التفتازاني، سعد الدين، (ت: 1390م - 792هـ)، مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، دار السرور، لبنان - بيروت، ص 246-248.

(4) - أبو العدوس، يوسف، الأسلوبية الرؤيا والتطبيق، ص 187.

(5) - أنيس، إبراهيم، (ت: 1977م - 1397هـ)، الأصوات اللغوية، ط5، مكتبة الأنجلو، مصر، 1975م، ص 18

(6) - السابق، ص 77

وهي صوت مجهور كما يرى سيبويه.⁽¹⁾ ويرى العلماء المحدثون أن الهمزة تخرج من الحنجرة فهي صوت صامت حنجري⁽²⁾، وتعد الهمزة أم الباب في الاستفهام حيث يستفهم بها عن التصور وعن التصديق فإن كان المستفهم عنه مفردا سمي استفهام تصور، وإن كان المستفهم عنه الحكم سمي تصديقا، وإذا كانت الهمزة للتصور فإنه يليها المسؤول عنه، وأن يذكر بعدها المعادل للمستفهم عنه بعد أم المتصلة (وهي حرف من حروف العطف)، وقد يستغنى عن ذكر المعادل إذا فهم من السياق، كما أنه يجب أن يكون الجواب عنها بالتعيين ولا يصح أن يكون بنعم أو لا⁽³⁾. على أن بعض الأمثلة يجوز حملها أحيانا على التصديق وأحيانا على التصور؛ عندما يكون المعادل محذوفا والذي يحدد ذلك اعتبارات المتكلم وما يقصده من حديثه والغرض الذي سيق الكلام لأجله، فقد يكون القصد إلى التصور (السؤال عن المفرد)، وقد يكون القصد إلى التصديق (السؤال عن الحكم)، ومن الأمثلة المحتملة لكلا الأمرين قوله تعالى: {أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ} مريم/46. فالهمزة هنا ممكن أن تكون للتصور فيكون المعادل محذوفا اعتمادا على ذكاء المخاطب.

والمعنى حينئذ أراغب أنت عن آلهتي أم راغب فيها⁽⁴⁾ وإذا كان المراد بهذه الآية التصديق، فالجواب ساعئذ يكون بنعم أو لا، وإذا حملنا المعنى على أنه استفهام إنكاري من أبي إبراهيم -عليه السلام- حسب ما يظهر من السياق العام للآيات، فالمعنى ساعئذ لا يحتاج إلى جواب. "وتعد الهمزة أعرق أدوات الاستفهام، فلا يتقدم عليها حرف العطف بل يأتي بعدها كقوله تعالى: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} يونس/3"⁽⁵⁾، وقوله تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأُحْيِيْنَاهُ} الأنعام/122 وقوله تعالى: {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمَنْتُمْ بِهِ} يونس/51، فقد تقدمت الهمزة الاستفهامية على حرف الفاء والواو وثم كما في الآيات. "ومن الأحكام التي تختص بها الهمزة أنها لا تقع بعد أم فلا يقال: أم أنت مسافر".⁽¹⁾

استعمالات الهمزة: أكثر ما تستعمل الهمزة لإفادة معاني غير معنى الاستفهام الحقيقي ومن ذلك معنى التقرير، واستعمالات الهمزة عندما تخرج عن معنى الاستفهام الحقيقي لإفادة معنى التقرير

(1) - سيبويه، عمرو بن عثمان بن قمير الحارثي، (ت: 180هـ-796م)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط3، مكتبة الخانجي، مصر - القاهرة، 1408هـ - 1988م، ج1، ص 434.

(2) - بشر، كمال محمد، (ت: 2015م)، دراسات في علم اللغة، دار المعارف. مصر - القاهرة، 1996م، ص 57

(3) - عباس، فضل حسن، (ت: 2011م)، البلاغة فنونها وألفانها (علم المعاني)، ط4، دار الفرقان، إربد - الأردن، 1417هـ - 1997م، ص 169-174.

(4) - عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وألفانها (علم المعاني)، ص 178.

(5) - السابق، ص 175.

بالشيء يعد نوعاً من المجاز المرسل وعلاقته بالإطلاق والتقيد، فالاستفهام طلب الجواب مع سبق جهل المستفهم فأطلق عن القيد الأخير ثم قيد بقيد آخر هو سبق علم المستفهم⁽²⁾ كما أن استعمال الاستفهام بالتقرير بمعنى التحقيق يعد نوعاً من المجاز المرسل الذي علاقته اللزوم لأن الاستفهام عن الشيء قد يستلزم تحقيقه⁽³⁾

الهمزة عند التطيلي في الديوان:⁽⁴⁾

وعند النظر في ديوان الشاعر نجد أنه استخدم الاستفهام بالهمزة اثنتين وسبعين مرة في مواطن عدة من ذلك قوله: (الطويل)

أغمز عيون وانكسار حواجب أم البرق في جنح من الليل دائب
سرى وسرى طيف الخيال كلاهما يود لو أن الليل ضربة لازب

الناظر في هاتين البيتين يجد أن الشاعر استخدم من حيث التشكيل أسلوب الاستفهام التصوري فقد ذكر الهمزة ثم جاء بعدها المستفهم عنه وثنى بالمعطوف عن المستفهم عنه (وانكسار حواجب) ثم بأم المتصلة وبعدها المعادل للمستفهم عنه (أم البرق)، ولما كان هذا الاستفهام يقتضي الجواب بالتعيين نجده عين المستفهم عنه من خلال قوله في البيت التالي:

سرى وسرى طيف الخيال كلاهما يود لو أن الليل ضربة لازب

فقبل أن يتم الجواب نجد الشاعر يبدأ في البيت الثاني بتصدير الحديث عن ذكر البرق؛ حيث يفهم أنه قد عين البرق كجواب، والذي يظهر عندي أن هذا الاستفهام - وإن جاء على شكل الاستفهام الذي يراد به التصور - فإن غاية الشاعر في ذكره في مطلع القصيدة هو حسن الاستهلال بالغزل بناء على طريقة الاستفهام ويستبعد أن يراد هنا الاستفهام على حقيقته.

وفي هذه القصيدة التي يمدح بها الشاعر (ابن حمدين) وقد جاءت على طريقة الشعراء العباسيين في حسن الاستهلال كقصيدة البحترى التي مطلعها: (الكامل)

أهلاً بذكلكم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أم لم يفعل

(1) - السابق ص 176.

(2) - الجرجاني، دلائل الإعجاز (الحاشية)، ص 150.

(3) - السابق، ص 150.

(4) - الأرقام التي بجانب الأبيات الشعرية تشير إلى أرقام الصفحات التي ذكرت فيها في ديوان التطيلي المعتمد في الدراسة.

بسناه أعناق الركاب الضلل⁽¹⁾

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت

ومن هنا يمكننا القول إن الشاعر لم يقصد إلى الاستفهام بل خرج الكلام إلى إبراز حسن الاستهلال وهي الدلالة السياقية التي أرادها الشاعر.

(الطويل)

ومن استخدامه للهمزة قوله:

شددنا قواها بالنجوم الثواقب

أَمْخَلَفَ تلك الوسائل بعدما

في هذا البيت استخدم الشاعر أيضا الاستفهام للتصور، وقد حذف أم المتصلة والمعادل بعدها، والتقدير: أم غير مخلفة، والدلالة السياقية تحتم على الشاعر هنا حذف المعادل حيث أن المراد بالاستفهام هو الاستبعاد والنفي حسب ما يظهر من المعنى العام للقصيدة على معنى: يستحيل أن تخلف تلك الوسائل؛ والدليل على عدم قدرتها على الخلف ربطها وشدها بالنجوم كما جاء في الشطر الثاني (شددنا قواها بالنجوم الثواقب) والمراد بالوسائل هنا مجموعة من القضايا تجعل من الشاعر قريبا من الممدوح كالصباغة والذكرى وتقارب الهوى والخطا للممدوح والغدوات الكثيرة والأيام.

(الطويل)

قوله:

وسرك أني جئت أصدق تائب

أفألآن لما كنت أحكم قاصد

فدونكها أعجوبة في الأعاجب

أضعت حقوقي أو حقوق مودتي

الدلالة الشكلية للاستفهام جاءت على نحو ذكر أداة الاستفهام ثم حرف العطف الفاء وهي كما قلنا من الخصائص التي تتمتع بالهمزة بها، ثم جاء المستفهم عنه وهو الزمن (الآن)، والهمزة كما يظهر من التركيب جاءت للتصديق وليس للتصور والتقدير يظهر من البيت التالي:

فدونكها أعجوبة في الأعاجب

أضعت حقوقي أو حقوق مودتي

والمعنى أأضعت حقوقي الآن لما كنت أحكم قاصد، وقد خرج الاستفهام عن حقيقته فلم يطلب المتكلم من المخاطب الإجابة بنعم أو لا، والمراد هنا من الاستفهام حسب الدلالة السياقية التنبيه على خطأ الممدوح والتعجب من فعله فكأنه يقول: الآن بعد ما سرك مجيئي تضيع حقوقي. أما التعجب فبدليل قوله: فدونكها أعجوبة في الأعاجب، والمعنى قيامك أيها الممدوح (ابن حمدين) في إضاعة حقوق مودتي جاء في غير أوانه وهذا من العجب أن يصدر من شخص ذي مكانة عالية مثلك. فمثلك يعطى الحقوق ولا يضيعها.

(1) - البحتري، الوليد بن عبيد بن يحيى، (ت: 204هـ - 280هـ)، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط2، دار المعارف، قافية اللام، ص 674.

ويحتمل الاستفهام هنا معنى الإنكار وهو مؤذن بأن الوقت الذي علق به الإنكار ليس وقتا ينفع فيه إضاعة الحقوق وذلك قياسا على قوله تعالى في حق فرعون في سورة يونس آية 91: (الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ) ⁽¹⁾ وبما أن الشاعر يخاطب بكلامه ابن حمدين - وهو أعلى منه مقاما - فيحتمل أن يكون الاستفهام هنا على معنى المعاتبة ويؤيد ذلك قوله بعدة أبيات : (الطويل)

أعاتب إدلالا وأعتب طاعة وحسبك بي من معتب ومعاتب

وقد يكون المراد النصيح بدليل قوله في آخر القصيدة نفسها: (الطويل)

إليك ابن حمدين نصيحة مشفق تتحلها أثناء تلك النوائب

فعلى جميع الاعتبارات نجد أن الشاعر لا يريد الاستخبار فطرق المعنى على طريقة الاستخبار.

ومن الاستفهام بالهمزة قوله: (الطويل)

بكت هند من ضحك المشيب بمفرق أما علمت أن الشباب خضاب

والاستفهام هنا بمعنى التحقيق بمعنى وقد علمت، وليس المراد حقيقة الاستفهام التصديقي الذي يقتضي الإجابة بنعم أو لا. وكون الشباب خضابا دلالة على زواله وأفوله عن الإنسان وهي معرفة بديهية، وكأنه يقول لهند ابك على نفسك فشبابك مثلي زائل.

وفي قوله: (الطويل)

أعفو لصرف الدهر عن هفواته على حين لا يأتي علي عقاب

وأتركه يمضي على غلوائه وقد قل إعتاب وطال عتاب

والمعنى هنا النفي أي لا أفعل أو على معنى لا يكون ولا ينبغي، وليس المراد حقيقة التصديق. بدليل تأكيد المعنى في البيت الثاني وعطفه على الاستفهام في البيت الأول (وأتركه... إلخ).

ومن الاستفهام بالهمزة على معنى الإنكار والتوبيخ قوله: (الطويل)

أیغضب حسادي قيامي إلى العلا وقد قعدوا لما ضفرت وخابوا

ونلمح التوبيخ من وصفهم بالقعود المؤدي إلى التأخر والخيبة (وقد قعدوا... إلخ).

ومن الاستفهام بالهمزة قوله: (الطويل)

يا ربع ناجية انهلت بك السحب أما ترى كيف نابت دونك النوب

(1) - ابن عاشور، محمد الطاهر، (ت: 1972م)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، تفسير سورة يونس.

الخطاب في هذا البيت للمكان على عادة الشعراء في ذكر الأطلال، والاستفهام أيضا بالهمزة المسند إليه المكان وخطاب المكان يعد من خطاب غير العاقل، والمراد هنا من الاستفهام التقرير، فالمعنى تقريرى ومفهوم التقرير عند البلاغيين: (أن تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده لكنك تخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام، ذلك لأنه أوقع في النفس وأدل على الإلزام"⁽¹⁾ على أن المخاطب هنا الربع على عادة الشعراء في استهلال قصائدهم، وبالتالي فإن السياق بشكل عام تخيلي، وطلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم هو إنشاء لفظا ومعنى ويحتاج من المخاطب الجواب، ويحتمل أن يكون المراد النوع الثاني من التقرير الذي يأتي بمعنى التحقيق والتثبيت والمعنى قد رأيت كيف نابت دونك النوب على غرار قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل/1 ويرى النحاة: أن الدلالة النحوية لاستخدام أما ترى أو) أما رأيت أو أرايتكم... إلخ)، تأتي بمعنى أخبرني قال أبو حيان في البحر المحيط: "أرايتك بمعنى أخبرني نص عليه سيبويه والأخفش والفراء..."⁽²⁾ وعلى هذا المعنى يكون الاستفهام بالهمزة في البيت قد خرج إلى معنى الأمر أي: أخبرني كيف نابت بك النوب. على أن هذا النوع من الاستفهام التقريرى هو إنشاء من حيث اللفظ خبر من حيث المعنى. والمعنى بشكله البسيط قد أثرت النوب بربع ناجية.

ومنه قوله: (الطويل)

أبعد حول تقضى للنوى كئيب ولا الذي بيننا نبع ولا غرب

والاستفهام هنا للتصديق إلا أن المعنى الذي خرج إليه الاستفهام هو الإشارة إلى الاستبطاء وطول المدة، ويحتمل أن يكون الاستفهام هنا إنكاري توبيخي على أمر قد مضى، وكأن الشاعر يقصد ما كان ينبغي التأخير.

ومثله قوله: (الطويل)

أما رأيت ندى حواء كيف دنا بالغيث إذ كاد يأتي دونه العطب

حيث يمدح الحرة حواء أخت محمد وأبي بكر ويحيى من ملوك عصر المرابطين بقوله: (الطويل)

يا أخت خير ملوك الأرض قاطبة وإن أعدوا وإن أسموا وإن نسبوا

محمد وأبو بكر وخيرهم يحيى وحسبك عزا كلما حسبوا

(1) - عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني، ص 190).

(2) - أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، (ت: 1023هـ)، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1431هـ - 2010م، تفسير سورة الأنعام آية 40.

والدلالة السياقية واضحة في أن المراد من هذا الاستفهام هو إظهار كرم الممدوحة حواء، وقد بينا سابقا المراد باستخدام الاستفهام مع رأى والتي هي بمعنى أخبرني.
وفي قوله: (الطويل)

ألم يرب الردى تضییع سر تبلد فيه أوهام الغيوب
الاستفهام هنا تصديقي يراد به التقرير على معنى التحقيق والتثبيت بمعنى قد راب الردى تضییع سر، والمراد بالسر (موت تلك المرأة المريثة، ونشتم من الاستفهام أيضا اعتراض الشاعر على موت المرأة ووقوع أجلها وهي شابة.

وفي قوله: (الطويل)
أتجزع للزمان وأنت منه مكان الحزم من صدر اللبيب
نجد أن الاستفهام تصديقي، إلا أن المعنى خرج إلى الإنكار؛ فالشاعر ينكر على المخاطب الجزع للزمان، ويستهجن ما يمكن أن يحدث في الحاضر أو المستقبل، ولما كان المخاطب (أبا عبد الله) ممدوح الشاعر، فإن المعنى ساعته يخرج إلى معنى النصيح والإرشاد، لأنه من أدنى إلى أعلى بدليل قوله في نهاية القصيدة: (الطويل)

وأنت نصيبنا من كل شيء فدمت وحسبنا أوفى نصيب
والمعنى ساعته مثلك لا يجزع للزمان ولا ينبغي له أن يفعل ذلك.
وقوله: (البسيط)

أما ويوم عبيد الله وهو أسي لقد تخير هذا الموت وانتقدا
فالاستفهام هنا بالهمزة لا يقصد به إلا التنبيه لخبر موت عبيد الله واختيار الموت له، وكلها تدور حول موت عبيد الله لما بعده من المعاني في القصيدة.
وفي قوله: (البسيط)

يا غاديا لم يكن شيء يقوم له أما توقاك صرف الدهر حين عدا
السياق العام لهذا البيت يشير إلى نعيه (لأبي الحسين) بدليل قوله في الأبيات التي تليه: (البسيط)
تبكي عليك ولا عار ولا حرج هداية كنت من أعلامها وهدى
فالاستفهام هنا إنكاري توبيخي اعتراضي، ينكر الشاعر على الدهر يعترض في عدم ترك المراثي حيا فهو نوع من الاعتراض على القدر.
وقوله: (الطويل)

سل الروم في إقليش يوم تجايشوا ألم يعلموا أن الفرائس للأسد

تباروا إلى تلك الحتوف فسلهم أما كان عنها من محيص ولا بد
ألم يك في الإسلام من متعرض بكف ولا في السلم من عرض يفدي
ألم ترعمو أن الصليب وأنه كأنكم لم تسمعوا بالقنا الملد

الاستفهام في الأبيات الأربعة تفيد التقرير والإثبات حيث تقرير المخاطب بشيء قد ثبت عنده فتخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام لكونه أوقع في النفس وأدل على الإلزام وإثباتا للحجة على المخاطب، والمعنى إثبات الفرائس للأسد، وإثبات المحيص عن الحتوف، وإثبات أن في الإسلام متعرض، وإثبات زعمهم أن الصليب...، كما أن السياق يشير إلى افتخار الشاعر بممدوحه في انتصاره على أعدائه من النصارى في معركة (إقليش) كما يفهم منه الإنكار والتوبيخ على الأعداء من (الإسبان). وفي قوله: (البسيط)

أمنك الخيال الطارقي كل ليلة على مثل حد السيف أو طرة البرد
والاستفهام هنا يحتمل التصديق أو التصور فالتصور على تقدير معادل (أم من غيرك)، والاستفهام هنا تقريرى وهو إنشاء من حيث اللفظ خبر من حيث المعنى والمراد منه تثبيت الخبر وتحقيقه، والمعنى السياقي لا يحتاج إلى جواب من المخاطب، لأن المراد تحقيق الخبر فقط في زيارة طيف المحبوبة له ليلا على معنى منك الخيال الطارقي كل ليلة. وفيه إشارة إلى كثرة ورود صورة المخاطب على ذهن الشاعر لأهميته. وفي قوله: (البسيط)

أأذنة عليك للعيد إن دنا على الطائر الميمون والطارع السعد
والمراد بالاستفهام هنا التصديق، وقد جاء لبيان مقام الممدوح وتعظيمه فكأنه يقول لا يسمح للعيد بالظهور إلا بعد إذنك، فهلا أذنت له، فالاستفهام تحضيضي. ولما كانت مثل هذه الأمور تتعلق بالزمن إلا أن الشاعر جعل الأذن فيها مسندا للممدوح لرفع قدره ومكانته. وفي قوله: (البسيط)

أما اشتفت مني الأيام في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري
والمراد بالاستفهام هنا التقرير بمعنى قد اشتفت وتحمل أيضا معنى الإنكار والتوبيخ والانزعاج من الأيام لما فعلته به وكأنه يطلب منها الاكتفاء. وفي قوله: (البسيط)

أما ترى العرمس الوجناء كيف شكت طول السفار فلم تعجز ولم تخر

المعنى السياقي للبيت يرتبط بالذي قبله ارتباطا ملحما وهو قوله معبرا عن حقيقة الإنسان وفنائه بسبب الكبر: (البسيط)

وليس للمرء بعد الشيب مقتبل نهاية الروض أن يعتم بالزهر

فأراد إثبات هذه الحقيقة من خلال صورة حسية وهي صورة الناقة الشديدة القوة التي تخار ضعفا مع طول الأيام، فقال: أما ترى العرمس الوجناء...، فيتضح من استخدام الاستفهام المنفي في السياق أن المراد العبرة والاعتبار، وهو يشابهه إلى حد كبير قوله تعالى: {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} الأنعام/99.

وفي قوله: (الطويل)

أتحسبني أستطيع جودك كله لك الله دعني من لساني وناظري

الاستفهام هنا للتصديق والنفي ويفيد معنى الاستحالة والاستبعاد؛ فعطايا الممدوح لا تحصى؛ فالمخاطب هو ممدوح الشاعر والمراد بيان سعة جود وعطاء الممدوح بحيث لا يستطيع الشاعر استقصاءه والاطلاع عليه كله، فالمعنى لا تحسبني أستطيع إحصاء خطاياك وهذا أو غل في باب الفخر بالمخاطب من الخبر المباشر ويؤكد هذا المعنى في الأبيات التالية: (الطويل)

وفي قوله: (الطويل)

ملأت يدي من كل مجد وسؤدد وأبقيت ذكري آية للذاكر

أتعلم ما أوليتها اليوم حمير فتشكره إن الكريم شكور

الاستفهام هنا يراد به التصديق والمعنى التعريض بقبيلة حمير لكي تقوم بشكر الممدوح على ما قدمه لها لرفع مكانتها، فكأنه يقول أيتها القبيلة عليك بالشكر لهذا القائد العظيم أبي العلاء بن زهر لما قد تم على يده من أجلك. على ذلك سياق الأبيات التي تلي هذا البيت ومنها: (الطويل)

نهضت بعبئي جدها واجتهادها تسر ليالي ملكها وتسور

أما قوله: (الطويل)

أعندك أني ضيغتُ بعدك ضيعةً تعلّم منها الدهرُ كيف يجورُ

فالاستفهام هنا يفيد الإنكار والنفي والاستبعاد، والمعنى: لا أضيع عندك أبداً، وفيه إشارة إلى الفخر بالممدوح (ابن زهر) كما يظهر من الأبيات التالية بقوله: (الطويل)

سأولي أبا مروان شكري كله وإني بشكر الأكرمين جدير

وفي قوله: (البسيط)

أما ترى اليوم كيف اسودَّ سائرُهُ وهَبُهُ لَيْلاً أما يُفْضِي إلى سَحَرِ
وَأَيْنَ أَنْجُمُهُ أمْ غَالِ أَنْفُسُهَا هذا الردى الْمُتَقَيِّ أَنْفُسَ الْبَشَرِ

السياق العام في هذه القصيدة يشير إلى حزن الشاعر على وفاة والدته، فالاستفهام للتنبية والإخبار؛ فالיום أسود وليله طويل لا يفضي إلى نهار ونجومه غائرة كل ذلك بسبب الردى والموت الذي حل بوالدته، وكل هذه المعاني ظهرت في سياق استخدام (أما ترى، وأما، وأين).

وقوله: (الطويل)

أَتَمْضِي اللَّيَالِي لَا أَرَاكَ وَرَبِّمَا عَدَّتْنِي الْعَوَادِي عَنْ طِلَابِكَ فِي الْحَشْرِ
الاستفهام هنا يراد منه التصديق ينكر الشاعر على الليالي التي تحول بينه وبين رؤية زوجته المتوفاة من جهة ويثبت تعلق المسند بالمسند إليه (مضي الليالي)، والمعنى السياقي يشير إلى استسلام وإخبار الشاعر في عدم القدرة على رؤية زوجته مرة أخرى.

وقوله: (البسيط)

يزهي به الرمح من عجب ومن عجب أما درى أنه ذو ملة طرف
والاستفهام هنا وقع بمعنى التقرير وهو يصف فيه السيف ومكانته، فهو يخبر عنه أنه شديد الملل يحتاج إلى القتال دائماً وهذا يعني رفع مكانة صاحبه حيث يتم الانتقال بطريق الكناية عن نسبة حيث يتم الانتقال من تمجيد السيف إلى تمجيد صاحبه، وإنه أهل للقتال في كل وقت.

وفي قوله: (البسيط)

أَخِلَّتْ حُسْنُكَ شَيْئاً لَا انْتِقَاصَ لَهُ لَا تَكْذِبَنَّ فَإِنَّ الشَّمْسَ تَنْكُسِفُ
والاستفهام هنا الشاعر فيه يخاطب نفسه فجاء بالاستفهام إنكارياً تكذيبياً في صورة التشبيه الضمني؛ حيث جعل المشبه به دليلاً على حال المشبه؛ فالحسن شيء لا يدوم وينتقص مع مرور الأيام والدليل على ذلك الشمس الكاملة فإنها تنكسف. وفي هذا البيت نجد أن الاستفهام الإنكاري يتميز عن النفي الصريح في أن المتكلم عندما يلقي كلامه في صيغة الاستفهام فإن ذلك يدل على الثقة التي تملأ نفسه لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب لردّه المخاطب عليه⁽¹⁾.

وفي قوله: (الوافر)

ألم يك حبه كهفاً منيعاً ألم يك قربه ظلاً ظليلاً

(1) - عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها وألفانها (علم المعاني)، ص 199.

إلى قوله:

ألم يحرز نهاية كل مجد يقول الفصل أو يعطي الجزئلا

وهذه الاستفهامات كلها تفيد التقرير على غرار قوله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) (الشرح/1)، والمعنى حبك كهف منيع، وقربك ظل ظليل، وأنت لليتامى والأيتامى ولي حاني وأب ووصول، وأنت بدر دائم فلا سرار لك ولا أفول، وقد أحرزت نهاية كل مجد في عطائك المتكرر وجميعها أخبار جاءت على شكل الاستفهام التقريري لتقضي إلى النص جمالا أسلوبيا بحيث تمنع القدرة على التكذيب من قبل المخاطب.

في قوله: (الطويل)

وكننت أظن الراحة من قبل ما ادعت ستأنف من أن تلتقي هي والنحل

أنتك سقت أزهارها أم غمامة إذا نفحت أيقنت أن سوف تنهل

ورد الاستفهام هنا على معنى التصور؛ حيث أورد المستفهم عنه بعد الهمزة وهو اسم الإشارة الدال على البعيد والمقصود به العسل المتمثل بالنحل، ثم جاء بالمعادل له بعد أم المتصلة وهو الغمامة والمطر، فهو يخير بين أن يكون الساقى لشجرة الراح النحل أو المطر، والدلالة السياقية تبين أن أيا من الساقين فيه الرواء والكفاية من العسل والخمر لا على قصد التخيير في أحدهما، وإقبال الشاعر هنا على الخمر بعد وصفها بما سبق مع حرمتها؛ لأنها أشبهت ريح الحبيب. والاستفهام هنا للتبويه والإخبار. قوله: (الطويل)

أأخسدُ والدنيا نَصْرَ بَدْرَها عليّ وكانت كلُّ أخلاقها نُغْلُ

خرج الاستفهام التصديقي هنا إلى معنى الإنكار والتوبيخ لحساده على طريقة استخدام الفعل الذي لم يسمى فاعله ليشمل كل من يقع منه الحسد.

وقوله: (البسيط)

أعيا عليه أنه في قرارته أم مارج من لظى ترمي به شعل

الأبيات السابقة تتحدث عن وصف السيف والتي يبدوها ب:

وإن سيفك لا يثني جهالته حتى يبين للجهال ما جهلوا

إلى أن يصل إلى قوله: أعيا عليه... فقد ذكر المستفهم عنه على طريقة التصور، وهو الغدير أو مجتمع الماء، وجاء بالمعادل (مارج من لظى) بعد أم المتصلة على سبيل التعجيب من حال شفرة السيف؛ حيث ينتقل من التعجيب من حالة شفرة السيف إلى حاملها على سبيل الكناية عن نسبة.

وقوله: (البسيط)

أَذَاكَ أَمْ عَزَمَةٌ رُمْتُ الصليبَ بها وقد أَتَتْ دُونَهُ الغيطانُ والقُلُلُ
المشار إليه بعد الهمزة يعود إلى الأبيات السابقة حيث يصف الشاعر ربح الممدوح بقوله: (البسيط)
وإن ربحك لا يثني معافه إلا انثنى القرن لا يألوا ولا يئل
إلى آخر الأبيات وقد وقع الاستفهام هنا للتنبية على معنى التصور لإثبات مواصفات الرمح وعزومات
وقوة الممدوح لإفادة عظمة حامل هذا الرمح وهو الممدوح.

وفي قوله: (البسيط)

أَتَارِكِي لَصُرُوفِ الدهرِ تلعبُ بي وقد حَذَانِي إِلَيْكَ الحبُّ والأمل
والاستفهام هنا خرج إلى معنى النهي.
وفي قوله: (الطويل)

أُذَاهِبَةٌ بَيْنَ القُطَيْعَةِ والوَصْلِ بِعَقْلِي أَمَا يَرْضِيكَ شَيْءٌ سِوَى عَقْلِي
هنا الاستفهام التصوري مرتين مرة في صدر البيت (أذاهبة) حيث أورد اسم الفاعل بعد الهمزة، ومرة
في العجز (أما يرضيك) وفي كلا الحالتين نجد السياق العام لهذا الاستفهام يفيد التقرير في الأول،
فالشاعر عالم بهذه الحالة (حصول ذهاب عقله منها) لكنه يريد من المخاطب (محبوبته) أن يوافقها
على ذلك لغرض: هو بيان مقدار تأثيرها عليه، وللتنويه بشأن محبوبته وحسن جمالها وكمالها، ويمكننا
القول أيضا أن الشاعر هنا يقرر محبوبته بالفعل (أذاهبة) من غير أن يرددها بين فعلين، وكلامه هنا
كلام من يوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان منها. وفي الاستفهام الثاني يقرر الشاعر ذهاب عقله
بسبب محبوبته ثم يطلب ويعرض عليها أن تدع العقل وتختار شيئا غيره، والدلالة السياقية تشير إلى
مكانة محبوبته منه ومقدار تأثيرها العظيم عليه.

وفي قوله: (الطويل)

أَرَيْتَكَ مِنْ تَحْنُو عَلَيْهِ وَإِنَّه لَكَالْغَيْثِ أَوْ أَنِّي لَكَالْبَلَدِ الْمَحَلِ
والمعنى أرايتك وقد خرج الاستفهام إلى معنى الإخبار بمعنى أنت من تحنو كأنك الغيث وأنا من يحني
عليه كالبلد المحل، والدلالة السياقية رفع شأن الممدوح وأنه كالغيث على طريقة استخدام صورة التشبيه.

وفي قوله: (الطويل)

أَحِينُ دَعَانِي وَادْعَانِي وَلَمْ أَجِدْ سِوَى حَكْمِهِ طَوْرًا عَلِيٍّ وَطَوْرًا لِي
قَبِلْتُ الْأَذَى مِنْهُ كَأَنِّي قَابِضٌ عَلَى الْمَاءِ أَوْ سَاعَ عَلَى أَثَرِ الظِّلِّ

الاستفهام هنا إنكاري حيث ينكر الشاعر على نفسه قبول الأذى ممن يحب، ويستبعد أن تكون أحداثه في هذا الوقت، والدلالة السياقية تفيد إنكار الشاعر على ممدوحة الإيذاء وجعله كالعابض على الماء، أي بدون عطاء.

وقوله: (الطويل)

ويبخل أوقام بما يتركونه أما علموا أن الليالي أبخل

الاستفهام تقريرى بمعنى قد علموا، وفيه أيضا معنى التنبيه على الأحوال التي يعيشها الإنسان وعلاقته بالمال، والحث على الكرم ويؤيد هذا المعنى سياق البيت الذي قبله حيث يقول: (الطويل)

وما المال إلا ما تعجلت نفعه بحيث يراك المرصد المتأجل

وفي قوله: (الطويل)

ألم يأن لي أن أخلع الغي جانباً أولي به فيما هناك وأغرل

أفاد الاستفهام معنى التقرير بمعنى قد أن لي وحان الوقت، كما يحمل معنى معاتبة المرء لنفسه وحثها وتحريضها على الانضباط في التعامل ولعله استلهمه من قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ} الحديد/16. كما يمكننا حمل الاستفهام على معنى الاستبطاء أي أن الشاعر استبطأ توبته وانصرافه عن السوء، وورد في القرطبي قوله: "ولما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: إن الله يستبطئكم بالخشوع...." (1)

وفي قوله: (المتقارب)

أما بيننا حَكَمٌ عادل ولو أنه زمني ما عدل

فالاستفهام هنا تقريرى، والمراد منه طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم، وهذا الاستفهام إنشاء لفظا ومعنى، والمعنى: أليس بيننا حكم عادل؟ والجواب: بلى، فالشاعر يحاول انتزاع الإقرار والاعتراف من المخاطب بهذا الأسلوب.، والمخاطب هنا محبوبية الشاعر بدليل قوله في مطلع القصيدة:

أما والهوى وهو إحدى الملل لقد طال قدك حتى اعتدل

والدلالة السياقية المفهومة من الكلام أن الشاعر يطلب من محبوبته الإنصاف وعدم التجني ويستبعد أن يقع ذلك. بدليل الاستفهام في البيت الذي يليه:

أينصف منك وأنت الحياة ويعدي عليك وأنت الأجل

(1) - القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، (1427هـ-2006م)، الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة الحديد)، ج

20، ط1، مؤسسة الرسالة، تحقيق: عبد الله التركي، ص 252

فهو إنكاري تكذبي فلا أحد يستطيع الانتصاف من الممدوح لقوته ومكانته فقد وصف الممدوح بأنه الحياة والموت.

وفي قوله: (المتقارب)

تجلى له بين حالهما فسله أبحر رأى أم جبل

السياق يدل على أن المراد بيان مكانة الممدوح وعظمه وتهويل قدره؛ فهو بحر وهو جبل بدليل البيت السابق بقوله:

سل البحر عن جوده إذ طما وشطيه عن بأسه إذ أطل

وقد تم إيراد الاستفهام على طريقة الاستعارة التصريحية؛ حيث شبه الممدوح بالبحر ثم شبهه بالجبل وهو أدعى إلى تعظيم الممدوح وبيان كرمه وقوته. فالاستفهام هنا تقريرى.

الاستفهام في قوله: (الطويل)

أكلما طلعت نفسي إلى أملٍ لم يَغْذُها عائقٌ عن ذلك الأمل

خرج إلى معنى التعجيب من حال الشاعر وعدم مطاوعة أحوال الأيام له في آماله.

وفي قوله: (الطويل)

أينقضي الدهر لم تظفر يدي بأخ إذا سمعت بسوء عنه لم أخل

معنى الاستفهام الإنكار والتكذيب فالدهر لن ينقضي بدون أن يظفر الشاعر بأخ لا يقول السوء.

وفي قوله: (الطويل)

أما يَسْتَقِي مني الزمانُ يَرُوغُنِي وَتُقْعِدُنِي أَرْزَاؤُهُ وَتُقِيمُ

خرج الاستفهام هنا إلى معنى الإنكار على الزمان توبيخه والطلب منه أن يكتفي بما أحدثه بحال الشاعر، والأبيات التالية تفصل هذه الإحداثيات منها:

تنكر أحباب وبانت حبايب ولجت أعاد بيننا وخصوم

فسياق الأبيات التي جاءت على شكل تفصيل بعد إجمال تظهر أسباب استنكار الشاعر بحال الزمان معه. ومن المعلوم أن مخاطبة غير العاقل هنا تحمل في طياتها معنى التمني في أن تزوال هذه الأمور عن الشاعر.

وفي قوله: (الطويل)

أَيْنَكِرُ أَهْلُ الْعِلْمِ أَلَنْكَ رَوْضَةً يُسِيمُونَ فِيهَا وَالْبِلَادُ هَشِيمَ

خرج معنى الاستفهام إلى الإنكار والتكذيب حيث ولي همزة الاستفهام الفعل المضارع (ينكر) المفيد للحال أو الاستقبال، فلا أحد يستطيع هذه الحالة التي يعيشها الممدوح.

كما يمكن حمل المعنى على التنبيه على الباطل بالإضافة إلى الافتخار بمكانة الممدوح. ويمكن حمل الاستفهام على أنه إنكاري توبيخي؛ حيث ينكر على أهل العلم عدم إثبات مواصفات الممدوح الموجودة في البيتين فكأنه يقول: ما ينبغي لهم أن ينكروا ذلك. وقوله: (الطويل)

أَنْمُضِي اللَّيَالِي لَا تُقْضِي مَآرِبِي وَلَوْ شَقَّنِي هَمِّي بِهَا وَتَهْمُمِي
خرج الاستفهام إلى معنى العتاب والتذلل. واستخدام الاستفهام هنا مدعاة للمضي في تلبية طلبات الشاعر من قبل المخاطب الممدوح، وأيضاً يحمل معنى الاستبطاء؛ حيث استخدم الفعل المضارع بعد همزة الاستفهام لإفادة التجدد والحدوث في جريان الليالي دون نقضية المآرب. وفي قوله: (الطويل)

أَكْسِرُ قَوْسِي بَعْدَ عِلْمِي بِأَنْنِي رَمَيْتُ فَمَا أَخْطَيْتُ شَاكِلَةَ الرَّمِي
هنا يخاطب الشاعر ممدوحه أبا القاسم ويقول: أنه لا يأس ولا استسلام بعد أن وصل إلى هدفه وهو الوصول إلى الممدوح والتتعم في خيرات، وعبر عن هذا المعنى باستخدام الاستفهام الإنكاري بقوله السابق: أأكسر قوسي؟، فكسر القوس بالعربية يعد كناية عن اليأس والاستسلام، وهنا ينكر أن يقع منه اليأس والاستسلام بعد أن وصل الممدوح وأصاب الرمي. وقوله: (الرجز)

أَخْرَسَ بِدِمْنَتَيْكَ أَمْ صَمَمَ
خرج الاستفهام إلى معنى التنبيه لما أصاب الحي والأطلال بدليل قوله قبل ذلك: يا طلل الحي أراه قد طسم وذلك باستخدام الاستفهام التصوري على سبيل الإخبار بمعنى أن دمن الحي قد أصبحت خرساء صماء.

وفي قوله: (المقارب)

وسائله ما فعل القارطان أضل دليلهما أم توانى
أَلَمْ يَجِدَا قَرَطًا مِنْهُمَا يُرِيغَانِهِ حَيْثُ مَنْ حَانَ حَانَا

استخدم الشاعر الاستفهام بالهمزة قاصداً الإشارة إلى البعد التاريخي في المثل العربي المشهور (حتى يؤوب القارطان)، وقد استخدم الاستفهام على معنى التصور في البيت الأول، وعلى معنى النفي في البيت الثاني.

وفي قوله: (المتقارب)

وَأَيْنَ أَضَلَّ قَبِيصاً أَبَوْه عَلَى أَنَّهُ مَا أَلَاهُ حَنَانَا

أَغَادِرُهُ وَالْهَذَا بَعْدَهُ وَأَشْمَتَ رِضْوَى بِهِ أَوْ أَبَانَا

نجد الشاعر قد استخدم الاستفهام بالهمزة على معنى التصديق وقصد بذلك الإشارة إلى المعطيات التاريخية. وكلها على معنى الإخبار.

وفي قول الشاعر: (المتقارب)

عَجِبْتُ لْجَانِبِهِ مَا أَشَدَّ أَمْرٌ عَنَى أَمْ أَمِيرٌ أَعَانَا

خرج الاستفهام هنا إلى معنى تعظيم الممدوح على طريقة الاستفهام التصوري، وقد أورد الاستفهام بالبيت على طريقة التصور مستخدماً الصورة البديعية في الجنس الناقص بين (أمر وأمير) وبين (عنَى وأعانَا).

وفي قوله: (الوافر)

سَوَابِحُ مِنْ غَمَارٍ فِي حَدِيدٍ فَمَا تَدْرِي أَخِيلُ أَمْ سَفِينُ

والاستفهام بالهمزة هنا للتصور وجاء لتعظيم شأن خيل جيش الممدوح علي بن يوسف بن تاشفين، فلا يدري الناظر إليها هل هي خيل أم سفن، وليس المراد الاستفهام على حقيقته فيختار المخاطب تعيين أحد الطرفين بل السياق يوحي بإرادة معنى التهويل والتضخيم لأمر الخيل.

وفي قوله: (الوافر)

وَأَحْدَقْتُ الرِّمَاحَ بِهِ فَأَعْيَا عَلِي أَهَالَةً هِيَ أَمْ عَرِينُ

الاستفهام في هذا البيت للتصور والسياق يدل على أن المراد منه هنا التهويل والتخويف والتعظيم للممدوح ابن تاشفين، فبالرغم من إحاطة الرماح به كأنها هالة أو عرين فهو متيقن من الانتصار.

الاستفهام في قوله: (البسيط)

أَرَيْقُ تَعْرِكَ أَمْ يَنْتُ الرَّرَاجِينُ وَعَرَفُ نَشْرِكِ أَمْ مِسْكُ بَدَارِينِ

إلى قوله:

وَقَدْكَ النَّاعِمُ الرِّيَانُ أَمْ غُصْنُ يَمِيسُ لِيناً عَلَى كَثْبَانِ يَبْرِينِ

في مطلع هذه القصيدة الغزلية التي يمدح فيها الشاعر الوزير أبا القاسم، وذلك بقوله في القصيدة:

إِيَّاهُ أبا قَاسِمَ مَالِي ظَمُنْتُ وَفِي كَفَيْكَ رِيَّ أَنْ لَوْ شِئْتُ تَرْوِينِي

نجد الإكثار من استخدام الاستفهام بالهمزة على طريقة التصور من البيت الأول إلى البيت السادس، وفي جميع هذه الاستخدامات نجد أن الدلالة السياقية للاستفهامات خرجت إلى معنى واحد هو بيان جمال الموصوفة والإخبار عنه من جهات حسية عدة على طريقة ذكر المستفهم عنه بعد أداة الاستفهام والإتيان بالمعادل له بعد أم المتصلة، وواضح من أن الشاعر استخدم للوصول إلى هذه المعاني التشبيهات والاستعارات، فريق المحبوبة يشبه الخمر ورائحتها كالمسك وقدها الناعم كالغصن... إلخ، وهو يسير بذلك على طريقة الشعراء في مطلع القصائد من ذكر الغزل.

وفي قوله: (البسيط)

صاحب لم أزل منه على خطر كأنني علم غيب وهو حسان
أغراه حظ توخاه وأخطأني أما درى أن بعض الرزق حرمان
خرج الاستفهام هنا إلى معنى التهكم والتحقير وإثبات جهالة صاحب والتنبيه على خطئه.

وفي قوله: (البسيط)

يا لابسا عزة المولى أنافعتي لديكم طاعة مني وعصيان
هذا البيت من قصيدة يمدح بها الشاعر الأمير أبا يحيى حيث يقول منها: (البسيط)

فتى قلما تلقاه إلا مرحبا تلوذ بحقوقه كهول وشبان
والاستفهام في البيت اشتمل على همزة الاستفهام ثم اسم الفاعل نافعتي والمراد به التصديق إلا أنه خرج إلى معنى النفي بمعنى لا تتفعمني طاعة ولا عصيان، والدلالة السياقية تفيد أن الشاعر يهون من قيمته أمام الممدوح فلا يهم الممدوح إن كان الشاعر عاصيا أو طائعا.

وفي قوله: (البسيط)

أعندك الخصر السلسال مورده ولا يفوز بري منه ظمان
خرج الاستفهام إلى معنى التقرير والإثبات لما يتمتع به الممدوح من كثرة الخيرات كأنها الخصر السلسال، فعطائه الكثير لا ينقص مما عنده، والسياق يؤول إلى إظهار مكانة الممدوح وعطائه.

وقوله: (البسيط)

سواد قلبي لو تدري مواقعه أمنة صور في خديك خيلان
استخدم الشاعر هنا الاستفهام المحتمل للتصور أو التصديق وقد خرج إلى معنى التقرير ليفيد إثبات جمال صورة الممدوح، حيث الشامات الجميلة على خديه.

وفي قوله: (الطويل)

وعن هرمي مصر أمتعا بشرخ شباب أم هما هرمان

هذا البيت يرتبط مع مقدمة القصيدة التي يرثي بها الشاعر (محمد ابن اليناقي) فيقول: (الطويل)
خذا حدثاني عن فل وفلان لعلني أرى باق على الحدثان
وقد استخدم الشاعر الاستفهام التصوري ليصل بالسياق إلى معنى أخذ العبرة على زوال الدنيا ومن
فيها فالمراد من الاستفهام إذن الاعتبار.

وقوله: (الطويل)

وطال ثواء الفردين بغبطة أما علما أن سوف يفترقان
خرج الاستفهام إلى معنى التقرير؛ لإفادة الاعتبار كما هو السياق العام للقصيدة.
وفي قوله: (الوافر)

أجِدُّكُمْ بَكَتْ هَضْبَاتُ رَضْوَى فَكَادَ الْحَزْنَ فِيهَا يَسْتَبِينُ
أفاد الاستفهام معنى التقرير والافتخار، والمعنى لقد بكت هضبات رضى، وإسناد البكاء للهضبات
إسناد غير حقيقي والمراد تقوية السياق في أن البكاء شمل حتى الهضاب ناهيك عن الناس.
وفي قوله: (البسيط)

أما كفى حزناً أن قد ظميت وقد عاينت عذب الحيا يجري على البرد
الاستفهام خرج إلى معنى التقرير والإثبات فكأن الشاعر يقول كفاني حزناً أن قد ظميت إلى لفائك
حيث السياق يشير إلى حديثه عن فتاة كان يهواها.

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات:

- يتضح مما سبق أن مباحث الاستفهام باعتبارها من مباحث الإنشاء الطلبي ذات آثار ملحوظة تثرى
أساليب الشعراء والكتاب، وتؤثر في نفسياتهم وقلوبهم، وهي من هذا الوجه حرية بكل اهتمام وعناية؛
لكثرة ما فيها من أغراض جدية بأن يلحظها البليغ، خاصة الاستفهام بالهمزة.
- إن تعدد الاستخدامات للهمزة عند التظلي وتتنوعها الممتد، يجعل من طرق استخدامها نبراساً للأدباء
للاقتداء بطريقته وعلى مثاله.
- نجد أن الشاعر استخدم حرف الاستفهام الهمزة بكثرة، وقد دخلت على الفعل والاسم والنفي لدلالات
وأغراض بلاغية.
- إن اختيارات الشاعر لأساليب الاستفهام بالهمزة في أشعاره يعد جزءاً مهماً من بنية الدلالة، وهو
اختيار يدل على الإبداع والدقة من خلال تجارب الشاعر الخاصة، وهذا الاختيار عندئذ يشكل مسحة
أسلوبية بارزة في النص الإبداعي، ويرتبط ارتباطاً مباشراً في الدلالات السياقية والمعاني المركزية
للقصيدة.

- إن لغة القصائد في شعر التطيلي خاصة ما يتعلق في الاستفهام بالهمزة تمتد في قاموسيتها المعجمية والتراكيب الدلالية إلى مراحل حيوية من مراحل الشعر العربي القديم، فهي تمثل الثقافة اللغوية والاجتماعية في عصر دولة المرابطين.
 - كشفت الدراسة الإحصائية لشعر التطيلي أنه قد استخدم الاستفهام بالهمزة اثنتين وسبعين مرة، فقد استخدمها على معنى التصور اثنتي عشرة مرة، وعلى معنى التصديق ستين مرة.
 - استطاع التطيلي أن يوظف في أشعاره الكثير من أساليب الاستفهام بالهمزة، وتبين أن هناك أغراض جمة خرج إليها الاستفهام، كالتقرير والتحقيق والنفي والإنكار بأنواعه،... إلخ، وقد ظهر ذلك من خلال تحليل الأبيات وربطها بالدلالات السياقية.
 - أن يحظى شعر التطيلي بمزيد من الدراسات اللغوية والأدبية لما يتمتع به من خصائص متنوعة.
- المصادر والمراجع:**

القرآن الكريم.

- *الأصوات اللغوية*، أنيس، إبراهيم، (ت: 1977م-1397هـ)، ط5، مكتبة الأنجلو، مصر، 1975م.
- *الديوان، البحتري*، الوليد بن عبيد بن يحيى، (ت: 204هـ-280هـ)، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، ط2، دار المعارف.
- *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، ابن بسام، أبو الحسن علي، (ت: 542هـ-1147م)، تحقيق: إحسان عباس، 1417هـ-1997م، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ج1.
- *دراسات في علم اللغة*، بشر، كمال محمد، (ت: 2015م)، دار المعارف. مصر - القاهرة، 1996م.
- *الديوان، التطيلي*، أبو جعفر أحمد بن عبد الله، (ت: 513هـ-535هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان - بيروت، 1409هـ-1989م.
- *مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني*، التفتازاني، سعد الدين، (ت: 1390م-792هـ)، دار السرور، لبنان - بيروت.
- *دلائل الإعجاز*، الجرجاني، عبد القاهر، (ت: 471هـ)، شرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، مصر - القاهرة، 1396هـ-1976م.
- *البحر المحيط في التفسير*، أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، (ت: 1023هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. لبنان - بيروت، 1431هـ-2010م.

- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد، (ت: 794هـ)، ط2، دار المعرفة، لبنان- بيروت، 1972م، ج2.
- مفتاح العلوم، السكاكي، أبو يعقوب بن بكر، (ت: 626هـ-1229م)، ط1، دار الكتب العلمية. لبنان - بيروت، 1983م.
- الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، (ت: 180هـ-796م)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط3، مكتبة الخانجي، مصر-القاهرة، 1408هـ - 1988م، ج1.
- الإتيقان في علوم القرآن، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت: 911هـ-1505م)، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م.
- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، (ت: 1973م)، الدار التونسية للنشر. تونس.
- أساليب البيان، عباس، فضل حسن، (ت: 2011م): ط2، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، 2007م. والبلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط4، دار الفرقان، إربد-الأردن، 1417هـ-1997م.
- الأسلوبية الرؤيا والتطبيق، أبو العدوس، يوسف، ط2، دار المسرة للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 1430هـ-2010م.
- الصاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ابن فارس، أحمد بن زكريا، (ت: 395هـ)، تحقيق: أحمد حسن، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، 1418هـ-1907م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير سورة الحديد)، القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، (ت: 671هـ)، تحقيق: عبد الله التركي، ط1، مؤسسة الرسالة، 1427هـ-2006م، ج20.
- الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، ت: 682هـ، تحقيق وتعليق: لجنة من أساتذة اللغة العربية بالجامع الأزهر، القاهرة: السنة المحمدية.
- معجم المصطلحات، مطلوب، أحمد الناصري، (ت: 2018م)، ط2، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت-لبنان، 1996م.
- معجم لسان العرب (مادة خير)، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي، (ت: 711هـ-1311م)، المطبعة الأميرية، مصر - القاهرة.

References:

- The Holy Quran.
- Linguistic Voices, Anis, Ibrahim, (died: 1977 AD - 1397 AH), 5th Edition, Anglo Bookshop, Egypt, 1975 AD.

- Al-Diwan, Al-Buhturi, Al-Walid bin Obaid bin Yahya, (T.: 204 AH-280 AH), investigation: Hassan Kamel Al-Sairafi, 2nd edition, Dar Al-Maarif.
- Ammunition in the beauties of the people of the island, Ibn Bassam, Abu Al-Hassan Ali, (d.: 542 AH - 1147 AD), investigation: Ihsan Abbas, 1417 AH - 1997 AD, Dar Al-Thaqafa, Beirut - Lebanon, Part 1.
- Studies in Linguistics, Beshr, Kamal Muhammad, (T.: 2015 AD), Dar Al-Maaref. Egypt - Cairo, 1996.
- Al Diwan, Al Tatili, Abu Jaafar Ahmed Bin Abdullah, (T.
- Mukhtasar Saad al-Din al-Taftazani on the summary of the key to the preacher al-Qazwini, al-Taftazani, Saad al-Din, (T.: 1390 AD - 792 AH), Dar Al-Surour, Lebanon - Beirut.
- Evidence for Miracles, Al-Jurjani, Abdel-Qaher, (T.: 471 AH), Explanation: Muhammad Abdel-Moneim Khafagy, Cairo Library, Egypt-Cairo, 1396 AH-1976 AD.
- Al-Bahr Al-Muheet fi Tafsir, Abu Hayyan, Muhammad bin Yusuf bin Ali Al-Andalusi, (T: 1023 AH). Investigation: Sidqi Muhammad Jamil. Dar thought for printing, publishing and distribution. Lebanon - Beirut, 1431 AH-2010 AD.
- Al-Burhan in the Sciences of the Qur'an, Al-Zarkashi, Badr Al-Din Muhammad, (T -. Key to Science, Al-Sakaki, Abu Yaqoub Bin Bakr, (T. Lebanon - Beirut, 1983.
- Al-Kitab, Sibawayh, Amr bin Othman bin Qambar Al-Harithi, (d.: 180 AH - 796 AD), investigation: Abd al-Salam Muhammad Harun. 3rd edition, Al-Khanji Library, Egypt - Cairo, 1408 AH - 1988 AD, Part 1.
- Perfection in the Sciences of the Qur'an, Al-Suyuti, Jalal Al-Din Abd Al-Rahman, (d.: 911 AH - 1505 AD), investigation: Abu Al-Fadl Ibrahim, the Egyptian General Book Organization, 1975 AD.
- Interpretation of Liberation and Enlightenment, Ibn Ashour, Muhammad Al-Taher, (T.: 1973 AD), the Tunisian Publishing House. Tunisia.
- Methods of Statement, Abbas, Fadl Hassan, (T: 2011 AD): 2nd Edition, Dar Al-Nafais for Publishing and Distribution, Amman - Jordan, 2007AD. Rhetoric is its Arts and Artanha (Ilm Al-Meanings), 4th Edition, Dar Al-Furqan, Irbid - Jordan, 1417 AH-1997 AD.
- Stylistic vision and application, Abu Al-Adous, Youssef, 2nd Edition, Al-Masra House for Publishing and Distribution, Amman - Jordan, 1430 AH-2010 AD.
- Al-Sahibi in the jurisprudence of the Arabic language and its issues and the Sunnahs of the Arabs in their speech, Ibn Faris, Ahmed bin Zakaria, (T: 395 AH), investigation: Ahmed Hassan, 1st edition, Dar Al-Kutub Al-Ilmiya, Lebanon - Beirut, 1418 AH - 1907 AD.
- Al-Jami' Ahkam Al-Qur'an (interpretation of Surat Al-Hadid), Al-Qurtubi, Muhammad bin Ahmad bin Abi Bakr, (T: 671 AH), investigation: Abdullah Al-Turki, 1st edition, Al-Risala Foundation, 1427 AH-2006 AD, vol. 20.
- Clarification in the Sciences of Rhetoric, Al-Qazwini, Jalal al-Din Muhammad ibn Abd al-Rahman, T.: 682 AH, investigation and commentary: a committee of Arabic language professors at Al-Azhar Mosque, Cairo: The Muhammadan Sunnah.
- Lexicon of Terms, Wanted, Ahmed Al-Nasseri, (T.: 2018 AD) , 2nd edition, Library of Lebanon Publishers, Beirut-Lebanon, 1996 AD.
- Lexicon of Lisan Al-Arab (news material), Ibn Manzoor, Abu Al-Fadl Muhammad bin Makrambin Ali, (T.: 711 AH - 1311 AD), Al-Amiri Press, Egypt - Cairo.

البلاغة العربية القديمة وطبيعة النص النقدي

الحسن محمد محمود الشيخ الحسن
طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

مدخل

ارتبطت البلاغة والنقد بالإنسان العربي منذ أن جلس النابغة الذبياني -وربما قبل ذلك- في قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ قبل الإسلام يفاضل ويحكم بين الشعراء . تجلى ذلك من خلال نقده . إن صح سنده . لابن الفريعة (حسان بن ثابت رضي الله عنه) في قوله:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وَلَدْنَا بَنِي الْعَنْقَاءِ وَإِبْنِي مُحَرَّرٍ
فَأَكْرَمَ بِنَا خَالًا وَأَكْرَمَ بِذَا ابْنَمَا

فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قلت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك¹. إن ذلك يقتضي وجود مقاييس نقدية بلاغية ربما تكون شائعة ومعروفة في ذلك العصر، وإن كانت الفطرة والذوق الخالص هما الجوادان اللذان يجران عربة ذلك النقد ويوجهانه عن طريق التجربة التي هي أساس القياس عند كل أمة وفي كل ثقافة.

فلم تظهر لغة عند أمة من الأمم، إلا وظهر معها -في الغالب- مكون خطابي جمالي داخل هذه اللغة؛ هو الشعر. وبالرغم من المكانة التي يحظى بها هذا النمط اللغوي، والاعتراف له بقيمته وتأثيره، لكن الاختلاف يظل قائما حول السر الذي تكمن فيه روح قوة هذا الشعر. ومن غير المستبعد أن تكون النظرة إلى الشعر عند المهتمين به من نقاد في بداية البحث في كنهه، تخرج من ذات المشكاة التي خرج منها الشعر؛ رؤية ذوق وانطباع وإلهام، لا تتجاوز حد إعطاء أحكام جمالية تتعلق بلذة غير عقلية. هنا تتفاوت المنطلقات تبعا لمستوى الوعي ونوع الثقافة والتفكير؛ حيث تعتبر الكتابة أهم سلوك بشري حضاري قديم، نقل تجارب الأمم وأضفى عليها روحا علمية، استفادت منها الأمم اللاحقة...

لقد مر النقد العربي بمراحل وتطورات، قبل أن يكتسي صبغته المنهجية العلمية ابتداء من القرن الرابع الهجري؛ في خلاف بين مؤرخي الأدب حول أوليته، إلا أن القرن الرابع

¹ - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج:9، ط: دار الفكر، ص: 384

الهجري- بوصفه محطة نضج نقدي - مثل نقطة اتفاق بينهم؛ حيث برزت آراء بلاغية حجاجية، ومقاربات تتوخى الحد الأدنى من الحياد والنظر إلى الأثر الأدبي بشيء من التجرد والروح العلمية عند بعض النقاد، فتم إخضاع النماذج الشعرية لمناهج تطبيقية مقارنة، واكتشفت نظريات تقارب النص؛ متسقة تتفد إلى أغوار بعيدة من البحث في كنه اللغة والخطاب، والمستويات البلاغية، وما يمكن أن يفيض عنها من دلالات ومعان ... في هذا الخضم المليء بروح العلم والانفتاح على البحث، أصبحت المقاربات النقدية تبحث عن هوية النص، من خلال محاولة الإجابة على أسئلة من قبيل:

ما هو الشعر؟

ما هي طبيعته؟

ما هي العناصر الداخلة في تكوينه؟

وأخيراً، ما هي طبيعة الوظيفة التي يؤديها الشعر؟ وما هو دورها في سلم اللغة وخطابها البلاغي؟

1 - طبيعة وماهية النص

قديمًا قال فلاسفة اليونان عن الشعر إنه: عربة يجرها جوادان جموحان هما: العاطفة والخيال، ويتولاها حوزي محنك هو: العقل. فعن وعي-أو عن غير وعي-يشدنا الشعر إليه شدًا، حين نقرأه، فيحرك مشاعرنا، ويغذي عقولنا، ويغني تجاربنا، ويحفز خيالنا.

وإذا كان النص العلمي يقدم لنا حقائق علمية نجهلها وحقائق تضاف إلى معلوماتنا، فإن النص الشعري يحرك مشاعرنا من دون أن يضيف إلى الحقائق التي نعرفها حقائق جديدة. إننا في النص الشعري لا نبحث عن قناعة بقدر ما نخرج منه بموقف حيال موضوع بسبب أنه يعتمد على تحريك المشاعر التي قد تكون أبلغ في توجيه السلوك من عامل القناعة؛ خصوصًا وأن الأسلوب العلمي يعد القالب المناسب للأفكار، كما يعد الأسلوب الأدبي هو القالب المناسب للمشاعر-وكما يقال- فلكل مقام مقال.

إن الشعر نوع من أنواع التصوير يتوخى الإمتاع ويحمل معاني ودلالات تسمو في سلم الجمال الفني، وتبرز وظائف النص. فالنص الأدبي له جانب جمالي، وآخر وظيفي، والمعنى هو الغاية من الوظيفة الإيصالية فيه، وهو يتميز عن غيره من النصوص، بالاستخدام الخاص للغة، حيث تقوم عمليات القراءة بتفكيك محتوياتها، بهدف تذوق جمالياتها وإدراك المعنى في دلالاتها، والحق أن المبدع والمتلقي كليهما يمتلكان معرفة أولية بإمكانيات اللغة الدلالية والسياقية والمعجمية وما

تحتويه من قدرة استبدالية ولكنهما يفتقران فيما بعد في التصرف بمعطيات اللغة المحددة وتأويلها تأويلاً ينسجم مع ما يمتلكان من موروثات ثقافية ونفسية واجتماعية"¹

إن أي نص يضم في ثناياه فجوات، وتقعرات، عمد إليها المبدع، أو خرجت وتفلتت في غيبة سلطان اللاشعور، وهي نواة هذا الحوار بين الباث (المبدع) والمستقبل (المتلقي)، متأرجحة بين غاية المبدع، والمعنى الذي يضعه في نصه، وقد يتعدى ذلك بهدف مشاركته في إنتاج المعاني التي لم يقلها، "قالمبدع يصرح عن معنى، ويواري معنى آخر، ويسكت عن غيرهما، ويأتي فعل القراءة ليسد الفرج والفجوات، ويقوم بردم الحفر والتقعرات بإبراز ما أراد الشاعر أن يقوله ولم تسعفه في ذلك عملية إخراج المنتج الأدبي والظروف المحيطة بها. فالنص ليس متضمناً لمعنى مطلق ونهائي وإنما هو مجرد كمون دلالي يحتضن طاقات تعبيرية غنية وخصبة يحتاج تحققها إلى مشاركة المتلقي الفعالة لسبر خفايا النص وخبائاه".²

لقد كانت جدلية اللفظ والمعنى محطة، وقف عندها نقاد القرنين الرابع والخامس الهجريين كثيراً، ليصل بهم طول التأمل والبحث إلى معالجة معاني التراكيب والمجازات انطلاقاً من تحقيق المعنى عند المتلقي، وإيقاعه في قلبه، حرصاً على الوظيفة المنوطة بالأدب. دون قبول المعاني الخارجة على الأعراف اللغوية والأدبية "فالعلمية النقدية تستهدف إبراز جماليات النص الشعري من حيث هو فن لغوي، إنه يستخدم أداة معينة هي الكلمات ونظام اللغة، والبحث الدلالي يتقصى العلاقة الدلالية بين الرموز اللغوية ومدلولاتها وما يترتب عليها من نتائج في سلامة الأداء للغرض المقصود، وفي وضوح الرسالة الموجهة من المتكلم إلى المتلقي، وهذا يعني أننا عندما ندرس نقد الشعر لدى نقاد القرن الرابع، نحاول الوقوف على مدى تحليلهم للجانب الدلالي في اللفظ والمعنى وهم يقدمون الأحكام الجمالية والعروض الذوقية"³

إن تكامل مكونات النص يقتضي وضوح المعنى تحاشياً للغامض المغلق، لأن وضوح النص يعني انفتاحه على التأويل والقراءة؛ وبالتالي إعادة بناء جديدة تحول النص إلى عوالم رحبة من المتعة والجمال، واكتشاف لمسافات داخل العمل الأدبي، ومعرفة طبيعته أكثر...

¹ - ضحى بلال، معنى المعنى في النقد الأدبي بين المبدع والمتلقي (أطروحة دكتوراه)، ص: 132

² - ضحى بلال، معنى المعنى في النقد الأدبي بين المبدع والمتلقي، ص: 231

³ - د. فايز الداية، علم الدلالة العربي، ط: 1، دار الكر، دمشق، 1985م، ص: 31

2 - البلاغة العربية والإعجاز القرآني

لقد ظهر بموازاة مع ذلك أن هذا النضج النقدي لم يكن ليحدث إلا بفضل نزول القرآن الكريم، الذي أخذ مكان الصدارة، لكونه النص الأدبي الأول لهذه الأمة، والكتاب المبين المعجز، فمنذ اللحظة الأولى لنزوله بهر العرب، ودعاهم إلى الالتفات لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان، وعلقت أفئدتهم وأسماعهم بما تضمنه من كلام رائع، فلم يسعهم إلا التسليم والإذعان لروعته وأثره في النفوس وفي العقول، وبموازاة مع الشعر فقد أحدث القرآن الكريم أثرا كبيرا في النقد، فمع مجيء الإسلام، أخذ النقد طريقا آخر غير الذي كان يسلكه في الجاهلية؛ حيث بدأ التركيز على دراسته دراسة نقدية - بلغت أوجها في القرنين الرابع والخامس الهجريين - تعتمد على البحث في الأساليب، والتعمق في أسرار البلاغة، والموازنة بين ألوان الكلام الرفيع، لأنه (القرآن) تجاوز مستوى العرب في الفصاحة والبيان، مما جعلهم يبحثون عن مكامن الجمال فيه ودراستها، الأمر الذي يستدعي البحث عن أدوات النقد لاكتشاف أسرار ذلك الجمال المعجز، تماما مثلما ظهرت مجموعة من العلوم من بينها البلاغة والنحو الذي يختص بضبط قراءة القرآن الكريم ولا يتوقف عند هذا الحد فقط، بل لا زال يمد الباحثين بالعديد من العلوم المتجددة...

وهكذا تطور تأثر النقد بكتاب الله عز وجل، من الاستعانة به في فهم القرآن، كما عند ابن العباس (ت: 68هـ) الذي يقول: "الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن - الذي أنزله الله بلغة العرب- رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه".¹ مروراً "بابن قتيبة" في كتابه "تأويل مشكل القرآن" و"البيان التبيين" "للجاحظ (ت: 255هـ)"، والصناعتين لأبي هلال العسكري، ليصل إلى "عبد القاهر الجرجاني في كتابه" دلائل الإعجاز " ونظرية النظم التي سبقت عصرها بقرون مديدة... إذا كانت قضايا الموازنات والخصومات النقدية قد حدهما زمن معين، فإن مرحلة الإعجاز القرآني توزعتها عدة قرون نقدية. لأن مدارس القرآن وفهمه هي الركيزة التي ارتفعت عليها عالية كل الدراسات والبحوث التي طالت اللغة والأدب والنحو. ويعدّ التشكيل البلاغي من أهم المقاربات النقدية للنص القرآني للكشف عن الجانب الفني لإعجاز القرآن، فقد نهضت الدراسات النقدية التي جعلت موضوعها الإعجاز القرآني على الأسس والمقاربات المنهجية التي انتهى إليها النقاد العرب، حين استفادوا مما وصل إليه الفكر الإسلامي من رقي وازدهار من خلال اتصال المسلمين بالفلسفات غير

¹ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج: 1، دار الكتاب العربي، 1999م، ص: 190

العربية، والتي كشفت لهم عن مستويات من النظر والتفكير دفعتهم إلى معالجة النص من حيث الوضع والاستعمال والاعتقاد. مستفيدين من الأدوات الإجرائية البلاغية للتنقيب والكشف عن خصائص النص الإعجازية. لقد فتح النص القرآني آفاقاً واسعة لافتتاحه على قراءات متعددة، على الرغم من توحد الدال أو النص. فقد "صارت القراءة مشروعاً فكرياً واتجارهاً علمياً بعد أن كانت تجاوباً سلفياً فطرياً. ولما كان القرآن المرجعية التي لا تمارى؛ فإنه هيمن على سائر الحقول الثقافية.. واكتسب النص مشروعيته عبر التفوق والتخطي للموجود"¹

فمن نقاد القرن الرابع الهجري شكّل النص القرآني النموذج الأمثل عند "الرماني" لما حواه من خصائص بلاغية أسلوبية فاق بها كل نص آخر، وبذلك حقق الإعجاز في كل جانب من الجوانب الفنية المشكلة للنص. لقد ذهب الرماني إلى أن بنية النص القرآني بنية عربية حققت عن طريق التحول الإعجاز المرغوب فيه، وهو تحول استفاد كثيراً من خصائص البنية في اللغة العربية، وفي الوقت ذاته لم يهمل الاستعمال، بل إنه أكد أن البنية المكوّنة للنص القرآني هي البنية نفسها المكوّنة للنص عند العرب استعمالاً.

وقد ذهب "هيمالسيف" إلى أن "وضع العلامة يخضع لقوانين الوضع في اللغة ذاتها، وهو إن كان اعتباطياً؛ فإنه يخضع لقوانين هذه اللغة، أو لبنية هذه اللغة، والاستعمال هو الذي يختار من المتوقع والمحتمل من هذه العلامات"².

ويبدو أن الرماني كان يريد التأكيد على هذا الأمر، وهو أن النص القرآني قد استفاد من المتوقع والمحتمل من أنظمة العلامات في اللغة العربية، وفاق في ذلك كل نص آخر.

ومن نقاد القرن الخامس الهجري نجد الإمام "عبد القاهر الجرجاني" قد قارب هذا المجال، ولامس حقائق سبقت عصرها بقرون عديدة، ولا زالت تحظى بالعناية والدرس؛ إذ لا غنى عنها لأهل الاختصاص النقدي في سبيل تلمس الروح العلمية في النص النقدي القديم. فقد شكلت نظريته للنظم سماتاً معرفياً تجاوز المرحلة، بل إن الفهم الذي حملته إلينا هذه النظرية يظل مكانه مهياً حتى في هذا العصر. وفي البداية "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلام بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض... فهذه هي الطرُق والوجوه في تعلق الكلام بعضها ببعض هي كما تراها معاني النحو وأحكامه

¹ - محمد أحمد الخضراوي، مفهوم النص: اللغة والمكون والدلالة، مجلة كتابات معاصرة، ع:4، 1996، ص: 19

² - زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، القاهرة. 1990، ص: 56

وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلّق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئاً من ذلك يغدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى من معانيه¹.

تلك الكلمات الأولى التي بدأ بها عبد القاهر شرح رأيه في الإعجاز وهو عنده "قائم على التربية الفنية؛ تربية الذوق والإحساس والشعور؛ وذلك بممارسة أي نص أدبي أو قرآني، حتى إذا ما ألف الذوق النقد، مارس النص القرآني باحثاً عن الجمال فيه، ففي نظمه يكمن سر إعجازه"².

إن سر الإعجاز عند الجرجاني لا يدركه إلا من امتلك إحدى تلك الدعائم ومنها تربية الذوق. فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾³، وقوله - عز وجل : ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾⁴ وقوله: ﴿بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾⁵ فقولوا الآن: أيجوز أن يكون- تعالى- قد أمر نبيّه- صلى الله عليه وسلم- بأن يتحدى العرب أن يعارضوا بمثله، من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي جاءهم من قبله التحدي؟ ولا بد في الجواب من "لا"؛ لأنهم إن قالوا: يجوز، أبطلوا التحدي من حيث إنه- كما لا يخفى- مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً"⁶. إنه في مذهب عبد القاهر الجرجاني يمتنع الإعجاز باللفظة المفردة والتركيب والمعاني والحركات والسكنات والاستعارة أو التشبيه... لأن الإشارة إلى الممهد به لا يعين على فهمه إلا فحصه بتدقيق النظم وحلاوته؛ فبالنظم والتأليف يكون الإعجاز، وليس هذا الأمر إلا في القرآن.

3- الوظيفة البلاغية

إذا كانت البلاغة تعني فيما تعنيه الإبانة والإفصاح عما يجيش في نفس المتكلم من معان، بحيث يتم توصيلها إلى نفس السامع على نحو محكم، فإن ذلك يؤشر على ارتباطها (البلاغة) بمفهوم توصيلي وظيفي. ذلك ما يظهر من خلال تعريف النقاد العرب القدماء لها. فقد عرفها الرماني بقوله ذلك ما يظهر من خلال تعريف النقاد العرب القدماء

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت . 1978، ص: 7

² - د. حنفي محمد شرف، إعجاز القرآن البياني، مطابع الأهرام، القاهرة . 2010، ص: 102

³ - سورة الإسراء، الآية: 88

⁴ - سورة هود، الآية: 13

⁵ - سورة البقرة، الآية: 23

⁶ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص: 246

لها. فقد عرفها الرمانى بقوله: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"¹ وعرفها القزوينى (ت: 739هـ) بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته."² وعرفها أبو هلال العسكري (ت: 395هـ) بقوله: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن"³

وإلى ذلك ذهب "عبد القاهر الجرجاني" حين يقول: "البيان هو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير وُقَى صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النطق وسهولة اللفظ والإلقاء والخفة على السمع."⁴

أما حديثاً فإن "علي الجمبلاطى" ينطلق في تعريفها قائلاً: "أما اليوم فيقولون أنها العلم أو الفن الذي يعلمنا كيف ننشئ الكلام الجميل المؤثر في النفوس، أو يعلمنا كيف ننشئ القول الأجمل، إذ البلاغة بهذا التعريف هي التي تتكفل بتقديم القوانين العامة، التي تسيطر على الاتصال اللغوي، وهي التي توضح الطرق والأساليب التي يستطيع بها الأديب أن ينقل عن طريق الكلمات والجمل أفكاره وآراءه إلى القارئ على أحسن وجه ممكن، والبلاغة هي التي تقدم لنا جملة من القواعد التي ينبغي أن تراعى في نظم الكلام، الذي يأخذ بالنفوس، والتي تسهل عملية الاتصال اللغوي في صور من التعبير الفصيح"⁵.

وإذا كانت البلاغة- بهذا المعنى- هي استخدام الكلام الجميل المؤثر في النفس والمناسب للموضوع، فإنها ستكون الموجه الأول للنقد العربى القديم؛ خصوصاً حين ازدهرت البلاغة وعلومها في القرنين الرابع والخامس الهجريين، في محاولته رصد الوظائف المنوطة بالأدب عامة والشعر خاصة. ولأن موضوع البلاغة موضوع يجري بالباحث في أفق رحب، ومجال فسيح، فقد يكون من المفيد أن نختار مكونات من هذا الحقل الزاخر، ونعزف من يم عميق، غرفة تخدم "المقاربات الوظيفية" عند أولئك النقاد بشكل أكبر.

¹ الرمانى، النكت، ص: 75

² - مهدي صالح السامرائى تأثير الفكر الدينى في البلاغة العربية، ط: 1، المكتب الإسلامى، دمشق، 1977م، ص: 292

³ - بدوي طبانة، علم البيان، الطبعة الثانية، 1967 م، ص: 7

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 9

⁵ علي الجمبلاطى، الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية، ط: 2، دار نهضة مصر للطبع والنشر

النجالة القاهرة . 1971، ص: 290

إن من الأهمية بمكان، أن تبدأ البلاغة العربية القديمة - حتى عند النقاد اللغويين- بلاغة حجاجية جدلية، قبل أن تكون بلاغة أدبية، فقد بدأت- أول ما بدأت- مع أصحاب الكلام المعتزلة، الذين اعتمدوا وسائل الجدل والإقناع في التأثير على محاورهم بشكل بلاغي، يعلن عن نفسه من خلال وظائف بلاغية تحفز المتلقي، وإن بشكل مُضْمَرٍ، على الاقتناع بما هو معروض عليه أو تعزيز اقتناعه به، حين يمتزج الجدل بالبلاغة، أثناء وظائف التواصل، التي تراعى فيه مستويات المتلقين الثقافية والاجتماعية والنفسية.

اقتترنت البلاغة بالخطاب التداولي الحجاجي تارة كما اقتترنت بالخطاب الأدبي التخيلي الجمالي، وبالتالي فلن يكون اختزالها في الجانب الأسلوبي والجمالي والتضييق عليها منصفًا من الجانب النقدي. لقد جعل حضور البلاغة في كل تفاصيل مكونات النص المعرفي العربي القديم، والأدبي على وجه الخصوص، ما دعا كثيرا من مؤرخي الأدب إلى اعتبار النقد العربي القديم داخلا في عباؤها، مساهما بنائها، غير قادر على الاستقلال عن أطرها العلمية والمعرفية...

إن أهم ما يميز المقاربة النقدية العربية القديمة هو تعايش الملل والنحل النقدية، جنبا إلى جنب، دون أن يلغي مذهب مذهباً، أو يبني تصوره على أنقاض تصور آخر؛ بل إنك تجد العالم الناقد لا يجد حرجا من الاستعانة بما يخالف فكرته النقدية التي يروج لها، من ما يوحي برؤية توسعية لم تسع يوما لمسح الطاولة وإقصاء الآخر... وفي هذا الإطار نرى كيف أن أصحاب البلاغة الحجاجية أو الجدلية لم يحاولوا- قط- أن يلغوا البلاغة الأدبية، فنتج عن ذلك فهم وظيفي أعمق بالبلاغة من خلال ما اكتشفه الإمام" عبد القاهر الجرجاني من معنى يفيض عنه معنى آخر ومعنى ثان وربما معاني كثيرة...

4 - مستويات خطاب النص البلاغي

من بين أمور أخرى، تمتاز اللغة باشتراك أكثر من مكون أو دلالي في صناعتها؛ بحيث يؤدي كل مكون دورا وظيفيا يتناسب مع طبيعة أي نص. وحين يكون النص نصا أدبيا، فإنه- هذه المرة- يحاط بكثير من هذه المكونات الوظيفية التي هي المسؤول وحدها- عما يعطيه فرادته وتميزه. وكلما كثرت تلك المكونات داخل النص ارتقى صاعدا في سلم الشعرية، وتكثف الخطاب مؤذنا بمزيد من المتعة والمؤانسة النابعين من الأطر الجمالية المتغلغلة داخل النص...

من تلك الأطر الجمالية ما لا يخطئه الفهم والذوق من صور شعرية تخضع النص لانزياحات وأخيلة تبرز مآتى الحسن في الكلام، ومنها ما لا تخطئه العين من حلية

ومحسنات بديعية، وقف عندها النقد العربي كثيرا، وتعددت المقاربات النقدية الملامسة لها فيه. ومن هذه المكونات الجمالية- كذلك- ما يزخر به النص الأدبي العربي من معاني وأساليب خفية تتخلل النص العربي، فتوجهه وجهة دلالية غير منتهية، تختلف من قارئ لقارئ، ومن فهم لآخر، ومهما ضبطت وظائف وحدود تلك المكونات، وقسمت تقسيما، فستفيض عنها معاني، قد لا تنتمي إلى أي باب من أبواب علم المعاني، من إيجاز وفصل ووصل وإطناب ومساواة وقصر وإنشاء، ومتعلقات إسناد...

أ- الصورة الشعرية

لقد ارتبطت الصورة الشعرية في النقد العربي القديم بالخيال، بوصفه المنفذ الأهم الذي تعبر منه الصور في كل تجربة شعرية، متجاوزة- بذلك- نظرية المحاكاة التي ترى الخيال والوهم شيئا واحدا، وأوجبت الحذر منه في الأدب.¹ وعلى ذلك سار النقاد الكلاسيكيون، متخذين من الخيال موقفا سلبيا، كما ينوه بذلك الفرنسي "لابرووير- La Bruyère" حين يقول: "يجب أن لا تحتوي أحاديثنا أو كتبنا على كثير من الخيال؛ لأنه لا ينتج غالبا إلا أفكارا باطلة صبيانية، لا تُصلح من شأننا، ولا جدوى منها في صواب الرأي أو قوة التمييز أو السمو، فيجب أن تصدر أفكارنا عن الذوق السليم، والعقل الرَّاجح، وأن تكون أثرا لنفوذ بصيرتنا".²

إلا أن الفيلسوف والمفكر الألماني: "كانت Kant" يرى: "أن الخيال أجل قوى الإنسان، وأنه لا غنى لأية قوى أخرى من قوى الإنسان عن الخيال... وقلما وعى الناس قدر الخيال وخطره".³

والى ذلك يذهب "وردزورث Wordsworth" - وهو أحد الرومانسيين الغربيين متحدثا عن الصورة الشعرية- قائلا: "هي فيض تلقائي للعواطف القويّة، ولكن على أن يثير الشاعر آثار الانفعال في حالة طمأنينة، وهدوء. وقد فرّق بين الوهم والخيال، إذ كرّر خطر الأول، وسمو الثاني. فالوهم سلبّي يغترّ بمظاهر الصور الفنيّة والشعرية، ويسخرها

¹ - محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1987، ص 388.

² - La Bruyère: Les caractères de l'art poétique - Paris, 1942. P : 196.

³ - Martin Heidegger: Kant et le problème de la métaphysique. Paris 1949- p: 16.

لمشاعر فردية عرَضية. أمّا الخيال فهو العدسة الذهبية التي من خلالها يرى الشاعر موضوعات ما يلحظه أصيلة في شكلها، ولونها، وصورتها.¹

لقد كان حضور الخيال قويا مؤثرا؛ سواء حين يبذل الشعراء أبناء الصحراء، ويتركوا مخيلاتهم العجائبية تسمو في سلاسل الشعرية التي ليست سوى ما تحفل به المدونة البلاغية من صور شعرية، تنطلق من فضاءات لا يمكن أن تحدّد حدوده، وسواء حين يقارب النقاد الظاهرة الشعرية واضعين معاييرهم في الانتقاء والإحاطة، بحسب ما يقتضيه مستوى البحث وما يتطلبه من آليات ثلاث مقاسه وتحدد رتبته.

ومن مظاهر التخيل عند العرب القدماء؛ إيمانهم أن وراء عملية الإبداع عند بعض الشعراء - على الأقل - قوة خارقة أو شيطانا هاجسا، لا يتعدى الشاعر كونه مجرد ظل، يكرر دون قصد ما يمليه عليه. والقصص كثيرة في هذا المجال، ومن أشهرها قصة "الأعشى ميمون" وهاجسه الجني "مسحل"...

وإذا كان "قدامة بن جعفر" لم يحفل بالصورة الشعرية - كما أسلفنا - فإن نقادا قبله وبعده وضعوها نصب أعينهم حين تحدثوا عن الشعر. فهذا "الجاحظ" يقول: "فإنما الشعر ضرب من النسخ، وجنس من التصوير"²

ويخلص الإمام "عبد القاهر الجرجاني" إلى غور أبعد في التشبث بالصورة الشعرية معتبرا أن شعرية النص: "الاحتفال، والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين، وتروغهم، والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم... وكذلك حكم الشعر في ما يصنعه من الصور، ويشكله من البذع، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يتوهّم بها الجامد الصامت في صورة الحي الناطق."³ ف"عبد القاهر الجرجاني" دخل إلى عمق الصورة الشعرية وجماليتها الوظيفية في النص من خلال ما تتضمنه من رمز، وتلويح، وإيماء يفوق المعنى الظاهر، لذلك "يستحسن في الشعر اجتماع المألوف، وغير المألوف من الصور، وليس الإغراب في التصوير أمرا ضروريا في كل الأحوال."⁴

¹ - Wordsworth: Letters, later years. London, 1950, p : 116

² - أبو عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، م. س، ص 132.

³ - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة تحق: محمد الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية، لا. ط، 2009، ص 253 - 254.

⁴ - المصدر ذاته، ص: 46

إن اللغة العربية حافلة بالصور الشعرية التي قد تتجاوز التشبيه والاستعارة وغيرهما من الأطر البيانية، إلى صور مركبة موهلة في التخيل، من مثل قول أبي العلاء المعري:¹

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الرُّنَى ————— جِ عَلَيْنَهَا قَلَائِدٌ مِنْ جُمَانِ
هَرَبَ النُّومُ مِنْ عُيُونِي فِيهَا هَرَبَ الْأَمْنِ عَنْ فُؤَادِ الْجَبَانِ

ويعد جابر عصفور رائداً في هذا المجال من المعرفة، فقد كان أول ناقد يتعمق في دراسة الصورة في النقد العربي القديم والبلاغة العربية القديمة، وقد وصل إلى أن مصطلح " الصورة الفنية " لم يرد عند نقادنا القدامى لكن الاهتمام بالمشاكل والقضايا التي يثيرها موجودة في التراث مع اختلاف طريقة العرض والتناول.²

من ذلك نرى أن الصورة الشعرية ظلت حاضرة عند النقاد العرب القدماء، بوصفها إحدى أهم مكونات النص النقدي والبلاغي الذي اشتغلوا عليه، خصوصاً بعد أن بلغ هذا النقد نضجه وتميزه في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

ب - الألوان البلاغية (المحسنات البديعية)

لقد ظلت وظيفة النقد العربي القديم- خصوصاً في مراحله الأولى- تتمثل في استخلاص الجيد والردىء من الشعر ووضع علامات لكل منهما. ونتيجة لذلك فقد جاء في كثير من مدوناته ممتزجاً بمباحث البلاغة واللغة والإعجاز القرآني، حتى غدا فصله عن هذه المباحث أمراً يحتاج إلى جهد غير يسير. وقد كانت مباحث البلاغة تندرج كلها تحت مفهوم البديع، الذي عرّفه القدماء بوصفه علماً تعرف به وجوه تحسين الكلام، وغداً وفقاً لهذه النظرة اسماً جامعاً لفنون البلاغة جميعها بما في ذلك الاستعارة، التي عدّها ابن المعتز (ت: 296هـ) في البديع. حيث لم تعرف البلاغة التقسيم الثلاثي الذي تفرعت بمقتضاه إلى علوم البيان والمعاني والبديع قبل القرن الهجري السابع مع السكاكي (ت: 626هـ). وقد تعددت المقاربات النقدية الملامسة للمحسنات البديعية ولدورها الوظيفي داخل النص الشعري، فكان أن حاول النقاد العرب القدماء وضع خارطة ومنهج يحكم حركتها ونوعها ودرجة كثافتها في الأعمال الأدبية؛ لذلك تباينت أطروحاتهم حول هذه المحسنات: من مقسط متعصب ضدها، أو منصف يجد في تعاطي الشعراء لها الإحسان في التصرف

¹ - الأعلام للزركلي: مج1، ص 157

² - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط: 3، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء

بها تصرفاً بديعاً جديداً يحسب لمبدعه ومنشئه، وفي ذات الوقت ينتقدون أصحاب البديع الذين يملؤون أشعارهم من تلك الألوان والمحسنات، دون تناسب في القول أو اعتدال في بنية النص التركيبية...

على هذا الخلاف مضت قرون نقدية، وسالت صفحات بالكتابة، منظرة ومرشدة توجه الإبداع في النص العربي وجهته الطبيعية الصحيحة، دون تكلف أو إكراه...

وقد ارتبطت النظرة إلى البديع ووظيفته التحسينية بالموقف النقدي من مسألة اللفظ والمعنى، فقد أدى القول بثنائية اللفظ والمعنى إلى القول بثنائية أخرى هي ثنائية التعبير العاري والتعبير المزخرف، التي لم يُقَيِّضْ لها أن تُحَسِّمَ قبل الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ). فقد تبين تهافت القواعد التي تتناول المفردة خارج سياقها النحوي النظمي دون تغليب مستوى على آخر، لأن السر في أدبية وشعرية النص تمر أولاً عن طريق اكتمال عناصر الحسن فيه - حسب عبد القاهر الجرجاني - ذلك "أن البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك، فيما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا، إنما يقصد به وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها، فيما كانت له دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وأنق وأحق أن تستولي على هوى النفس وتتال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى أن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى لمعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية" ج - المعاني والأساليب البلاغية:

وقف أعرابي متحيراً بعد أن سمع قارئاً يقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فاستنكر منه ختام الآية بصفة الرحمة والمغفرة، حتى تنبه القارئ إلى خطئه فأعاد القراءة على الصحيح: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كما نزلت في كتابه تعالى، عند ذلك قال الأعرابي: الآن استقام المعنى.

إن تلك الاستقامة وذلك الكلام البليغ هو الذي يُصَوِّرُهُ المتكَلِّمُ بصورةٍ تناسبُ أحوال المخاطبين، ويعرف ما يجب أن يُصَوَّرَ به كلامه في كل حالة، فيجعل لكلِّ مقامٍ مقالاً. إن هذا الوجه البلاغي هو ما يطلع به علم المعاني الذي يسعى إلى معرفة أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى

¹ - سورة المائدة، الآية: 38

الحال، فلا يتفاخر إنسان في مقام الاستجداء والسؤال، ولا يضحك في مقام التعزية، ولا يعبس أو يقطب في خطبته أو كلامه أو شعره في مقام التهنية.

فهذا ابن رشيق في القرن الخامس الهجري يدعو الشاعر إلى مراعاة المخاطب حين يقول: " غاية الشاعر معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه؛ فذلك سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس، وبه تفاضلوا"¹

إن الحكمة التي توحى بها العبارتان "لكل مقام مقال" وما حملته من جوامع الكلم، "تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في اللغة العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء. ولم يكن يعلم "مالينوفسكي" وهو يصوغ مصطلحه الشهير: "Context de la situation" أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها. إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله، وهم العرب، سجلوه في كتبهم تحت اصطلاح "المقام" ولكن كتبهم لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح "مالينوفسكي" من تلك الدعاية؛ بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات، وبراعة الدعاية الغربية الدائبة² تجلى ذلك من خلال مراعاة الأسلوب البلاغي جوانب كثيرة تتعلق بالمخاطب كما في التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتكثير، والإيجاز والإطناب، وفي ضروب الخبر المختلفة، وفي صياغة الصورة الأدبية، وفي وضوح الكلام وشفافيته، وفي بناء القصيدة، وفي غير ذلك من أساليب صياغة الكلام الكثيرة ... لقد كان ابن طباطبا- وهو يعلم الشعراء- حريصا على تقدير مقامات الكلام إذ على الشاعر " أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله — مما يتطير به، أو يُستجفى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء، ووصف إقفار الديار، وتشتت الألاف، ونعي الشباب، وذم الزمان ولا سيما في القصائد التي تَصْمُنُ المدائح والتهاني ويستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة؛ فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه..."³

الخاتمة

أخيرا نصل إلى أن البلاغة العربية- وبكل المقاربات والمعاني السابقة- تكاد تكون نظرية العرب في الأدب والنقد، تتعدد وظائفها، وتتنوع أسبابها ومظاهرها ونتائجها، وتتدخل في طبيعة الخطاب،

¹ - ابن رشيق، العمدة، شرح صلاح الدين الهواري، مكتبة دار الحياة، مصر، 1996، ص: 230

² - د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، 1998م، ص: 272

³ - ابن طباطبا، عيار الشعر، ص: 204

إلى النص الشعري مستحضرين أبعاده ووظائفه الجمالية التي تحدد وتميز خصوصيته عن مستويات القول الأخرى

موجهة وواضحة درجة ومستوى ما يمثله بالمقارنة مع أنماط الخطابات الأخرى. لذلك، فستكون دراسة مكونات البلاغة الوظيفية عاملاً على فهم المقاربات النقدية المنتشرة في النقد العربي القديم؛ وخاصة في القرنين الرابع والخامس الهجريين...

إن تلك المقاربات النقدية ستتطلب من تحديد الوظائف التي تلبي مستويات المؤانسة والإمتاع، من خلال مدارج القول وانزياحاته داخل النص الأدبي الموسوم بجماليته وفردته. وقد ظل البحث عن ذلك الجمال أو تلك المتعة شغل نقاد الأدب؛ فديمهم وحديثهم. هنا اختلفت المعايير وتباينت من ناقد لآخر، تبعاً لمستواه الثقافي وأيديولوجيته الفكرية؛ بحثاً عن الغايات والأسرار العاملة، من أجل تقويم تلك الأعمال البشرية- التي هي غير منتهية ولا محصورة؛ بسبب غزارتها وتنوعها- بمقاربات نقدية محصورة ومحددة بسبب اعتمادها على قواعد وقوانين علمية صارمة ومضبوطة. وبالرغم من ذلك فإن حصيلة هذا البحث النقدي كانت دائماً تنتج جملة من الآراء المختلفة باختلاف العلماء في تحديد مفهومات الفنون، وتصور أهدافها، وأسباب تأثيرها؛ حتى ليتمكن أن نتحدث - في حالات كثيرة - عن علماء كما لو أننا نتحدث عن مدرسة نقدية متكاملة الخصوصية والتميز...

لقد نظر النقاد العرب القدماء إلى النص الشعري مستحضرين أبعاده ووظائفه الجمالية التي تحدد وتميز خصوصيته عن مستويات القول الأخرى، وكانت البلاغة بمكوناتها- دائماً- المرشدة والموجهة لكل تلك الأعمال النقدية الرائعة...

لائحة المصادر والمراجع:

1. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة . 1998م
2. ابن رشيق، العمدة، شرح صلاح الدين الهواري، مكتبة دار الحياة، مصر . 1996
3. ابن طباطبا، عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981
4. أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، حققها وعلق عليها، محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، د.ط، دار المعارف، مصر، د. ت.
5. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج:9، ط: دار الفكر
6. أبو عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، م. س

7. الأعلام للزركلي: مج1،
8. بدوي طبانة، علم البيان الطبعة الثانية 1967
9. جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط: 3، المركز الثقافي العربي، بيروت . الدار البيضاء 1992.
10. حنفي محمد شرف إعجاز القرآن البياني، مطابع الأهرام، القاهرة . 2010
11. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، القاهرة . 1990
12. السيوطي، الإقتان في علوم القرآن، ج: 1، دار الكتاب العربي، 1999م
13. ضحى بلال، معنى المعنى في النقد الأدبي بين المبدع والمتلقي (أطروحة دكتوراه)
14. عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت . 1978
15. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة تحق: محمد الفاضلي، بيروت، المكتبة العصرية، 2009
16. علي الجمبلاطي، الأصول الحديثة لتدريس اللغة العربية والتربية الدينية، ط: 2
17. فايز الداية، علم الدلالة العربي، ط: 1، دار الفكر، دمشق . 1985
18. محمد أحمد الخضراوي، مفهوم النص: اللغة والمكون والدلالة، مجلة كتابات معاصرة، ع: 4، 1996
19. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1987
20. مهدي صالح السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط: 1، المكتب الإسلامي، دمشق، 1977

La Bruyère : Les caractères de l'art poétique – Paris, 1942.

Martin Heidegger : Kant et le problème de la métaphysique. Paris 1949-Wordsworth: Letters, later years. London, 1950

المدونة النقدية الموريتانية والخطاب حول الأدب:
في وصف مسارات الرأي الأدبي في تشكيلاته وأبعاده النظرية
منذ الاستقلال إلى نهاية ثمانينات القرن الماضي

إبراهيم ولد الشيخ
طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

مقدمة:

يشير الخطاب في معناه اللغوي إلى الصيغة التواصلية للكلام، فعملية التخاطب تستلزم وجود عناصر تواصلية، تتمثل في المتخاطبين وجاء في اللسان: "الخطاب، مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما متخاطبان"¹.

ويطلق الخطاب من بين ما يطلق عليه اليوم على مجموعة من التراكيب المكتوبة، أو المنطوقة، التي تمثل في نظر المنشئ سلسلة تلفظية متجانسة ومؤثرة، وهو في اعتبار لسانيات الجملة نتيجة لعملية منطقية لمتواليات كلامية مؤتلفة في النسق التركيبي²

وقد تعددت تعريفات الخطاب، اليوم نظرا لتعدد المدارس التي تناولته فهو في اللسانيات البنيوية مرادف للكلام أما في لسانيات الخطاب فيعرف بكونه وحدة لغوية تتجاوز أبعادها الجملة والرسالة أو القول والمعتبر في هذه الحالة هو تسلسل وتتابع الجمل المكونة للقول، في حين تقابله المدرسة الفرنسية بمفهوم القول، ويرتبط الخطاب في بعض مفاهيمه باللغة فهو تلفظ بها وتكثيف لإشاراتها وخضوع لنظامها بغية التعبير عن حاجة إنسانية ما ولذلك قام الخطاب على الاتصال ما بين طرفين باث ومتلق أو مرسل ومرسل إليه وبين الطرفين رسالة تستهدف الاستقرار في ذهن المتلقي، وتتعدد أنواع الخطابات غير أن ما يهمنا هنا هو الخطاب الأدبي، بشكل خاص والخطاب عند الشعريين هو مجموعة الخصائص التي تجعل من نص ما نصا أدبيا أو الخصائص التي يتقاطع فيها مختلف النصوص الأدبية".

وإذا كانت اللسانيات ترى أن أعلى وحدة يمكنها التعامل معها هي الجملة فإن الخطاب في هذا المنظور باعتباره مجموعة من الجمل جملة كبرى تعامل كما تعامل الجملة دراسة وتحليلا، وتهتم

¹ - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم مادة خطب/855/1

² - محمد خرماش، حوليات الجامعة التونسية/ع/38/1995/ص/87

بدراسته حقول معرفية عديدة تستمد مقوماتها وأدواتها ومفاهيمها مما يتحقق باستمرار في مجالات البحث اللساني⁽¹⁾

والخطاب الأدبي لا ينضبط كلية لقانون تكوينات الخطابات الأخرى ولكنه يقع مثلها أو أكثر منها في صميم إشكالية التلفظ.² ونعني بالخطاب حول الأدب: الخطاب النقدي الذي لا يهتم بالنص الأدبي من حيث هو كيان إبداعي خاص وإنما يركز على بنيته الفلولوجية وسياقاته الفرضية، ويطابق نتائجه المستخلصة مع أحداث تاريخية متصلة بسيرة الأديب ومحيطه الاجتماعي والسياسي³. أو يلهث وراء أفكار متداولة، مستمدا سلطته من مرجعيات خارجية، قد تكون سياسية، أو عقدية، أو غيرها من دون أن يهتم بتأسيس معرفة منتظمة بالنص الأدبي، وقد يدخل في مفهومنا لهذا الخطاب ما يمكن تسميته بالرأي الأدبي الذي يقف عند شروط المعرفة والتعرف ويقوم على أساس من التصور المعرفي بحيث يري الأفكار الأدبية خطابا حول الأدب ولا يصدر عن منهج من مناهج النقد الأدبي، ليبقى، مجرد تعليقات موازية للنص الأدبي أو وجهات نظر غير مرتبطة برؤية وجودية ومعرفية معينة⁴ هذا المكتوب يريد أن يختبر الخطاب حول الأدب في زاوية إبصار ومعاينة تمكنه من إضاءة تحيزات هذا الذي يسميه الخطاب حول الأدب في التجربة الموريتانية المعاصرة خلال الفترة المحددة.

يريد أن يقف على مرجعياته النظرية في تطورها وتشكل مقولاتها الإجرائية وذلك في الفقرات التالية: نحن نعرف أن الظاهرة الأدبية . مثلها في ذلك مثل غيرها من الظواهر غير الأدبية . لا يمكن أن تنتجها المصادفة كما أنها تتصل عادة بسياق يربطها باللحظة السابقة كما يربطها أيضا باللحظات اللاحقة ولذلك سنرصد هنا لحظتين اثنتين نشير إلى الأولى منهما إشارة عابرة، إذ هي خارجة عن اشتراطات دراستنا، ولكننا سنتلث عند الثانية فنرصد فيها سياق تشكل الخطاب، ونحلل بنياته بشكل تفصيلي بحسب ما يقتضيه المقام.

وبخصوص اللحظة الأولى، فقد ظل المشغل النقدي في موريتانيا، إلى حدود القرن الثالث عشر الهجري، مترددا، بين الشروح اللغوية والتعديد للكتابة الشعرية ولم يكن حقا مستقلا له من دائرة اهتمام العلماء والمتقنين ما لغيره في دائرة الاهتمامات اللغوية كما لم يتوفر على رؤية واعية، تحدد للقراءة

¹ - سعيد يقطين - الخطاب الروائي - المركز الثقافي العربي - ط - ص 170

² - نفس المرجع، ص: 89

³ - محمد ولد عبيد السياق والأنساق، مرجع سابق، ص 135

⁴ - ينظر المقال الذي كتبه الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم/مقدمة في علم الأدب /حوليات كلية الآداب والعلوم

الإنسانية/جامعة نواكشوط العصرية /ع/13/2017/3

وسائل إدراكها لجودة النص أو رداءته، ولم تكن ممارستهم له "واعية به كاختصاص ومجال أدبي مثله مثل المجالات المعرفية الأخرى"¹ ويمكن أن نميز داخل هذه اللحظة بين مرحلتين:

المرحلة الأولى:

كانت مرحلة البداية مع شعراء ولغويين، وجاءت هذه المرحلة في شكل مقولات عفوية نظرية تميزت بالعموم، والإيجاز والجزئية والذاتية، والاقتصار على الجوانب اللغوية، وكان اهتمامها بالشعر دون غيره من الأجناس الأخرى كما يفترض أن معظمها قد ضاع، إذ لم يصل إلينا منها إلا ما دونه الشعراء "أو جاء عرضا وليس مقصودا في المتاح من الكتب الموريتانية التي جمعت بين دفتها أجزاء من الشعر الموريتاني ككتاب فتح الشكور وكتاب الوسيط"².

المرحلة الثانية:

وفي هذه المرحلة ظل النشاط النقدي على قلته متأرجحا بين التنظير، والتطبيق؛ قائما على التعريفات وذكر المحاسن والأضداد موظفا النظم، كأداة فنية وتمثل الجانب النظري فيها في الاهتمام بالجودة الفنية على مستوى الشكل بالبحث "عن إبداع شعري جديد ينشأ عن الاجترار"³، والاجتهاد في تحديد ماهية، الشعر وشروط جودته الفنية، وهي مرحلة أنتجت مؤلفات عديدة من بينها كتاب الأديب في صناعة القريض والنسيب لمؤلفه إدجنة الكميلي وكتاب طبقات الشعراء للتشيتي ونظم الضرورة للتدغي، ورغم تعدد ما كتب من مؤلفات في هذه المرحلة إلا أنها في الحقيقة وكما يقول الشيخ ولد سيدي عبد الله "تكاد تكون تلخيصات وتعليقات على بعض المؤلفات العربية القديمة.... اطردت عندهم لغايات تعليمية صرفة مما يعني أنها لم تصنف كأعمال نقدية مستقلة يتوخى منها أصحابها تأسيس قاعدة لفن النقد"⁴.

أما على مستوى التطبيق فقد تعددت الشروح التي ركزت على إبراز المعاني بطريقة يمتزج فيها الذوق بمعرفة دقائق اللغة وأسرارها، "لقد ظل النقد الشنقيطي وفيما للاتجاه التقليدي القائم على الأسس البلاغية والانطباعية في النقد العربي القديم وهذا ما عبرت عنه المؤلفات"⁵ العديدة والتي نذكر منها

¹ - الشيخ ولد سيدي عبد الله، نقد الشعر الفصيح عند الشناقطة، اتحاد الأنباء والكتاب الموريتانيين ط 1، 2013، ص 451

² محمد أحمد ولد إبراهيم، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا من 1965 إلى 2010 ببيلوغرافيا تحليلية نقدية، ص 95 أطروحة دكتوراه 2013\2014، جامعة سيدي محمد بن عبد الله أكاديمية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرار، فاس المغرب

³ . ينظر محمد الحسن ولد محمد المصطفى، مرجع سابق، ص 17

⁴ - نقد الشعر الفصيح عند الشناقطة، مرجع سابق، ص 451

⁵ - نقد الشعر الفصيح عن الشناقطة، مرجع سابق، ص 455

على سبيل التمثيل، شرح محمد بن حنبل لمقصوده التي عارض فيها أبا صفوان الأسدي، وكتاب الشيخ سيد محمد اليدالي "المربي على صلاة ربي"، بالإضافة إلى شروح عبد الله بن أحمد بن حماد الله الغلاوي لعدة قصائد من بينها بردة كعب وميمية البوصيري.

وإذا كان الخطاب النظري في هذه المرحلة، قائماً على التعريفات وذكر المحاسن والأضرار موظفاً النظم كأداة فنية، فإنه في المرحلة التطبيقية قام على الشروح المنطلقة من الذوق مستخدماً أدوات لغوية؛ نحوية وصرفية وبلاغية¹، وقد ظلت هذه الشروح متأثرة بمناهج المغاربة والأندلسيين التي ازدهرت خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين.

ويجمع الدارسون في حقل الدرس الأدبي الموريتاني على استبعاد إمكانية وجود نصوص نقدية موريتانية في هذه المرحلة تشتمل "على رؤية نقدية واعية تحدد للشعر سننه وللقرءاء وسائل إدراكها لجودة النص وأدواته"² ويرون أن اعتبار النصوص التي سبقت الربع الأخير من القرن العشرين نصوصاً نقدية بما في ذلك الكتب التي سبقت الإشارة إليها هو أمر لا يصح إلا بقدر كبير من التجوز، وذلك لأن "تعامل أهل شنقيط مع الشعر كما تدل عليه الوثائق والأخبار الواصلة إلينا. كان تعاملًا تجريبيًا ذوقياً، لا يؤدي بعد مستوى الفصاحة والتلحين إلى بحث نقدي مؤصل فلم يتبلور عندهم لذلك خطاب نقدي تطبيقي مستقل عن المتن التعليمي، وكان تقبلهم الشعر تقبلاً يتسم بضرب من رحابة الصدر وقبول التنوع الأسلوبي دون رده إلى أصول نقدية نظرية"³.

اللحظة الثانية

أما بخصوص اللحظة الثانية، فلن نكتفي بالوقوف عند حدود الرؤية والمعاناة لها من الخارج والتي تكتفي برصد الخصائص والسمات الفوقية، وإنما سنسعى إلى تفكيك بنيات خطابها وتصنيفها من خلال عينات دالة سنختارها من بين حواضنها المختلفة، واللحظة التي نرصدها هي لحظة بداية تشكل، خطاب انتجه قراء مهتمون بالأدب أو قراء خبراء يفترض أنهم يمتلكون مرجعيات معرفية تسمح لهم بقراءة النص في ضوء استراتيجيات معينة يمكن أن تجعل من خطابهم منتجاً معرفياً يصح إدراجه في حقل الدراسات النقدية بمفهومها الحديث، وهي اللحظة التي سنقف عندها ولا نتجاوزها إلا في إشارة عابرة لما قد يجيء بعدها من تحولات.

¹ . محمد أحمد ولد إبراهيم، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، ص 90

² . محمد ولد عبيد، السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نموذجاً)، ص 131، ط 2009، دار نينوى دمشق سورية.

³ الشعر الشنقيطي في القرن 13هـ: 371، 372.

وهذا النشاط كما سبقت الإشارة لم يعرف التراث العلمي الشنقيطي بدايته إلا في أواسط الستينات من القرن الماضي¹؛ وهو ما يأتي تزامنا مع بداية تشكل مناخ فكري وثقافي ساهم في تطور الأدب بشكل عام حيث ظهرت أجناس أدبية جديدة إلى جانب الشعر كالرواية والقصة والمسرح؛ كما عمل هذا الواقع على إفراز نشاط نقدي جديد يتحرك، بخطأ وثيدة باتجاه، مستوى من الوعي بالمنهج والأدوات الإجرائية وتوسيع دائرة النشاط النقدي، في الوقت ذاته لتشمل إلى جانب الشعر. بقية الأجناس الأدبية الجديدة²، ورغم ما قلناه عن هذا التشكل وهذا النشاط النقدي فقد رأى محمد الحسن ولد محمد المصطفى أن هذا التاريخ لم يكن إلا بداية" تخلقات لم تصل حد الخطاب النقدي"³، وهي ملاحظة وجيهة يمكن تعزيزها بأن المشغل النقدي في هذه اللحظة ظل عملا تجريبيا يفتح أبوابه لكل الممارسين ويخوض غماره الشعراء وأصحاب الهوايات الأدبية كل بأدواته وزوايا قراءته الأمر الذي سيؤدي بنا إلى الحكم عليه ببقائه - في الغالب - ضمن دائرة الرأي الأدبي، رغم وجود شذارات تتخلل هذا الخطاب تند بالفعل عن هذا الحكم يصادفها الدارس وهي تلوح هنا وهناك، هذا فضلا عن بعض الأعمال الأخرى التي مثل وجودها استثناء بالنسبة لما هو متداول في تلك المرحلة ولم تمارس تأثيرا على المشهد النقدي بحكم أنها أطارح ظهرت في الخارج، لم تحتضنها بيئة علمية جامعية داخل البلد.

هذا الرأي الأدبي ظلت حاضنته الصحافة لبعض الوقت، وكان طبيعيا أن تستمر سيادة الرأي الأدبي في الدائرة النقدية في ظل توفر الحاضنة الصحفية التي لا تستطيع إنتاج رأي نقدي وغياب الحواضن العلمية الجامعية التي توفر البيئة المناسبة لهذا العطاء، ومع توفر الحاضنة العلمية بدأ الدرس النقدي يعرف مستوى من التبلور والاتساق مرفودا بمعارف المرحلة الأكاديمية وما يرافقها من الوعي بالأدوات والمرجعيات الفكرية، غير أن ذاك المنحى المعرفي لم يتمكن من الإعلان عن نفسه بشكل فعلي يمكنه من لفت الأنظار إليه، إلا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي حيث تعززت عوامل سابقة بأخرى لاحقة ومن بين هذه العوامل الدور الذي قام به المدرسون في المؤسسات الجامعية والذي أدى إلى تعميق للمدارك النظرية والمنهجية للعملية النقدية، وهكذا اختمر الفعل الثقافي مما أدى إلى تجذير الوعي بخطاب يسعى لامتلاك معرفة وتوظيف أدوات منهجية لإدراك جودة النص أو رداءته ثم بروز جيل جديد من المثقفين الذين مثل نشاطهم بداية تطورات متلاحقة في نشاط القراءة النقدية "حدث ذلك كله في فترات، زمنية متتالية ومتقطعة أحيانا أخرى، تبعا لطبيعة الأجيال الأدبية المتلاحقة

¹ محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، ص 171

² نفس المرجع ص 7

³ محمد ولد عبيد، السياق والأنساق، مرجع سابق، ص 132

التي ظهرت في البلاد في فترات زمنية مختلفة"¹، ثم بدأت بعد ذلك الحركة النقدية الجديدة تتشكل وتتمو لتثمر في الساحة النقدية في نهايات الألفية الماضية والتي مثلت مجالا خصبا لنمو وتبلور هذا العطاء والنشاط العلمي الحديث.

إن هذه الحركة العلمية بخصائصها المتعددة ومرجعياتها الظاهرة والمتخفية أحيانا وما تتلبس به من تداخل زمني ومكاني ومعرفي أحيانا ظلت محل اهتمام الدارسين والمهتمين بالثقافة الأدبية الوطنية، فقد صنفها الناقد محمد الأمن ولد مولاي إبراهيم في عجلة إلى ثلاث دوائر هي:

. الدائرة التقليدية

. دائرة القراءة

. الدائرة الأكاديمية.

في الوقت الذي صنفها باحث موريتاني آخر هو الدكتور محمد ولد عبدي إلى ثلاثة أصناف ولكنه سماها هذه المرة خطابات وهي:

. خطاب التحقيق

. خطاب التعليق

. خطاب التطبيق.

وفي تقديرنا أن التصنيفين . وإن اختلفا في اللفظ . فإنهما يتداخلان، في المحتوى، تداخلا شديدا ومن ذلك مثلا أن خطاب التعليق في تصنيف محمد ولد عبدي يندرج بداخله ما يمكن تصنيفه ضمن الدائرة التقليدية في الوقت الذي يشمل أيضا بعض الأعمال التي تدخل في الدائرة الأكاديمية في تصنيف محمد الأمين.

هذا ولابد من التذكير بأن حديثنا هنا في هذه الفقرة عن التصنيف الذي كشف عنه محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم إنما يتعلق بالدائرة الأولى فقط وسنرجئ تناول الدائرة الثانية، إلى أن يتأتى لنا ذلك في موضع آخر.

وبعد تأملنا للدوائر أو الخطابات السابقة رأينا أن نبقي على التصنيف الأول وإن كان يبدو أكثر إجمالا والتباسا إلا أن ذلك في تقديرنا مما يجعله أكثر مناسبة للظاهرة التي تبدو . هي الأخرى . على قد من الالتباس والتداخل، والتباين في بعض الأوجه . يصعب معه تصنيفها تصنيفا صارما، دقيقا. حيث إنها كانت، "قراءات متفاوتة في النضج متباينة في المرجعيات متنوعة في المنهجيات "متداخلة

¹ . محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، ص 8

بفعل تعايشها داخل الفضاء الزماني والمكاني، وبفعل صدور أصحابها في الغالب عن مشترك معرفي نقدي كرسته سلطة أكاديمية مدرسية¹ مما يجعل لم شتاتها ليس بالأمر الهين.... خاصة إذا تم النظر إليها من منظور... يبتغي تصنيفها²

ورغم احتفاظنا بالتصنيف الأول إلا أننا سندرس تلك القراءات في ضوء محاضنها العلمية حتى نتمكن من إضاءة أبنيتها المختلفة وفك الارتباط يبين اشتباك أنسجتها المتعددة وإضاءة لحظات تشكلاتها المعرفية، لذلك رأينا أنه يمكن التمييز فيها بين نشاطين يتداخلان زمنيا حيناً وينفصلان حيناً آخر؛ أحدهما النشاط النقدي الذي درج في كنف الصحافة المكتوبة، وهو الإنتاج الأكثر ارتباطاً بهذه اللحظة، والمجلي لأهم سماتها الفكرية والفنية.

وثانيهما قد تدرج في أحضان المؤسسات العلمية الأكاديمية، وهو ليس بعيداً في عتباته الدنيا عن سابقه، وفيما يخص الجانب الأول وهو النشاط الذي تشكل في حضن الصحافة المكتوبة والذي هو عبارة عن مقالات صحفية ونرى أن نضيف إليها تقديم الكتب الأدبية والدواوين الشعرية الذي أدخله محمد ولد عبيدي ضمن ما أسماه خطاب التعليق وهو ما يمكن أن نعتبره نحن خطاباً يندرج ضمن دائرة الرأي الأدبي حيث لم يكن له منهج محدد ومتميز كما لم يكن لأصحاب المقالات الصحفية منهج محدد يهيمن على مقالاتهم، وإن حملت أحياناً بذور الواقعية وتحركت فيها على تفاوت وتحسست الطريق نحو أحدث المناهج فقد تميزت بسيادة الانطباع وتشتت بؤرة التحليل إذ لم تنطلق من منهج نقدي واضح المعالم، فبقيت بخصوص المقالات الصحفية مجرد قفزات من هذا الطريق إلى ذاك تشكو من اطراب المفاهيم واختلاط الحدود، ثم إنها لم تتمكن من تأسيس معرفة منتظمة بالنص، وإن حاولت التكيف مع المناهج والأفكار المتداولة في الساحة الثقافية³، فضلاً عن أنها تهيمن عليها الروح السجالية الظاهرة أو الضمنية، التي تجعل الناقد ينطلق من موقف ذاتي يسعى من خلاله سعياً حثيثاً لإقناع المتلقي مستخدماً ما في وسعه من وسائل الإغراء والإقناع، ويندرج هذا النشاط ضمن الدائرة التقليدية في تصنيف محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، وهي دائرة يتحقق نشاطها النقدي في إطار المنهج التقليدي لكلاسيكي الذي "يفتقر إلى الارتباط بالأدب ونصوصه، ويمثل هؤلاء مجموعة من الأدباء المثقفين الذين عايشوا الأوضاع الجديدة وامتلكوا خبرة بالأدب وظلت آراؤهم أقرب" إلى

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الأدب الموريتاني خطاب النقد وشعرية النص، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب

الموريتانيين ط/2013، ص 10

² محمد ولد عبيدي، السياق والأنساق، مرجع سابق، ص 132

³ محمد ولد عبيدي، السياق والأنساق، مرجع سابق، ص 136

شهادات المبدعين وأصحاب الخبرة بالأدب...منها...إلى الآراء النقدية"¹، ولعل هذا الوصف الأخير أكثر انطباقا على تقديم الدواوين الشعرية، ومن أمثلة الخطاب حول الأدب في هذه الدائرة كتابات الشاعر أحمد ولد عبدالقادر في بحثه في مجلة الفكر التونسية².

وقد جاءت بداية تشكل هذا النشاط مع منتصف السبعينات وكانت معظم عيناته البارزة متمثلة في بعض المقالات والتعليقات والتحليلات في جريدة الشعب وهي كتابات ربما تعثر بعضها وسقط في مزالق التجريح وتخبط في منعرجات الذاتية والإيديولوجية والتبسيط؛ يقول محمد ولد عبد الحي: معلقا . بعد أن اختار من هذه المقالات أكثر من عشرين مقالة: "وهكذا يتحول النقد إلى اتهامات واتهامات مضادة تحركها الأغراض والولاءات القبلية"³.

وقد ظل "معظمها يحوم حول النص مستعينا بالقضايا المحيطة به ولم نجد بالفعل بينها محاولة نزلت إلى النص باعتباره خطابا لغويا أو كيانا لغويا يجب تفحص جسمه مباشرة دون حواجز"⁴ ويبدو هدفها الواضح مجرد التكيف مع المناهج والأفكار المتداولة في الساحة الثقافية وليس تأسيس معرفة منتظمة بالنص⁵ كما يظهر أن أصحابها لم يكونوا "يمارسون الكتابة النقدية بصورة مستمرة ولذلك فإن المدونة لا تضم أكثر من مقالين اثنين أو ثلاثة لكاتب واحد وتبدو الخلفية النظرية للكل غير بعيدة عن النقد العربي عند العقاد وطه حسين ومحمد مندور....ومن النادر أن نجد من بينهم من أحال إلى رأي ناقد معين أو إلى مذهب أدبي أو منهج نقدي معين سوى ما يمكن أن نستقيه من بعض الآراء التي يتحمس لها هذا الكاتب أو ذاك وتبدو من أطروحات هذا المنهج أو ذاك..... وغالبا ما يكون حظ الأدب تنظيرا وتطبيقا فيها زهيدا كما وكيفا بحيث تغطي النواحي التاريخية والقضايا الاجتماعية والسياسية على المعالجة الأدبية البحتة " ومن أهم تلك القضايا التي اشتغلت بها تلك المقالات: نشأة الأدب العربي في موريتانيا ومنزلة الشعر الموريتاني القديم في الأدب العربي⁶.

¹ . محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، ص 11

² نفس المرجع والصفحة، نقلا عن مجلة الفكر التونسية

³ محمد ولد عبد الحي، التجديد في الأدب الموريتاني في العصر الحديث، أطروحة مقدمة للحصول على شهادة البحث المعمق، جامعة تونس، كلية الآداب منوبة، 1989م، ص: 253

⁴ نفس المرجع، ص 270

⁵ مجمد ولد عبيدي، السياق والأنساق، مرجع سابق، ص 136

⁶ محمد ولد عبد الحي، التجديد في الأدب الموريتاني، ص 275

كما اتسمت الردود عليها بالآنية والتسرع وعدم التقيد بالضوابط المنهجية وقلما اتسمت هذه الردود بالنظرة الهادئة المعمقة وكانت تدور على مسائل جزئية، ورغم لك فقد كان تأثيرها جليا بروح الانفتاح والتحويلات التي عرفها المشهد الثقافي لذلك حاول أصحابها تجاوز الرؤية التي كانت سائدة والتي تقف عند حدود الشرح، وأن تتخلص من رواسب وتبعات المرحلة الماضية، فبدت لذلك متحفزة لتحقيق قدر من الموضوعية والوعي بطبيعة الإبداع¹ كما حقق النقاش الذي أنتحته تلك المقالات نقلة مهمة في الأدب الموريتاني فضلا عن إسهامه في تأسيس دراسة جادة للشعر وكان له دور مهم في التمهيد للدراسات الأكاديمية التي ستكتب فيما بعد عن هذا الأدب².

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الدائرة الأكاديمية كانت لها بداية مبكرة تزامنت مع اللحظة التي ساد فيها الخطاب التقليدي ولكنها ظلت مطمورة ومنعزلة مع أن تلك البداية مثلت استثناء في لحظة وسياق هذه الدائرة التقليدية وهو التعايش الذي سبقت الإشارة إليه سابقا ويتعلق الأمر هنا بتجربة بعض الدارسين" الذين تبلور لديهم الوعي النقدي بفعل تكوينهم الأكاديمي وانشغالهم بالتدريس، فمثلوا بذلك البداية الفعلية للنشاط النقدي في حياتنا الأدبية"³، ولعله بهذا العرض والتفصيل أصبح بإمكاننا أن نكشف في يسر ووضوح عن المرجعيات المعرفية التي انطلق منها، هذا الخطاب والأدوات الفنية التي توسل بها في استراتيجيات المعالجة الإجرائية

"وتبدو الخلفية النظرية لكل غير بعيدة عن النقد العربي عند العقاد وطه حسين ومحمد مندور" أي أنها لا تحقق انتماء إلى منهج بعينه ولا إلى ناقد، وكأنها تريد أن تصالح كل المناهج والأفكار المتداولة في الساحة العلمية، دون أن تؤسس معرفة منتظمة بالنص⁴.

وإن استلهمت، المرتكزات النظرية السياقية على وجه الإجمال هذا إذن على مستوى المكون النظري أما على المستوى الإجرائي فقد تمثلت الأدوات النقدية في أغلب الأحيان" عند هذه الدائرة في ما يقدمه السياق السيري من تفاصيل تتعلق بأخبار الأدباء وحياتهم الاجتماعية والمحيط الذي نشؤوا فيه، وأخبار تتعلق "بتعاطي مجتمع هذا الأدب لنصوصه وتاريخ تداول هذه النصوص في استهلاكها

¹ محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط موريتانيا، ط: 2008، ص: 25/24

² محمد الحسن ولد محمد المصطفى، الشعر العربي الحديث في موريتانيا، دائرة الثقافة والإعلام الشارقة، 2004، ص 111

³ الأدب الموريتاني خطاب النقد وشعرية النص، مرجع سابق، ص 12

⁴ محمد ولد عبيد، السياق والأنساق، ص 136

وتعالقها الثقافيين¹ ومن أمثلة الخطاب حول الأدب في هذه الدائرة كتابات الشاعر أحمد ولد عبد القادر في بحثه في مجلة الفكر التونسية² ومعظم المقالات التي كتبت في صحيفة الشعب خلال السبعينات والثمانينات، وقد انتقى الدكتور محمد ولد عبد الحي من هذه المقالات عشرين مقالا اعتبرها أقرب إلى المعالجة الأدبية من غيرها، وقد صنف القضايا الفنية والمعنوية في تلك المقالات ولم يهتم بتصنيف المقالات ذاتها، أما نحن فيما أن تركيزنا ينصب على الخطاب نفسه فنرى أن نصف المقالات باعتبارها خطابات نقدية - حسب سماتها الفنية وموقعها في النسق المعرفي، وبعد قراءة فاحصة وترجيح للنظر كرة بعد أخرى رأينا أن نصنف المدونة، إلى:

. مجموعة من المقالات التي تناولت قراءة القراءة أو ما يسمى بنقد النقد . مجموعة من المقالات تناولت الإبداع، وهذه يمكن أن نميز فيها بين مجموعتين؛ مجموعة تناولت قضايا أدبية تتعلق بالشعر، ومجموعة تناولت السرد وأن ننتخب من بين نماذج كل مجموعة مثالا أو مبالغين على أن نشفع هذا الاختيار بملامسة سريعة قد لا تتسرب في مساءلتها للأغوار البعيدة.

1. أما الصنف المتعلق بقراءة القراءة،

فيمكن التمثيل عليه بالمقالات المتسلسلة في بعض أعداد جريدة الشعب والتي كتبها الأستاذ الرشيد ولد صالح منا قشا محمد المختار ولد اباه في بعض القضايا التي تطرق لها في أطروحته الشعر والشعراء في موريتانيا.

وبالإمكان القول إنها تنتزل في إطار ما يعرف بنقد النقد، فهي تعيد قراءة بعض الآراء المتداولة في لحظة معينة، والتي تضمنتها أطروحة الدكتور محمد المختار ولد اباه، وتغلب عليها كما هو واضح - الروح السجالية، وهي لا تتطلق من مرجعية نظرية محددة ضمن الأنساق المعروفة في النقد الأدبي الحديث كما أنها لم تتطلق في أدواتها الإجرائية من منهج نقدي محدد ولعل طبيعة موضوعها - وهو قراءة القراءة - يفرض على الكاتب شيئا من ذلك، مع أنها تستظل بنسق القراءة العلمية الحديثة على وجه العموم وهو الاسترفاد الذي يظهر في تقصي الخصائص وإبراز المميزات من خلال أسلوب المقارنة بين الشعراء وبين عصور الأدب أحيانا، وتبرز النزعة العلمية بشكل واضح عندما يدعو الكاتب صريحا إلى ضرورة التقيد بالصرامة العلمية والتثبت في إطلاق الأحكام وهي لا شك بعض قواعد الاتجاه العلمي التي تبناها المنهج التاريخي في النقد الأدبي الحديث، غير أن هذه الأداة العلمية ترافقها سمة الانفعال والتعميم في إسقاط بعض الأحكام ويمكن اعتبار خاصية الانفعال إحدى الأدوات

¹ . محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، ص 11

² نفس المرجع والصفحة، انقلا عن مجلة الفكر التونسية

التي تم استحضارها وتوظيفها أكثر من مرة في هذه المعالجة هذا إلى جانب أدوات أخرى مثل الملاحظة السريعة والمقارنة والاستنتاج، والمقال يمثل جزءا من حلقة، واحدة من حلقات سلسلة من المساجلات المتسلسلة التي لا يتأتى الحديث عنها بطريقة تحليلية متأنية لأن ذلك يقتضي منا أن نتناولها بمسح استقصائي يتتبع كل حلقاتها المنشورة، وهو ما لا يتسع له هذا الحيز، وعلى ذلك فإنه يصعب أن نقدم عنها تصورا متسقا ومتكاملا، لذلك سنقتصر في حديثنا عنها على ما أوردناه من تبيان لمرجعيتها النظرية وأدواتها الإجرائية وهو الأمر الذي يجلي لنا المسار العام الذي نفترض أن الأستاذ الرشيد ولد صالح كان قد تبناه في هذا الطرح.

2. أما فيما يتعلق بالمجموعة التي تناولت الإبداع فيمكن التمثيل بما يلي:

أ. مقال كتبه الشاعر والأديب الأستاذ، محمد الحافظ ولد أحمدو وقد تناول فيه شخصية امحمد ولد الطلبة اليعقوبي

ومن الواضح أن صاحب المقال يحاول الانطلاق من الخلفية المعرفية للمنهج التاريخي التي تكرسها مقولة الإنسان ابن بيئته لنستمع إليه في هذه الفقرة حيث يقول "لأن مرده إلى عدة عوامل مؤثرة نفسية واجتماعية وثقافية كما أسلفت وكما سنراه في دراستنا لشخصية محمد لكن ذلك ما كان ليتم لابن الطلبة لولا الدور الهام الذي لعبته الأرض الصحراوية وبالذات أرض تيرس على بلورة هذه الشخصية الأعربية عند الشاعر وبما أضفته على أدبه من طابع عربي بدوي وربما أمدته به هو نفسه من مناخ ومناظر وكائنات صحراوية ... هذا ما قدمته أرض تيرس لشاعرنا فماذا أعطاه الشاعر ذلك ما سنراه..."، إن سلطة المؤلف والسياق لتفرض هيمنتها على المقال بشكل كامل، وهذه الهيمنة تمكن قراءتها في البداية من العنوان في نسقه التركيبي ومكوناته المعجمية لكن الطبيعة الإنشائية المسترسلة في سرد الوقائع واستطراد الأفكار تذهب به أحيانا خارج النسق القرائي للدراسة الأدبية، ويبقى استلهاام مقولات هذا المنهج أهم مكون لهذه المعالجة التحليلية، إلى جانب توظيف بعض الأدوات المنتمية لأطروحة هذا المنهج ومن هذه الأدوات نذكر توظيف المقولات النقدية لبعض معاصري الشاعر للتدليل والاستشهاد والتحليل واختيار بعض النماذج ورغم ذلك فالمقال في مجمله يمكن اعتباره مجموعة من الخواطر التي تحكمها المبالغة والإعجاب والذوق الشخصي والتداعيات التي ترتبط بشخصية الشاعر ومحيطه أكثر مما ترتبط بأدبه وفنه

ب. المقال الذي كتبه الشاعر أحمدو ولد عبد القادر وقد تناول فيه مدارس الشعر الموريتاني

لا يختلف هذا المقال عن معظم المقالات التي نشرت في جريدة الشعب بعده أو متزامنة معه من حيث المنطلقات والأهداف والأدوات المستخدمة في القراءة ذلك أن صاحبه قد انطلق أو حاول ذلك

من مقولة الأدب ابن البيئة وما ينجر عن ذلك من تفاعل بين هذين أو اعتبار للأدب مرآة عاكسة لهذه البيئة وتوظيف لمعطيات خارجية لتفسير الأدب عن طريق الإسقاط المباشر، ومن الواضح انتماؤه إلى الدائرة "التقليدية" التي يركز الوعي النقدي عند أصحابها على التصور التقليدي الكلاسيكي القائم على المعطيات الخارجية المستمدة من العلوم الحافة بالأدب المساعدة في التاريخ له دون أن تعطي الاهتمام الكافي للمعطيات الداخلية المستمدة من الأدب ذاته والدائرة التي يتشكل أصحابها في الغالب من الأدباء وأصحاب الثقافة والخبرة بالأدب الذين لم يصلوا إلى المستوى النقدي الكافي لإخراج أحكامهم إلى حيز الحكم النقدي¹.

ج. المقال الذي كتبه الأستاذ سيدي محمد ولد مثالي معلقا على قصيدة "انتظار" للشاعرة الدكتورة مباركة بنت البرا

بدأه بالملاحظة الأولية السريعة لواحدة من أهم عتبات النص وهي عتبة العنوان لكنه لم يتلبث عندها إلا يسيرا إذ لم يناقش البنية والوظيفة، فمر من هناك سريعا، محاولا التأسيس للقراءة بصياغة فرضية، ومن الواضح أنه يحاول الانطلاق من النظرية التي تعتبر الظاهرة الأدبية تشكلا لغويا تمثل وحدة منغلقة على نفسها "وتحليلها يعني إدراك علاقاتها الداخلية ودرجة ترابطها والعناصر المهيمنة وتركيبها بهذا النمط الذي تؤدي به وظيفتها الجمالية المتعددة² ولذلك حاول التركيز على عناصر النص وطرق اشتغالها والعلاقات التي تؤلف بينها، كما حاول نوعا من الوصف والكشف عن آلية الحركة بين عناصر النص والرؤية التي تحكمها في مسعى منه لتحقيق مستوى من الوصف والتحليل، بمعنى أنه بالفعل قد نظر إلى النص باعتباره بنية أو موضوعا مستقلا كخطوة تمهيدية في التحليل وبدا كأنه متحفظ لتطبيق الأطروحة البنيوية إلا أنه لم يهتم باستقصاء جميع مكونات البنية ولا بإبراز عناصر الهيمنة فيها ولا بإبراز المنطق الذي يحكم علاقاتها.... فجاء التحليل طفرات واقتحامات تلج من نافذة إلى أخرى. كما لم يعتن بإضاءة الصورة وفق المنظور البنيوي وهو الأمر الذي يتطلب منه أن يدرس مستواها اللغوي ويكشف الدلالات التي ينتظمها المحور الأفقي أو الجذر التركيبي لهذه الصورة والدلالات التي ينتظمها المحور العمودي وهي المتعلقة بالتداعيات أو الإحياءات.

وفي مستوى التحليل كنا نود لو أنها عملية تدرجت في خطواتها عبر مخطط يخلو من المعنى قبل أن يتداخل به ثم يبدأ معناه بالتوالد بقدر ما تدخل عناصر هذا المخطط في علاقات متشابكة من خلال فاعلية البنية في عملية حوار مع النص تسير في خط متدرج من مستوى المداعبة والملامسة

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، ط 1، 2001، دار الإيمان القاهرة، ص 25

² عرابي لخضر، محاضرات في المدارس النقدية المعاصرة، ص 31

للنص قبل أن تتسرب إلى الأغوار وصولاً مرحلة التشابك والتعقيد¹، حتى يتأتى الكشف عن شبكة العلاقات الداخلية والعناصر المهيمنة ووظائفها داخل البنية و مأتى الحسن وتحليل البنية: سطحية وعميقة، والربط بين المكونين والمرور بمرحلة المقارنات وكشف الرؤية والاستنتاجات والعناصر المهيمنة وكيف تشابهت العناصر وكيف تخالفت، وبلورة الوظائف الجمالية والغايات الفنية المتجسدة في البناء الشكلي والبحث عن طرائق اشتغال الألفاظ وكيفية اشتغال قوانين اللغة في الخطاب والكشف عن هذه القوانين ومدى التزام هذا البناء بقواعد النسق أو اختلافه عنها، كما كان عليه أن ينظر في مكونات النص كما تكشفها مفاصل البنية وينظر أشكال التكرار وأنساق التركيب للصورة الشعرية ويدرس هذه العناصر في إطار العلاقات القائمة بينها ويكشف المنطق الذي يحكم العلاقات، وهي سلسلة من الخطوات الفنية التي تؤلف سيرورة القراءة البنيوية وهو ما تم اختزاله في خطوات قليلة كل هذا حدث ونحن نضع في الحسبان إكراهات الحيز الصحفي للمقال، لكن ذلك لا يكفي مبرراً لتجاهل خطوات منهج لا يتأتى الوصول فيه إلى نتيجة منطقية إلا باحترام أهم قواعده وتوظيف خطواته لاسيما وأنه كان بالإمكان إن يورد التحليل موزعاً على أكثر من عدد واحد من أعداد الصحيفة أو على الأقل تتم الإشارة إلى ما حصل من الاجتزاء لخطوات المنهج، ومهما يكن من أمر فالعذر قائم نظراً لأن اللحظة تعتبر مبكرة في التعاطي مع هذا المنهج في حقل الدرس النقدي الموريتاني الأمر الذي أوقع مجموعة من الفجوات السابقة بالإضافة إلى أنها لم تخل من الارتباك والاضطراب في التعاطي مع النص وتوظيف المفاهيم وهذا ما أشار إليه محمد ولد عبد الحي في تعليقه على هذا المقطع من المقال: (ذلك بأن البناء النحوي للقصيدة بقي قريباً من المستوى الصوري أو البنية العميقة للغة ما، أو ما يسميه شومسكي اللغة الموجودة بالقوة....): ولا يخفى ما في المصطلحات من اضطراب فالمستوى الصوري عند الكاتب هو نفسه البنية العميقة واللغة الموجودة بالقوة ومصطلح الصورة هو المصطلح الأرسطي المقابل للمادة بينما مصطلح البنية العميقة لمصطلح انشومسكي الذي يعني مادة البنية الكلامية أو مادة الخطاب أي الأساس المعجمي لمقولات المعاني قبل التحويلات إلى البنية السطحية ثم الإنجاز الصوتي والبنية السطحية والإنجاز الصوتي هما اللذان يمكن موازنتهما بالصورة الأرسطية².

ثم عقب بشكل إجمالي قائلاً: "ومهما كان في المصطلح من اضطراب فإن هذه أولى المحاولات التي عثرنا عليها في مدونتنا والتي تولي وجهها شطر التركيب اللغوي للنص بدل الملاحظات العامة

¹ صلاح فضل، نظرية البنائية، ص 222

² محمد ولد عبد الحي، التجديد في الأدب العربي بموريتانيا، مرجع سابق، ص 270

المتعلقة بالمفاهيم العامة" في المقال الذي كتبه سيدي محمد ولد متالي في جريدة الشعب 1986/7/23 تعليقا على قصيدة للأستاذة مباركة بنت البراء: التجديد في الأدب العربي في موريتانيا محمد ولد عبد الحي. 3. وفي ما يخص الاهتمام السردى يمكن التمثيل بما كتبه الأستاذ سيد أحمد ولد ادي بعنوان: خواطر حول رواية القبر المجهول.

يأتي عنوان مقال سيد أحمد ولد الدي "خواطر" ليجلي لنا بوضوح درجة وعي كاتبه بمستوى القراءة الذي يريد أن يتناوله هنا وذلك أن اختياره للكتابة تحت هذا العنوان أمر يشير في تقديرنا إلى نيته في التخفيف من سلطة العلم وإكراهات المنهج النقدي وصرامة الأطروحة ولعله قد ابتغى ذلك ليكتفي بأسهل السبل أو لإكراهات الحيز المكاني للصحيفة أو لغير ذلك من الاعتبارات، والمهم أننا لن نطاله بأكثر مما ألمح إليه، فنحن ندرك كغيرنا ممن يحاول قراءة المقال وعند الوهلة الأولى وانطلاقا من النص الموازي الذي هو العنوان أننا نقرأ نصا إنشائيا أكثر مما هو مقالة نقدية، إذ لم يلوح الكاتب بتبني خيار منهجي محدد كما أننا لم نصادف في عرض التحليل توظيفا لجهاز مفاهيمي يربط المقال بحقل معرفي معين، وتتجلى المسحة الإنشائية أولا من خلال العنوان ثم عند تتبع فقرات المكتوب حين يتم تلخيص التعليق على عنصر الحدث والزمان والمكان والقفز بشكل سريع على منطق الأحداث واقتراح بعض البدائل التي يرى الكاتب أنها كانت أجدى من غيرها في الرواية ويتم ذلك في عرض التحليل ليتم في النهاية إسقاط بعد إيديولوجي على الرواية بطريقة مبتسرة غير مشفوعة بالقدر الكافي من التبرير يقول الكاتب:

"ثالثا المرمى الثوري بارز للعيان إذ إن الطبقة الكادحة المسحوقة طبقة البروليتاريا الرعوية قد ثارت واصطرعت مع الطبقة المستغلة فسحقها.... ونشعر نهاية القصة بسيران هذه الجدلية التاريخية فيقول سلامي متعظا من تصارييف الزمان: سبحان من حول أولاد احميدان إلى عربان متجبرين"¹. يبقى أن نشير في الأخير إلى القيمة العلمية لهذه الكتابات في سياق المشهد النقدي الموريتاني الحديث، حيث يرى محمد الحسن ولد محمد المصطفى أن هذه المقالات والتعليقات مثلت المرحلة الأولى في التحسيس بالنقد ووظيفته في دراسة العمل الأدبي والحكم عليه وبشرت به كمشغل مستقل لم يكن مألوفاً في هذه البلاد إلا من خلال ملاحظات تأثرية أو شروح ذات طابع لغوي بلاغي كما كان لها دورها في تهيئة نشأة خطابات نقدية موريتانية منهجية².

¹ سيد أحد ولد الدي خواطر حول رواية القبر المجهول صحيفة الشعب نواكشوط 1986/2/26

² محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، ط 2008، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين

والحاصل أنها أوصلت الدرس النقدي إلى مستوى من الوعي النقدي الذي سيتدرج به من لحظة الرأي الأدبي إلى لحظة الرأي النقدي مما سيؤدي إلى تمايز الدوائر الثلاثة التي سبق الحديث عنها وهو الوعي الذي تجسد في بروز تصورات حول مفهوم النقد وأصوله ووجود أطاريح.

خلاصة

تعرضنا إلى المفهوم الوضعي للخطاب وأشرنا إلى أنه يشير إلى الصيغة التواصلية للكلام وأشرنا إلى أن هذا المفهوم قد شهد اتساعا كبيرا في العصر الحاضر نتيجة لامتداده إلى مختلف حقول المعرفة الإنسانية، وأصبحت له تعريفات مختلفة بحسب اختلاف المدارس والاتجاهات، وأشرنا إلى أن الخطاب الأدبي يقع ضمن إشكالية التلطف، وأوضحنا أن الخطاب النقدي هو الخطاب الذي يهتم بالنص الأدبي من حيث هو كيان إبداعي خاص وقد يوصف بأنه خطاب حول الأدب وذلك إذا كان يقف في تناوله عند حدود المعالجة لقضايا عامة ترتبط بالأدب أو يركز في قراءته للظاهرة الأدبية على البنية الفلولوجية للنص وسياقاته الفرضية، ويطابق نتائجه المستخلصة مع أحداث تاريخية متصلة بسيرة الأديب ومحيطه الاجتماعي والسياسي

وبخصوص الخطاب حول الأدب في التجربة الموريتانية، فقد أوضحنا أنه خطاب أدبي تشكل ضمن حاضنة الصحافة في الفترة التي لم تشهد فيها البلاد حواضن علمية كالجامعة والمؤسسات العليا للتعليم ورصدنا هنالك لحظتين اثنتين وأشرنا إلى الأولى منهما على اعتبار أنها لم تتجاوز مستوى الشرح اللغوي والقواعد المعيارية القديمة للكتابة الشعرية وتوقفنا عند الثانية مميزين داخلها بين مرحلتين؛ مرحلة بداية جاءت في شكل مقولات عفوية نظرية تميزت بالعموم، والإيجاز والجزئية والذاتية، والاقتصار على الجوانب اللغوية، وكان اهتمامها بالشعر دون غيره من الأجناس الأخرى، ومرحلة تلت ذلك وهي مرحلة ظل فيها النشاط النقدي متأرجحا بين التنظير، والتطبيق؛ قائما على التعريفات وذكر المحاسن والأضداد متأثرا في ذلك بمناهج المغاربة والأندلسيين التي ازدهرت خلال القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين.

أما بخصوص اللحظة الثانية، فقد حرصنا على تحديد مجالها الزمني الذي يبدأ من أواسط ستينات القرن الماضي كما قمنا بإبراز سماتها الفوقية وتفكيك مكوناتها وتصنيف خطابها وحشد ما تهيأ لنا من شواهد وأدلة رأينا أنها كافية لتدعيم ما ذهبنا إليه، والتدليل على صحة ما توصلنا إليه إزاءها من فوائد ونتائج ملموسة نذكر منها؛ أن المشغل النقدي في تلك اللحظة ظل عملا تجريبيا يفتح أبوابه لكل الممارسين ويخوض غماره الشعراء وأصحاب الهوايات الأدبية كل بأدواته وزوايا قراءته إذا استثنينا

من ذلك أطروحة محمد المختار ولد اباه التي أنجزت في تلك المرحلة، دون أن يتم تداولها بشكل كبير في الساحة الوطنية.

ومنها كذلك؛ أن الدرس النقدي الوطني لم يعرف مستوى من الاتساق ولم يتمكن من الإعلان عن نفسه بشكل فعلي يمكنه من لفت الأنظار إليه، إلا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

وقبل ذلك لم يكن ثمة منهج محدد ومتميز يهيمن على تلك الكتابات المتمثلة غالباً في مجموعة مقالات كتبت في جريدة الشعب وغيرها، وقد تميزت تلك الكتابات أساساً بالروح السجالية وسيادة الانطباع وتشتت بؤرة التحليل إذ لم تنطلق من منهج نقدي واضح المعالم، رغم محاولتها التكيف مع المناهج والأفكار المتداولة في الساحة الثقافية، ومع ذلك كله فقد حاول أصحابها تجاوز الرؤية التي كانت سائدة والتي تقف عند حدود الشرح، وأن تتخلص من رواسب وتبعات المرحلة الماضية، فبدت لذلك متحفزة لتحقيق قدر من الموضوعية والوعي بطبيعة الإبداع.

"وتبدو الخلفية النظرية لكل غير بعيدة عن النقد العربي عند العقاد وطه حسين ومحمد مندور" أي أنها لا تحقق انتماء إلى منهج بعينه ولا إلى ناقد، وكأنها تريد أن تصالح كل المناهج والأفكار المتداولة في الساحة العلمية، دون أن تؤسس معرفة منتظمة بالنص" وإن استلهمت، المرتكزات النظرية السياقية على وجه الإجمال.

وقد تمثلت أدواتها الإجرائية" في ما يقدمه السياق السيري من تفاصيل تتعلق بأخبار الأدباء وحياتهم الاجتماعية والمحيط الذي نشأوا فيه" ورغم لك فقد كان تأثيرها جلياً بروح الانفتاح والتحويلات التي عرفها المشهد الثقافي بحث أسهمت بشكل واضح في فتح المجال أمام تجارب نقدية أكثر تطوراً في النقد الموريتاني الحديث.

ثبت المصادر والمراجع

أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقطي في القرن الثالث عشر الهجري مساهمة في وصف الأساليب، ط 1995/1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

الشيخ ولد سيدي عبد الله، نقد الشعر الفصيح عند الشناقطة، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، ط 1. صلاح فضل انظرية البنائية

سعيد يقطين، الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي

عراي لخضر، محاضرات في المدارس النقدية المعاصرة

محمد أحمد ولد إبراهيم، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا من 1965 إلى 2010 ببيبلوغرافيا تحليلية نقدية أطروحة دكتوراه 2013. 2014، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرارز، فاس المغرب

محمد الحسن ولد محمد المصطفى، النقد الأدبي الحديث في موريتانيا، اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، نواكشوط موريتانيا، ط: 2008

"محمد الحسن ولد محمد المصطفى، الشعر العربي الحديث في موريتانيا، دار الثقافة والإعلام الشارقة 2004

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم الشعرية التاريخية وأدبية الأدب الموريتاني، ط 1، 2001، دار الإيمان القاهرة

محمد ولد عبد الحي، التجديد في الأدب الموريتاني في العصر الحديث، أطروحة مقدمة للحصول

على شهادة البحث المعمق، جامعة تونس، كلية الآداب منوبة، 1989م

محمد ولد عبيد، السياق والأنساق في الثقافة الموريتانية (الشعر نمونجا)، 2009، دار نينوى دمشق سورية

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، الأدب الموريتاني خطاب النقد وشعرية النص، منشورات اتحاد

الأدباء والكتاب الموريتانيين ط/2013

الصحف والمجلات

حوليات الجامعة التونسية/ع/38/1995

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط العصرية /ع/13/2017

صحيفة الشعب نواكشوط، 1986/2/26

مجلة الفكر التونسية العدد 2 نوفمبر 1977

الوظائف التركيبية والدلالية للعمد النحوية

محمد فال زايد محمد امان

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص

يعالج هذا المقال طبيعة العمدة في النحو العربي، من حيث تعدد الآراء والرؤى حول دلالاته، وتحديد حالاته والأبواب النحوية التي يدخلها وقد كثرت فيه المذاهب وتعددت المسالك. وقد أردنا نشرح في هذه الأسطر مفهوم الجملة واتجاهاتها وعملية الإسناد ومكوناته، ومفهوم العمدة وضوابطه، والأهم من ذلك تحديد الوظائف والأدوار التي تضطلع بها العمدة على مستويي التركيب والدلالة، انطلاقاً من قواعد اللغة واستعمالها التداولي. وعند إنعام النظر في هذه المسائل يمكن أن نخرج منها بضوابط ووظائف محددة يمكن أن تكون محل اتفاق، ووظائف أخرى عصية على الضبط والاتفاق بسبب تباين زوايا النظر فيها وتعدد حالات استعمالها التداولي.

الكلمات المفتاحية: العمدة، الجملة، الإسناد، الفضلة، الوظائف، دلالة، تركيب، النحو.

Résumé

Cet article traite de la nature du sujet dans la grammaire arabe, en termes de diversité des opinions et des visions sur sa signification, et de détermination de ses cas et des portes grammaticales qu'il entre. Il y a eu beaucoup d'écoles et de voies différentes à ce sujet. Nous avons voulu expliquer dans ces lignes le concept de phrase et ses orientations, le processus d'attribution et ses composants, le concept de sujet et ses règles, et plus important encore, définir les fonctions et les rôles que le sujet assume aux niveaux de la structure et du sens, en accord avec les règles de la langue et son usage pragmatique. En examinant ces questions, nous pouvons en tirer des règles et des fonctions spécifiques qui peuvent faire l'objet d'un accord, et d'autres fonctions qui sont difficiles à contrôler et à convenir en raison de la diversité des points de vue et de la multiplicité des cas d'utilisation pragmatique.

Mots-clés : sujet, phrase, attribution, reste, fonctions, signification, structure, grammaire.

1. المقدمة

تكتسب الكلمة معنى معجمياً ضيق النطاق والحدود، ولا يهتم بها المستمع ولا تثير لديه التساؤلات أو التفكير إلا عند ما تُستخدم في الجملة؛ حيث تكتسب أبعاداً جديدة تحدد مكانتها ودلالاتها، وتنشئ

لدى المستمع تفاعلا بين الأبعاد الدلالية للكلمات داخل الجملة، مما يدفعه للتفكير والبحث من أجل فهم المعنى المقصود.

وليس التفكير الذي يسعى المستمع من خلاله لفهم المعنى عشوائياً أو اعتباطياً بلا هدف، بل يتم بواسطة محددات وأدوات تحملها الجملة ذاتها.

وهذه المحددات لا تقتصر على السياقات الخطابية أو الأنماط التركيبية الخاصة فحسب، بل تشمل العوامل التي تؤثر بشكل كبير في توجيه المستمع نحو فهم الدلالة، وخاصة في اللغة العربية التي تُعتبر لغة إعرابية، وأحد أهم هذه العوامل هو موقع الكلمة في الإعراب.

فإذا كان موقع الإعراب هو المؤشر الذي يميز بين صحة المعنى وخطئه، وبدونه تتشابه الأساليب وتلتوي المعاني حتى لا يتم فهم أهدافها وأبعادها، فإنه من الضروري تسليط الضوء على أهمية الإعراب في توضيح المعنى وإظهار ما يقصده المتحدث، وتأكيد مكانة الإعراب في دراسة اللغة، حيث يُعتبر أحد المؤشرات التي تساعد في توضيح المعنى وإزالة الارتباك.

ونظراً لأن الإعراب سمة أساسية للأسماء، يُعتمد عليه في تكوين الجملة ويُعطىها معناها ودلالاتها ضمن الهيكل التركيبي، فإن تأثيره في التوضيح وتحديد قيمة الكلمة داخل الجملة لا يمكن تجاهله. وذلك لأن المعاني التي تُعبر عنها الأسماء بواسطة الإعراب تنقسم إلى ثلاثة أصناف:

- معنى يعتبر عمدة في الجملة، لا يمكن الاستغناء عنه مثل الفاعلية ويكون له الرفع.

- معنى يعتبر فضلة، ويتم الكلام بدونه مثل المفعولية ويكون له النصب.

- معنى يقع بين العمدة والفضلة، ويكون هو المضاف إليه، مثل " غلام زيد"، ويكون له الجر.

فالعمدة مصطلح يستخدم في علم النحو العربي للدلالة على رتبة محجوزة لعنصر معين في الجملة يستلزم وظائف دلالية وتركيبية بعضها يحدده علم المنطق والبعض الآخر يثبت علم النحو وبعضها أثبتته الحداثيّة من النحو التوليدي والتداولي.

ولهذه سنحاول في هذا المقال ضبط مواقع العمد، وتحديد أهم الوظائف التركيبية والدلالية التي يتميز بها.

2. مكونات الإسناد في الجملة العربية

لا بد أن يجتمع في الكلام عند النحاة شيئان مهمان هما: اللفظ والإفادة¹. أما المفردات فلا تكون ذات فائدة بمفردها، وإنما تكون ذات دلالة على معنى مفرد. وهنا يكمن الاختلاف بين الفائدة والمعنى المفرد². والمراد من ذلك هو أن الكلمة المفردة، إذا دلت على معنى في ذاتها، فإنها لا تقيد إلا إذا اختلفت مع غيرها. وذلك لأن الكلام لا يتكون من جزء واحد، بل يحتاج إلى دعائم ومستند يستند إليه. وهذه الدعائم هي المسند والمُسند إليه.

فالمبتدأ في الجملة الاسمية هو المسند إليه، والخبر هو المسند. والفاعل أو نائبه في الجملة الفعلية هو المسند إليه، والفعل هو المسند. وكل ركن من هذين الركنين يعد عمدة لا يمكن الاستغناء عنه في الجملة، وباقي أجزاء الجملة يمكن الاستغناء عنها³. وترتبط علاقة الإسناد بين ركني الإسناد في الجملة الاسمية والفعلية، حتى يعطي الكلام فائدة يحسن السكوت عليها. وإذا جاء المبتدأ مثل "زيد" ولم يتم الإخبار عنه، فإنه يكون مجرد صوت لا محل له من الإعراب والتعبير.

واشترط النحاة لوجود المسند والمُسند إليه في الجملة راجع عندهم إلى أن الاسم الواحد لا يفيد، بل لا بد من الربط بينه وبين غيره، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق إسناده أو إسناد غيره إليه؛ إذ "كيف يُتصور أن يفيد الاسم الواحد، ومدار الفائدة على إثبات شيء أو نفيه، وكلاهما يقتضي شيئين: مثبت ومثبت له، ومنفي ومنفي عنه"⁴، كما أن "الألفاظ المفردة -التي هي أوضاع اللغة- لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد"⁵.

1- انظر: التصريح بمضمون التوضيح: ج/1، 20 الشيخ خالد الأزهرى، وتماشه حاشية الشيخ بس بين العليمي، دار الفكر، القاهرة.

2- انظر الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب للدكتور: تمام حسان: 326، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1982م.

3- انظرت دلائل الإعجاز العبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه الأستاذ محمود محمد شاكر الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة 2000م.

4 - أسرار البلاغة في علم البيان، لعبد القاهر الجرجاني: 367، 368، صححه السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1409 هـ 1988م.

5 - دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني: 539، قرأه وعلق عليه الأستاذ محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2000م.

وقد أُكِّدَ سيبويه على التلازم الشديد بين طرفي العمدة: المسند والمسند إليه؛ حيث يقول عنهما: "وهما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدءاً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبدُ الله أخوك، وهذا أخوك. ومثل ذلك يذهب عبدُ الله، فلا بدءٌ للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم الأول بدءٌ من الآخر في الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقاً، وليت زيدا منطلقاً؛ لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده"¹.

ويقول كذلك في قولك: هذا عبد الله منطلقاً: "فهذا اسم مبتدأ يُبنى عليه ما بعده، وهو عبد الله، ولم يكن ليكون هذا كلاماً؛ حتى يبنى عليه أو يبنى على ما قبله"². ويقول تحت "باب الابتداء": "فالمبتدأ كل اسم ابتدئ ليبني عليه الكلام... فالابتداء لا يكون إلا بمبني عليه"³.

أما حديثه عن طرفي الإسناد في الجملة الفعلية، وحاجة كل منهما للآخر، فيقول عنه: "ألا ترى أن الفعل لا بدءٌ له من الاسم، وإلا لم يكن كلاماً"⁴؛ وذلك لأن الفعل لا يخلو "من مضمر أو مظهر مرفوع من الأسماء"⁵.

وقد علَّل النحاة ضرورة احتواء الجملة الفعلية على فاعل؛ بأن الفعل في حاجة إليه؛ إذ أنه مسند، والمسند محكوم به، ولا بد للمحكوم به من محكوم عليه⁶، كما أن الفاعل كجزء من الفعل، ولا يستغني الجزء عن الجزء، وهذا الأمر يوشك أن يكون مسلماً به عند جمهور النحويين⁷.

¹ - كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: 23 / 1، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1411 هـ 1991 م.

² - الكتاب، ج/1، ص: 78.

³ - المصدر السابق: 2 / 126، وانظر: الكتاب: 2 / 389. إلا أننا نلاحظ أن سيبويه يسمي المبتدأ مسنداً، ويسمي الخبر مسنداً إليه، وهو ما يخالف التحديد المشهور بين النحاة من بعده؛ إذ المبتدأ عندهم هو المسند إليه، والخبر هو المسند". انظر: بناء الجملة العربية، الدكتور: محمد حماسة عبد اللطيف: 43 - 44، دار الشروق بالقاهرة، ط أولي، 1416 هـ 1996 م.

⁴ - الكتاب، ج/1، ص: 21.

⁵ - المصدر نفسه، ج/1، ص: 80.

⁶ - انظر: التصريح بمضمون التوضيح: 1 / 271

⁷ - انظر: اللباب في علل البناء والإعراب، لأبي النقاء عبد الله العكبري: 1 / 149 - 151، تحقيق غازي مختار طليمات، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1416 هـ 1995 م.

3. الجملة

إنَّ الجملة في مفهوم النحاة القدماء ما ائتلف من أكثر من كلمتين أفاد فائدة تامة يحسن السكون عليها، مكونة من اسم واسم أو اسم وفعل أو اسم وحرف عند عدد من النحاة، ولا ائتلاف بين فعل وفعل، ولا بين فعل وحرف.

وعند تصفحنا لكتب القدماء والمحدثين نجد أنَّهم يخلطون بين مصطلحي (الكلام) و(الجملة)، إذ نجد اتجاهين في تعريف الجملة، فالاتجاه الأول هو اتجاه من جعل الجملة والكلام مترادفين، أي أنهما مصطلحان لشيء واحد، فالكلام هو الجملة، والجملة هي الكلام، ويمثل هذا الاتجاه، ابن جني(ت392هـ)¹، والجرجاني، والزمخشري (ت 538هـ)، وابن يعيش (ت643هـ) ومن تبعهم، قال الجرجاني: "اعلم أنَّ الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة، فإذا ائتلف منها اثنان فأفادا نحو خرج زيدٌ سَمِي كلاماً وسَمِي جملة."²

والاتجاه الآخر هو اتجاه من جعل الجملة والكلام مختلفين، ويمثل هذا الاتجاه رضي الدين الاسترأبادي (ت 868هـ) الذي ذهب إلى أنَّ الكلام أعمُّ من الجملة قائلاً: "وكلُّ كلام جملةٌ ولا ينعكس"³ وابن هشام ومن تبعه من النحاة⁴، فشرط الكلام الإفادة، أما الجملة فلا يشترط فيها أن تكون مفيدة، وإنَّما يشترط فيها الإسناد سواء أ أفادت أم لم تفد؛ ولذلك تعدُّ الجملة أعمُّ من الكلام، إذ كلُّ كلام مفيد، وليست كلُّ جملة مفيدة⁵.

أمَّا المحدثون من النحويين فقد اختلفوا أيضاً في تعريفهم للجملة، وفي الأساس الذي اعتمدوا عليه في حدِّهم للجملة، بين الإفادة، والإسناد، والتلازم والربط وغير ذلك من الأسس، ونجد أنَّ آراء المحدثين كانت صدى لدراسات القدماء، فهي متفاوتة بين من قال بالترادف بين الجملة والكلام.

وممن انطلق من معيار وصفي نجد الدكتور إبراهيم انيس الذي يعرف الجملة بقوله: "إن الجملة في أقصر صورها هي أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، سواء تركب هذا القدر من

¹ - الخصائص، ابن جني، ج/1، ص: 27.

² - الجمل، عبد القاهر الجرجاني: 91، وينظر: المفصل في علم العربية، الزمخشري: 8، وشرح المفصل، ابن يعيش، ج/1، ص: 44.

³ - شرح كافية ابن الحاجب، رضي الدين الاسترأبادي، ج/1 ص: 24.

⁴ - ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ج/2، ص: 36.

⁵ - ينظر: الجملة العربية، تأليفها وأقسامها، فاضل السامرائي، ص: 4.

- كلمة واحدة أو أكثر.¹ كما عرفها أنيس منصور أنها أقل قدر من الكلام يفيد معنى مستقلا بنفسه سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر، فإذا سأل القاضي أحد المتهمين قائلا: من كان معك وقت ارتكاب الجريمة؟ فأجاب: زيد، فقد نطق هذا المتهم بكلام مفيد في أقصر صورة.² وبعضهم انطلق من معيار توليدي تحويلي³، والبعض الآخر انطلق من معيار وظيفي تداولي⁴، لا يتسع المقام لذكرها.

4. العمدة

الدارس لهذا المصطلح لن يجد له ذكرا في كتب متقدمي النحاة، ولم أطلع في كتب الدارسين المحدثين من حدد أول ذكر له منذ الرعيل الأول إلى جيل الزمخشري، غير أنا وجدنا في كتاب الرماني اشتقاقا له يمكن اعتباره أول تشكل لهذا المصطلح، وأقدم ظهور له، حيث عبر عنه باسم "المعتمد" حيث يقول: المعتمد البيان الذي لا يجوز حذفه: هو الفاعل...، ومعتمد البيان الذي يجوز حذفه المبتدأ". ويقول: "علة الرفع في الاسم هي ذكر الاسم على جهة [معتمد] الكلام، وعلة النصب فيه ذكره على جهة الفضلة في الكلام"⁵، وحكى عنه أبو هلال العسكري قوله: "وأما معتمد البيان فهو الذي لا يصح الكلام إلا به نحو قولك: ذهب زيد، ... فأما الفاعل فهو معتمد البيان"⁶. فهذا اللفظ (معتمد) في صورة اسم المفعول جاء بدلالة (العمدة) عينها، ولعله بدأ من هنا أو ما يقرب منه، وربما ساعد على ذبوعه أبو موسى الجزولي الذي يقول في مقدمته والمبتدأ معتمد البيان ... والخبر معتمد الفائدة⁷. ثم تطور إلى صورة (العمدة) التي استقر عليها عند المتأخرين، وذاع في كتبهم واعتمدوا عليه⁸. وبالعودة إلى المعنى اللغوي لكلمة "عمدة" نجد أن بناءها يعود إلى الجذر اللغوي (ع. م. د) وهو عند النحاة، وبحسب استعمالهم المطرد أقرب إلى اسم المصدر، وإن كان بناءؤه الظاهر جاء على وزن "فعله"، التي هي "اسم مرة" من الفعل عمد الذي يأتي مصدره الأصلي على وزن "فعل" عمدا ويعود إلى

¹ - من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، القاهرة 1966، ص: 260-261.

² - المرجع نفسه، ص: 26

³ - ينظر: زكريا ميشال، ص: 17

⁴ - ينظر: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، أحمد المتوكل، ص: 33-34.

⁵ - رسالة الحدود، لأبي الحسن الرماني المتوفى سنة 388، ص: 76، 84

⁶ - الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص: 74.

⁷ - شرح المقدمة الجزولية، للجزولي المتوفى سنة 607، ص: 744.

⁸ - انظر: عمدة الحافظ وعدة اللافت، لابن مالك المتوفى سنة 672، ج/1، ص: 174.

الجذر عمد "العين والميم والذال" أصل كبير، فروعته كثيرة ترجع إلى معنى، وهو الاستقامة في الشيء، منتصباً أو ممتداً، وكذلك في الرأي وإرادة الشيء¹.

وبعض متأخري النحاة يعرفون العمدة بأنه ما لا يجوز الاستغناء عنه في الأصل²، وهو تعريف مختصر، ينفي إشكال حذف العمدة حذفاً واجباً في مواضع، وحذفاً جائزاً في مواضع أخرى ذلك أن التعريف يراعي أصل الوضع قبل أن تطرأ عليه طوارئ الاستعمال وعوارضه.

والعمد عند بعض النحاة³ ثلاث: الفاعل والمبتدأ والخبر، وما كان أصله ذلك كالاسم والخبر لكل من إن وأخواتها ولا التبرئة وما الحجازية وكان وأخواتها وكاد وأخواتها ومعمولي ظن وأخواتها ويزيد آخرون الفعل في الجملة الفعلية⁴.

1.4. بين العمدة والفضلة

إن الجملة وإن كانت مؤسسة على العمدة، قائمة على الإسناد، لابد لها في كينونتها من ركنين أساسيين، تعتمد عليهما في تكوينها، وأصل بنائها، وحقيقة وجودها، إلا أنها لا يمكنها أن تستغني عن متممات ولواحق، تلبسها على أصلها، وتجربها على المعنى ذيولها، فتطيلها وتقصرها بقدر الحاجة، وهذه الفواضل هي التي تمنح الجملة قدرتها على التمدد في المعاني والبسط في الدلالات. فالعمدة والفضلة ليس بينهما تنافر، أو علاقة إلغاء، وإنما تتمايز العمدة من الفضلة لاختلاف مراتبهما وتكامل أدوارهما فالعمدة يأخذ مقام التأسيس للتركيب من أصله يقيم نظام الدلالة من أوله فهو الحجر الأساس والمبتدأ الأول. والفضلة تأخذ دور التكملة المعينة للعمدة في إقامة البنية التركيبية، وإتمام المفاهيم الدلالية.

ويمكننا التمييز بين العمدة والفضلة في أمور من أهمها:

من الناحية التركيبية يتميز العمدة عن الفضلة من حيث الاستغناء وعدمه؛ "لأن العمدة هنا المراد بها ما لا يستغنى عنه في التركيب الإسنادي"⁵ ويقول الشاطبي: "والفضلة مقابل العمدة، وهو ما استغنى الكلام عنه، نحو: جاء زيد راكباً، فراكباً لو لم يؤت به لصح الكلام وتم بأجزائه، وكذلك إذا قلت: زيد منطلق راكباً، فلو لم تأت للفعل بفاعل، ولا للمبتدأ بخبر لكان "راكباً" فاعلاً مع الفعل وخبراً مع المبتدأ،

¹ - مقاييس اللغة، ابن فارس ج/4، ص 137

² - المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، للشاطبي، ج/3، ص: 422.

³ - شرح الكافية للرضي، ج/1، ص: 62، 71.

⁴ - انظر: شرح الحدود للفاكهي ص: 214، والمقاصد، ج/3 417.

⁵ - شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد ج/1، ص: 166

فكنت تقول: جاء راكب، ويزيد راكب، فيكون إذ ذاك عمدة لا فضلة؛ لأن الكلام لا يستغني عنه، فلا يكون إذ ذاك حالاً. فهذا معنى كونه فضلة، فتحرز إذا منه في قولك: قام راكب، وزيد راكب، وإن كان وصفاً من الأوصاف¹.

والقاعدة أنه لا يحذف الشيء لغير دليل سواء أكان عمدة أم فضلة، فإن المفعول به قد يحذف أو يقدم لكن الفعل يتضمن دليلاً عليه لأنه يطلبه من الناحية اللفظية والمعنوية وذلك ما يتضح في الفعل المتعدي كقولنا ضربت زيداً.

وإن عرض للعمدة جواز الاستغناء عنها لم تخرج بذلك عن كونها عمدة. وإن عرض للفضلة امتناع الاستغناء عنها لم تخرج بذلك عن كونها فضلة².

"والعمدة عبارة عما لا يسوغ حذفه من أجزاء الكلام، إلا بدليل يقوم مقام اللفظ به"³ ومن ناحية العلامة الإعرابية نجد أن العمدة يأخذ موقعا قويا، وهو الرفع بينما نصيب الفضلة موقع النصب، وأما الجر فعل كثير من القدماء موقعه بكونه واسطة بين العمدة والفضلة. يقول الشاطبي "وقد علم أن أنواع إعرابه ثلاثة: رفع ونصب وجر، فليعلم أن الرفع للعمدة والنصب للفضلة والجر لما بينهما. وإنما كان كذلك لأن الاهتمام بالعمدة أشد من الاهتمام بغيره، فجعل إعرابه الرفع؛ لأن علامته الأصلية الضمة، وهي أظهر الحركات"⁴.

وهذا يظهر الفرق في القوة بين العمدة والفضلة، يقول الجوهري: "وبدأ بالمرفوعات لكون المرفوعات عمدة الكلام، كالأفعال والمبتدأ والخبر، والمنصوب في الأصل فضلة، وإن وقع النصب في بعض العمد تشبيهاً له بالفضلات، كاسم (إن) وخبر (كان) ونحوه"⁵ ومن ناحية المكانة الدلالية الذي تقوم على مرتكزي العمدة والفضلة، مع اختلاف في مقامهما ومحوريتهما في النص، فالدلالة بالدرجة الأولى تبنى على الإسناد واستقامة ركنيه اللذان هما "العمدة" في الكلام، ومن الدرجة الثانية، يبنى الكلام على التوابع والمتممات بتفاوت في مستوى أهميتها، وحضورها في بناء المعنى، وتوضيح قصد المتكلم؛ فدور الفضلة لا يقل أهمية عن دور العمدة، باعتباره عامل انسجام ومحور ارتباط الجملة، لوقوع الفعل بشكل عام عليه وخاصة الفعل المتعدي

1 - المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) ج/3، ص: 417

2 - شرح تسهيل الفوائد محمد ابن مالك، ج/2، ص: 322

3- تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، محمد ابن عبد الرحمن الدماميني، ج/3، ص: 7

4 - شرح التسهيل، مرجع سابق ج/2، ص: 842

5- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن عبد المنعم ج/1، ص: 330

الذي يحتاج في إتمام دلالاته إلى المفعول به، المسمى اصطلاحياً "فضلة"، كاحتياجه للفاعل الذي هو "عمدة"، ويمكن أن نجد هذا في المثال التالي: "ضرب محمد عمراً" فعمراً هنا هو الواقع عليه الفعل والمتمم لمعنى الحدث الذي هو محمد.

فليس معنى الفضلة إذن إمكان الاستغناء عنها متى شئنا وإنما المقصود بـ "الفضلة" أنه يمكن أن يتألف كلام بدونها، إذ كل كلام لابد أن يكون فيه عمدة مذكورة أو مقدرة بخلاف الفضلة فإنه يمكن أن يتألف كلام بدونها نحو "محمد مسافر" و"فاض النهر".¹

ومن ناحية النسبة العددية يظهر من خلال الاستقراء، أن أبواب "العمدة" أقل من أبواب "الفضلة"، فالعمدة من حيث دلالاته على المرفوعات تشمل خمسة أبواب أساساً وهي:

"المبتدأ والخبر والفاعل ونائبه والشبيه بالفاعل، وعنى بالشبيه بالفاعل اسم كان وأخواتها وما حمل عليها، ودخل في الخبر خبر إن وأخواتها وما حمل عليها".² وإن كان تفصيلها قد يصل بها إلى عشرة أبواب وهي: "المبتدأ والخبر والفاعل ونائبه والشبيه بالفاعل، وعنى بالشبيه بالفاعل اسم كان وأخواتها وما حمل عليها، ودخل في الخبر خبر إن وأخواتها وما حمل عليها".³ يضاف إلى ذلك الأفعال فهي كما نص عليها الشاطبي "عمد".

وأما أبواب الفضلة فهي المنصوبات، وهي غالبية أبواب الإعراب النحوي في اللغة العربية، وقد حصرها النحاة في تسعة أشياء هي:

"المفاعيل الخمسة والمستثنى والحال والتمييز والمشبّه بالمفعول به، وعنى بالمشبّه به المنصوب في باب الصفة المشبهة باسم الفاعل".⁴

2.4. الوظائف التركيبية

إن معرفة المسند من المسند إليه لا تكفي لتحديد الوظائف النحوية لعناصر الجملة؛ لأن الإعراب يقتضي تحديد وظيفة الكلمة بينما الإسناد لا يحدد تلك الوظيفة، وإنما يشير إلى المعنى إشارة عامة، فإذا أخذنا جملة اسمية فإننا نجد المسند إليه يأخذ وظائف نحوية كثيرة، كالمبتدأ وأسماء النواسخ..،

¹ - المقاصد الشافية، الشاطبي، ص: 161

² - تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ج 2، ص 842

³ - متممة الأجرومية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف

بالخطاب، ص: 17

⁴ - نفس المصدر نفس الصفحة

وفي الجملة الفعلية نجد المسند إليه يأخذ وظائف الفاعل ونائب الفاعل وغيرهما، كما قد يكون كل من المسند والمسند إليه جملة.

وقد استعمل النحاة مصطلحات دقيقة تبين الوظيفة التي يؤديها كل عنصر بناء على علاقته بالعناصر الأخرى، ومن هذه المصطلحات: الفعل، والفاعل، المبتدأ، الخبر.. فالمبتدأ هو الذي يذكر في بداية الجملة ليؤسس عليه الكلام ابتداءً للتنبيه عليه والإشارة إلى أنه المتحدث، بما سيأتي بعده، لذلك يصح أن يسأل عنه بأداة الاستفهام "ما له؟" وما سيأتي بعده الخبر الذي يحمل معانٍ متعددة بالإضافة إلى المعنى الإسنادي. يمكن أن يكون للخبر معنى الثبات، كما في الأسماء ومشتقاتها، مثل "زيد كريم"، أو معنى التجدد كما في الأفعال، مثل "زيد يُكرم ضيفه".

وفي حالة الجملة الفعلية، يجدر بنا أن نلاحظ أن المسند، وهو الفعل، يحمل معنى التجدد والحدوث مرة بعد أخرى، وفقًا لما ذكره الجرجاني. لذا، فإن الاختصار على الاعتقاد بأن الفعل هو المسند يكفي لاستيعاب هذا المعنى، وهو ما ينطبق على باقي الكلمات سواء كانت مسندة أو مسندة إليها.

قد يعتبر بعض المحدثين، الذين ينتقدون النحاة في قضية العامل، أن جملاً مثل "زيد قائم" تعني "زيد كان قائماً" أو "زيد قائماً". يرى هؤلاء أن الجمل المسندة والمسند إليها فيها شيء واحد لم يتغير. ولكنهم لم يأخذوا في الاعتبار أن قولنا "زيد قائم" يعبر فقط عن إخبار المبتدأ (المسند إليه) في الزمن الحاضر المستقبل، ويرتبط بالابتداء لغرض الإخبار المحض. أما قولنا "كان زيد قائماً"، فتكمن التركيز على الخبر (المسند) الذي يتغير بوجود زمن كان الماضي، ويرتبط بزمانه. وفي حالة قولنا "إن زيدا قائماً"، فإن التركيز يكون على زيد (المسند إليه) الذي يتغير بوجود التأكيدية "إن"، وبالتالي يصبح مؤكداً ومرتبطاً بها.

وبناءً على ذلك، يمكننا تقييم بقية العناصر الأخرى في الجملة بناءً على موقعها في الجملة وتعلقها بالعوامل الأخرى. على سبيل المثال، في حالة الفاعل ونائب الفاعل واسم كان وأخواتها وخبرها واسم أدوات النفي وخبرها، يتم توجيه وصفها وتحليلها بناءً على التعلق.

ومن هنا، يتبين لنا أن الإعراب والإبانة عن المعنى وتحديد الوظائف النحوية لعناصر الجملة يتطلب استخدام المصطلحات النحوية المناسبة والواضحة التي استخدمها النحاة من الخليل وسيبويه¹ إلى ابن جني والجرجاني وغيرهم من علماء النحو.

1 - الكتاب، سيبويه، ج/1، ص: 23.

وبالتالي، ينبغي تجنب استخدام المصطلحين "المسند" و"المسند إليه" في الإعراب، وذلك لأنه من الصعب تضمين جميع الوظائف المتعددة والمعاني المختلفة في مصطلحين فقط. ومع ذلك، لا يغني ذلك التخلي عن استخدامهما تمامًا، بل يمكن استخدامهما في سياق تحديد ركني الجملة، وذلك من أجل ربطهما وتوضيح تلازمهما. وبعد ذلك يأتي الإعراب لتحديد هذا التوازن والتلازم، وذلك من خلال تحديد وظيفة هذين الركنين بدقة، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا من خلال استخدام المصطلحات النحوية المناسبة التي ذكرناها سابقًا.

ولقد أشار الدكتور صالح بلعيد إلى أن "لفظ الاسناد أعم من لفظ الإخبار، لأن الإخبار ما احتمل الصدق والكذب فلم ينطبق إلا على ما احتملها، والإسناد ينطبق على ما احتملها وهو الخبر، وعلى ما لا يحتملها كالاستفهام والأمر والنهي، وما أشبه ذلك مما ليس بخير. فكل خبر مسند وليس كل مسند خبراء"¹.

ومن الغريب أن البعض يعتبر أن هناك التباسا بين المستويات اللغوية، مثل المستوى الصرفي والمستوى النحوي، في هذه المصطلحات مثل "فعل" و"مبتدأ" و"خبر" وغيرها. ففي دراسة اللغة، ليس من الضروري دائمًا فصل هذا المستوى عن ذاك، وخاصة في اللغة العربية التي تتكامل علومها تكاملًا واضحًا لا يمكن إنكاره إذا أردنا دراسة اللغة بما يتناسب مع طبيعتها التكاملية التي تبرز جمالها ورونقها.

ففي بداية ظهور العلوم النحوية، كانت علوم اللغة كلها تعتبر علمًا واحدًا متماسكًا، كما يتضح من أقوال علماء النحو الأوائل. ومن المناسب أن يتم توحيد دراسة العربية بين الصرف والنحو، تمامًا كما يجتمع النحو مع البلاغة ويتداخلان في العديد من القضايا والمسائل، يمكن أيضًا أن يجتمع النحو مع الصرف ويتداخلان في العديد من القضايا والمسائل، مثل تحديد نوع الكلمة وجنسها إلى عدة أمور أخرى ذات صلة. وبالتالي، لا يجب النظر إلى المسند والمسند إليه كمصطلحين محايدتين يمكن استخدامهما لتوضيح جميع الوظائف النحوية، وإنما يجب استخدام المصطلحات النحوية المناسبة والواضحة لتحقيق هذا الغرض.

وإذا كانت الوظائف التركيبية في النظرية الوظيفية تعتمد على ما يعرف بالوجهة، فإن ما ينطبق على النظرية النحوية العربية هو كل باب نحوي تجريدي له تعلق بغيره، هذا المفهوم هو ما سنعتمده، أما الوظائف الدلالية والتداولية فسنحافظ على مفاهيمهما كما هي عليه في النحو الوظيفي، أي أن

¹ - التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ص: 102.

الوظائف الدلالية هي الأدوار التي تقوم بها حدود الجمل بالنسبة إلى الواقعة، والوظائف التداولية هي العلاقات القائمة بين مكونات الجملة في علاقتها بالمقام.

فمصطلح الفاعل من المصطلحات النحوية ذات الصبغة المفردة، كثير الحضور في التحليل النحوي لقضايا الجملة العربية. لكن- نظرا لتعدد الدلالات التي يمكن إسنادها إلى وظيفة الفاعل (تبعاً لنوع الفعل)- نجد علماء العربية قد أغفلوا ذكر الدلالة في تعريفاتهم له، وركزوا على الجانب التركيبي التجريدي البحث، وهذا ما نبه إليه ابن هشام حين أورد تعريف الفاعل قائلاً: "وإنما مثلت ب(قام زيد) و(مات عمرو) ليعلم أنه ليس معنى كون الاسم فاعلاً أن مسماه أحدث شيئاً، بل كونه مسنداً إليه على الوجه المذكور، ألا ترى أن عمراً لم يحدث الموت، ومع ذلك يسمى فاعلاً"¹

يظهر من هذه التعاريف أن الفاعل قد نُظر إليه من جانب شكلي موقعي (أو جانب تركيبى محض؛ الفعل مسنداً إليه مقدماً عليه)، كما نُظر إليه من جانب الوظيفة الدلالية وهو القيام بالفعل، لكن وجود استثناءات جعل النحاة لا يعولون كثيراً على هذه الوظيفة (الدلالية) في تحديد الفاعل، بل ركزوا على الشكل لأنه يسهل وضع حد جامع مانع يضبط هذا الباب النحوي، ويسهل تمييزه عن غيره.

أما في نظرية النحو الوظيفي فإن الفاعل يتحدد بالنظر إلى الوجهة، أي أن الواقعة حين تُقدم تستلزم منظوراً رئيساً، وآخر ثانوياً، الفاعل هو المنظور الرئيس، ولذلك يعرف بأنه: "الحد الذي يشكل المنظور الرئيسي للوجهة التي تُقدم انطلاقاً منها الواقعة الدال عليها محمول الجمل"²، وبذلك يمثّل وظيفة تركيبية من منطلق هذه المعالجة.

فهو كحد تتطلبه الواقعة يحمل وظائف دلالية بحسب نوع هذه الواقعة؛ التي قد تكون أعمالاً أو أحداثاً أو أوضاعاً أو حالات، والأمثلة التالية توضح هذه الأنواع على التوالي:

أ- كتبت هند رسالة (عمل)

ب- حطمت الريح السفينة (قوة)

ج- وقفت زينب بباب بيتها (وضع)

د- فرح خالد لنجاح هند (حالة).

¹ - شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام ومعه كتاب: سبيل الهدى بتحقيق شرح قطر الندى، لمحي الدين عبد

الحמיד، دار الطلائع، القاهرة، ط: 2004، ص: 183

² - من البنية الحملية إلى البنية المكونية، أحمد المتوكل، ص: 19

وهذا يعني أن الفاعل قد يكون - من حيث وظيفته الدلالية - دالا على منفذ، أو قوة، أو متموضع، أو حائل¹.

ومن خلال هذا العرض يتبدى أن لا تعارض بين النظريتين، إلا أن نظرة النحو الوظيفي أبين وأوضح من حيث تفريقها بين الوظائف التركيبية والدلالية، ولكي تكون النظرة في مصطلح الفاعل النحوي في النظرية النحوية العربية أدق أقترح أن تضاف إليه الوظائف الدلالية وصفا وتحليلا بحسب الواقعة، فيكون إعراب الفاعل ب: فاعل منفذ/ قوة/ حائل... مرفوع وعلامة رفعه الضمة... وإذا كان الموضوع المسند إليه وظيفة الفاعل محدثا عنه أضفنا إليه الوظيفة التداولية المحور، فنقول: فاعل منفذ محور مرفوع... ومن هنا نجد أن هذه الوظائف الدلالية والتداولية، إذا أضيفت إلى الوظيفة النحوية فإنها ستغنيها وتوضحها، وتكملها.

3.4. الوظائف الدلالية

الوظائف الدلالية للعمد هي الأدوار التي تقوم بها هذه العناصر الرئيسية في حدود الجمل بالنسبة إلى الواقعة، والوظائف التداولية هي العلاقات القائمة بين مكونات الجملة في علاقتها بالمقام. فالفاعل مثلا من المصطلحات النحوية ذات الصبغة المفردة، كثير الحضور في التحليل النحوي لقضايا الجملة العربية وهو يتحدد بالنظر إلى الوجهة، أي أن الواقعة حين تُقدم تستلزم منظورا رئيسا، وآخر ثانويا، الفاعل هو المنظور الرئيس، ولذلك يعرف بأنه: "الحد الذي يشكل المنظور الرئيسي للوجهة التي تُقدم انطلاقا منها الواقعة الدال عليها محمول الحمل"²، وهو يمثل وظيفة تركيبية من منطلق هذه المعالجة.

أما نائب الفاعل أو المفعول الذي لم يسم فاعله فهو ينتج عن حذف الفاعل النحوي لغرض من الأغراض اللفظية أو المعنوية، ويوجب هذا الحذف تعديلا في بنية الجملة، ومن بين ما يعدل: أن العنصر الموالي له يحل محله آخذا وظيفته التركيبية وقد نبه الإمام الجرجاني إلى أن نائب الفاعل ما هو إلا فاعل فقال: "اعلم أن الشريطة إذا كانت ما ذكرنا؛ من أن من يسند الفعل إلى الاسم مقدما عليه، فلا فصل بين (ضرب زيد) و(ضرب زيد) في جواز تسمية كل واحد منهما فاعلا، وإذا جاز أن يسمى نحو: (مات زيد) فاعلا مع أنه عار من الفعل ومفعول في المعنى من حيث أن الله تعالى

¹ - ينظر، الجملة المركبة في اللغة العربية، أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ط 1، 1987، ص: 21، 34

² من البنية الحملية إلى البنية المكونية، أحمد المتوكل، ص: 19

أما، جاز أيضا أن يسمى (زيد) في قولك: (ضرب زيد) فاعلا، وإن كان قد وقع عليه الفعل في المعنى، وذلك لما ذكرنا من أن الاعتبار بأن يكون الفعل مسندا إليه مقدما عليه¹. أما المبتدأ فقد عرف المتوكل وظيفته التداولية بأنه ما يُحدّد مجال الخطاب، الذي يُعتبر الحمل بالنسبة إليه واردا² وبعبارة أخرى هو المُكوّن الذي يدل على مجال الخطاب الذي يُعدّ الحمل الموالي واردا بالنسبة إليه³ ويعني ذلك أنّ الخاصية المميزة للمبتدأ هي ورود الحمل بأكمله تابعا له نحو ما تبينه الجمل الآتية:

-زيد، أبوه مريض.

-زيد، هل لقيت أباه.

-زيد، إن تكرمه يُكرمك⁴.

وتأخذ المركبات الاسمية الأولى في الجمل المتتالية؛ حيث البنية الجمالية الموالية لها كلّها واردة بالنسبة إليها، الوظيفة التداولية المبتدأ، باعتبارها تشكل مجال الخطاب، وما يلاحظ على هذه المكونات الاسمية أنها لا تأخذ سوى الوظيفة التداولية (المبتدأ) وليس لها إمكانية أخذ وظيفة دلالية ولا تركيبية؛ لأنها لا تُعتبر حدا من حدود البنية الجمالية، وليست فاعلا ولا مفعولا.

5. الخاتمة

بعد الوقوف على المقاربة النحوية القديمة للعناصر التي شغلت وظيفة العمدة خلصت الدراسة إلى أن هذه الوظيفة التي سماها القدماء عمدة يقع عليها مدار الكثير من أبواب النحو، من جهة التصنيف والتبويب، ومن جهة الرتبة المحفوظة وغير المحفوظة، وأبرز ما انتهى إليه البحث أن:

1- الدراسات اللسانية على اختلاف منطلقاتها النصية والسياقية، تعتمد -بشكل مباشر أو غير مباشر- على تصنيف القدماء للجملة لثنائية العمدة والفضلة.

¹ -المقتصد، الجرجاني، ج 1، ص 346

² -الوظائف التداولية، أحمد المتوكل، ص: 115

³ -اللسانيات في الثقافة العربية المعاصر، حافظ إسماعيل علوي، ص: 352.

⁴ -الوظائف التداولية، أحمد المتوكل، ص: 117

- 2- النحو العربي لم يكن مجرد علم يُركز على تتبع علامات الإعراب والبناء، بل كان يهتم أيضًا بترتيب الكلام ومقاصد المتكلمين. وكل ذلك يستند إلى أساس من النحو يتضمن الإسناد والتعليق. وهذا يؤكد أن للنحو وظيفة وغاية أوسع من مجرد ذلك.
- 3- تُولي الرتبة اهتمامًا خاصًا بإبراز العلاقات بين الكلمات. فتتشأ العلاقات النحوية بين الكلمات من خلال تنظيمها في ترتيب محدد داخل الجملة العربية، حيث يحتاج بعضها إلى حيز مكان معين لبعضها الآخر.
- 4- المفهوم النحوي للفضلة والعمدة يتمتع بقدرة أكبر في وصف العنصر في الجملة العربية بالمقارنة مع المسند والمُسند إليه. فالفضلة والعمدة يتخطيان مفهوم الإسناد والعلاقة الوظيفية، بحيث يمكنهما ضم عناصر إضافية من الجملة بخلاف المبتدأ والخبر والفعل والفاعل. ويتجلى ذلك في استخدام مصطلح "شبه العمدة" في هذا السياق لوصف عناصر مختلفة تقوم بوظائف غير وظائفها الأصلية وتشارك العمدة في وظائفها الأساسية.
- 5- استخدام مصطلحي العمدة والفضلة له حظ كبير من الدقة والمنهجية؛ لأنهما يدلان على التمييز بين العناصر الأساسية المكونة للجملة، ومصطلح الفضلة لا يعني وصفاً قدحياً في عناصره وإنما يدل على ترتيب الأولويات داخل بناء الجملة، وكونه لا يمكن الاستغناء عنه في بعض الحالات لا يجعله عمدة.
- 6- التقديم التأخير يأتي لوظائف بلاغية يروم بها المتكلم مطابقة كلامه لمقتضى الحال، ولا تخضع لنظرية العمدة والفضلة.
- 7- حاجة الدرس اللغوي إلى مزيد من رسم الحدود والمعالم، وتوضيح أبواب العمد والفضلات بطريقة علمية تحسم الجدل والخلاف فيها، وتصنف ما يعرف بأشباه العمد وتحديد مكانتها ودورها في الدلالة والتركيب.

تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية

محمد تقي الله سيدي القوم

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

يتنزل هذا المقال الذي نحن بصدد معالجته في سياق التناص في الشعر الموريتاني، موضوع أطروحتنا، وقد جاء ضمن الفصل الأخير منها والذي اخترنا له عنوانا (تناص الشعر الموريتاني مع الموروث الوطني) حيث تطرقنا إلى تناص هذا الشعر مع المقاومة الوطنية للاستعمار ومع قضايا المظلومين والمضطهدين وأخيرا مع الأماكن المحلية، موضوع هذا المقال.

يعتبر المكان في الثقافة البشرية من أهم الأسس التي سكنت رافد الإبداع الشعري للإنسان، وقد تناولت معظم الملاحم الشعرية العالمية موضوع التعلق بالوطن وتمجيده وتثمين كل ما يتعلق به، وليس الوطن في ثقافتنا العربية بمنأى عن هذا التوجه، ذلك أن الأماكن التي ظل العربي يرتادها في تتبعه لمظان الغيث والكأ والدمن التي بكأها ليست إلا وجها من وجوه التعلق بهذا الوطن والحنين إليه.

ويرى بعض الباحثين أن >> الشعرية العربي قامت في الأساس على تقسيم الشعراء الى اغراض متعددة وقد استأثر الوطن (المكان) بنصيب الأسد في هذه الأغراض¹ <<، ذلك أن الوطن في الثقافة العربية ظل له حضور بارز في اغلب أغراض الشعر سواء كان غزلا أو رثاء أو مدحا أو وصفا لطبيعية.

وتأسيا على ذلك فهو مرادف للوطن والسكنى والإقامة في هذه الثقافة، وتماهيا مع ذلك فإن الحقل الدلالي المتعلق به >> استطاع أن يسيطر على أنماط معرفية متعددة فحتى في علم العروض لم يستطع العرب تجاوز دلالة المكان في تقسيمهم لأنماطه وأقسامه بحيث كانت الخيمة حاضرة ابتداء من السبب والضرب، أما البيت فهو أكبر دليلا على حضور المكان في التراث العربي، ولكي تتضح الدلالة أكثر علينا أن نتأمل قول بن رشيق متحدثا عن علاقة اللفظ للمعنى: ولا خير في بيت لا ساكن له ، فالبيت من هذا المنطلق نستفيد من دلالاته المعمارية ومن بعده الفني ليحي لنا في النهاية إلى أنه مكان وسكن <<²

¹ د الشيخ بن سيدي عبد الله: دراسات في الأدب والثقافة، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، مطبعة المنار،

لكصر، نواكشوط. موريتانيا 2015، ص 37

² المرجع نفسه والصفحة

وقد اتحل المكان في نفوس الشعراء الموريتانيين مكانة مرموقة باعتباره منسك حبههم وملعب صباهم فتناصوا مع في اشعارهم وصورا تعلقهم به وكفنههم وهيامهم بسكانه وطبيعته، فكانوا لا يمرون بسائحة ولا بارحة تتعلق به إلا تجلى أثرها واضحا في نصوصهم الشعرية مما يشي بأصالة نحيزتهم الشعرية وخصوصية عطائهم العاطفي وسرعة استجابتهم لشتى البواعث والدواعي¹ فشكل بذلك مرجعية ثقافية ومنبعا ثرا لعطائهم الشعري فجاء تناصهم معه ينوء بالكثير من الحملات العاطفية والفكرية والاشارات والدلالات التي لا يتأتى تفكيك شفراتها الا للقارئ المتمكن والحادق الفطن المسلح بآليات القراءة الواعية والثقافة العالمية ، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك ما نلمسه في استنطاق نصوص بعض الشعراء الموريتانيين التالية أسمائهم :

1 - الشيخ سيديا²:

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر³:

ألا عم صباحا يا أبا تلميذا وحز من نجاح ما أردت وشيتا
وساق إليك الله كل فضيلة وجاد بأرضيك الجدى فحظيتا
وحفت بك الخيرات من كل وجهة ونادى منادي الفضل نحوك هيتا

ونلاحظ أن تناص الشاعر مع موطنه يحمل في طياته حبا جارفا وتعلقا كبيرا حيث يلهج بالدعاء لهذه البقعة من الأرض لفرط تعلقه بها واصطبغ عواطفه وتلونها بالوفاء لها حتى وكأنه يرى فيها أمه التي أرضعته لبانها فكانت حقيقة بالدعاء لها للبر بها وبأهلها، فالمكان في هذا السياق قد جاء رمزا متناميا في النص برمته يهيمن على حركاته من بينته الافتتاحية حتى بنيته الختامية، يتمفصل في كل دواله فكريا ونحويا وأدائيا⁴ مما يشي بمتانة الروابط التي تشده إليه وعمق تعلقه به واستحضاره وتمثله لها.

¹ إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ سيديا: الموروث الثقافي والأدبي للشيخ سيديا، دار الكتب العلمية، أعمال ندوة بوتليت 17-19، بيروت لبنان، 2006، ص 121.

³ الموروث الثقافي والأدبي م س ص 107

⁴ عصام حفظ الله حسين واصل: التناص التراثي في الشعر العربي المعاصر، دار غيداء للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1، الحائر، 1431، ص 153

2 - الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سديا¹:

ومن مظاهر تناسل الشعر الموريتاني مع الاماكن المحلية وارتباطه بها قول الشاعر مخاطبا أحد المناهل الرعوية وهي بئر عربها باسم (ميمونة السعدى)²:

لعمرك ما ترتاب ميمونة السعدى بأنا تركنا السعي في أمرها عمدا
سوى أننا كنا عبيد مشيئة ولا عار في أن يعجز السيد العبد
فليس علينا أن يساعدنا القضا ولكن علينا أننا نبذل الجهد
ألم ترى أنا قد رعيناه عهودها على حين لا يرعى سوانا لها عهدا
ويظعن عنها الناس حال انتجاعهم ولم نتجع برقا يلوح ولا رعدا

حبسنا عليها وهي جذب سوانا فما صدنا السعدان عنها ولا صدا
ولا يخفى أن تناسل الشاعر عنا مع المكان يلفه غشاء من الحزن والألم وإن غطى على ذلك بحسن الرجاء والثقة بالله، فالشعور بالحنين والغربة والذكريات مع المكان كلها أمور تعمق تيمة الحزن لدى الشاعر، ذلك أن الاعمال الأدبية كما يرى بور خيس لا تشكل ذكريات بسيطة بل إنها تقيد كتابة ذكرياتها وتؤثر في السابقين والاسلاف في حالة التناسل مع الموروث الجمعي الذي يصبح ملكا للجميع.³ وفي سياق غير بعيد يتناص الشاعر مع مكان آخر حيث نجده يعتذر عن اغترابه عن معاهد صباه وديار أنسه ويؤكد أن ذلك لم يكن بمحض اختياره وإنما اضطرته إليه الظروف اضطرارا فيقول:⁴

طال في أربع القرار قراري ليت شعري مالي ومال القرار
طال مكثي وإنما طال فيها باختيار المليك لا باختياري
لم أكن مزعم القدوم إليها بل رمتني لها يد الأقدار
ليت شعري والعبد ذو اجبار وهو يبدو في قالب المختار
هل يسنى لنا سجنس الليالي عوض من عودة الى اوكاري
تلك أرضي التي أحب أهوى وهي حقا منازل الأحرار

¹ سبق التعريف به

² الموروث الثقافي والأدبي، م س، ص 125

³ حصّة البادي: التناسل في الشعر العربي الحديث (البرغوثي نموذجا)، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، ط

1، الأردن، 2008، ص 166

⁴ الموروث الثقافي والأدبي، م س، ص 127

وإذا عدنا إلى النص نجد أن تناسل الشاعر مع المكان يشي بعمق الروابط التي تربطه به حتى يمكن القول انه يشكل حاضنته الاجتماعية والثقافية وتأسيسا على ذلك نستطيع القول انه بث في ملفوظه الشعري كوى من الشوق الى هذا المكان (الوطن) ناهيك عن نار الغربة التي تحرقه، ولذلك قد ظلت تيمة الحزن والشجن يهيمنان على جميع مفاصل النص وتتشظيان في جسده، وبذلك فقد استطاع الشاعر في تناسله وتعالقه مع المكان (أوكار) أن يعبر عن أدق خلجات تجربته وأن يكسب هذه الخلجات وجودا نابضا، كما استطاع ان يعبر عن غريته المكانية وامانيه بالعودة الى ربوع بلاده التي يسميها ببلاد الاحرار، وقد بلغ ولد الشيخ سديا في الاماكن المحلية والتحامه به وتغلغلها في اعماقه ان لجأ إلى مقارنة علاقته به بعلاقة الشعراء القدماء ببلادهم المذكورة في اشعارهم حيث يقول في هذا السياق:¹

ولذات اليمن بلغ انني ان تكن سلمى فاني بعض طي

فتناص الشاعر مع المكان في هذا السياق يحيل مرجعيا على حياة منشئه كما يقول جمال ولد الحسن، ويرى بعض الباحثين أن التناص مع المواطن بأعلامها مرتبط غرضيا مع الغزل مقدمة لغيره أو غرضا مسقلا حيث ان الغزل عند كثير من الشعراء ظل مناسبة للتناص مع اسماء المواطن والحبيبات، وان كان ذلك بطرق تختلف من شاعر لشاعر .

3 - محمد بن الطلبة اليعقوبي:

ومن تناسل ولد الطلبة مع المكان امتياحه من ذكريات صباه التي عرف بها الوان المسرة والسعادة وانطلاقا من هذا التناص والتمثل والاستحضار تتفاوت قيمة هذه السعادة حسب المكان المتناص مثل ما نقرأ في قوله²:

وتشهد أيام الصبا عند ربها بأن ليس فيها مثل عصر الذريع

فالتناص مع المكان مثقل بنوع من الحنين الضمني والحسرة على ذلك الماضي المشرق الذي ما تزال ذاكرة المكان (الذريع) تحتفظ به، ولعل تلك الايام التي لم تدم هي التي عاناها ولد الطلبة وأبناها بقوله:

فلو كنت أبكي لشيء مضى بكيت على دهرها الزائل

¹ الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، ص 227

² دراسات في الشعر الموريتاني ملامح الابداع في شعر محمد بن الطلبة اليعقوبي الشنقيطي، انجاز مجموعة من الباحثين بإشراف دار الرضوان نواكشوط موريتانيا، 2013، ص 16

ومن تناص ولد الطلبه مع الأماكن المحلية وارتباطه بها مساءلته للمغاني حيث وجه استفساره إلى هضبة الخيل قائلا:

هضبة الخيل أين حي حلال عمروا منك كل مغنى خراب
أين حي غنوا بسبحك دهرأ محسني حرص رفعه الأحساب

ونستطيع القول إن المكان الذي تناص الشاعر معه (هضبة الخيل) يكتنز من ذكريات الشاعر وهمومه وشجونه ما يجعله خلفية ثقافية تشكل مرجعيته النصية التي ترفد كثيرا من نصوصه الشعرية كما نلمس في تناصه مع (ترارين وآمله) حيث يقول:¹

بترارين مربع للرباب حسن لو ابان نطق الجواب
وبآمله حوله ربع سلمى صيرته اليالي رغم الكتاب

ونستشف من تناص ولد الطلبه مع الأماكن المحلية وخاصة هذين المكانين انه يحمل في ثناياه بعض المآخذ على الزمن مثل تغيير معالم امكنة محددة اذ أن طمس معالمها يحس في نفسه باعتباره تشكل مرجعيته الاجتماعية وخلفيته الفكرية التي رفدت كثيرا من نصوصه الشعرية فجاءت موشاة بذكرياته الجميلة ومواقفه في طفولته وشباب، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن الشاعر كان وفيًا لهذه الأمكنة، فهو الشاعر البدوي المحمل بتراث الاقدمين وقد خضع لسياقه الثقافي والبيئي وجعل من المكان ثابتا مألوفًا في اكثر من قصيدة له ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك قوله:

حي من ساحة المبيدع دورا جنبه الريع قد دثرن دثورا
قد أضر البلى بها غير لوح من رسوم تخالهن زبورا
وبقايا من ارمدا تتقيها خالدا الصفا الصبا والدبورا
حبذا هن من معاهد لولا أن للدهر عشرة وجبورا

وبالرجوع إلى النص نجد أن تناص الشاعر مع المكان (المبيدع) قد ولد لحظة من لحظات مواجهته والوقوف عليه مما أوجد لديه احساسا موجعا باللحظة الآنية وهي لحظة >> تبدو محملة بالفناء والخراب والانزهام إذ لا يكاد الشاعر يتخلص منها إلا باستدعاء الماضي، فالاعتبار بما آل إليه المكان يحمل الشاعر من الزمن الآني عبر الاستذكار إلى زمن بهي يمثل حيتة المكان (المتناص معه) الحافلة وزهو الشاعر بأيامها>>.

¹ دراسات في الشعر الموريتاني، ملامح الإبداع في شعر محمد بن الطلبه اليعقوبي الشنقيطي، إنجاز مجموعة من الباحثين بإشراف دار الرضوان، انواكشوط، موريتانيا 2013

ومن تتاوص الشاعر مع الأماكن المحلية قوله كذلك:

طال ليلي بساحة الكرب حتى كدت أقضي الحياة قبل الصباح

وجلبي أن التناص مع المكان هنا ينوء بحالة الشاعر النفسية حيث قرن امتداد ليله بساحة الكرب و هي تعريب (لكرب) مما أكسب اللفظة الدارئة معجمية أسهمت في التعبير عن حالته النفسية التي تعتبر لصيقة بالمكان المتناص معه وكان الشعراء الموريتانيون في تناصهم مع الأماكن المحلية >> كثيرا ما يسوقون الأعلام غير العربية بألفاظها مع ملاءمتها والسياق التركيبي العربي سواء بالحاق حركات الاعراب بها أو ادخال أداة التعريف عليها، ويكثر هذا الأسلوب عند ابن الطلبة خاصة فهو لا يكاد يعمل شيئا في تعريب أسماء مواضعه بل غالبا ما يذكرها كما هي حسانية أو صنهاجية فتتشأ على ذلك مفارقة غريبة بين نص شعري أحكم نسجه على المنوال الجاهلي معجما وبلاغة وأغراضا وبين أعلام عجمية مستغفلة ومثال ذلك قوله>>:

سرى يخطط الظلماء من بطن تيرس إلى لدى ابريبير لم يتعرج

وذكره أظعان تربع باللوى لوى الموج فالخبتين من نعى دوكنج

إلى البير فالحواء فالقج فالصوى صوى تشل فالأجواد فالسفنح من اج

وقد يكون التحويل التركيبي في أسماء هذه الأماكن يفضي إلى تحويل دلالي يبين عن حدة ارتباط الشاعر بها وانصهاره فيها وتوقه إلى أيام الحب والصبا التي عاشها في كنفها فهو يندغم لأنها تمثل بالنسبة له تيمة اللهو وتيمة التحول والشوق والحنين إلى الماضي، ولذلك يمكن القول إن التناص مع هذه الأماكن يثير ذكرياته ويستفز أشجانه وأشواقه القابعة في الغرف الخلفية من زوايا عقله الباطن.

4-محمد بن محمدي

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر¹:

أرض العقيلات يا برق الحيا وعلى أحيائها لعيون الشائمين نـح

ولا ترق دونها في الأرض ملأ فم من ساريات روايا ودقك الدلح

حول المليحة خيم واغدون ورح ثم أغدون ورح ثم اغدون ورح

حتى إذا ما عمت السقيا مسارحها فاسق المسارح من برين واسترح

فتناص الشاعر مع المكان يشي بعمق الأواصر التي تشده إليه حتى إنه يضمن بالسقيا لغيره من الأماكن الأخرى، فهو بالنسبة له هو المبتغى والموئل والمرجع الذي يجد فيه ذاته، فالخصب والنماء

¹ أحمد الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي، القاهرة 1409 - 1989، مؤسسة منير،

والتناسل والتجديد والبعث والاستمرارية وغيرها من المعاني التي يكتنزها المطر كلها أمور يضمن بها الشاعر على غير المكان، الوطن، الذي يقبع حبه في ذاكرته ويشكل جزءا من وجوده وكيونته.

5-محمد بن حنبل

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن قول الشاعر¹:

لا يظن الظنون أن مقامي بالينبيع لاطلاب العلوم
بل لغربية تهب فاشفي سقم القلب من حشاي الكليم
حببت كل شقروي إلينا من حميم لها وغير حميم

ونلمح أن التناص مع المكان يحمل في ثناياه نوعا من بواعث الشوق والغرام، ولعل ذلك ما أشار إليه أبو علي المرزوقي في كتابه: << الأزمنة والأمكنة >> بقوله: << فترى ذكر المكان في جميع ما يندرجون فيه شقيق أرواحهم ومشعر الروح لأفئدتهم ومستمد ذاكرتهم مشتكى لأحزانهم به تكشف البلوى تو يستنزل المطر، فليسوا بشيء من حظوظهم أقنع منهم باجتماع الوطن والمطر²>>. لذلك شكل مرجعية تناصية ومنبعا ثرا للواعج الشوق والغرام عند الشاعر الذي لم يقم به للتعلم وإنما لارتباطه بتجربته العاطفية.

6-سيد أحمد بن الصبار المجلسي:

ومن تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قول الشاعر:

لئن طال ليلي وصبري وهن بجيي ادرين وادكبهن
لقد مر دهر بانياشون تمر الليالي كأن لا زمن

إن تناص الشاعر مع المكان << لا يخلو من صدمة يتسرب الزمان من خلالها عبر الذكرى في ومضات آنية واسترجاعية يتحسس الشاعر من خلالها تحولات الزمن>>. حيث شكل المكان ذات يوم ماضيا شبابيا ومراتع صبا وعيشا رغدا إلا أن سرعة انقضاء الزمن ولدت لدى الشاعر نوعا من الأسى والتحسر على ما عاش فيه من ذكريات جميلة شكلت فيما بعد مجالا رحبا للتناص مع المكان.

7-عبد الله بن سيد محمود الحاجي

ومن مظاهر تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قوله:

¹ أحمد جمال بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر (مساهمة في وصف الأساليب، في ق 13هـ)،

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط 1، 1424هـ/ 1995م، ص: 352

² المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، مجلس دائرة المعارف، ط 1، حيدر-آباد، سنة 1332هـ، ص 33

حبذا أربع لدى اتفيتنات بعد لأي عرفتها مقفرات
ظلت أذرو الدموع فيها وقلت لربوع عرفتها عبراتي
وخشيت احتراق الأربع لولا ديم الدمع من لظى زفراتي
فعلى الأربع المحيلة مني وعلى الحي أطيب التحياتي

ويتجلى أن تناس الشاعر مع المكان يشي بارتباطه العميق به وبذكره الماثلة أمامه في الزمن ولذلك فإن المكان >> الذي يبدو في اللحظة الأولى هامدا ساكنا تحوله لحظة المعاينة إلى نبض عامر بالشاعر وبصحبه وذاكراته وتصبح الوقفة المحدودة زمنا نفسيا ممتدا ومتجذرا في وعي الشاعر ولا وعيه <<. ولذلك يستدعي منه توقفا عنده وحديثا عنه لارتباطه بمواقف أثيرة عنده.

1- بوفمين المجلسي واسمه المصطفى بن أبي محمد

2- ولعل من أظهر تناس الشعراء الموريتانيين مع الأماكن المحلية قوله¹:

أحن إلى ترقى ووادي أضائها وهل لي إلى وادي الأضاء سبيل
وهل قد أرى انياشوان وقد بدا من أهلي مقيم حوله ونزيل
بوع بتنيافيله منهم محيلة ر حنيني إلى أيامهن طويل²
وتجمع بالحقفين منهم كواعبا وفتيان صدق بكرة وأصيل

فتناص الشاعر مع هذه الأمكنة يكتنز شحنات من الشوق والحنين، حيث تتناثر الذكريات بإحساسه الموجع بالحنين إلى هذه المربع، وهو احساس لا يكاد يتخلص منه مؤقتا إلا باستدعاء الماضي، فالشوق إلى الأمكنة والالتحام بها والتناص معها يحمل الشاعر من الزمن الأنبي عبر الاستدكار إلى زمن يمثل حياة المكان الحافلة وزهو الشاعر بأيامها.

9-المجدد المجلسي واسمه المصطفى

ولعل من مظاهر تناس الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية قوله³:

من ربة الحلاب فالحضرات وقفت وعيني جمّة العبرات
أسائل عن نعمى وأين تيممت وماذا سؤال الأربع القفرات

ويأتي تناس الشاعر مع المكان في هذا السياق مثقلا بالصراع والتنازع بين التوق إلى المكان وما ينوء به من ذكريات وبين القلق والحيرة حيال وجهة المحبوبة وتبقى الذات الشاعرة في تناسها مع

¹ د محمد المختار بن أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ص 88

² ترقى وانياشوان وانتيافيل كلها أماكن من أرض الشاعر

³ الشعر والشعراء في موريتانيا، م س، ص 88

المكان تعيش تنازعا بين الحياة والاندثار وبين الماضي والحاضر، وفي لحظة التآزم هذه تحاول استعادة توازنها عبر حيل فنية مختلفة، فالمكان الذي شكل في ماضي الأيام جزءا من ذاكرة الشاعر ومن ذاته يطالعه فإذا به قد اقفرت مرابعه تبدلت معالمه وارتحل عنه ساكنوه فيصير في حيرة من أمره ولا يجد إلا الأسئلة التائهة التي تتم عن الشعور بالحسرة والضياح والغربة والنفسية.

وختاما لهذا المبحث نستطيع القول إن ما أوردناه من تناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية (الوطن) يعدو مثالا بسيطا على هذا المشغل، ذلك أن الإحاطة بتناص الشعر الموريتاني مع الأماكن المحلية لا يمكن إنجازها ضمن بحث محدد نظرا >> لغزارة المادة الشعرية وتوزعها بين المفهومين الروحي والمادي للوطن<<¹ فنصوص الشعر الموريتاني التي تناص فيها الشعراء مع الأماكن المحلية (الوطن) تذكرنا وتمجيدا واستحضارا لذكريات الطفولة وتعلقا بالمحبة تعد بالآلاف، وتأسيسا على ذلك لا نجد غضاضة في الاعتراف بأن ما أوردناه في هذا المبحث لا يعدو كونه ورقة من هذه الغابة الكثيفة التي لا حدود لها.

وخلاصة القول في هذا المقام أن الشاعر الموريتاني قد برهن من خلال تناصه مع هذه الأماكن على ارتباطه الحميم بها حيث تغنى بالآبار والمنتجعات وشدته ديار الحبيبة ومراتع الصبا، فكان للشعر دور كبير في تخليد الأماكن والتغني بما آلت إليه من تحولات وانطماش معالم².

¹ دراسات في الأدب والثقافة، م س، ص 43

² الشعر الموريتاني الحديث، م س، ص 30

ظاهرة الاغتراب في الشعر الموريتاني

دراسة في الظواهر والأساليب

محمد محمدن طلحة

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

توطئة

يعد الاغتراب من بين المصطلحات التي عرفت طريقها في الدراسات النقدية الحديثة باعتباره ظاهرة طاغية في نصوص الشعراء مبنوثة في دواوينهم، حيث تشكل القاسم المشترك لجميع لشعراء، ولعل ما يبرر الحضور القوي لهذه الظاهرة في النصوص الشعرية علاقة الإنسان بصفة عامة بأرضه وبيئته التي تربى فيها وترعرع وشكلت مهذا لصباه ومراهقته وشبابه.

لقد تناول النقاد والدارسون هذه الظاهرة في الشعر العربي عموماً، غير أن الشعر الموريتاني ظل بعيداً عن تلك الدراسات، على الرغم من خصائصه ومميزاته التي تشبه كثيراً الشعر العربي، وتشابه البيئة الموريتانية الصحراوية وأنماطها الاجتماعية البدوية التي تعد مهذا ومجالاً خصباً لنشوء ظاهرة الاغتراب والحنين إلى الأوطان، وهذا ما جعلنا نختار هذه الظاهرة للوقوف على طبيعة تشكلها في المجتمع الموريتاني، وكيف تعامل معها الشعراء من خلال نصوصهم الشعرية.

مفهوم الغربة وأنواعها

يصعب تحديد مفهوم الاغتراب وإن اتفقت المعاجم العربية على مفهومه اللغوي، باعتباره البعد والآنوى والغربة عن الوطن، ويتدرج مفهوم الغربة من دلالتها المعجمية التي تعني الانتقال المكاني إلى الدلالة الزمانية التي تعني الارتباط بالماضي والعودة إلى مخزون الذكريات¹

ونظراً لتشعب هذا المصطلح وكثرة المفاهيم التي ينتمي إليها سنضطر إلى الاكتفاء بمجالات كبرى تم من خلالها تفكيك هذا المصطلح ودراسته وتحديد دلالاته، بالإضافة إلى ارتباطها بالجانب النفسي والذاتي للإنسان وتأثيراتها المباشرة على مشاعره وأحاسيسه، وانعكاس كل ذلك على سلوكه وتعبيراته وتصرفاته.

¹ شلتاغ عبود، في المصطلح الثقافي والتغريب، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع33، دبي الإمارات العربية المتحدة،

وقد قسم الدارسون الاغتراب إلى عدة أنواع فمنه **الاغتراب الثقافي** الذي يعني ابتعاد الفرد عن الثقافة الخاصة بمجتمعه، وأنماط السلوك المعرفي والفكري المجتمع ومخالفة المعايير التي تضبط سلوك أفرادها. ويعد **الاغتراب الديني** أحد أبرز أنواع الاغتراب التي يعيشها الإنسان على وجه العموم، حيث ذهب بعض الباحثين إلى أن الاغتراب أساسه ديني لأن دلالات الاغتراب في مجملها تعود إلى الشرائع السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية)¹

وهناك من يرى أن الإسلام في جوهره ظاهرة اغتراب وتحول اجتماعي نوعي² لكونه هجرة للبشرية من العبادات الوثنية إلى الوجدانية، وقد ظل المسلمون في بداية الدعوة الإسلامية غرباء بين أهلهم وقبيلتهم إلى أن زالت تلك الغربة مع انتشار الإسلام واتساع دائرته وسيعود الإسلام غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .

وهناك اغتراب نفسي ويقصد به "حالة نفسية يشعر الإنسان من خلالها بانفصاله عن الآخرين وعدم الانسجام معهم، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي مما يضطره إلى الانعزال والشعور بانعدام قدرته على تحقيق طموحاته مع وجود قوة اجتماعية لا تؤمن بوجوده ولا تنتظر منه تحقيق أي مكتسب³ بواعث الغربة.

إن الحديث عن الدوافع الذاتية والعوامل الخارجية حديث محفوف بعدم اليقين وانعدام شروط الجزم والتأكيد نظرا لارتباطه بالجوانب النفسية والعاطفية وما تتطوي عليه النفس البشرية من مكونات وخلجات يستحيل حصرها ويصعب استقصاؤها وبالتالي فإن بواعث الاغتراب الذاتية والموضوعية قد تتداخل وتتشابك نظرا لارتباط الأسباب الذاتية بالعوامل النفسية وتعلق الدوافع الموضوع بالظروف الاجتماعية ولعل أهم تلك العوامل الحنين إلى الأوطان والشوق إلى الأهل وفرق الأحبة ولحظات توديعهم والرحيل عن ديار الأحبة والإحساس بالبعد والوحدة

الاغتراب في الشعر العربي

إن الحديث عن جذور الاغتراب في الشعر العربي يبين أنها ظاهرة أحس بها الشاعر على مر العصور، وعبر عنها بأصدق المعاني وأرق العبارات، وبما أن الشعر يتناول الذات المغترية فمن

¹ . القلق والاغتراب في شعر دعبل الخزاعي أحمد علي إبراهيم، مجلة الأستاذ، العدد 109، كلية التربية جامعة بغداد، 2010، ص 3 . 4

² . الاغتراب في الفن دراسة في الفكر الجمالي المعاصر، عبد الكريم هلال، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، 1998، ص 52

³ . علاء زهير عبد الجواد، في بحثه أسباب ومظاهر الاغتراب الثقافي، مجلة كلية بور سعيد العدد السادس 2009م، ص 61.

الضروري أن نجد نماذج من الاغتراب في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وحتى العصر الحديث مروراً بمختلف العصور الزمنية التي برزت فيها الظاهرة بشكل كبير وعززتها عوامل سياسية واجتماعية وثقافية. ولعل تجارب الشعراء كامرئ القيس وعنترة وشعراء الصعاليك مع مجتمعاتهم وما عانوا من شعور بالهامشية والخذلان أولى مظاهر الاغتراب الذي عبر عنه هؤلاء الشعراء أدباء، وفي العصر الأموي، وظهور الدولة بطابعها الإسلامي، وسلطان الخلافة الوراثية، بقيت عوامل الحنين والغربة والاغتراب في مجملها شبيهة بالعصر الجاهلي، مع ازدياد أسباب الغربة فبقي النزوح عن الأوطان، والرحيل في طلب الرزق، والهرب من ظلم الولاة وقسوتهم¹.

وزادت عوامل الاغتراب في العصر العباسي نتيجة دواعي وأسباب سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، حيث كانت لهذه العوامل أدوار فعالة في إبراز الغربة الاجتماعية والسياسية والذاتية والزمانية وغيرها كثير.

في حين شهدت هذه الظاهرة تطوراً كبيراً في الأدب الأندلسي خصوصاً مع بداية سقوط المدن الأندلسية، وتدهور الأوضاع الأمنية، مما أدى إلى تأثر الشعراء بهذه الأوضاع وأقضى مضاجعهم واضطروهم للارتحال من مدنها إلى مدن أخرى داخل الأندلس، أما في العصر الحديث فقد توسعت ظاهرة الاغتراب لتشمل مناحي كثيرة سياسية واقتصادية وثقافية وقد بدأ الظاهرة نتيجة لعدة عوامل تفاعلت فيما بينها.

أما في موريتانيا فقد شكلت البيئة الموريتانية مكاناً مناسباً لنمو وتطور ظاهرة الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين، نظراً لاعتماد الموريتانيين في حياتهم على الترحال وطلب الانتجاع، في حركة دؤوب في المجال الجغرافي جنوب الصحراء، في تشابه يصل حد التوافق بين الحياة الموريتانية والحياة العربية القديمة.

ولعل أبرز العوامل التي أسهمت في نمو ظاهرة الاغتراب في نطاق التداول الأدبي هو طبيعة حياة الصحراء والبدو الموريتانية وما انطبعت به من سمات البداوة حيث صارت الخيمة منزلاً والناقة وسيلة نقل والآبار مصدر للماء، والرعي والانتجاع مصدراً للعيش والبقاء، في بيئة يقتضي العيش فيها التنقل بين مناطقها تبعاً لمقتضيات الفصول ومتطلبات الرعي².

¹ يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، من 2453.

² دود بن عبد الله، الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الثاني 1992، ص 13.

وفي هذا السياق يجد الشعراء معاناة كبيرة في فراق ديارهم، في هذه الرحلة الأبدية، التي تتطلب صبرا وقوة تحمل وتجلد حيث يقول سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني.

تجلدت للتوديع والقلب جـازع وأخفيت ما كادت تبين المدامع
ترقرق دمع لـو أطمعت غـروبه ذرفن كأجرى ما تُفـيض الدوافع¹
ويمثل الوقوف على الديار وبكاؤها أكبر مثيرات الاغتراب والشجن لدى الشعراء الموريتانيين، ولذلك فإن المدونة الشعرية الموريتانية زاخرة بهذه اللحظات التي يصف فيها الشاعر أحاسيسه اتجاه الأطلال. ولا فرق عند الشعراء الموريتانيين بين أطلال المنازل التي توطنها الشاعر، واحتضنت جزءا من حياته وكانت مهدا لصباه، أو تلك التي سكنها الأحبة وتوطنوا بها ولو برهة من الزمن.² كما يخبرنا بذلك الأحوال الأحسن.

هَـذِي مَـغَانٍ حَوَّثَ دَعْدًا وَذَابِلًا كَانَتْ تُحَلِّيهِ أَيَّامَ الصَّبَا دَعْدُ

فَقِفْ وَسَلِّمْ وَسَلِّمْ وَسَائِلٍ وَابْكِيهَا كَمَدًا إِنْ كَانَ يُبْكِي مَآفِي طَرْفِكَ الْكَمَدُ³

ويعكس الاغتراب الذاتي والاجتماعي وفقدان الشاعر لأتراه وأجناسه، وانعدام الأنيس الذي يفهم ويعيش مع الإنسان خصوصياته الفردية والثقافية، جانبا من تجليات الاغتراب لدى الشعراء من ذلك قول محمد بن محمد العلوي لدى السلطان مولاي عبد الرحمن بمراكش.

هل في بكى نازح الأوطان من باس أم هل لداء رهين الشوق من آس

أم هل معين يعين المستهام على ليل كواكية شدت بأمراس

آه المغترب بالغرب ليس له جنس وإن كان محفوقا بأجناس⁴

¹ . أحمد الامين الشنقيطي الوسيط في تراجم أدباء شنقيط القاهرة الخانجي، منير ط4، ص 294

² فهمي، ماهر حسين، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية، 1970م، ص 9

³ . الشعر والشعراء في موريتانيا، مصدر سابق، ص 90

⁴ . أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مصدر سابق، ص 52.

هذا ابن الشيخ سيدي الأبييري¹ ينادي الساقية الحمراء بعد أن أيقن غربته، وبدأت نفسه تنتظر إلى العامل الزمني نظرة مغترب اشتاق إلى أوطانه، يقول

أحمرء السواقى ما ورائي ألان غربت أيها الانتشائي

تحال نصيص فتل العيس شهراً يدوم من الصباح إلى المساء²

ملاح الاغتراب في الشعر الموريتاني

لقد شكل التشابه القائم بين القصيدة العربية الموريتانية والقصيدة العربية القديمة عاملاً كبيراً في اتساق نظرة الشاعر لمحيطه وفق تصورات ذهنية أملت مقتضيات البيئة وقوانين الجغرافيا.

ومن أبرز ملاح الاغتراب في الشعر الموريتاني بروز ظاهرة مناجاة الأمكنة والديار وبكائها حيث تكتسي هذه اللحظة علامة فارقة لدى الشعراء، لأنها تعبير مباشر وحوار نفسي عاطفي لأمكنة لا تجيب على الرغم من ما تختزنه حكايات وذكريات جميلة، من ذلك قول الشاعر الأحول الحسنى يستعيد أمكنة كانت ذات يوم حضناً لعدد،

هَذِي مَعَانِ حَوْتُ دَعْدَا وَذَا بَلْدُ كَانَتْ تُحَلِّهِ أَيَّامُ الصَّبَا دَعْدُ³

فَقِفْ وَسَلِّمْ وَسَائِلْ وَابْكِيهَا كَمَدَا إِنْ كَانَ يُبْكِي مَا فِي طَرْفِكَ الْكُمْدُ

ودعد هذه قد لا تكون شخصية حقيقية وواقعية بقدر ما قد تكون كناية عن شخص ما يحن إليه الشاعر، وقد تكون جريا على عادة شعرية قديمة اتسم بها الشعر الموريتاني واتصف بها.

¹ . الشيخ سيدي بن المختار بن الهيب الأبييري، ثم الإنتشائي، ونسبه الأصلي يرجع إلى تندغ، انظر الوسيط في

تراجم أدباء شنقيط، ص 240

² المصدر السابق، ص 247

³ . الدكتور محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، دار الأمان الرباط، الطبعة الثانية 2003م، ص 90.

كما يمثل حوار الزمن لدى الشعراء الموريتانيين جانبا من إحساس الشاعر بالاغتراب، حيث طغت محاوره الزمن والتعلق بذكره وأحداثه على نصوص الشعراء المتعلقة بالتعبير عن حنينهم واشتياقهم إلى الديار الأحبة والأهل والأحبة والوطن.

ويكاد الشعراء الموريتانيون يلتقون حول الزمن كجزء من ذلك الحوار الأزلي الذي طرحه الإنسان منذ القدم، عاكسا من خلاله صورة من صور استسلامه وضعفه، فلا تكاد تراه إزاءه إلا مستسلما معلنا انسحابه بعد صراع متهاافت، مما يتجسد في عدة مواقف تجمعها بؤرة ذلك الاغتراب.¹ ويعد البرق والمزن وحركة الريح والسحب وهطول الأمطار من مثيرات الأشواق والاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين لكونها تذكره بأحبابه وأهله وأوطانه، ومنها البرق، فكل تلك المحفزات والرؤى تثير عواطف الحنين، وأشواق العودة إلى الأحبة والوطن الحبيب.

فهذا الشاعر محمد بن محمدي العلوي أثار في نفسه برق يلوح بمنطقة العقيلات، كوامن الاشتياق والغربة والحنين لديار قومه، فانطلق يستسقي الغمام لأرضه وموطنه.

أَرْضُ الْعُقَيْلَاتِ يَا بَرَقَ الْحَيَا وَعَلَى أَخْيَائِهَا لَعْيُونَ الشَّائِمِينَ لُحِ

وَلَا تُرْقِ دُونَهَا فِي الْأَرْضِ مِلَّةً فَمِنْ سَارِيَاتِ رَوَايَا وَدَقِّكَ الدَّلُحِ

حَوْلَ الْمُلَيْخَةِ خَيْمٍ وَاعْدُونُ وَرُخْ ثُمَّ اعْدُونُ وَرُخْ ثُمَّ اعْدُونُ وَرُخْ

وَلَا تَزَلْ مُسْتَطِيرًا مِثْلَ مَا رَمَحْتُ بُلُقُ الْعَوَادِي زَهَاها فَادُخِ الْمَرْحِ

حَتَّى إِذَا عَمَّتِ السُّفْيَا مَسَارِحَهَا فَاسِقِ الْمَسَارِحِ مِنْ بَارِينٍ وَاسْتَرِحْ²

ويعد شوق الأحبة ورحيلهم أو الرحيل عنهم جوهر الاغتراب ودعائه وأساسه، لأن مدار كل ما ذكر من مثيرات وتجليات للغربة وعواملها، تعود في مجلها إلى علاقة الإنسان بخليته وأحبابه بالمفهوم

¹ . ماهر حسن فهمي، الغربة والحنين في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات، دب، د ت، د ط، ص 34

² . أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، مصدر سابق، ص 66.

الشامل، لقد جاءت المقاطع الشعرية التي تنصدر عادة القصائد ذات المضامين المتعلقة بالاغتراب أيضاً عفويّاً مصدره العواطف، ومنتفسا عن الهموم وجلاء لأسى الغربة والحنين¹.

الأساليب الشعرية وطرائق التعبير في شعر الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين

لقد اختار الشعراء الموريتانيون في وصفهم للحنين الذي ينتابهم جراء اغترابهم وشوقهم ألفاظا تعود في جذورها اللغوية للاغتراب بمشتقاته الفرعية حيث تعكس النصوص الشعرية التي تتناول هذه الظاهرة الحالات النفسية والعاطفية لدى الشعراء ومستويات حنينهم واشتياقهم للأهل والأوطان حيث تكثر في تلك النصوص مفردات من قبيل (نازع، الأوطان، رهين الشوق . المغترب الركب وحشة أرض الغرب) فهذه العبارات كلها وما يحيطها من عبارات تجاري النسق العاطفي لدى الشعراء الذي يتسم بالشوق والحنين.

ولا تخفى النزعة الغنائية التي تتسم بها النصوص الشعرية لتتسجم مع الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، في غربته، وما ينتابه من أشواق إلى ديار قومه.

وتكثر في النصوص الشعرية المنتمية إلى مجال الاغتراب مرادفات تدل على الغربة من قبيل (الأسفار والبعد والظعن توديع الأحبة الهجر) ونحوها من العبارات التي تتلازم وحالة الفراق والرحيل لعلاقتها بالموضوع.

وقد يلجأ الشاعر الموريتاني في أحيان كثيرة إلى الاستغراق الكلي في وصف ماضي الديار التي اندرست، وكيف كانت مسرحا للخلان والأهل والأحبة، ثم ينطلق في وصفه بعض مغامراته أحيانا، وفي بعض الأحيان يكتفي بوصف جمال محبوبته واشتياقه للحظات الأنس بينهما.

وتبرز كثيرا في شعر الغربة لدى الشعراء الموريتانيين اللجوء إلى مفردات الطبيعة وتفاصيل الجغرافيا وأنماط التضاريس التي ألفوها في أوطانهم ومرابعهم ولذلك نجد نصوصهم محملة بألفاظ تدل على البيئة عاشوا فيها من أودية وسهول وأشجار وحتى الحيوانات التي يستخدمونها في أنماطهم المعيشية. ومن الألفاظ الدالة على الغربة في نصوص الشعراء الموريتانيين ذكر الأحبة والخلان والصحب والرفقاء والندماء، وهي ألفاظ في مجموعها تحيلنا إلى حالة من الفراغ النفسي والعاطفي الذي يعيشه الشاعر حنينه للألفة وأحاديث الخلان والندماء، والذاكرة التي كانت تجري في المربع.

شعرية الصورة في شعر الاغتراب لدى الشعراء الموريتانيين

لقد أخذت الصورة الشعرية في المدونة الشعرية الموريتانية أبعادا متعددة لا سبيل لحصرها، لكنها اعتمدت في تشكيلاتها الذهنية على فضاء البادية ومتعلقاته، والاعتماد في تفاصيلها على الخلفيات

¹ . الدكتور شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلامية، مطبعة جامعة دمشق، 1959م، ص 9

البيئية التي تشكل مرجعا للشعراء ومخاطبيهم بحكم الحياة والأنساق الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالمجتمع الموريتاني، حيث تستند على الواقع والبيئة، وتستخدم الخيال الشعري، وتصدر عن الشعور الوجداني. وقد تعددت الأساليب التصويرية التي تأسست عليها الصورة الشعرية ذات الأبعاد الخيالية عند الشعراء الموريتانيين، حيث شملت التشبيه بأنواعه، والاستعارة، والكناية، والطباق، والجناس، وبراعة الاستهلال وغيرها، وهذه مجالات ظل الشعر الموريتاني المرتبط بالغربة يسبح في دوائرها، ويمتاز منها المعاني والأخيلة والصور الشعرية

أما البنية الإيقاعية في شعر الغربة الموريتاني فقد تنازعت بينتان إيقاعيتان، شعر الاغتراب لدى الموريتانيين لكل منهما دوره في عملية بناء النص الشعري، بصورة إبداعية وجمالية، وفق نمط من الأساليب اللغوية والموسيقية ذات التأثير النفسي والعاطفي¹ وينقسم الإيقاع في قصيدة الاغتراب الموريتانية إلى إيقاع خارجي، متعلق ببحور الشعر العربي التي تم التعارف عليها، بالإضافة إلى القوافي وروبيها الثابت الذي تقف عليه أبياتها، وإيقاع داخلي منصرف إلى البناء اللغوي داخل جسم القصيدة، والذي يعتمد التكرار والطباق والتورية والألفاظ ذات الجرس الموسيقي والأحرف وأنماط ربطها والجمال والأنساق التركيبية التي تتواشج بها في بنية القصيدة.

الخلاصة

بناء على ما تقدمه في محتوى فصول ومحاور هذا العنوان يمكن أن نخرج بالخلاصات والاستنتاجات التالية:

- أن الغربة أو الاغتراب تتعلق بكل إحساس عاطفي ونفسي بالحنين إلى الوطن أو الأهل والأحباب أو لزمن معين
- أن الحياة البدوية في موريتانيا، وعوامل التنقل والانتجاع والترحال في طلب الكلا، ساهمت كثيرا في تهيئة الظروف لنشوء ظاهرة الاغتراب في الشعر الموريتاني، كما عززت رحلات الحج وطلب العلم في الأقاليم، والحركة الثقافية والتجارية بين موريتانيا والدول المجاورة في طغيان هذه الظاهرة لدى الشعراء الموريتانيين.
- لقد وظف الشعراء الموريتانيون قدراتهم الإبداعية في استخدام الصورة الشعرية بأبعادها التخيلية خدمة لمعانيهم الأدبية، وتقريب حالاتهم الشعورية بأبعادها العاطفية والنفسية، فرسموا بأدوات التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها لوحات أدبية متكاملة

¹ . للتوسع أنظر: أحمد مطلوب في فصول في الشعر، والدكتور عبد الكريم راضي جعفر في رماد الشعر، وشوقي ضيف في كتاب شوقي شاعر العصر الحديث

- لقد جاءت النصوص الشعرية في شعر الغربة، محملة بمشاعر الغربة والحنين للأوطان، وبكاء الديار والدمن، والاشتياق للأحبة، والحسرة على انقضاء أزمانها، والدعوة والاستسقاء لها، والرغبة في تجدد الحياة في ربوعها وأطلالها.
- سعى الشعراء الموريتانيون إلى توظيف جماليات اللغة، وما تتيحه من إيقاعات موسيقية في تراكيبها وأجراس مفردات، لخدمة المعنى الذي يريد الشاعر أن يقدمه للمتلقي، ويكشف به عن طبيعة تجربته العاطفية، وشعوره بالاغتراب عنها.

مقاربة اللسانيين العرب المحدثين للنسق الزمني في اللغة العربية
(المنهجان الوصفي والتوليدي نموذجا)

محمد قاري

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

نحاول في هذا المقال تعميق النظر في تصور بعض اللسانيين العرب المحدثين للزمن في اللغة العربية، متخذين من مقاربات المنهجين الوصفي، والتوليدي نموذجا؛ وذلك لكونهما - في تصورنا - أهم الاتجاهات اللسانية النسقية التي تناولت الإحالة الزمنية؛ لذا نحاول تبين ما أغنت به تصوراتهم مبحث الزمن في اللغة العربية، بعد المقاربات النحوية القديمة، والتناول الاستشراقي. الكلمات الدالة: الزمن، المنهج الوصفي، المنهج التوليدي، الإحالة الزمنية.

**The approach of contemporary Arab linguists to tense reference in the Arabic language
(Descriptive and generative approaches as a model)**

Abstract

In this article, we attempt to deepen our consideration of some contemporary Arab linguists' perception of the tense structure in the Arabic language, taking the descriptive and generative approach as a model. This is because it is - in our view - the most important linguistic trends that deal with tense reference. Therefore, we are trying to determine the extent to which their perceptions enrich the study of tense in the Arabic language, following the old grammatical approach and the Orientalist approach.

Keywords: tense, descriptive approach, generative approach, tense reference.

1 . الاتجاه الوصفي ونقد التصور النحوي العربي:

انطلق الاتجاه الوصفي في السياق العربي من المسلمات ذاتها التي تأسست عليها الوصفية الغربية، ومن بينها: نقد للتراث النحوي، وهو ما نلاحظ حضوره في أغلب الدراسات الوصفية العربية، كما نجد في نقد إبراهيم السامرائي لتناول النحاة للفعل، حيث يقول: « وقد بدالي أن هذه المادة [يقصد الفعل] قد شغلت حيزا كبيرا في كتب النحويين الأقدمين ورسائلهم. غير أنهم على شدة اهتمامهم بالفعل قد شغلوا أنفسهم بمباحث أبعد ما تكون عن العلم اللغوي، كما أدى بهم ذلك إلى إهمال مسائل كثيرة لم تدخل في منهجهم الذي رسموه لأنفسهم»¹.

وقد قاد الوصفيين تصورهم الناقد للنحو العربي إلى حمل شعارات تجديدية تروم تجاوز الهنات والنقائص التي اعتورت ذلك النحو، وتروم بناء نحو جديد للغة العربية يتبنى "العلمية" التي

¹ إبراهيم السامرائي. الفعل زمانه وأبنيته، دار الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، ط 3، 1983م، ص: 4.

تتأسس على معايير علم اللغة الحديث، لا سيما الاتجاه البنيوي السائد حينها، حيث يعتبر استنبات هذا الاتجاه في التحليل اللغوي بئا لأنفاس جديدة «في لغة وصفت بجهاز نحوي قديم استمر أزيد من اثني عشر قرنا، ولم يكد يعرف تغييرا جوهريا»¹

وإذا كانت الدراسات الوصفية العربية سايرت الوصفية الغربية في الأسس والتناول، فإن حضور آراء المستشرقين كان جليا في بعض التصورات العربية عن الزمن، كما نجد لدى مهدي المخزومي، الذي ينطلق من آراء المستشرق وليام ورايات؛ فيقول: «[...] ومؤدى هذا أن العربية إذا أرادت التعبير عن الماضي المطلق، والماضي التام، والماضي غير التام، لم تجد من الأبنية إلا بناء (فعل) للتعبير عما لا يعبر عنه في الإنجليزية إلا بعدة صيغ، وإذا أرادت التعبير عن المستقبل باختلاف مجالاته الزمنية لم تجد إلا بناء (يفعل) للتعبير عن الحاضر والمستقبل، وهذا يعني أن العربية قد أهملت المجالات الزمنية التي يتضمنها الزمن الواحد [...] وقد صرح (رايت) بهذا في قوله: "إن كلمتي (ماض) و(مستقبل)، وهما الكلمتان اللتان أطلقتها كتب النحو القديمة على هاتين الصيغتين لا تنطبقان انطباقا دقيقا على الأفكار التي تتضمنها»².

ويذهب المخزومي إلى أن رايت لم ينتبه إلى ضرورة عدم الخلط بين الزمن الذي تفرزه المعطيات اللغوية العربية، وبين ما يسنده النحاة لتلك المعطيات من وصف غير مكتمل، فيقول: «وإذ رأى (رايت) ما قصر فيه جهد النحاة من ملاحظة الأفعال في الاستعمالات ظن هذا هو واقع اللغة، وواقع استعمالات الفعل العربي، وفاته ما فات القدماء أيضا من نظر إلى تعبيرات مختلفة طأها إهمال النحاة وخلطهم فيها»³.

ومع ذلك يسجل المخزومي ملاحظة مهمة لورايت تتعلق بالزمن في اللغات السامية، وتتنطبق على اللغة العربية، هي أن «العلاقات الزمنية هي نفسها التي تحدد المجال الزمني الذي يقع فيه الفعل التام وغير التام [...] سواء كان ذلك الزمن ماضيا، أم حاضرا، أم مستقبلا»⁴ أي أن الفعل الماضي أو المضارع ليس له في حد ذاته أي صلة بالعلاقات الزمنية، بل إن سياقه المحيط به

¹ امحمد الملاح، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، منشورات الاختلاف، ط 1، الرباط، 2009، ص 44، نقلا عن عبد السلام المسدي والهادي الطرابلسي، الشرط في القرآن، ص ص 7-8.

² مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، ط 2، بيروت، لبنان، 1986م، ص: 145 - 146.

³ المرجع السابق، ص: 147.

⁴ المرجع السابق، ص: 145.

الذي تحدده الروابط، وأدوات النفي، والشرط، والظروف... هو المسهم الرئيس في خلق إحالة الفعل الزمنية.

كما يرى أن رايت قد يكون على حق في وصفه الفعل العربي القديم، الذي لم يعرف غير تينك الصيغتين البسيطتين (فعل، ويفعل) المعبر بهما عن وقوع الحدث في أزمان مختلفة، لكن ذلك مظهرا من مظاهر الفعل في مرحلته القديمة، وليس سمة خاصة بالعربية، ولعل استقراره فيها عائد إلى عدم اهتمام النحاة بدراسة البنيات والصيغ المركبة الشائعة في الاستعمال (قد فعل، كان قد فعل، كان فعل)¹.

أما إبراهيم السامرائي فينطلق - في نقده للتصور الاستشراقي - من أن اللغة العربية لا تختلف عن باقي اللغات في تعبير الفعل فيها عن الزمن، لكن وجه الصعوبة في الأمر «أن أبنية الفعل العربي لا تفصح عن الزمان كما تشير إلى ذلك مصطلحاتها [...] وعلى هذا فليس صحيحا أن نكرر ما يقوله جماعة من الباحثين الأعاجم من أن الزمان ليس شيئا أصيلا وأن اقتران الفعل العربي به حديث النشأة»².

ومع أن السامرائي ينتقد طرح المستشرقين إلا أنه لا يؤسس رأيه على أساس تحلي، ولعل ذلك ما جعله يعود إلى ما سبق أن اقترحه بعض المستشرقون، حين يقولوا: «[...] ومن هنا فإن الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيغته، وإنما يتحصل الزمان من بناء الجملة، فقد تشتمل على زيادات تعين الفعل على تقرير الزمان في حدود واضحة [...] وإنما نستطيع أن نقرر أن صيغة (فعل) وإن دلت دلالات عدة في الإعراب عن الزمان، فهي في أغلب الأحوال تدل على حدث أنجز وتم في زمن ماض، وأن صيغة (يفعل) تتردد بين الحال والاستقبال وإن ذهبت في الاستعمال مذاهب أخرى، وذلك بفضل الأدوات والزيادات التي أشرنا إليها»³.

ويبدو أن هذا الطرح قريب مما أورده المستشرق الألماني برجستراسر (G. Bergstrasser) من تميز اللغة العربية عن باقي الساميات بـ «تخصيص معاني أبنية الفعل وتنويعها، وذلك بواسطة صيغتين؛ إحداهما: اقترانها بالأدوات، نحو: "قد فعل" و"قد يفعل" و"سيفعل" وفي النفي: "لا أفعل" بخلاف: "ما فعل" و"لن يفعل"، بخلاف: "لا يفعل" و"ما يفعل". والأخرى: تقديم فعل (كان)

¹ المرجع السابق، ص: 148.

² إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، مرجع سابق، ص: 23.

³ المرجع السابق، ص: 24.

على اختلاف صيغه نحو: "كان قد فعل" و"كان يفعل" و"سيكون قد فعل" إلى آخر ذلك، فكل هذا ينوع معاني الفعل تنوعاً أكثر مما يوجد في أي لغة كانت من سائر اللغات السامية»¹.

ويتضح مما قدمه السامرائي أنه أشار — رغم مأخذه على الطرح الاستشراقي في هذا المنحى — إلى نقص الصيغ على مستوى الإحالة الزمنية، وتكفل السياق المقالي أو المقامي في إنتاج تلك الإحالة، وإغنائها، وهو الطرح نفسه - تقريباً - الذي قدمه المستشرقون.

ولم يكتفِ الوصفيون بنقد تصورات من سبقهم في مستويات التعريف، والتقسيم، بل «عملوا جاهدين على اقتراح جداول زمنية تبين غنى الإحالة الزمنية في اللغة العربية استناداً إلى وسائل لغوية كالمساعدات وأدوات النفي والشرط والموجهات مثل الموجه (سوف أو قد) وذلك للرد على من وسم اللغة العربية بفقر نظامها الزمني»².

ويبدو أن إبراهيم السامرائي — في نقده — للتصور النحوي التقليدي يوظف مصطلحاً أقرب في دلالاته إلى الزمان بمفهومه الظرفي الوقتي، الذي تشير الانجليزية إليه بـ (Time) من الزمن بمفهومه اللغوي (Tense) حيث يقول السامرائي في تعليقه على تعريف ابن يعيش للزمن، يقول: «وابن يعيش في هذا القول يذهب مذهباً بعيداً، وهو لا ينهج لهجاً لغوياً، فكأنه أراد أن يفلسف المسألة اللغوية، وهي لا علاقة لها بالنظر العلمي، وكأن النحوي لم يرد استقراء العربية لمعرفة إعراب الفعل عن الزمان، بل إنه اهتدى إلى هذه الناحية من تأمله في الزمان الفلكي، ويبدو أنهم لم يستقروا العربية استقراء وافياً ليتبين لهم طرائق استعمال الفعل، وأن كل ما فطنوا له هو اتفاقهم على أن الفعل من الأحداث المقترنة بزمان ما، غير أنهم لم يعطوا إيضاحات عن حدود هذا الزمان»³ فتوظيف السامرائي مصطلح "الزمان" قربه أكثر من التصور الوجودي أو الفلكي الذي كان يسعى إلى تجنبه.

ويبدو أن كلا من السامرائي والمخزومي يرى أن الإطار العاملي الذي وجه المنوال النحوي العربي كان له أثره في تشتيت دراسة طرق الإحالة الزمنية بين أبواب النحو العربي، ذلك أن النحاة لم يدرسوا الفعل و« يتناولوه إلا فيما يتعلق بكونه يؤثر في الاسم ويعمل فيه، لأنه أقوى

¹ لبرجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1994م، ص: 89.

² امحمد الملاح، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، مرجع سابق، ص: 46.

³ إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، مرجع سابق، ص: 17.

العوامل، ولأنه الأصل في العمل «¹ ف» قد اهتموا بالعلة والعامل وما يترك العامل من أثر، وهو ما دعي بالإعراب، ولذلك لم يولوا مسألة الدلالة الزمنية حقها»².

ومع وجاهة ملاحظة توزع الأدوات المسهمة في بناء الإحالة الزمنية على أبواب النحو العربي، وعدم وجود مبحث نسقي لتلك الإحالة، إلا أن ضبابية الحدود بين الزمنين الفلكي واللغوي ظلت حاضرة في التصور أعلاه، ولعل ذلك ما دفع تمام حسان في مستهل مبحث "الزمن والجهة" يحاول التمييز بين الزمن النحوي، والزمان.³

ويوضح تمام حسان تصوره قائلاً: « وأوضح ما يفرق بين الزمن والزمان أن الزمان كمية رياضية من كميات التوقيت تقاس بأطوال معينة كالثواني والدقائق [...] فلا يدخل في تحديد معنى الصيغ المفردة ولا في تحديد معنى الصيغ في السياق ولا يرتبط بالحدث كما يرتبط الزمن النحوي، إذ يعتبر الزمن النحوي جزءاً من معنى الفعل [...] وإذا كان النحو هو نظام العلاقات في السياق، فمجال النظر في الزمن النحوي هو السياق وليس الصيغة المنعزلة، وحيث يكون الصرف هو نظام المباني والصيغ يكون الزمن الصرفي قاصراً على معنى الصيغة يبدأ بها وينتهي بها، ولا يكون لها عندما تدخل في السياق»⁴

وهكذا قادت أصحاب التوجه الوصفي اعتراضاتهم إلى محاولة استقراء الدلالة الزمنية للصيغ في السياق التركيبي، وذلك من أجل تدارك ما اعتبروه قصوراً في التصور النحوي، وللدرد — كذلك — على آراء المستشرقين التي تتكرر زمنية اللغة العربية؛ لذلك حاول السامرائي جرد استعمالات "فعل" فأورد لها أربعة عشر استعمالاً⁵ و"يفعل" التي ذكر لها تسعة استعمالات⁶ بينما خطا تمام حسان خطوة أخرى حين أدخل مفهوم الجهة، دون أن يستثمره استثماراً يجعل منه أداة لقياس الزمن الداخلي للفعل، وامتداده الحدتي.

ويتضح أن الوصفيين لم يتخلصوا من ثقل الإرث النحوي، الذي ظل يطفو على صفحات مقارباتهم، سواء من حيث المعطيات التمثيلية التي لم تخرج عما أورده النحاة، أو من حيث

¹مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، مرجع سابق، ص: 141.

²المرجع السابق، ص: 18.

³تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، المغرب، دار الثقافة، 1994م، ص: 240.

⁴المرجع السابق، 242.

⁵إبراهيم السامرائي، الفعل زمانه وأبنيته، مرجع سابق، ص: 28. 30.

⁶المرجع السابق، ص: 31 - 33.

بعض التأويلات الزمنية، كما أن التقليد الاستشراقي وجد صده في منهجهم الاستقرائي، حيث كان السامرائي سائرا في ظلال هنري إفليش وكانطرينو؛ مما يعني أن المقاربات الوصفية ظلت تتنازعها سلطة النحو العربي، وتقليد الاستشراقي، وإن حاول أصحابها انتقاد من سبقوهم، ويمكن تلخيص جملة ملاحظات على هذا الاتجاه منها:

— غياب مفهوم الجهة كمفهوم واصف للنسق الفعلي العربي، وإن حضر لدى تمام حسان إلا أنه لم يستثمره إجرائيا، ولعل حرصهم على إظهار غنى الإحالة الزمنية للغة العربية ردا على المستشرقين، هو ما حدا بهم إلى تغييب الجهة عن وصف النسق الزمني للفعل العربي.

— اهتمامهم بالأبعاد الاستقرائية، والجرد المسحي بطريقة وصفية اعتباطية، دون استنباط نسقية حاکمة لتلك الاستعمالات، ومحاولة صياغة تعميمات إجرائية؛ لذا « لم تستطع محاولاتهم أن ترقى إلى بناء النسق الزمني العربي، ما دامت الأدوات النظرية لبناء هذا النسق والمفاهيم المؤسسة على نظريات واضحة للزمن غائبة لديهم»¹

— اعتمادهم تخصيصا أحاديا للقيم الصرفية للفعل، خلافا لما يمتاز به الفعل العربي من التباس، عبر عنه عبد القادر الفاسي الفهري بقوله: «ليس الفعل جذعا تلصق بهي وحدة صرفية تتضاف خطيا إلى صورة فعل غير متصرف، بل إن الجذع الفعلي في العربية يكون دائما متصرفا محتويا على الزمن (Tense) والجهة (Aspect) وكذلك البناء (Voice) وهو يدل أيضا على الوجه (Mood)»²

2 . الاتجاه التوليدي واستثمار الكليات اللغوية:

تأسس الاتجاه التوليدي التحويلي على أنقاض البنيوية، فنحى بالبحث منحى مغايرا، حيث تغيرت الوجهة من الاهتمام بالوصف وما يقوم عليه من استقراء المادة اللغوية وتحليلها وتصنيفها إلى الوصف والتفسير في الآن ذاته، والبحث عن صياغة قواعد عامة (كليات) تحكم سائر اللغات.

¹ امحمد الملاح، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، مرجع سابق، ص: 49.

² عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي الموسع نظرية توليدية جديدة، كنوز المعرفة، ط1، 2018م، ص: 49.

وقد انشد كثير من الباحثين إلى هذا الإبدال المنهجي الجديد، فعرف طريقه إلى ثقافات عديدة، وكان للثقافة العربية نصيبها من ذلك، «بحيث عرفت النظرية التوليدية طريقها إلى ثقافتنا في بداية السبعينيات من القرن العشرين، كما عرفت تطبيقات مهمة على اللغة العربية»¹

وتحتل دراسة الخصائص الجهية والزمنية للأفعال والصفات حيزا مهما في دراسة اللسانيين التوليديين، كما نجد لدى عبد القادر الفاسي الفهري (البناء الموازي الموسع نظرية توليدية جديدة...)، وأحمد الباهي (التأويل الزمني في اللغة العربية)، وماهر بهلول (Structure and function of the arabic verbe)، وعبد المجيد جحفة (دلالة الزمن في العربية: دراسة النسق الزمني للأفعال)، وإمحمد الملاح (الزمن في اللغة العربية: بنياته التركيبية والدلالية)²

وسنكتفي بتناول دراسات عبد القادر الفاسي الفهري لمبحث الزمن؛ باعتباره من أبرز اللسانيين التوليديين عموما، ولاتسام مقاربتة بالشمولية، ومواكبة اللسانيات التوليدية في أطوارها المختلفة، حيث ينطلق من «طرح قضايا تحديث الآلة الواصفة لمعطيات اللغة العربية، وذلك بالانخراط في مستجدات الأسئلة التي أفرزها الخطاب اللساني الغربي، والتوليدي منه بشكل خاص»³ كما أن جزءا مهما من الأعمال التي تناولت هذا المبحث من منظور توليدي قدمها طلاب الفهري، وأشرف على تنسيق بعض منها، وأسهم في بعض آخر.

مثلت دراسة الإحالة الزمنية جزءا مهما من الإشكالات التي كانت مرتكز أعمال الفاسي الفهري⁴؛ فمُنذ «كتاب Issues (انظر الفاسي 1991-1993)، نجده يركز على معالجة إشكاليين أساسيين

¹ حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط 1، 2009م، ص: 261.

² للمزيد من التفصيل، يمظر: امحمد الملاح، «مجلة مقاربات»، مقاربات النسق الزمني للغة العربية دراسة تقويمية 2014م، ص: 123 - 131.

³ حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، مرجع سابق، ص: 282.

⁴ نقصد كتبه:.. البناء الموازي (نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة) دار توبقال للنشر 1990م
— Issues in the Structure of Arabic Clauses and Words. Kluwer Academic Press 1993

- المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، دار توبقال للنشر 1998م
- عن الماضي والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست اللغة العربية لغة جهية، ضمن كتاب: البنى الزمنية وأشكالها، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب 2000م

- زمن اللغة، ضمن كتاب: سمات الفعل وطرق بنائها، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب 2004م

يتعلقان بالزمن والجهة، وهيكلتهما. هذان الإشكالان هما من جهة إشكال الإحالة الزمنية (Tense reference) ومن جهة أخرى إشكال الزمن كعنصر علاقي، معارضة مع الجهة (Aspect)¹.

شكل كتاب Issues محطة مهمة لإيضاح المعالم الكبرى للنظام الزمني في اللغة العربية من منظور توليدي، حيث قام على محاور أساسية منها:

1. — استجلاء التقابل بين الشكليين الفعليين في العربية: زمني أم جهي؟ مع محاولة صياغة الروائز التركيبية والصرفية والدالية، التي يمكن الركون إليها في تحديد طبيعة هذا التقابل، وكان الفاسي الفهر — في ذلك — مراجعا لما رسخته أعمال المستشرقين حول جبهة اللغة العربية، حتى بات الأمر شبه مسلم به بين الدارسين.

ويفصح الفهري عن محاجته للطرح الغربي عموما، والتقليد الاستشراقي خصوصا، فيما يتعلق بجبهة اللغة العربية، فيقول: «أريد أن أقوم ببناء استدلال بسيط لأؤكد أن النظام الزمني العربي مبني على الماضي أساسا. وهذه النتيجة قد تبدو بسيطة، بل تافهة، ولكن الأمر ليس كذلك، وخصوصا إذا نظرنا إلى كثير من الأدبيات الغربية، التي عدت اللغة العربية لغة جهية»².

ويذهب أبعد من ذلك؛ فيعتبر أن الإرث الاستشراقي كان مسؤولا عن الاضطراب المصطلحي في وصف النسق الزمني للفعل العربي، حيث أنه «من الأخطاء الاصطلاحية التي أشاعها ورايت (1958) Wright أو Caspari من بين آخرين، مصطلح (Imperfective) للدلالة على صيغة المضارع، وهناك من يتحدث عن (Imperfect) وهو شيء مختلف، ولكنه غير صالح كذلك»³.

2. جرد عناصر النظام الزمني، أي المكونات التي تتفاعل لتسهم في بناء الإحالة الزمنية في اللغة العربية، متمثلة في المساعدات، والروابط الزمنية، والموجات، والنفي...⁴ حيث يتعذر تأويل الإحالة الزمنية تأويلا مسوغا دون أخذ مختلف الأبعاد المسهمة فيها معجميا وتركيبيا.

¹ عبد القادر الفاسي الفهري، عن الماضي والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست العربية لغة جهية، في البنى الزمنية وأشكالها، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب، وجمعية اللسانيات بالمغرب، ط1، 2000، ص: 14.

² المرجع السابق، ص: 16.

³ عبد القادر الفاسي الفهري، "عن الماضي والاكتمال أو لماذا ليست العربية لغة جهية"، مرجع سابق، ص: 16.

⁴ حول ذلك ينظر: عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 1990م، ص: 80، وكذلك: امحمد الملاح، مقاربات النسق الزمني للغة العربي دراسة تقويمية، ص 123.

3. محاولة النظر في موسومية الأزمنة، وانعكاس ذلك على السلوك التأويلي للأزمنة، وتخصيص الزمن أو الجهة أو الوجه بسمه موسومة، وقد تبنى الفهري كون الزمن في الفعل العربي يقوم على سمة موسومة زمنيا هي الماضي، في مقابل غير الماضي حيث يقول: «[...]» وقد بينا أن النظام الزمني العربي (في الفعل) مبني أساسا على زمن موسوم واحد هو الماضي، يعبر عن علاقة زمنية محددة هي القبلية (Anteriority) وأما الزمن غير الموسوم فيأتي في صيغة المضارع، وهو غير قبلي¹.

ويؤسس الفهري على ذلك، وانطلاقا من جملة من الروايات أن ادعاءات المستشرقين، ومن سار في فلكهم غير صحيحة، فالصورة المسوغة «بالنسبة للنظام العربي هو أنه كلما دققنا فيه، يتضح لنا أنه نظام زمني أساسا، وليس نظاما جهيا»².

4. صياغة هندسة البنى الزمنية المركبة صياغة مثوية الصرفية، أي أن هندستها عبارة عن زمنين يتحكم أحدهما في الآخر، وليست الأزمنة المركبة — كما تصورت بعض الأعمال التوليدية³ - عبارة عن زمن وجهة

ويقدم الفهري جملة من الروايات المقارنة بين العربية والفرنسية والانجليزية، فيبين أنه إذا كان الترج في الانجليزية ذو صرفة تجعله موسوما، كما في المثال [74] فإنه في العربية لا يستخلص من صرفة جهية/زمنية خاصة، بل فقط من جهة الوضع المعجمة في جذر الفعل، كما يبين المثال [75].

John is knowing the answer [74]

فهذه الجملة عندما تكون مقبولة تعني أن "جون" بصدد معرفة الجواب، وليس أنه عرف الجواب. [75] كان الولد يأكل

«فإن معنى التدرج يستفاد فقط من معنى الحاضر [...] وفي نفس الاتجاه، وكما حاولت أن أبين في Issues فإن الزمن المركب زمن مزدوج، وليس زمنا وجهة، كما اقترح البعض، علاوة على أنه ليس هناك نظام جهي في اللغة العربية، خلافا لما يقال، فمن الغريب أن نتحدث عن لغة جهية، وهي لغة لا توجد فيها صرفة دالة على التدرج، ولا صرفة دالة على الاكتمال»⁴.

¹ عبد القادر الفاسي الفهري، عن الماض والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست العربية لغة جهية"، مرجع سابق، ص: 14.

² المرجع السابق، ص: 28.

³ ينظر: امحمد الملاح، "مجلة مقاربات"، مرجع سابق، ص: 125.

⁴ عبد القادر الفاسي الفهري، "عن الماض والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست العربية لغة جهية"، مرجع سابق، ص: 20.

5. الدفاع عن نسق ثلاثي القيم للصرفة العربية، التي تتفاعل فيها سمات الزمن، والجهة، والوجه، حيث «إن الجذع الفعلي يكون دائما متصرفا محتويا على الزمن (Tense) والجهة (Aspect)، وكذلك البناء (Voice)، وهو يدل أيضا على الوجه (Mood)»¹ والفكرة أن البنيات الزمنية جميعها بسيطة كانت أو مركبة تسقط مصفوفة زمنية ثلاثية القيم تخصص سماتها بشكل تام، أو تخصص تخصيصا أدنى عندما يكتفى بتخصيص بعضها دون بعض «ويكون السياق متحكما في تنشيط التخصيص التام أو الأدنى»².

6. البحث في الخصائص الربطية للأزمة، ويقترن ذلك ببرنامج التوازي بين إحالة الحدود، وإحالة الأزمنة، ودرجة المماثلة أو المخالفة بينهما، ويؤسس الفاسي الفهري استدلاله على مقارنة نظام اللغة الانجليزي ذي الأزمنة المتصرفة الضميرية، خلافا «للعربية التي تستعمل صورة "يفعل" بشكل ملتبس ومرد الالتباس إلى السمات الإحالية للزمن في الأفعال الذي ينشطر إلى زمن ضميري أو عائدي يفصل السياق بينهما»³.

ونخلص مما تقدم إلى أن عبد القادر الفاسي الفهري سعى في لأعماله إلى مقارنة الإحالة الزمنية في ضوء ما يتيح التصور التوليدي، وكان - في ذلك - مؤسسا لتصور يدافع عن زمنية اللغة العربية في سياق مقارن لها باللغتين الفرنسية والانجليزية، ومن منطلق استدلال مؤسس على روائز صرفية، وتركيبية، ودلالية، وهو بذلك ينقض ما أرساه التقليد الاستشراقي من عد اللغة العربية لغة جهة في إطار مقارنتها باللغتين الفرنسية والانجليزية، مبينا أن المعالجات المندرجة في المنحى الاستشراقي إما أنها استخدمت معطيات ناقصة في استدلالاتها أو أولت المعطيات بطرق غير سليمة.

فكان تغيير الصورة النمطية المنتشرة في الأدبيات الغربية والتقليدية وبعض الأعمال التوليدية حول جهة اللغة العربية الدافع لعلاج إشكال الزمن كعنصر علاقي يتقاطع مع الجهة، من خلال تناول التساؤلات حول معرفة متى يمكن تحليل الأزمان على أساس أنها ضمائر (Pronouns)، أو عوائد (Anaphors)، أو عبارات محيلة (Referencial expressions)، «وفقا

¹ عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي الموسع نظرية توليدية جديدة، مرجع سابق، ص: 49.

² امحمد الملاح، "مجلة مقاربات"، مرجع سابق، ص: 124.

³ المرجع السابق نفسه، والصفحة ذاتها.

لطرق "إغلاق" أو "إشباع" دلالاتها و/أو إحالاتها»¹، والتساؤل حول أنواع الجهة من حيث هي إما معجمية ترتبط بجهة الأوضاع (Situation aspect) وإما نحية ترتبط بالبناء (Grammatical aspect) كما أن الفاسي الفهري لم يتناول الزمن تناولاً جزئياً يعزل المستويات المسهمة في خلق الإحالة الزمنية عن بعضها بعضاً؛ بل كشف آليات التفاعل بين عناصر السلسلة الزمنية (الزمن، والجهة، والوجه) إضافة إلى دراسة أشكال التوزيع التكاملي بين مكونات السلسلة، وتفاعل الزمن والنفي، أو النفي والموجهات...² ويبقى أساس النسق الفعلي في العربية زمنياً في العمق، أما التأويلات الجهمية، فهي ناتجة عن آثار دلالية أو تركيبية للزمن، يمكن حسابها أثناء تأويل البنى الزمنية. ويبدو أن أعمال الفاسي الفهري كانت موجهة أساساً لمن تناولوا مبحثي الزمن والجهة في اللغة العربية، بحيث ظلت تساييره في أغلب ما ذهب إليه، كما نجد في تناول عبد المجيد جحفة³، الذي ركز على إشكال تداخل المعلومات الزمنية في صرف الفعل العربي (الزمن، والجهة، والوجه)، وفرز الأشكال الزمنية البسيطة والمركبة انطلاقاً مما يتيح نسق ريشمباخ التمثيلي، والتوازي بين تركيب الزمن والجهة، ولعل من أهم الإضافات في عمل جحفة خوضه في قضايا تنوع الإحالة الزمنية في الأزمنة الممجة انطلاقاً من ثلاث بنيات: بنية الصلة، والحال والجمل الواصفة⁴. وينطلق امحمد الملاح في كتابه "الزمن في اللغة العربية: بنياته التركيبية والدلالية" في كثير من الأحيان من تصورات عبد الفاسي الفهري، خصوصاً في بناء وتخصيص عناصر النظام الزمني، وتمثيل واشتقاق الإحالة الزمنية في تركيب العربية... ولعل من أهم الإضافات في عمل الملاح تناوله لتخصيص ظواهر الإحالة الزمنية في الخطاب، وإشكالية المنظور الذاتي للزمن، والآثار السياقية التي تنتج عن استعمال الزمن في أنماط الخطابات⁵

¹ناصر الحريص، "حضور اللغة العربية عالمياً عبر كتاب: نظرات في بنية الجمل وبناء الكلمات العربية"، في اللغة، المعرفة، السيمياء، التخطيط، والتربية (تكريماً لأستاذ الأجيال والخبير اللساني الكبير عبد القادر الفاسي الفهري، الرباط: جامعة محمد الخامس، ط 1، 2014، ص: 69.

²ينظر: امحمد الملاح، "مجلة مقاربات"، مرجع سابق، ص: 124.

³للاطلاع ينظر: عبد المجيد جحفة، دلالة الزمن في اللغة العربية دراسة النسق الزمني للأفعال، سلسلة المعرفة اللسانية، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط 1، 2006.

⁴ينظر: المرجع السابق، ص: 157 وما بعدها.

⁵كمزيد من التفصيل، ينظر: امحمد الملاح، الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، مرجع سابق، ص: 453. 490.

ويبدو أن الملاح — بإضافته للآثار السياقية — خطأ خطوة مهمة نحو الوعي بأهمية إدخال البعد التداولي في تناول الإحالة الزمنية تناولا يتأسس على ما تتيحه البنيات الصرفية والتركيبية والدلالية، لكنه يتجاوزها إلى البحث في السياقات المقالية والمقامية، وإقامة نمذجة استدلالية تراعي أهمية الأبعاد غير النصية في توجيه وتأويل الإحالة الزمنية.

خاتمة:

يتبين من خلال ما قدمنا عن تصور الاتجاهين الوصفي والتوليدي للبنية الزمنية في اللغة العربية أن كلا من الاتجاهين يرى أن التصور النحوي القديم ليس كافيا لإنتاج تصوري نسقي للزمن؛ لذا لم يتوان الوصفيون في نقد القسمة الثلاثية التي تكفي بإسناد قيم دلالية ثابتة لأزمنة الفعل، دون الاهتمام بالتقابلات الجهمية المسؤولة عن قياس البنية الزمنية الداخلية للأحداث، وهو تصور جاري فيه الوصفيون التناولات الاستشرافية، وإن ظل النفس البنيوي الملمح الأكثر بروزا في المقاربة الوصفية، بينما كان المنطلق التوليدي العربي منطلقا يبحث في الكليات اللغوية المشتركة بين الألسنة كلها، مع مراعاة الفروق الطفيفة التي لا تتجاوز مستوى الوسائط؛ وفي هذا المنحى دافعت التوليديّة العربية عن ازدواج الصرف في اللغة العربية (الزمن، والجهة، والوجه) وتفاعل هذه المقولات الوظيفية الثلاث ضمن بنية تركيبية صارمة، تفاعلها في إنتاج وتأويل الإحالة الزمنية.

وقد كان لهذه التصورات دور مهم في إغناء البحث في الإحالة الزمنية في اللغة العربية، وشكلت أساسا بنيت عليها مقاربات أخرى تجاوزت التناولات النسقية إلى الملاءمة السياقية، التي تراعي فاعلية الأبعاد التداولية في اختيار التأويل الزمني الأنسب، كما نجد في بعض أعمال امحمد الملاح.

قائمة المصادر والمراجع:

1. امحمد الملاح:

— الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية، الدار العربية للعلوم ناشرون،

دار الأمان، منشورات الاختلاف ط 1، الرباط، 2009م.

_____ مجلة مقاربات"، مقاربات النسق الزمني للغة العربية دراسة تقويمية، 2014م.

2. إبراهيم السامرائي. الفعل زمانه وأبنيته، دار الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1983م.

3. برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة،

مكتبة الخانجي، ط2، 1994م.

4. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، المغرب، دار الثقافة، 1994م.

5. حافظ اسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، دار الكتب الجديدة المتحدة، ط 1، 2009م.
6. عبد القادر الفاسي الفهري:

_____ البناء الموازي الموسع نظرية توليدية جديدة، كنوز المعرفة، ط1، 2018م.

_____ البناء الموازي (نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة) دار توبقال للنشر 1990م.

_____ المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، دار توبقال للنشر 1998م.

_____ عن الماضي والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست اللغة العربية لغة جهية، ضمن كتاب: البنى الزمنية وأشكالها، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب 2000م.

_____ زمن اللغة، ضمن كتاب: سمات الفعل وطرق بنائها، معهد الدراسات للأبحاث والتعريب 2004م.

Issues in the Structure of Arabic Clauses and Words. Kluwer Academic Press 1993

7. عبد المجيد جحفة، دلالة الزمن في اللغة العربية دراسة النسق الزمني للأفعال، سلسلة المعرفة اللسانية، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، ط1، 2006.
8. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، ط 2، بيروت/ لبنان، 1986م.

9. ناصر الحريص، "حضور اللغة العربية عالميا عبر كتاب: نظرات في بنية الجمل وبناء الكلمات العربية"، في اللغة، المعرفة، السيمياء، التخطيط، والتربية (تكريما لأستاذ الأجيال والخبير اللساني الكبير عبد القادر الفاسي الفهري، الرباط: جامعة محمد الخامس، ط 1، 2014.

إشكاليات البنية والتنوع في نظم التكسير الصرفية

اسماعيل باب حمين

طالب دكتوراه: مكونة النص والمناهج

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ملخص المقال:

يشهد نظام الجمع في الصرف العربي حركة لغوية دائبة، تستمد مادتها من تخوم المعاجم اللغوية والاستعمالات المتعددة للمفردات، مما شكل مظهرًا حيويًا لدورها في تشكيل أوزان الجموع وقوانين الأبنية وصياغة المعاني.

وتشكل جموع التكسير . بشكل خاص . مظهرًا من مظاهر التحول الذي تتهدم فيه بنية المفرد ولم يبق معه سوى حروف البنية الأصلية، وقد يذهب بعضها في مرحلة من مراحل التصريف، فيتغير بمقتضاه نظام الواحد وبنائه.

كما تتأسس في بنيتها على نظام الصيغ الثابتة لقوالب المادة الواحدة غير أنها تتسم بإضافات في مقاطع الحركات وتترتب في سلم من التحول يمكن رصد معالمه في عشر (فئات) بإدراج صيغ منتهى الجموع، وثمانية بدونها.

تندرج ضمن هذه النظم أوزان التكسير بنوعيتها: الكثرة + القلة، أما قوالب منتهى الجموع فلها نظمها الخاصة بها، ويشمل تغييرها جانبي الشكل والكم بثلاث مستويات:

1. المستوى الشكلي الخاص بالحركات والسكنات.

2. المستوى الشامل للشكل والكم والبنية.

3. النقص والإسقاط للبنية الأصلية.

أما من جانب المعاني، فإن استهلال الصيغة بالهمز يؤدي معنى القلة: (أفعلة + أفعَل + أفعال)، واختتامها بالهمز لإفادة معنى الكثرة: (فعلاء + أفعلاء)، وباجتماعهما تغلب الثانية لحملها دلالة المد المقتضي الزيادة، كما تعتبر (التاء) علامة فارقة للجمع (أفعلة + فعلة + فعلة + مفاعلة) فإذا افتتح الوزن بالهمز فدلالته القلة، وإذا افتتح بغيرها دل على الكثرة.

أما التاء الخاصة بصيغ منتهى الجموع فتفيد المبالغة، بينما تأتي (النون) الملاصقة لآخر بعض الأوزان مشعرة بالكثرة (فعلان + فعْلان)، ومثلها الألف المقصور في دلالة الكثرة (فعلى) ومما يفيد التكرير تضعيف وسط الوزن (فعل)، أما الهمز الواقع بداية منتهى الجموع فإنه من الأصل اللفظي للمفرد (أفاعل) وليس من دلالات الجمع، وقد يقع الحذف في بعض الصيغ للتناغم مع بنيتها الإفرادية: (فعلة: أفاع . فعَى . فعَى . فعْل) دون المساس بدلالة الجمع.

. الكلمات المفتاحية: التكسير . البنية . الصيغ . الأوزان . النظام . التحول . الصوت . الدلالة.

تقديم:

تروم هذه المقاربة استتطاق المكونات المعجمية التي تشكل الرافد اللغوي لجموع التكسير، وما تثيره من قضايا ترتبط بجوانب البناء والأشكال الناتجة عن التحولات الصوتية، وانعكاساتها في رسم المعاني والدلالات المتنوعة.

وتشكل جموع التكسير مظهرا من مظاهر التحول الذي تنهدم فيه بنية المفرد ولم يبق معه سوى حروف البنية الأصلية، وقد يذهب بعضها في مرحلة من مراحل التصريف، فيتغير بمقتضاه نظام الواحد وبنائه،¹ وسنتبع ذلك باستعراض بنية الجمع، وما يصاحبها من أبعاد صوتية ودلالية.

المبحث الأول: نظام التكسير في المفهوم والبنية

يقصد بالتكسير الجمع الذي يطرأ على بنية مفردة تغيير،² ويشمل العاقل وغيره³ وهو: "ما دل على أكثر من اثنين بتغيير صورة مفردة تغييرا ظاهرا أو مقدرا"⁴ ووصفه ابن السراج بأنه: تحطيم البنية الأحادية للمفردات،⁵ وتتووع أبنية الجمع وتختلف في شكلها،⁶ تبعا لمستويات من التغيير منها ما تزيد فيه كمية المفردات ومنها يحصل بالنقص والتبديل أو تغيير هيئة الحركة.⁷

¹. فقه اللغة المقارن، د. إبراهيم السامرائي، دار العلم للملايين . بيروت، ط3، 1983م. ص: 95. يرى السامرائي أن المحدثين الأوربيين حاروا في جموع التكسير وطرق بنائها في العربية، فمنهم من يرى أن المقطع الزائد على البنية هو الذي يولد صورة الجمع، بينما رأى آخرون أن هذه صيغ وضعت لأسماء مفردة لكنها تضمنت معنى الجمع. انتهى الاستشهاد بتصريف.

ينظر بهذا الخصوص: فقه اللغة العربية وخصائصها، اميل بديع يعقوب، ط2، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، 1982م، ص: 114198.

². د يزيه سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربية، بيروت، ط1، 1996م، ص: 83 يرى ديزير أن جمع التكسير هو: "كل جمع لا تقل دلالاته عن الثلاثة، بحيث تكون قد طرأت على أحرفه زيادة أو نقصان، ويشارك معناه وأصوله، فقد يكون التغيير في حرفه زيادة أو نقصانا مقصورا على الحركات.

³. موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1442هـ 2001م، 606/5.

⁴. الشيخ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م، ص: 62.

⁵. أبو بكر محمد بن سهل ابن السراج، الأصول في النحو لابن السراج، تح: د. عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996م، 429/2.

⁶. ربما بدر الدين جمعة، البحث الصرفي في كتاب إكمال المعلم بفوائد مسلم، ماجستير آداب في الدراسات اللغوية، 1439هـ. ص: 32.

⁷. شرح المفصل لابن يعيش، مرجع سابق، 606/5. بين ابن يعيش أنواع التغيير بقوله: (وهذا التغيير يكون تارة بزيادة وتارة بنقص وتارة بتغيير بنية الواحد من غير زيادة ولا نقص في الحروف، فأما التغيير بالزيادة فنحو رجل

الفقرة الأولى: البنية المعجمية

قد تتعدد أبنية التكسير للمفردة الواحدة لأسباب يرتبط بعضها بالروافد اللغوية وصيغ البناء، ويستند الآخر إلى قضايا الدلالة والمعنى.

1. الرافد اللغوي: ويمثله العامل اللساني والضرورات الشعرية، حيث يعود الأول إلى اختلاف اللهجات¹، فقد تتوارد للمفردة الواحدة لغتان متباينتان، مما يفرض تعدد جموعها، كمفردة (قوس) فتجمع بالقلة على أقوسة وأقواس².

أما الضرورات فتتعلق بإمكانات الخطاب (الشعري والنثري)، فقد تستعمل العرب أكثر من صيغة للمفردة الواحدة حتى خارج قياس اللفظ، ك(الغدايا والعشايا) فلا يمكن جمع (العشايا) بهذه الصيغة، وإنما كسرت للانسجام الصوتي بين لفظي (الغداة والعشي).

2. البعد الدلالي: يشكل البحث عن المعنى في الخطاب بعدا كبيرا، لذلك تستخدم المفردة الواحدة بطرق مختلفة³، ولا يميزها إلا سياق الاستعمال، مما أدى لوجود ظاهرة الاشتراك والترادف في المفردات، أما جموعها فتختص بمعان مختلفة⁴، ك(الخف) فتطلق على (الخف) الذي يجعل على الرجل وتتحد لفظا وخطا مع (خف) البعير إلا أن الأولى تجمع ب(أخفاف) وتجمع الثانية ب(خفاف)⁵

ورجال، وبالنقص أزر إزار، ثم اشار إلى أن تغيير البناء يعود إلى تغيير الحركات، مثل: أسد فالأصل في ذلك الجمع بالزيادة.

¹ . علي أبو المكارم، دار غريب 2005م، تقويم الفكر النحوي، ص: 193. (وقد حصر بعض الباحثين الاختلافات في اتساع اللغة واختلاف اللهجات العربية وليس الأبنية والموازن).

² . راجع بهذا الخصوص: أحمد ابن فارس بن زكريا الرازي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: د. عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف بيروت، ط1، 1993م، ص: 53. وينظر: فاضل السامرائي، معاني الأبنية العربية، دار عمار، 2007م، ط2، ص: 114. وانظر: فقه اللغة العربية بديع إميل، مرجع سابق، ص: 113.

³ . د. علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار غريب، 2005م، ص: 193.

⁴ . إبراهيم السامرائي، فقه اللغة المقارن، دار العلم لملايين، بيروت، ط3، 1983م، ص: 98.

⁵ . انظر لهذه المعاني: القاموس المحيط للفيروز آبادي، مرجع سابق، ص: 484، حرف الخاء، مادة (خ. ف).

وكمفردة¹ (راكب) فيتصف بها كل من اعتلى الشيء، وتجمع بـ(ركاب) لتطلق على ركاب السفينة و(ركبان+ ركب) وتتداول لركاب الأنعام.²

. التقليل والتكثير: من أسباب اختلاف الأبنية تعدد معاني القلة والكثرة، فقد أفرد الصرفيون أربعة أوزان خاصة بتقليل الأبنية ودلالة الأعداد المحددة بثلاثة إلى عشرة: (أفعلة، أفعل فعلة، أفعال)، رغم صلاحيتها لإطلاقات الكثرة،³ وما تجاوز ذلك يصاغ لجموع الكثرة، مع جواز إطلاقه للقلة من المادة اللغوية ذاتها (فتية+ فتیان).

الفقرة الثانية: البنية الصوتية

تتسم صياغة التكسير بالعديد من التحولات الفارقة في الجوانب الصوتية وشكل المفردات أهمها:

1. التحول الكمي: ويحصل في زيادة صوامت المفردات،⁴ كـ(صنو) فتتكسر ببنية⁵ على (أصناء)⁶ وقد اجتمعت فيها الزيادة والحذف،⁷ ويقع هذا في صيغ القلة أكثر من أبنية الكثرة، بداعي محدودية قوالب القلة واتساع نطاق الكثرة وصعوبة استقصائها.⁸

¹ . محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان، دار ابن كثير، ط1، 2013م، ص 153.

² . مجد الدين محمد بن ياقوت، الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكرياء جابر أحمد، دار الحديث القاهرة، 129هـ، 2008م، حرف الراء، مادة (ر. ك. ب.). ص: 664. وقد بين الفيروز آبادي أنها اسم جمع أو جمع يطلق على العشرة فصاعدا، أما المراكب فتصطلح على ما يمتطى في البر والبحر.

³ . انظر: شرح المفصل لابن يعيش، مرجع سابق، 11/5.

⁴ . أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ومعه عدة السالك على تحقيق أوضح المسالك وهو الشرح الكبير، تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ببيروت صيدا، (ب، ت، ط) 307/4.

⁵ . تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، مرجع سابق، 12/12.

⁶ . حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شواهد للعيني، تح: طه عبد الرؤوف سعيد، المكتبة التوفيقية، (بدون: ت. ط.) 1574/4.

⁷ . أبو حيان الأندلسي، (ت745هـ) التذييل والتكميل شرح كتاب التسهيل، تحقيق: أحمد حسن هنداي، دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، ط1، 2016 1437هـ، ط1، 268/1.

⁸ . انظر بهذا الخصوص: محمد ابن يوسف ناظر الجيش، شرح التسهيل المسمى تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تح: محمد فاخر وآخرون، دار السلام، القاهرة، ط1، 2007م، 338/1.

2. التحول النوعي: ويقع بواسطة النقص والمبادلة، فالنقص يكمن في تقليل حروف الجمع عن المفرد في اسم الجنس ك (تمرة ونخلة) لـ "تمر"¹ إذ تسلم بنية مفردة من التكسير، لكن التغير أدى إلى نقص كمية الصوامت دون المساس ببنية الداخلية.²

أما المبادلة فتتخذ المفردة بموجبها تحولا لنمط الحركات، فمؤشر الجمع تغيير وجهة(الصوائت)، دون الإضرار ببنية المفرد، ف(أسد) مكونة من 3 حركات وسكون >...< يمكن جمعها بتعديل حركة (الهمزة +السين) وانتقال هيئة الجمع من حركة فتح الهمز لضمه، وفتح السين لتسكينها³ فربما يفسر ذلك بقوة حركة (السكون) في إحداث المبالغة،⁴ والانتقال من حركة ضعيفة إلى حركة قوية، لتعزيز الجانب الدلالي.⁵ وقد يتم التغيير بالتعاقب الاستراتيجي بين الحروف والحركات، ك (غلام) المكونة من أربعة صوامت للمفرد، وتتكسر داخليا للجمع(غلمان)⁶ بانتقال صوت المد الطويل . من داخل البنية الأحادية لآخرها مشعرا بالتحول الذي طرأ عليها (غ . ل . ا . م) < (غ . ل . م . ا . ن) كما تبدلت الحركة الضعيفة بحركة أقوى منها لتكثيف المعاني.

¹ . المرجع سابق، 1/268.

² . جمال الدين محمد بن مالك الطائي، شرح الكافية الشافية لابن مالك، تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريري، دار المأمون للتراث، ط1، 1982م، 5/1669. وقد أشار ابن مالك إلى أن التغيير نوعان لفظي ووصفي بأنه ظاهر، وآخر تقديري، وهو ما يحصل في مثل ب(فلك) و(دلاص) حين يدلان على الجمع ففلك تدل فيه الضمة على الجمع، كما يدل الكسر في دلاص على الجمع، أما في الأفراد فيحركان، وتدل حركتهما على الجمعية، ثم علل المغزى الدلالي من عدم ادراجهما في ما اشترك فيه الجمع والأفراد، بكون ذلك النوع لا يختلف لفظه في أي مستوى كان من جمع أو تنثية أو إفراد، فكان هدف العرب من ذلك التعبير هو الاختصار والتتويه على الاشتراك الدلالي واللفظي. (شرح الكافية، 5/1670 بتصرف).

³ . انظر: شرح الرضى لكافية ابن الحاجب، تحقيق: حسن محمد بن إبراهيم الحفطي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ج1، 2/657. وانظر: الشيخ أحمد الحملوي، شذا العرف في فن الصرف، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م، ص: 61.

⁴ . ديزيره سقال، الصرف وعلم الأصوات، ط1، دار الصداقة العربية، بيروت لبنان، 1996م، ص: 96.

⁵ . سليمان الجوابرة، التحولات الصوتية في بنية الأسماء عند تصريفها، جامعة مؤتة 2007م، ص: 77.

⁶ . انظر كتاب: ديزيره سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربية بيروت، ط1، 1996م، ص: 100.

ويسم القدماء¹ ما اتحد فيه شكل المفرد والجمع بلفظ واحد² باسم الجمع، وقد³ يستوي في لفظه المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث⁴.

ويرى الاستربادي أن أسماء الجموع والأجناس، لا يشملها مفهوم الجمع من حيث اللفظ والبناء، رغم دلالتها المعنوية على الآحاد، وإنما استعملت بتغيير حروف المفرد، لتجمع على ألفاظ من غير لفظها ك (إبل . قوم)، لكن هذا ليس على إطلاقه، إذ توجد من هذا الصنف جموع لها أفراد من لفظها ك(ركب)، وقد شملها تغيير بناء المفرد، وأنكر الرضي القول بوجود مفرد من لفظها، معتبرا أنها أسماء جموع فقط،⁵ وينبني هذا على بعد لفظي يصنف صيغ هذه الألفاظ خارج نطاق الجمع، أما بالمنظور

¹ . انظر: التذييل والتكميل شرح كتاب التسهيل، مرجع سابق، 270/1. ونقل عن ابن مالك أن هذا الباب مما استوى في لفظه المفرد والجمع، فهو اسم جمع مستغن عن تقدير التغيير لا جمع تكسير مقدر تغييره، ويميل أبو حيان إلى ترجيح القول بأنها جموع تكسير لا أسماء جموع.

² . أبو الحسن علي بن الحسن الباقولي، شرح اللمع للأصفهاني، تح: إبراهيم بن محمد أبو عبادة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 269/3.

³ . المرجع السابق، 658/2. 659. أخرج الرضي في شرحه على الكافية اسم الجنس واسم الجمع من حظيرة الجمع، يقول في مخرجات التقييد الاسمي: ويخرج أيضا اسم الجنس، وحدده بأنه الذي يفرق بينه وبين مفردة بالتاء أو ياء النسبة، ثمرة ورومي في النسبة إلى الروم، معتبرا أنها لا تدل على آحاد، حيث لم يوضع لفظها للآحاد وإنما وضع للماهية المعينة، سواء كان واحدا أو مثلى أو مجموعا، وحتى إن دل عليها فلا يدل عليها بتغيير بنية مفردة وشكله، كما بين أن الاسم التاء أو الياء ليسا مفردين لاسم الجنس، لأن اسم الجنس، ومن حيث الدلالة يقع اسم الجنس على القليل والكثير، فمفردة (ثمرة) تقع على القليل والكثير فيمكن أن يقال أكل التمر لمن تناول تمرتين، أو عامل الروم لمن عامل روميا، فلو كانا جمعين لم يجز ذلك، كما أنه لا يقع رجال على رجل أو رجلين، كما يتسم اسم الجمع بمجموعة من الخصائص تخرجه عن نطاق الجمع: يوضع للماهية، ولا يصاغ في قالب من قوالب التكسير غالب، كما أنه يوضع للقلة والكثرة ويفرق بينه ومفردة بالتاء أو بالياء، كما أنه مذكر أو يجوز فيه التذكير والتأنيث، بينما الجمع مؤنث.

أما اسم الجمع فبين أنه يدل على الجماعة ولا يستعمل في الواحد أو في الاثنين، لا يوجد له واحد من لفظه، وإن وجد له فرق بينهما بغير التاء أو الياء، لا ينتظم على وزن من أوزان الجموع، يجوز أن يعود عليه الضمير مذكرا.

⁴ . منقول عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص: 205.

⁵ . شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، مرجع سابق، 657/2.

الدلالي فتعتبر جموعاً لدالاتها على العدد، لكن ألفاظها موحدة، وهو ما يفسر مصطلحي اسم الجمع واسم الجنس.¹

وقد يصعب التفريق بين بناء مفرد اسم الجمع وجمعه في اللفظ، فلا يتحدد إلا بالسياق،² فلفظة (فلك)³ ليست بها علامة فارقة في شكل المفرد إلا بالسياق الدال على المقصود،⁴ فهو تغيير مقدر،⁵ وصنف ابن جني التفسير إلى مراتب من حيث العلامات الفارقة،⁶ وجعل ما اتحد لفظ مفرد وجمعه⁷ أسماء جموع فقط.⁸ المبحث الثاني: النظام الصرفي لبنية التفسير

تأسس جموع التفسير على نظام الصيغ الثابتة لقوالب المادة الواحدة، غير أنه يشهد إضافات في مقاطع الحركات، وزيادة التاء والهمز والتضعيف والنون والواو والياء غير المديتين، وتترتب في سلم من التحول يمكن رصد معالمه في عشر⁹ (فئات) بإدراج صيغ منتهى الجموع وثمانية بدونها: أولاً: التحول الشكلي.

ينصب هذا التحول في سلم الحركات (القصيرة+ الطويلة+ السواكن)، ويتضمن عدة قوالب بمستويات مختلفة: أ. تحول خاص للحركة القصيرة والسكون يتضمن أربعة قوالب:¹⁰
فُعْل . فُعْل . فُعْل . فُعْل .¹¹

1. جمال الدين محمد بن مالك الطائي، شرح الكافية الشافية لابن مالك، تحقيق: د. عبد المنعم أحمد هريري، دار المأمون للتراث، ط1، 1982م، 1670/4.

2. شرح اللمع في العربية، للأصفهاني، مرجع سابق، 268/3.

3. عبد الله محمد هنانو، الجموع في اللغة العربية، مرجع سابق، ص: 22.

4. شرح ابن عقيل على ألية ابن مالك، مرجع سابق، 121/4. (حب الصيد) و(نخلا وحداث غلبا)، ويكثر هذا التغيير في الأسماء ويترد فيها دون الصفات).

5. البحث الصرفي في كتاب إكمال المعلم بفوائد مسلم، مرجع سابق، ص: 34. (فقله تعالى: "إذ أبق إلى الفلك المشحون" يحيل سياق الوصف (المشحون) على إرادة المفرد، أما حين ترد في الآية الثانية "وترى الفلك مواخر فيه" فيستشف من الحال المجموع أن ما تم وصفه مجموعة فلك بناء على جمع الوصف لتبعية الموصوف للوصف).

6. شرح اللمع للأصفهاني، مرجع سابق، ج3/ 268.

7. شرح اللمع للأصفهاني، مرجع سابق، ج3/ 268.

8. الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، موسوعة في ثلاثة أجزاء، مراجعة وتنقيح: د. عبد المنعم خفاجة، المكتبة العصرية، بيروت صيدا، ط30، 1994م، 68/2.

1. هي عبارة عن الفئات التي تتم عليها صياغة القوالب في الجانب الصوتي.

10. د. ديزيره سقال، الصرف وعلم الأصوات، دار الصداقة العربية بيروت، ط1، 1996م، ص: 99.

11. انظر في تفصيل هذه الأوزان والأبنية واستعمالاتها المختلفة، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، 120/4 وما بعدها.

ب . تحول مزدوج للحركات: (القصيرة + الطويلة)، بالزيادة الكمية وأبنية ثلاثة:

1. فعلى: صرعى.

2. فعال: ديار.

3. فعول: أسود.

ثانياً: التحول الشامل

هو تحول يطرأ على بنية المفردة من جانبي الشكل (الحركات) والكم (الحروف) وتتدرج فيه الأبنية برتب صرفية متباينة:

أ. التحول الشكلي، حركات: (طويلة + قصيرة + سواكن) والكمي حركات: (زيادة الهمز للمادة) ويشتمل على وزنين من صيغ القلة:¹

1- أفعال: أسياف

2- أفعال: أبجر

ب . التحول الكمي المتمثل في زيادة حرف (التاء) مع تغيير الحركة (تحريك الوزن وإسكان ثاني الوزن) وعملية الحذف في الصيغة:

1. فعلة: فيلة

2. فعلة: عجة

3- فعلة: فتية

4 . فعلة المردودة ل: فعاة: رعاة

ج . زيادة كمية الوزن وتغيير الحركة الملازم لتحولات المادة:

1- فعلان: جردان

2- فعلان: حملان.

د . التحول المساوي للأصول مع إدغام حرف وتغييره ونقله للنظير، وله وزن واحد:

1- فعل (تضعيف وسط الصيغة): (دُلح).

هـ . التحول للهمز المناغم للفتح والمد الطويل في آخر الصيغة:

1. فعلاء: قدماء صلحاء.

¹ . المرجع السابق الجزء والصفحة.

و . زيادة طرفي الوزن، وإسقاط (ياء) المفرد¹ وله وزن:

1- أفعلاء: أصدقاء...

2- أفعلة: أغربة...

تتدرج ضمن هذه النظم أوزان التفسير بنوعيتها (الكثرة والقلة)، أما قوالب منتهى الجموع فلها نظمها الخاصة بها، ويشمل تغييرها جانبي الشكل والكم:
أ. زيادة الشكل والكم المرتبطين بوزن المفردة، له تسعة أوزان:²

1- فواعل: فوارس

2- فياعل: صيارف

3- فعاول: معاول

4- فعائل: بشائر

5- فعالي: كراكي

6- مفاعل: مساجد

7- فاعل: سلالم

8- أفاعل: أشاوس

9- تفاعل: تجارب.³

ب . الزيادة اللفظية المتمحضة في لحركات دون المباني:

1. فعالي: صحارى..

2. فعائل: سفارج..

3. فعالي: سعالي..

نستخلص أن قوالب التفسير تتغير بثلاث مستويات:

1. المستوى الشكلي الخاص (حركات سواكن).

2. المستوى الشامل للشكل والكم والبنية.

3. النقص والإسقاط للبنية الأصلية.

¹ . عماد الدين أبو الفداء الأيوبي، انظر الكناش في فني النحو والصرف، تح: د. رياض بن حسن الخوام، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2004م، 280/2.

² . انظر: الصرف وعلم الأصوات، مرجع سابق، ص: 97.

³ - انظر: محمد بن سهل بن السراج البغدادي، الأصول في النحو، مؤسسة الرسالة بيروت، ط3، 1996م، 32/3.

ونوضح علاقة القوالب بالحركات بالخطاطة الآتية:

أولاً: فئات قوالب الكثرة والقلة:

. فئة (أ)

مرتبط بالحركات القصيرة

فُعَل < فَلَكَ

فُعُل < هَجَرَ

فَعَلَ < قَبَلَ

فَعَلَ < مَزَقَ

. فئة (ب)

الحركة الطويلة والقصيرة بزيادة المعجم

. فعلى < صرعى . هلكى .

. فعال < ديار صغار .

. فَعُول < أسود أنوف .

. فئة (ج)

التحول بالزيادة المصاحبة للحركات:

أفعال < أسياف أنهار

أفعل < أبحر أنهر

. فئة (د)

التحول الكمي المصاحب لتغيير الحركات والحذف:

فِعْلة < فِيلة

فَعْلَة < عَجْرة

فَعْلة < فِتية

فَعْلة < رِعاة

. فئة (هـ)

التحول الكمي بالتغيير الشكلي.

فِغْلان < جِرْذان

فُغْلان < حِمْلان .

فئة: (و)

التحول المساوي بالتضعيف.

فُعل (تضعيف العين) < عَجَز (دَلح).

فئة: (ز)

التحول المختوم بالهمز وحذف ياء المفرد.

فعلاء < ظرفاء سعداء.

فئة: (ح)

زيادة طرفي الوزن وحذف (ياء) المفرد الأصلي.

أفعلاء < أصدقاء

أفعلة < أغربة أجهزة.

ثانيا: فئات منتهى الجموع المختصة بالتكثير:

فئة: (أ)

زيادة الشكل والكم المرتبطة بأصل الوزن:

. فواعل < طواحن

فياعل < صيارف

فاعول < معاول

فعائل < بشائر

فعالي < كراكي

مفاعل < مساجد

فاعل < سلالم

أفاعل < أشاوس

تفاعل < تجارب.

فئة: (ب)

الزيادة الشكلية الماسة بمباني المفرد.

فعالي < صحارى

فعالل < سفارج.

فعالي < سعالى.

بعد رصد الأوزان وجوانب تحولاتها، نسجل جملة ملاحظات منها:

- 1- استهلال الصيغة بالهمز للقلة،¹ (أفعلة + أفعال + أفعال)، واختتامها بالهمز لمعنى الكثرة:² (فعلاء + أفعلاء)، وباجتماعهما تغلب الثانية لحملها دلالة المد المقتضي الزيادة.
 - 2- التاء علامة فارقة للجمع³ (أفعلة + فعلة + فعاة + مفاعلة) فإذا افتتح بالهمز فدلالته القلة،⁴ وإذا افتتح بغيرها دل على الكثرة،⁵ وتاء منتهى الجموع تشعر بالمبالغة⁶
 - 3- النون الآخرة زيادة لفظية تفيد الكثرة⁷ (فعلان + فعلان).⁸
 - 4- الألف المقصور يساق لدلالة الكثرة (فعلى) وتضعيف الوسط يفيد التكرير أيضا (فعل).
 - 5- الهمز في بداية منتهى الجموع من الأصل اللفظي للمفرد (أفاعل = أشاوس).
 - حذف بعض الصيغ يقع للتناغم مع بنيتها الإفرادية: (فعاة: أفاع . فعى . فعى . فُعَل).
- عموما يشهد نظام الجمع في الصرف العربي حركة لغوية دائبة، تستمد مادتها من تخوم المعاجم اللغوية والاستعمالات المتعددة للمفردات، مما شكل مظهرا حيويا لدور المفردة الفعالة في تشكيل أوزان الجموع وقوانين الأبنية وصياغة المعاني.

¹ . برجستراسر، التطور النحوي، ترجمة وتصحيح: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص: 111.

² . أبو العباس المبرد، المقتضب، 196/3.

³ . التذييل والتكميل شرح كتاب التسهيل، مرجع سابق، 313/1.

⁴ . شرح المفصل لابن يعيش، 106/3.

⁵ . انظر في سياق وظيفة التاء ومصاحبتها للأسماء حال الجمع: جامع الدروس العربية، مرجع سابق، 64/2.

⁶ . المفصل في العربية للزمخشري، مرجع سابق، ص: 82.

⁷ . التذييل والتكميل شرح كتاب التسهيل، مرجع سابق، 269/1.

⁸ . هناك ما اصطلح عليه القدماء حركات مشعرة بالجمع وجعلوا منها النون والألف، وذلك ما ورد في حاشية الصبان على شرح الأشموني حيث نقل عن سيبويه أن حركات الأفراد في الجموع تبدل بحركات مشعرة بالجمع انسجاما مع بنية الجمع وصياغته، ويستشف من ذلك أنهم عدوا هذه الحروف أيضا حروفا مشعرة بالجمع. (حاشية الصبان على شرح الأشموني، 169/4).

الحركة الوطنية الديمقراطية الموريتانية: فاعلية وحضور

أحمد سالم محمد

طالب دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

تعتبر الحركة الوطنية الديمقراطية أهم الحركات السياسية التي ناضلت من أجل القضايا الوطنية، واتخذت من السرية فضاء لتنظيم صفوفها في فترة تميزت بحظر العمل السياسي. هذه المعطيات تجعل من الوارد دراسة هذه الحركة من خلال إثارة إشكالية تجربتها في ظل الحظر السياسي، وكيف استطاعت بناء تنظيمها السري بعيدا عن أعين الأمن، وما هي مظاهر فاعليتها وحضورها في المشهد السياسي الموريتاني.

تعتمد دراسة الحركة على مجموعة من المصادر والمراجع تأتي في مقدمتها المنشير التي أصدرتها الحركة مثل أعداد من **صيحة المظلوم**، وكتابات متفاوتة الأهمية، مثل كتاب **الرحيل إلى الدولة** لمؤلفه محمد المختار ولد سيد محمد، بالإضافة إلى مقابلات مع بعض قادة التنظيم، كما يتنزل المقال في إطار عمل موسع وهو أطروحتنا قيد الإنجاز والموسومة: **الحراك السياسي الموريتاني اليسار نموذجاً (1946-1975)**.

سنتناول هذه الدراسة من خلال المحاور التالية:

أولاً: السياق الدولي والمحلي لولادة الحركة الوطنية الديمقراطية

ثانياً: ميلاد الحركة

ثالثاً: الأجهزة التنظيمية الثورية

رابعاً: حزب الكادحين

خامساً: المواجهة مع النظام.

أولاً: السياق الدولي والمحلي

ساهمت التحولات الدولية¹ التي أفرزت قطبين متصارعين "القطب الرأسمالي الاستعماري والقطب الاشتراكي) الداعم للشعوب الطامحة للتححرر)، في جعل العديد من المثقفين العرب يتبنوا الاتجاه

¹ المتمثلة في نتائج الحرب العالمية الثانية 1945 وظهور منظمات دولية كالأمم المتحدة.

اليساري¹ ولم تكن موريتانيا بعيدة عن رياح هذا اليسار، فقد أعلن فيها أواخر القرن العشرين عن ولادة اتجاه تبني هذا التوجه وهذه الأفكار.

مع نهاية القرن التاسع عشر وفي أوج انتشار الأفكار الاشتراكية في أوروبا وتلقفها من لدن العديد من الشباب والمثقفين بفعل مناهضتها للنظم الرأسمالية الاستعمارية المتهمة بأزمة الحكم العالمي حينها أصبح اليسار مرادفا للاشتراكية واليمين مرادفا للرأسمالية، وصار الاشتراكيون يسمون باليسار التقدمي في حين توصف الرأسمالية باليمين والرجعية.

ومع تنامي الدور السوفيياتي الاشتراكي ومناصرته للشعوب في مسيرة تحررها، ونجاح التجربة الصينية الماوية²، بدأ الكثير من الشباب والمثقفين في العالم العربي يستلهمون تلك التجربة ويعبرون عن تبنيهم للنهج الاشتراكي، وكانت موريتانيا من بين الدول العربية التي أعلن فيها عن تحول العديد من زعماء الحركة القومية العربية إلى النهج الاشتراكي³.

أما على المستوى المحلي فكانت جراح البلاد لم تندمل بعد من أحداث 1966⁴ العرقية والتي خلفت سيلا من التهم والتهم المضادة بين أطراف المشهد السياسي، (العرب، الزنوج)، فكل يلقي باللائمة على الآخر ويحملة مسؤولية ما حدث.

من هنا بدأ قادة الفكر القومي العربي يطرحون مجموعة من الأسئلة أهمها:

وجاهة الطرح القومي العربي بالنسبة للمجتمع الموريتاني متعدد القوميات؟⁵.

قادت تلك التساؤلات إلى مراجعات فكرية قرر على أساسها بعض قادة التوجه القومي العربي تخليهم عن الطرح القومي للقضايا الوطنية وتبني النهج الديمقراطي الطبقي⁶ الاشتراكي.

وقد ساهم التقارب بين⁷ الحكومة الموريتانية وجمهورية الصين صاحبة التجربة الشيوعية الثانية، في نشر الصين تجاربها واجتهاداتها الشيوعية الماوية على نطاق واسع نسبيا وبشكل هادئ.

¹ نظرا لانحيازه لمصالح الشعوب وكفاحها ضد الاحتلال الأجنبي.

² نسبة لماو تسي تونغ، الزعيم الصيني الأسبق المتوفي 1976.

³ حيث تخلي هؤلاء عن النهج القومي في التعاطي مع قضايا الوطن.

⁴ جاءت تلك الأحداث على إثر قرار ترسيم اللغة العربية الصادر بتاريخ 1965.

⁵ محمد المصطفى ولد بدر الدين، مدرس ونقابي وقومي سابق، وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة

شخصية، انواكشوط، بتاريخ، 2013/06/14 انواكشوط

⁶ حول مفهوم الطرح الطبقي يراجع، فيليب مارشزين، القبائل، الاثنيات والسلطة في موريتانيا، ترجمة محمد بن بوعلييه بن الغراب، دار جسر، 2012.

⁷ بدأ هذا التقارب منذ زيارة الرئيس المختار ولد داداه للصين 1967.

وقد حاول الصينيون استغلال علاقاتهم بالموريتانيين من خلال الإشراف المباشر على المساعدات التي يقدمونها وكذا المشاريع الاقتصادية والتنمية والمراكز الصحية التي أقاموها في البلاد. ولم يفت على الصين استغلال تلك العلاقات على المستوى الثقافي فقد جعلت الصين من مركزها الثقافي أداة لمحاولة التبشير بالفكر الشيوعي، عبر المطبوعات التي تمجد مآثر القادة الصينيين وتجاربهم، فقد شكل ذلك المركز رافداً فكرياً لشباب الحركة الوطنية الديمقراطية وخاصة كتب ماو¹ التي تقدم تجارب لا تحتاج إلى مستوى معرفي كبير².

وعلى المستوى العربي فقد جاءت نكسة 1967³ لتحديث حالة تراجع وانكماش للمد القومي، فحدثت انشقاقات في صفوف حركة القوميين "الأم" في بيروت وأعلن بعض قادتها أمثال جورج حبش⁴ عن عدولهم عن الطرح القومي وتبني النهج اليساري الاشتراكي.

هذه العوامل وغيرها هيأت التربة الموريتانية لميلاد اتجاه يساري حمل اسم الحركة الوطنية الديمقراطية ثانياً: ميلاد الحركة الوطنية الديمقراطية MND.

بدأت جماعة القوميين العرب تدخل في مراجعات فكرية ونقاشات حول مستقبل الفكر القومي العربي، الأمر الذي انعكس على قطاعات نقابية عدة نظراً لارتباطها بهذه الجماعة حيث عرفت نقابة معلمي العربية النقاش نفسه بفعل قيادتها التي كانت وقتها عند محمد المصطفى ولد بدر الدين، كما عرفت نقابات التلاميذ في ثانويات روصو، انواكشوط ومعهد بوتلميت، وكذلك نقابة الكتاب الناطقين بالعربية النقاش ذاته⁵، وقد توجت تلك التوجهات باجتماع توكومادي

خلصت الجماعة إلا أن التناقض⁶ بين القوميات هو أحد الأسباب المسؤولة عن أحداث 1966، معتبرة أن الطرح القومي لقضية التعريب وترسيم اللغة العربية من دون مراعاة وجود قوميات أخرى

¹ محمد الناجي ولد محمد أحمد، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، انواكشوط، بتاريخ، 2013/05/03.

² نفس المصدر.

³ الحرب التي دارت بين إسرائيل وبعض الدول العربية انتهت باحتلال إسرائيل لسيناء والأراضي الفلسطينية والجولان السوري...

⁴ سياسي وطبيب فلسطيني مؤسس حركة القوميين العرب.

⁵ محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

⁶ محمد عيّن ولد أحمد الهادي، عضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية بتاريخ، 2013/06/29 انواكشوط.

يشعر الزوج بأن موريتانيا دولة للعرب فقط، وهو ما ولد ردة فعل لديهم¹ هذه الأحداث وغيرها كانت موضع نقاش الاجتماع التأسيسي

أ- الاجتماع التأسيسي الأول:

عقد اجتماع "توكومادي" بمقاطعة كيهيدي 1968/04/04² حضره كل من: محمدن ولد اشدو³، أحمدو ولد عبد القادر⁴، محمد عنين ولد أحمد الهادي⁵، سيدي محمد ولد السميدع⁶، محمد المصطفى ولد بدر الدين⁷.

جاء اختيار موقع توكومادي لهذا الاجتماع الأول لقادة هذا التوجه، نظرا لوجود محمد عنين معلما هناك ولسهولة تنظيم مثل هذا الاجتماع بعيدا عن أعين المخابرات، حيث منطقة غالبية سكانها من الزوج وتعرف حضورا قليلا لبعض الباعة والتجار الصغار المتجولين، إضافة إلى موقعها الاستراتيجي بين داكار وكيفه حيث ستأتي الوفود من هناك (داكار سيد محمد السميدع، كيفه محمدن ولد اشدو)⁸. مكث المجتمعون ثلاثة أيام يظلمون خارج القرية يناقشون مولدوهم الفكري الجديد، وبالليل يتوزعون داخل القرية خشية إثارة الانتباه.

وفي نهاية الاجتماعات والنقاشات والمراجعات الفكرية، قررت المجموعة تأسيس حركة أطلقت عليها "الحركة الوطنية الديمقراطية"

¹ محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

² ممدو الطيب، مذكرات سجين، بحوزتي نسخة منها، يختلف البعض على التواريخ بشكل، ويرجع ذلك ربما لغياب التدوين بفعل طابع السرية الذي كانت تعيشه الحركة وغيرها من الحركات المعارضة للنظام في زمن الأحادية الحزبية، فتاريخ اجتماع توكومادي، مثلا، يؤرخه محمد عنين في مقابلتي معه نهاية مارس 1968، بينما يؤرخه محمد المصطفى في المقابلة السابقة معه بفتح ابريل 1968، ونظرا لتباين هذه التواريخ فقد اعتمدنا التاريخ المعتمد في مذكرات السجين، كتوفيق بين التاريخين.

³ أديب ومناضل سياسي ومحامي مشهور، من أوائل من انخرطوا في العمل القومي في البلاد قبل أن يتحول إلى الفكر اليساري.

⁴ من مواليد 1941، معلم وعضو في اتحاد الأدباء الموريتانيين، من أوائل من تنبؤ الفكر القومي العربي في البلاد قبل أن يهجره متبنيا الفكر اليساري.

⁵ من مواليد 1936، معلم وقومي سابق.

⁶ من أبرز الشباب المناضلين، اعتنق الفكر القومي، قبل أن يتحول إلى الفكر اليساري، توفي 1970.

⁷ من مواليد 1940، من أوائل من اعتنقوا الفكر القومي في موريتانيا، ونقابي مشهور، من مؤسسي نقابة المعلمين العرب.

⁸ محمد عنين، المقابلة السابقة.

وقد تقرر توزيع الأدوار داخل المجموعة والعمل على استقطاب أكبر قدر ممكن من التأييد لهذا التوجه الجديد¹.

انتخبوا سفراء مكلفين بالتعبئة ونشر هذا التوجه وتكوين الخلايا التابعة له:

سيد محمد ولد السميدع: مكلفا: بازويرات وانواذيبو

محمد المصطفي ولد بدر الدين: مكلفا بنواكشوط

أحمد ولد عبد القادر: مكلفا بروسو وبتمليت.

محمدين ولد أشدو: مكلفا بالمناطق الشرقية.

وسرعان ما تحولت غالبية الخلايا القومية إلى الحركة الديمقراطية الوليدة، في انواكشوط وكيفه وروسو وبتمليت.

أصدرت المجموعة بعد رجوعها من اجتماع "توكومادي" منشورا في انواكشوط، شخّصت فيه الأوضاع المتأزمة لموريتانيا وما تعيشه في ظل الأحادية الحزبية وتكميم الأفواه والتضييق على الحريات، وطالبت فيه بوضع استراتيجية لمعالجة القضايا الوطنية ودعت القوي الحية للانضمام للحركة الجديدة. وقد أشار المنشور إلى شركة "ميفرما" التي تحتكر الاقتصاد في الشمال، شخص المنشور هذه الوضعية ودعا إلى خلق جبهة وطنية ضد النظام الحاكم الممثل للاستعمار حسب المنشور².

ثم جاءت أحداث ازويرات 1968 مصداقا لتنبؤات هؤلاء، من خلال المجزرة التي ارتكبها النظام ضد العمال حفاظا على المصالح الفرنسية، فخلفت تلك المجزرة موجة عارمة من السخط في صفوف التلاميذ والطلاب والعمال والنقابيين والشعب الموريتاني، بمختلف أطيافه وقد استفاد قادة الحركة الديمقراطية من ركوب موجة السخط هذه وقيادتها وتوجيه سيول الاحتجاج العارمة في شوارع انواكشوط³، وتصدرت تلك الاحتجاجات بترديد شعارات من قبيل إسقاط النظام والامبريالية، وهو ما شكل عاملا أساسيا في التعريف بالحركة وشعاراتها وأعطاه زخما وهي لا تزال في المهد.

وكانت جماعة "الزنوج" وخاصة مجموعة بيان⁴19، قد عرفت هي الأخرى نقاشات داخلها حول مستقبل المسألة الوطنية مما ساهم في خلق جو من التقارب بينها وأصحاب الفكر الجديد، توج هذا التقارب بعقد اجتماع موسع اعتبر الاجتماع التأسيسي الثاني للحركة الوطنية الديمقراطية.

¹ محمد المصطفي ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

² محمد المصطفي ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

³ نفس المصدر.

⁴ محمد ولد مولود، مقابلة بتاريخ 2023/7/6، انواكشوط.

ب - الاجتماع الثاني: 1970

عقد اجتماع التأسيس الثاني 1970 في انواكشوط وبالذات خلف (بنايات صغيرة واقعة قرب ثانوية البنات) وقد ضم هذا الاجتماع لأول مرة ثلاث مجموعات أساسية:

- جماعة القوميين العرب صاحبة المبادرة والتي ستعرف لاحقا بجماعة صيحة المظلوم.
 - جماعة "التحرير" نسبة لنشرة كانت تصدرها الطلاب الذين تأثروا بالفكر اليساري أثناء دراستهم بفرنسا ومن أهم أعضاء هذه الجماعة:
- محمد المصطفي ولد أعبيد الرحمن، موسي فال، عبد الله ولد إسماعيل، أحمد ولد الزين وغيرهم¹.
- جماعة "المشعل"² نسبة لنشرة كانوا يصدرونها، وتتكون أساسا من الزوج ومن موقعي بيان 19³ إطار، ومن أهم عناصرهم⁴:
- لادجي أتراوري⁵، دفا بكاري⁶، بوبكر موسي⁷ إلخ.
- وقد أعلنت هذه الجماعات عن تبنيها للنهج اليساري الطبقي، مع البقاء على تنظيماتها داخل الحركة الوطنية الديمقراطية⁸.
- وقد انفق المجتمعون على رؤية فكرية تمثلت في:
- تحقيق الوحدة الوطنية، انطلاقا من واقع التعدد القومي والعمل على جعله عامل وحدة وثراء، والرفع من مستوى العمل النضالي بما يلبي تطلعات المجموعتين، العربية والزنجية.
 - اختيار قيادة فاعلة لها القدرة على تحقيق النهوض بالمسؤوليات الملقاة على عاتقها، وتحقيق الأهداف النضالية والثورية، وذلك وفق رؤية للواقع الاجتماعي الموريتاني، تأخذ في الحسبان وجود طبقات اجتماعية مقسمة إلي:

¹ محمد ولد مولود، قيادي مؤسس وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية بتاريخ، 2013/06/26، انواكشوط.

² لادجي أتراوري، قيادي سابق في الحزب الإفريقي للشغل واحد من أبرز قادة الزوج الذين تبنا النهج اليساري، مقابلة شخصية، بتاريخ 2013/10/30، انواكشوط.

³ أصدرته مجموعة من الموظفين في الدولة احتجاجا على محاولات ترسيم اللغة العربية ودعما لطلاب الزوج المحتجين.

⁴ محمد ولد مولود، مقابلة بتاريخ 2023/7/6، انواكشوط.

⁵ قيادي سابق انضم إلى الحركة الوطنية الديمقراطية في اجتماع التأسيس الثاني 1970.

⁶ من جماعة 19 إطار انضم إلى الحركة الوطنية الديمقراطية 1970.

⁷ من قادة الحركة الوطنية الديمقراطية، انضم إليها 1970، وأحد القادة الذين أسسوا الحركة الثانية 1976.

⁸ محمد ولد مولود، المقابلة السابقة.

- الطبقات السائدة: وهي البيروقراطية الحاكمة والبرجوازية الكومبرادورية والإقطاعيات المحلية¹.
- الطبقات الثورية: وتضم البرجوازية الصغيرة المكونة من المثقفين وصغار الموظفين والتجار والحرفيين والفئات المستغلة كالعبيد والمستخدمين في الاقتصاد والتجارة والبروليتاريا التي تشمل الفئات المسحوقة².

وقد اعتبر الوطنيون أن موريتانيا في الظاهر دولة مستقلة لكنها في واقع الأمر مستعمرة فرنسية، رغم وجود نشيد وطني وحكومة، مستنديين في هذا الطرح على أن الظروف التي حصلت فيها البلاد على استقلالها في إطار المجموعة الفرنسية وكذا المجموعة التي تولت مقاليد الأمور بعد ذلك تبين أن الاستقلال الحقيقي لم يحصل بعد في وقت عرفت فيه حركات التحرر أوج قوتها في العالم الثالث³، وقدموا مطالبهم في شكل عريضة وزعت بين جماهير الحركة وتناقلتها الأيدي ولهت بها الألسن:

- تأميم شركة الحديد والمناجم في الشمال "ميفرما" وشركة النحاس في اكجوجت "صوميم" وغيرهما من الشركات التي يسيطر عليها الفرنسيون.
- إنشاء عملة وطنية
- مراجعة اتفاقيات الدفاع مع فرنسا وإنهاء مظاهر الوجود الفرنسي في موريتانيا.
- ترسيم اللغة العربية⁴.

من الواضح أن هذه المطالب الشاملة لا يمكن إلا أن تلقى هوى في نفوس العديد من طبقات المجتمع الموريتاني في وقت كانت الساحة الموريتانية تشهد حالة من الحراك والهيجان الشعبي فقد لقي هذا التوجه استجابة كبيرة سرعان ما تحول معها إلى تيار جارف أطلق عليه اسم الكادحون، وأضحى الأدب المحلي أداة للتعبئة وحث الجماهير على مساندة هذا التيار فضلا عن التعريف به ونشر توجهاته، وأضحت الكدحة والكادحين قوافي تتردد على ألسنة الملحنين:

مد ليدين للكادحين.... مد ليدين للكادحين

¹ حول المفهوم الماركسي لتلك المصطلحات، يرجى مراجعة، فرانسيس ودي شاسي، موريتانيا من 1900 إلى 1975، ترجمة محمد بن بوعلي بن الغراب، دار جسور، انواكشوط، 2013، صص 247-253.

² محمد المختار ولد سيد محمد، المجتمع والسلطة في موريتانيا (1961. 1978) الرحيل إلى الدولة "المطبوعة الجامعية، انواكشوط 2013، ص 159.

³ مريم بنت لحويج، من أبرز مناضلات الحركة الوطنية الديمقراطية، تعرضت للعديد من المضايقات والاعتقال، مقابلة شخصية، بتاريخ 2013/06/17، انواكشوط.

⁴ محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

كما حاول أحد شعرائهم تقديم برنامجهم وشرح فكرتهم حيث يقول¹:

نحن ندعو لمور أكبار ما هم منا كثرت لخبار

حريتنا من لستعمار وهل وقامت دولتنا

أزواج أعرب واحد وأحرار ... نبن بيدين بلدتنا²

إلى آخره.

تعتمد استراتيجية الحركة في الإطاحة بالحكم على العنف الثوري، وفق فلسفة مؤداها تشكيل جبهة عريضة من الطبقات المستغلة في المجتمع تكون لبنتها الأساس من المزارعين الذين يقومون بشن حرب عصابات ضد الحكومة والإقطاع المحلي لينخروا قواهم مع مضي الوقت، سبيلا لإقامة حكومة وطنية ديمقراطية واشتراكية، وليس الحكومة لبروليتارية، التي تؤدي إلى دكتاتورية الطبقة العاملة.

تستبعد الحركة العصيان المدني الشامل كوسيلة للاستيلاء على السلطة، كما أن العصيان المدني. لا ترى الحركة في الانقلابات العسكرية وسيلة لتغيير الحكم من المنظور الثوري لأنها مجرد وسيلة للتغيير الفوقي، ولا تضمن التحولات التي تقتضيها اللحظة ويسعى الوطنيون لبلوغها³.

وهكذا عمل الوطنيون على كسب تعاطف أكبر قدر ممكن من القواعد الشعبية، وسرعان ما تحققت تلك الرغبة بالتحاق قواعد "واسعة" بصفوف الحركة الوطنية، وأضحت هذه الأخيرة تيارا جارفا، اتسعت قواعده الشعبية وأضحى لزاما خلق أداة تنظيمية للاستفادة من القاعد العريضة التي يحظى بها التيار وضمانا لنجاحه في خوض مرحلته الثورية ضد النظام وعلى مستويات عدة.

ثالثا: الأجهزة التنظيمية الثورية للحركة الوطنية الديمقراطية

بدا واضحا انسداد الأفق فتحوّلت تلك الشرائح إلى قوة سياسية تحررية، أخذت تتعاضد يوما بعد آخر، وكان عمادها الأساس الطبقة الوسطى من المثقفين وصغار التجار والعمال والمزارعين والنساء والتلاميذ والطلاب والعاطلين عن العمل.

¹ من المرجح أن يكون واحد من ثلاث كانت الحركة تعهد إليه بإنتاج الأغاني النضالية وأدبيات الحركة بالأدب المحلي، كلجنة إنشادية، هم: محمد ولد أشدو ولد امبيريك، ولد التاه، يراجع، المحبوب ولد بيه، أذكر، مصدر سبق ذكره، ص 189.

² محمد عنين ولد أحمد الهادي، المقابلة السابقة.

³ لجنة العمل الثوري، أوراق متفرقة، نواكشوط (د، ت)، ص 4.

نشطت هذه القوة في الشارع والمؤسسات التعليمية والإدارة والموانئ والمصانع الصغيرة (مراكز الزرابي)، ودب الوعي والسخط معا على النظام في صفوفها¹.

فبدأ العمل مع بداية 1971 لتنظيم هذه القوة كقوم للمواجهة مع النظام الحاكم وجاءت المبادرة من جماعة صيحة المظلوم التي تتكون بالأساس من جماعة القوميين العرب، و التي أنشأت نشرة "صيحة المظلوم" في نفس السنة لتوحيد الخطاب السياسي داخل الحركة، وكانت جماعة الطلاب التي تتكون من الطلاب المتأثرين بأحداث فرنسا 1968² قد تبنت في عطلة تلك السنة نشرة "الحرية" كما تبنت مجموعة الزنوج نشرة "المشعل" حاولت هذه المجموعات الثلاث تشكيل تنظيم موحد قادر على إدارة المرحلة واستمر النقاش في هذا الصدد إلى غاية نهاية 1971، عندها أخذت جماعة صيحة المظلوم قرار تنظيم الحركة وعينت لجنة ثلاثية لوضع تصورات لشكل وآلية التنظيم المنشود، وتكونت اللجنة من:

محمد ولد أشدو

عبد القادر ولد حماد³

محمد ولد مولود⁴.

وباشرت اللجنة عملها حتى نهاية 1971 وبداية 1972، ودعت لمؤتمر قدمت فيه تصوراتها والتي اعتمدت من طرف المؤتمرين، وتمثلت في إنشاء جهاز سياسي جبهوي، يضم التنظيمات الثلاث (جماعة صيحة: المظلوم، جماعة: الحرية، جماعة: المشعل) بالإضافة إلى ممثلين عن الطلاب والتلاميذ والعمال والنساء.

وأطلق على الجهاز الجبهوي الثوري (اللجنة المحلية للعمل الثوري) "كارل"⁵.

وضع كلا من:

محمد ولد أشدو

¹ المحبوب ولد بيه ذكريات وخواطر وأحداث، شركة الطباعة والتمثيل التجاري، ابريل 2004، ص 176.

² انتفاضة في مايو انتفاضة طلابية وعمالية مطالبة بالحرية وتحسين مستوى المعيشي.

³ محامي، من أوائل الشباب الذين التحقوا بالحركة الوطنية الديمقراطية، ويشكل مع كل من يب ولد البشير وحمود ولد اسماعيل خلية روصو التي قادت المظاهرات ضد مذبة ازويرات، فطرد من الدراسة، والتحق بالجهاز السري للحركة الوطنية الديمقراطية، ليرأس الحركة للفترة ما بين 1971 و1972.

⁴ مناضل مشهور، كان يرأس الحركة الطلابية التابعة للحركة الوطنية الديمقراطية، وعضو في "كارل" ليرأس الحركة بعد ذلك، ويشغل حاليا منصب رئيس حزب اتحاد قوي التقدم.

⁵ محمد ولد مولود، المقابلة السابقة.

عبد القادر ولد حماد¹

أحمدو ولد عبد القادر

الطالب محمد ولد لمرباط²

بدنا ولد عابدين³

محمد ولد مولود⁴

مريم⁵ بنت لحويج،⁶

الأهم في هذا الإطار هو خلق تنظيم سري قادر على مواجهة النظام ويعمل على ابتكار الوسائل لذلك ووضع الخطط الكفيلة لبلوغ الهدف.

وقد تزامنت ولادة هذا الجهاز مع حملة قمع شديد ضد مناضلي الحركة التي خاضت معركتها ضد النظام من خلال أذرع ثورية كانت بمثابة وقود الحركة، ومن أهمها:

أ- التلاميذ والطلاب:

عرف الطلاب والتلاميذ نفس النقاشات التي عرفتها الحركة السياسية فتحول معظم التلاميذ إلى النهج اليساري الجديد، حالهم كحال الطلاب، بفعل عوامل من بينها ارتباطهم بقيادة التوجه الجديد، ومستوى التأثير الذي يحظون به داخل الساحة المدرسية التي عرفت تحركات ومظاهرات منذ 1969، تعاملت السلطات مع الاحتجاجات بأسلوب الاجتثاث حيث تعتمد إلى إلقاء القبض على طلائع المضربين وتضعهم في شاحنات "كميون" وترسلهم إلى ذويهم في البادية، لكن التلاميذ كانوا عندما يتوقفوا

¹ مناضل التحق بالحركة الوطنية الديمقراطية، ومن مؤسسي الحركة الثانية

² قومي سابق، التحق بالحركة الوطنية الديمقراطية، وناضل ضد نظام المختار، وطرد من الجامعة، وقاد في أحدي الفترات اتحاد الطلبة المتدربين الموريتانيين المحسوب على الحركة الوطنية الديمقراطية، المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

³ قومي سابق، التحق بالحركة الوطنية الديمقراطية، في بواكيرها، شغل منصب قائد جهاز المهمات الخاصة T.S إلى غاية 1974، نفس المصدر.

⁴ محمد ولد مولود، نفس المقابلة.

⁵ مناضلة مشهورة، من أوائل من التحقن بالحركة الوطنية الديمقراطية.

⁶ يورد المحبوب ولد بيه في مؤلفه السابق الذكر (أتذكر)، الصفحة 180، يورد اسم مريم بنت لحويج من ضمن أعضاء هذا الجهاز في حين لا يذكرها محمد ولد مولود، في المقابلة السابقة معه، ومن المرجح أن تكون من ضمن هذا الجهاز، نظرا لأن المرأة ممثلة في هذا الجهاز ولأن مريم بنت لحويج كانت أول امرأة موريتانية ديمقراطية تصدرت النضال على حد العلم، فربما تكون هي صاحبة التمثيل، وبالتالي لعل الشيطان أنساها لمحمد ولد مولود.

بمحطة أثناء رحلة الإبعاد القسرية، يرددوا شعاراتهم التي تنتقد النظام وتصفه بالعمالة والتبعية للفرنسيين، مما ساهم في نشر أفكار الحركة وزاد من مستوى التعاطف الذي تحظى به الأمر الذي جعل النظام في حيرة من أمره حيال التعاطي مع هؤلاء التلاميذ، إن أرسلهم إلي قراهم جعلوا منها منابر للتوعية بأفكارهم والتبشير بها، وإن تركهم عطلوا الدراسة وأزعجوا الإدارة، فماذا عساه يفعل؟ في المقابل كان التلاميذ واستعدادا لمواجهة النظام قد كونوا تنظيمًا سريًا 1970¹ عقد اجتماعه التأسيسي بعد صلاة المغرب في منارة المسجد العتيق، وتم إنشاء تنظيم سري أطلق عليه "اللجنة المؤقتة للعمل المدرسي" C.P.A.S. وقد عهد برئاسة هذا التنظيم إلى محمد الحسن² ولد لبات وعضوية كل من:

محمد ولد مولود³

سيدي ولد احمد ديه⁴

كوريرا عيسى⁵

سيدنا ولد يحي⁶

يحفظ ولد زين⁷

يسلم ولد ابن عديم⁸.

من التحديات التي واجهها التنظيم في عمله الثوري داخل مؤسسات التعليم، هو طرد بعض عناصره والذين لا يسمح لهم بالعودة فيما بقي من السنة الدراسية، الأمر الذي خلق حالة من الغليان في الساحة نجم عنه إضراب سنة 1971، الذي أراد منه التلاميذ أن يكون إضرابا شاملا وجعلها سنة بيضاء، وأمام عجز الدولة عن السيطرة عليه، عبر سلاح الطرد الذي أثبت فشله في وجه الساحة الملتهبة، أعلنت الدولة عن الاستجابة لجميع المطالب المقدمة من التلاميذ، بما فيها عودة جميع

¹ محمد ولد مولود، المقابلة السابقة.

² قيادي مشهور وأول رئيس لتنظيم التلاميذ جناح الحركة الوطنية الديمقراطية

³ قيادي ومؤسس وأحد الحركة الوطنية الديمقراطية، ورئيس حزب اتحاد قوى التقدم.

⁴ سياسي شهير من مناضلي الحركة الوطنية الديمقراطية.

⁵ أبرز مؤسسي الحركة الثانية.

⁶ أحد شباب الحركة الوطنية الديمقراطية.

⁷ أحد مناضلي الحركة في المدارس.

⁸ أحد الشباب الحركة في الحراك المدرسي.

المطرودين منذ 1969 إلى 1972، غير أن التلاميذ كانوا في واقع الأمر جماعة سياسية مطلبها الحقيقي هو إسقاط النظام، لذلك لم يخفف القرار من تمردهم، بل خلق لديهم إحساسا بضعف السلطة، وبفاعلية الإضراب، ونظموا مع بداية 1972 حفلات ونشاطات داخل الثانويات الوطنية، ورفعوا خلالها شعارات سياسية تنتقد النظام، الأمر الذي أزعج هذا الأخير وحبس أنفاسه حتى ذهب التلاميذ في العطلة الأولى، فقرر فصل جميع التلاميذ الذين سبق وأن طردوا ومدد الراحة حتى ينتهي من عملية الفصل، وأصدر بذلك لائحة طويلة ألصقت على واجهة كل مؤسسة تعليمية معنية¹، فتحولوا إلى الشارع لمواصلة إضراباتهم.

أما على مستوى الساحة الطلابية فقد عرفت هي الأخرى مساعي لتجاوز الخلافات الإثنية وصهر الحركة الطلابية في اتحاد جديد، عرف برابطة الشباب المتدربين الموريتانيين (التي تتكون غالبيتها من الزوج) والاتحاد الوطني للطلاب الموريتانيين، (غالبية من العرب)، وقد تم دمج هذين الاتحادين في اتحاد جديد حمل اسم "الاتحاد العام للطلبة والمتدربين الموريتانيين" U.G.E.S.M. وقد خاض الطلاب نضالا قويا ضد النظام الحاكم ومن أهم تلك الإضرابات حملة التضامن التي نظمها 1971 تضامنا مع الحركة المدرسية، ولما اعتقلت السلطات قادة التلاميذ أعلن الطلاب عن توسيع الإضراب وانضم إليه طلاب الجامعات، وأعلن الطلاب عن رفضهم الذهاب إلى جامعاتهم. وأمام إصرار الطلاب والتلاميذ معا، استجابت السلطات لمطالب التلاميذ، عبر مفاوضات قادها وزير التعليم آنذاك با أمادو الحسن². ولم يكن العمال بعيدين عن الصراع مع النظام ولعب دورهم الثوري وفق فلسفة الحركة الوطنية الديمقراطية.

ب- العمال والشباب:

لم تكن الساحة العمالية الموريتانية لتغيب عن المشهد النضالي ضد النظام الحاكم وهي التي كان لها السبق في المواجهة مع هذا النظام وحلفائه الفرنسيين وخاصة في أحداث ازويرات الشهيرة³، وقد ورفضت تلك المعارضة التجديد للأمين العام فال مالك⁴، متهمة إياه بالتواطؤ مع النظام⁵، وقد قادت

¹ نفس المقابلة.

² المحجوب ولد بيه، مصدر سبق ذكره، ص 179.

³ راح ضحيتها قتلى وجرحى نتيجة فض اعتصام العمال بالقوة.

⁴ مالك فال، ترأس لفترة طويلة اتحاد العمال الموريتانيين، غير أن أحداث ازويرات واتهامه بموالاة النظام والشركات الاحتكارية، تحولته في أذهان غالبية العمال إلى خصم لدود، توفي 2006، محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

⁵ من أهم تلك النقابات: البريد الهاتف يراجع: المحجوب ولد بيه، مصدر سبق ذكره، ص 179.

هذه النقابات حركة انشقاق داخل الاتحاد وأعلنت عن إنشاء اتحاد جديد أطلقت عليه "اتحاد العمال الموريتانيين الجديد" وعينت التراد ولد محمد¹ أمينه العام وبمساعدة لا دحي أتروري²، وكونوا مجموعة سموها " اللجنة الإدارية للتجمع النقابي" قد كان لهذا الاتحاد ممثل في الجهاز الجبهوي (اللجنة المحلية للعمل الثوري)، وله جناح ثوري، يطلق عليه "جناح المهمات الخاصة"³ T.S، تولى رئاسته بدنا ولد عابدين إلى غاية تصدع الحركة 1974⁴، وهو جهاز سري مكلف بالربط والوسائل الأمنية من تأمين للاجتماعات، وكذا الربط بين القيادات، وهو المسؤول عن البريد: الصادرات والواردات، ووسائل النشر واستخدامها والوصول إلى معلومات النظام، وغير ذلك من المهمات الاستخباراتية التي تحتاجها الحركة في صراعها مع النظام، كما يشرف هذا الجهاز على المناشير التي تصدرها الحركة ويمتلك عناصر متخصصة في الكتابة على الجدران، والأماكن الاستراتيجية الشاهقة نسبيا، وكذا الأوقات المناسبة لذلك، التي عادة تكون في ساعات الفجر الأولى، وأوقات هطول المطر وفي بعض الأحيان يضطر الجهاز لتوزيع المنشور في وسط النهار، وخاصة في الحالات التي تتأخر فيها طباعة المنشور، فبما أن أغلب المناشير باستثناء أعداد "الصيحة" تطبع بالوسائل التابعة للدولة من طرف أفراد الحركة الموجودين في الإدارة والمطابع العمومية، فقد تتأخر طباعة المنشور بسبب فني أو أمني، فيتم الانتهاء منه في وسط النهار، ونتيجة لأهمية صدوره في الوقت المناسب، خاصة إذا كان يعبر عن رؤية الحركة حيال حادثة مهمة، وبما أن المناشير هي وسيلة الرد الأنجع على سياسيات النظام، فيحتم صدوره في نفس اليوم وضحي النهار كي لا يفوت وقته. وربما تتع له فرق صدامية كانت الحركة تستخدمها مطلع السبعينات للمواجهة مع النظام.

ومن أشهر تلك الفرق فرقة عرفت باسم "أيلول الأسود" أثارت إعجاب أحد شعراء الحركة بجدوائية صمودها، حيث: يقول

¹ كان موظفا بوكالة تأمين الطيران في إفريقيا ومدغشقر، A.S.K، مع مذبة ازويرات أهزت مشاعره فالتحق بالحركة الوطنية الديمقراطية، وقاد حركات الاحتجاج المعارضة، ومع قرار الحكومي بإدماج النقابات في حزب الشعب، قرر اعتزال العمل السياسي والنقابي، محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة.

² من مواليد 1937، نقابي وسياسي، وعضو سابق في حزب الشغل الإفريقي، المنحل، التحق مع جماعة "افلامبو" بالحركة الوطنية الديمقراطية، قيادي حاليا في حزب التحالف الشعبي التقدمي.

³ عبد الله ولد محمد (النهاء)، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، (جناح العمال، T.S)، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/01، انواكشوط.

⁴ محمد المصطفى ولد بدر الدين، المقابلة السابقة

أيلول الأسود لا تل في التجريت افاتن¹.

وكان للمرأة دور كبير في نضال الحركة الوطنية الديمقراطية ولها تمثيلها داخل الجهاز الجبهوي المسؤول عن توزيع الأدوار.

ج- الحركة النسائية:

وجد النساء في الأفكار الديمقراطية وسيلة للتعبير عن ذواتهن وحريتهن، ولعبن أدوارا سياسية في النضال وطرقن الأبواب وكن يتسللن وهن محملات بالمناشير إلى الثكنات العسكرية ويذهبن إلى معسكر " أجريدة" للاتصال بالعسكريين وتعبئتهم على أفكار الحركة وبرعن في الكتابة على الجدران في جنح الظلام.

ومع اشتداد النضال تعرضن للقمع والطرده من الوظائف². ظهرت مريم بنت لحويج كمناضلة ناضلت ودخلت السجن³.

مع بداية سبعينيات القرن العشرين بدأت نواة حركة نسوية ديمقراطية تتشكل في الأرياف أطلق عليها "رابطة النساء الديمقراطيات" أعلن عنها⁴ 1973، وعقدت اجتماعها الأول في 1974، وتتبع للرابطة روابط نسائية محلية في غالبية الولايات، ولها مندوب دائم يشارك في اجتماعات اللجنة المحلية للعمل الثوري. ولم تكن هذه الأذرع الثورية الديمقراطية لتظهر بهذا المستوى أمام الرأي العام المحلي لولا الدور الإعلامي الفريد بمقاييس عصره الذي لعبته صحيفة المظلوم.

د- صحيفة المظلوم: هي عبارة عن هيئة إعلامية للطباعة والنشر والتوزيع، تتلقى البريد القادم من الولايات و مسؤولية عن المنشورات⁵. رأت النور 1971⁶، أنشأتها جماعة القوميين العرب المعروفة التي أسست الحركة الوطنية الديمقراطية كما مر بنا.

فكانت لسان حال الحركة يعمل في الخفاء وفي مأمن من أجهزة الدولة. وتتكون هذه الهيئة من:

¹ ممدو الطيب صو، المذكرات، ص 34.

² المحجوب ولد بيه، مصدر سبق ذكره، ص 176.

³ وقد خلد الشاعر أحمد ولد عبد القادر تلك التضحية من خلال قصيدة بعثها إليها وهي في السجن، تحت عنوان: رسالة إلى مناضلة في السجن

⁴ السالكة بنت اسنيد، قيادية في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، انواكشوط بتاريخ، 2013/06/13.

⁵ أحمدو ولد عبد القادر، المقابلة السابقة.

⁶ صحيفة المظلوم، العدد 1، مايو، 1971.

جهاز تحرير يتكون من: محمد المصطفى ولد بدر الدين عبد الله ولد إسماعيل، أسلم ولد سيد محمود، محمد المصطفى ولد أعبيد الرحمن.

يتولى هذا الجهاز دور التحرير والأعمال الفنية البحثية.

جهاز سري للطباعة: احمدو ولد عبد القادر، محمدن ولد اشدو، الطالب محمد ولد لمرايط¹. يساعد هذين الجهازين فريق أمني تابع لجهاز المهمات الخاصة، (TS)، يقوم بحراسة الأماكن السرية وبناء السرايب تحت المنازل لإخفاء آلات الطباعة، كما يقوم بتوزيع الأعداد الصادرة من الجريدة إلى أغلب المقاطعات، ولكل مقاطعة جهازها الأمني السري الذي يتولى المراسلات ووسائل الاتصال، لم ينجح النظام في الوصول إلى آلة الطباعة، ولا أي من أعضاء الحرس².

وقد اعتمد الجهاز الأمني في عملية توزيعه للنشرات والأعداد، على مجموعة من الوسائل منها عناصر مساعدي سائقي الشاحنات الكبيرة "ابرنتيات"³.

وهكذا شكلت الصيحة عاملاً مهماً في استمرار وحشد الجماهير ضد النظام وأجهزته الأمنية التي استعملت مختلف إمكانياتها ووسائلها لوضع اليد على العقل المحرك لهذا التيار الذي بدأ مع مطلع 1973، يعلن عن حزب سياسي كنتكتيك لمرحلة جديدة من النضال ضد النظام.

رابعا: حزب الكادحين: (حكم)

تزامن انشاء حزب الكادحين مع تأسيس الحركة بداية السبعينيات لكنه ظل مختفياً لم يعلن عنه إلى سنة 1973⁴، كنتكتيك مرحلي جديد اقتضته اللحظة.

أ- الإعلان عن تأسيس الحزب:

أعلنت الحركة الوطنية الديمقراطية، 1973، عن ولادة حزب سياسي أطلقت عليه "حزب الكادحين الموريتانيين"، ليشكل إطاراً سياسياً عاماً للحركة الوطنية الديمقراطية.

وقد تكونت قيادة هذا الحزب من:

بدنا ولد عابدين: رئيساً⁵.

¹ محمد ولد مولود المقابلة السابقة.

² أحمد ولد عبد القادر، المقابلة السابقة.

³ وقد خلد الشاعر أحمدو ولد عبد القادر نضال الصيحة من خلال قصيدته:

إليك يا صيحة المظلوم أهديها...

⁴ محمدن ولد أشدو، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/09، انواكشوط.

⁵ نفس المصدر.

وعضوية كل من:
عبد القادر ولد حمادي
محمدين ولد أشدو
أحمد ولد عبد القادر
محمد سالم ولد العتيق
الطالب محمد ولد لمرباط
محمد ولد مولود¹.

وقد جاء في محضر تأسيس هذا الحزب: "إن حزب الكادحين هو طليعة الطبقة العاملة ووريث
الطلائع الصادمة إبان الاحتلال، وهو استمرار للنهضة الوطنية المجيدة"².
كما اعتبر قادة الحزب أن مراجعات الاتفاقيات التي بدأ نظام المختار ولد داداه يعلن عنها لا تعدو
كونها وسيلة لتضليل الرأي العام المحلي، وتقويت الفرصة على دعاة الاستقلال الحقيقي³.
وكخطوة في اتجاه تحقيق هذا التوجه يشير بعض الكادحين⁴ إلى حملة تسليح للفلاحين والمزارعين
في الأرياف من طرف الحزب، قبل أن يتراجع عنها لاحقاً⁵.
وهذا ربما تمهيدا للثورة التي أريد لها أن تنطلق من الأرياف والزحف على العاصمة وتطيح بالنظام.
وكانت السرايب الأرضية، والخزانات المائية المنزلية، الفارغة من الماء أمكنة للقاءات والاجتماعات
التنظيمية⁶، التي لا يتجاوز عدد حضور أي اجتماع من هذا القبيل خمسة، أفراد وتأخر أي فرد
بخمس دقائق، أمر يستدعي تغيير مكان الاجتماع وتوقيته، خشية أن يكون قد وقع في أيدي قوات
الأمن التي كانت تشن حملة شديدة ضد الكادحين⁷.

¹ المحجوب ولد بيه، أذكر، مصدر سبق ذكره، ص 185.

² منشور سري صادر عن لجنة العمل الثوري، نواكشوط، (د، ت).

³ صيحة المظلوم العدد، 28.

⁴ سيد اعمر ولد شيخنا، نقلا عن محمد المصطفى ولد اعبيد الرحمن، موريتانيا المعاصرة، موريتانيا المعاصرة،
شهادات ووثائق، ج/1، دار الفكر، موريتانيا (د، ت)، ص 173.

⁵ ربما ماي قصده أحمدو ولد عبد القادر بقصيدة مطلعها: عندما تزحف الجماهير غضبي في لهيب المعارك الحمراء..

⁶ محمد ولد مولود، المقابلة السابقة.

⁷ محمدو الناجي، المقابلة السابقة.

خامسا: المواجهة مع النظام

أخذت المواجهة بين الحركة الوطنية الديمقراطية ونظام الرئيس المختار ولد داداه، منعطفًا جديدًا اتسم بالعنف الشديد، عقب قرار اللجنة الإدارية التابعة "لاتحاد العمال الموريتانيين الجديد"، تنظيم مهرجان جماهيري للمطالبة باستئناف المؤتمرات النقابية لتحديد الموقف من الاندماج في حزب الشعب، والتي كانت قد توقفت حين رأت الحكومة أنها لا تصب في صالح الاندماج.

عقد المهرجان في 10 فبراير 1971، بعد طلب الترخيص من السلطات وقد القي السيد با محمود كلمة وترجمت إلى الحسانية، في الوقت الذي كانت فرق مكافحة الشغب تحاصر المكان مدججة بالسلاح¹، وبدون سابق إنذار اقتحمت المكان وباشرت في إطلاق الهراوات والقنابل المسيلة للدموع، وفرت الحضور واعتقلت القادة الأمعاء المهنيين المنضوين تحت لواء اتحاد العمال الموريتانيين الجديد².

ولم تكن تلك إلا بداية حملة عنيفة استهدفت اقتلاع الحركة الوطنية الديمقراطية من جذورها، فتوالت المظاهرات وتوالت معها الاعتقالات بالجملة واكتظت مراكز الاعتقال بالسجناء³، وتنتقل بعض قادة الحركة بين سجون البلاد، (تامشكط، لعيون، ...) ونشطت حركة الاستياء من أحوال المعتقلين، ونظمت حركة إضراب شارك فيها عدد كبير من العمال والموظفين، كما قادت أسر المعتقلين "حركة الأسير"، لمساندة المعتقلين والتوعية بمعاناتهم وظروف اعتقالهم الأمر الذي كان له تأثير كبير ودخل التلاميذ في إضراب شامل، في هذا الجو المتسم بالتوتر، قام الرئيس الفرنسي آنذاك جورج بومبيدو، Georges Pompidou بزيارة لموريتانيا، فقرر الشباب استقباله على طريقتهم الخاصة، فبينما هو يستعرض الجماهير تسلل الشاب المرابط ولد حمديت إلى مقدمة الصفوف وألقي بيضة على الرئيس الفرنسي، لتفجر على بذلته أمام عدسات الكاميرات الفرنسية، مما أحدث ضجة كبيرة في الصحافة الفرنسية، فنشرت جريدة "لكنار آشتيني" الفرنسية، الساخرة كاريكاتير دجاجة وهي تبيض وعلقت عليها <<هذه هي الدجاجة التي باضت البيضة التي لطخت ثياب ابومبيدو في انواكشوط...>>⁴.

¹ ممدو الطيب صو، المذكرات، ص 12

² مثل: كن طاهما، محمد ولد باكا

³ في هذا السياق كتب أحمدو ولد عبد القادر قصيدته: ليلة عند الدرك.

⁴ نفس المصدر، ص 17.

وقد شكلت هذه العملية إخراجا كبيرا للرئيس المختار مما انعكس سلبا في مضاعفة التعذيب وأساليبه لانتزاع اعترافات المتهمين¹.

وقد تعرض منفذ العملية لتعذيب شديد لإجباره على الإقرار بالجهة التي جندته لتنفيذ العملية، وهو يقول " وهل رأيت منظمة برنامجها إلقاء البيض؟"².

ويعبر الأستاذ محمد ولد أشدو في إحدى ملاحظاته الشعرية عن حال المعتقلين وأحاديث ذويه في قصيدته الشهيرة: أطفالنا يتساءلون:

" فوزي يقول لأمه << بابا لماذا لا يعود؟>>. إلى آخر الملحمة³.

من الواضح أن غالبية قادة الحركة المعروفين على الأقل قد وضعوا في السجن من طرف النظام في خطوة منه لسحب خطاب المعارضة من الشارع، غير أن صيحة المظلوم ظلت توزع بانتظام معبرة عن خطاب "الحركة الوطنية الديمقراطية"، وترصد الأحداث وأصبحت في هذه الفترة الحالكة من الصراع هي الموجهة للأحداث وعليها المعول في كسر إرادة النظام بالقضاء على المعارضة، فلم تستطع أجهزة الأمن الوصول إلى أي من عناصر المهمات الخاصة T.S، المسؤول عن تأمين آلة الطباعة وتوزيع الأعداد⁴، وكانت بالنسبة للمعتقلين وسيلة الإعلام الوحيدة التي تزودهم بمجريات الأحداث، وذلك عبر مجندين تابعين للحركة وأساسا من عملاء حكام الولايات، التي يوجد بها معتقلون وعناصر أخرى وكانت البلاغات الشعبية تستخدم من طرف لجنة الإعلام التابعة "لصيحة المظلوم" للإبلاغ عن أي خطر أو مصادرة لمنشورات⁵ في الوقت الذي امتلأت فيه السجون أخذت حكومة الرئيس المختار ولد داداه القرار بتلبية مطالب المعارضة، باسترجاع السيادة الوطنية حيث تم إلغاء اتفاقيات الدفاع المشترك مع فرنسا، كما تم اتخاذ قرار بإنشاء عملة وطنية.

¹ وقد عبرت الفرق الإنشادية عن الصمود: ما فين حد اكلو تحت التعذيب كلم... محمد ولد أشدو، أزمة الحكم في موريتانيا، دار الفكر، انواكشوط، د، ت، ص 179.

² نفس المصدر، ص 17.

³ الشيخ بن محمد، الاسم الحركي لمحمد ولد أشدو، ديوان سطور حمراء، 1973، القصيدة موجودة في ديوان أغاني الوطن أيضا لمحمد ولد أشدو، مما يعني أن " الشيخ ولد محمد" كان الاسم الحركي يستتر تحته محمد أشدو في زمن السرية.

⁴ أحمدو ولد عبد القادر، المقابلة السابقة.

⁵ يذكر محمد عنين ولد أحمد الهادي، أنه في كيهيدي، جاءه بريد، وبعد عودة البريد، استمع إلى البلاغات، فسمع بلاغا يخبر " ليعلم فلان بأن فلانا ذهب بسيارته إلى كيفة وتعطلت سيارته في الطريق، فعلم أن صاحب البريد، أعتقل فاتخذ التدابير اللازمة، محمد عنين، المقابلة السابقة.

وتأميم "ميفرما" 1974 والذي أصبحت بموجبه شركة وطنية وحظي هذا القرار بتأييد شعبي كبير، وقد أرادت الحكومة من ذلك سحب البساط من تحت أقدام الحركة واختراقها من الداخل وسحبها من الشارع. وكخلاصة لهذا المقال يتضح أن الحركة رغم نجاحها في فرض مطالبها إلا أنها لم تكن بالقوة وتماسك الصف بالقادرة على توجيه الأحداث لما يخدم توجهاتها فقد حدثت ارتدادات داخلها على وقع الاصلاحات مخلفة موجة من الانبطاح¹، استفحلت في الأشهر الأخيرة من 1974، وكانت في حقيقتها أعراضا لحركة تصدع ضربت الحركة محدثة انقسام عاشت على وقعه بداية 1975، وأعلن معظم قادتها انضمامهم للنظام ومن لم يلتحق منهم عمل على إعادة تأسيس الحركة ثانية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا . وثائق الأرشيف الوطني

- 1- لجنة العمل الثوري المحلي، منشور سري، بعنوان: فصول المعاناة، انواكشوط، (د، ت).
- 2 - لجنة العمل الثوري، أوراق متفرقة، انواكشوط، (د، ت)
- 3 - منشور سري، صادر عن لجنة العمل الثوري، انواكشوط، (د، ت).

ثانيا: الجرائد:

- 1 - صحيفة المظلوم الأعداد: 32، 28.
 - 2- ديوان سطور حمراء، 1973 مجموعة قصائد شعرية، صادرة عن صحيفة المظلوم
- ثالثا: المذكرات:

1. ممدو صو الطيب، مذكرات سجين، ج/1، بحوزتي نسخة منه
 2. المحجوب ولد بيه، ذكريات وخواطر وأحداث، شركة الطباعة والتمثيل التجاري، ابريل 2004
- رابعا: الكتب:
1. محمد المختار ولد سيدي محمد، المجتمع والسلطة في موريتانيا (1961-1987)، "الرحيل إلى الدولة" المطبعة الجامعية، انواكشوط، 2013
 2. سيد اعمر ولد شيخنا، موريتانيا المعاصرة، شهادات ووثائق، ج/1، دار الفكر، موريتانيا (د، ت).
 3. فرانسيس دي شاسي، موريتانيا من 1900-1975، ترجمة محمد بن اعليبه بن الغراب، جسور، انواكشوط، موريتانيا، 2013
 4. محمدين ولد أشدو، أزمة الحكم في موريتانيا، دار الفكر، انواكشوط، (د، ت).

¹ ممدو الطيب صو، المذكرات، ص 36.

خامسا: المقابلات

- 1 - احمدو ولد عبد القادر، قيادي وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية بتاريخ، 2013/05/13، انواكشوط.
- 2 - محمد الناجي ولد محمد احمد، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/05/03، ومقابلات 2023، انواكشوط.
- 3 - عبد الله ولد محمد (النهاه)، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/01، انواكشوط.
- 4 - محمدين ولد أشدو، قيادي وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/09، انواكشوط.
- 5 - السالكة بنت اسنيد، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/13، انواكشوط.
- 6- محمد المصطفي ولد بدر الدين، قيادي وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/14.
- 7 - مريم بنت لحويج، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية بتاريخ، 2013/06/17، انواكشوط.
- 8 - محمد ولد مولود، قيادي وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/26، ومقابلات 2023، انواكشوط.
- 9 - محمد عيين ولد احمد الهادي، قيادي وعضو مؤسس للحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/06/29، انواكشوط.
- 10 - لادجي أتراوري، قيادي في الحركة الوطنية الديمقراطية، مقابلة شخصية، بتاريخ، 2013/10/30، انواكشوط.

الجفاف وندرة الماء وعلاقتها بتراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية (ولاته وودان نموذجاً)

الطيب بلاه حمودي

طالب دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

المقدمة:

إن كانت الحواضر الصحراوية الموريتانية قد شهدت فترات من التطور والازدهار الاجتماعي والاقتصادي والثقافي خلال المراحل التاريخية الماضية وخاصة القرنين 16 و17م، فإنها بدأت تشهد تراجعاً متسارعاً نتيجة لعوامل مختلفة منها ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي وطبيعي، ولعل العامل الطبيعي من أشد هذه العوامل فتكاً لماله من تأثير كبير على، فعوامل التراجع هذه سواء اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية كانت تتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالعوامل الطبيعية خاصة ما يتعلق منها بالجفاف وندرة الماء الذي نرى أنه أهم العوامل التي كانت وراء احتشام الإرث الحضري في المجال الموريتاني وتوضع ظاهرة التمرکز الحضري في هذا المجال، فكما أن تواجد الآبار وتوفر نقاط المياه كان سبباً في ظهور وازدهار المراكز الحضرية والتجمعات البشرية والعمارة، فإنها بشكل معاكس (أي الآبار ونقاط المياه) كانت وراء خراب العمارة واختفاء المراكز الحضرية، وفي هذا الإطار سنحاول تسليط الضوء على أجزاء مهمة من تاريخ الإرث الحضري الموريتاني وتأثير عاملي الجفاف وندرة الماء من خلال دراسة حالتي ولاته وودان. فكيف كان ذلك؟

أولاً: مدخل تاريخي حول المراكز الحضرية في المجال الموريتاني

عرف المجال المعروف اليوم باسم موريتاني المراكز الحضرية منذ فترات قديمة تراوحت بين كثافة الحواضر والقرى أحياناً وندرتها أحياناً أخرى حسب العصور وتبعاً للظروف والتحويلات التي عرفتھا المنطقة مثل فترات الجفاف، وندرة الماء والفوضى الأمنية، وذلك منذ فترات ما قبل التاريخ¹ والعصور

¹- Mohamed Ould Khattar, Préhistoire Du Sud-est Mauritanien, Le Dhar Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique, NO2, p. 131

القديمة وحتى الفترة الوسيطة¹ لذلك فإن علاقة الصحراء الموريتانية بالعمران البشري ليست بالأمر الجديد بل تعود تلك العلاقة إلى آماذ زمنية سحيقة.²

شهدت الفترة الوسيطة ظهور الكثير من التجمعات العمرانية في المنطقة وذلك ناتج عن ازدهار العلاقات التجارية بين الصحراء وجنوبها وشمالها ابتداء من القرن 8م، وشواهد ذلك ظهور حواضر كثيرة عمت أرجاء المنطقة تقريبا وكانت مواقع هذه الحواضر غالبا ما تكون على ممر القوافل التجارية وفي الأقاليم التي توفر مساحات خضراء ونقاط مياه تساعد على بقاء المواشي وخاصة الجمال³ على قيد الحياة، وقد استطاعت تلك الحواضر بما وفرتها من وسائل عيش معقولة وفرص استقرار جيدة أن تجذب سكانا تجاوزوا الآلاف في الحاضرة الواحدة⁴ وكان من أشهر الحواضر التي بدأت في الظهور خلال هذه المرحلة من تاريخ الصحراء (آبير - أودغست - كمبي صالح - آزوكي - تيشيت - ولاته - ودان... إلخ، كما ذكرت المصادر العربية حواضر ومراكز عمرانية كانت منتشرة على طول الطرق التجارية الرابطة بين شمال وجنوب القارة لم يعد بالإمكان تحديد مواقعها وذلك لكونها اندثرت منذ فترات قديمة، ويمكن في هذا الإطار أن نذكر أهم تلك الحواضر وهي (آزقا - تيماماناوت - وارتنني - بانكلابين - مدوكن - قمنورية... إلخ هذا بالإضافة إلى التجمعات البشرية التي عرفتها المنطقة الغربية الساحلية المحاذية لطول الشاطئ الأطلسي المطل على الصحراء، فمناطق آفطوط الساحلي من شمال موقع نواكشوط الحالي حتى مصب النهر الصنهاجي جنوبا، تكاد تكون مغطاة ببقايا آثار الاستقرار البشري⁵... وأكثر آثار العمران في تلك المنطقة تعود إلى الفترة الوسيطة، خاصة منها القرى والمداشر المعاصرة لاستغلال مملحة أوليل، وقد شيدت أغلب تلك القرى على الكثبان الرملية الصفراء خوفا من أن تغمرها الفيضانات التي عادة ما كانت منطقة آفطوط الساحلي تتعرض لها⁶

¹ - ولد الحسين الناني، صحراء المثلثين، دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الإقليمي خلال العصر الوسيط، منتصف القرن 2هـ 8م إلى نهاية القرن 11هـ 5م، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 2007، ص 315

² - تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج1، مجموعة باحثين، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر، ص 12

³ - Lhote (H.), "le cheval et le chameau dans le peintures et gravures rupestres du Sahara " In: Bulltin de l'institut français de l'Afrique noire° 15, 1953, pp. 1138-1228.

⁴ - ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 316

⁵ - راجع حول هذا الموضوع خلاصات الأبحاث الأركيولوجية حول الموضوع

- موريتانيا القديمة، تأليف بوبه محمد نافع ومحمد الأمين ولد ختار، وروبير فيرنى وجان كلود كلوتشكوف، موريتانيا اليوم والأركيولوجيا الموريتانية في متحف نواكشوط، روبر فيرنى وبوبه ولد محمد نافع.

⁶ - ولد الحسين الناني، المرجع السابق، ص 320

وخلال القرن 5هـ 11م ظهرت حواضر صحراوية مدفوعة بتشجيع الحركة المرابطية للحركة التجارية الصحراوية والتحولت التي شهدتها الطرق التجارية¹ وفي هذا الإطار يمكن أن نقسم الحواضر الصحراوية الموريتانية إلى جيلين (الحواضر البائدة، والحواضر الحية). ونعني بالحواضر البائدة تلك الحواضر المندثرة التي لم تعد معمرة ولم تبقى غلا آثارها مثل (أودغست- كمبي صالح- أزوكي - تينيكي...)، أما الحواضر الحية فنعني بها الحواضر التي مازالت موجودة حتى اليوم بعمارتها ومُعمرِها.

أ- الحواضر البائدة: أودغست نموذجا

توجد آثار حاضرة أودغست التاريخية قرب بئر النوداش، و يبعد موقع هذه الحاضرة قرابة 34 كلم شمال شرق مدينة تامشكط الواقعة في منطقة الحوض في موريتانيا الحالية، وقد اختلف الإخباريون والجغرافيون والمؤرخون العرب حول تسمية حاضرة أودغست، حيث وردت تسميتها بعدة صيغ وألفاظ مختلفة، فهذا اليعقوبي يطلق عليها غسط² أما ابن حوقل فيذكرها بلفظة أودغست،³ وهي التسمية التي ذكرها البكري⁴ والإدريسي⁵ والمراكشي⁶، أما ياقوت الحموي⁷ وابن عبد الحق⁸ فإنهما يختلفان في التسمية حيث أطلق عليها اسم أودغست، أما المهلب⁹ فذكرها بلفظتين مختلفتين هما (أودغست - و أودغست) أما الحميري¹⁰ فيلفظها أودغشت، والراجح من التسميات هو أودغست حسب ما ذهب إليه أغلب المؤرخين العرب، أما عن موقع أودغست فهي تقع في الشمال من غرب إفريقيا بين بلاد الملثمين وبلاد السودان، يحدها من الغرب البحر المحيط، ومن الجهة الجنوبية والشرقية بلاد السودان،¹¹ ومن الشمال المغرب الأقصى، وقد ذكر المؤرخون أن أودغست كانت مدينة كبيرة مليئة

¹ - الناني، مرجع سبق ذكره، ص 321

² - أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق، 1957، ص 111

³ - أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، لبنان، 1938، ج1، ص 36

⁴ - أبو عبد الله البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص 848

⁵ - محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ، ج1، ص 108

⁶ - المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1986م، ص 216

⁷ - شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995، ج1، ص 277

⁸ - صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجبل، بيروت

1954م، ج1، ص 130

⁹ - الحسن بن أحمد المهلب العيزي، المسالك والممالك، د. ت. ن، د.، ص 45

¹⁰ - محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 63

¹¹ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 277

بالسكان، تعود نشأة أودغست لموقعها الاستراتيجي خاصة وقوعها بين غانة وسجلماسة حيث أهلها موقعها لتصبح سوقا للتبادل التجاري¹ تتداعى إليها القوافل التجارية القادمة من القيروان وسجلماسة وغانة وبلاد السودان وغيرها من المناطق المجاورة² كما كانت عاصمة اقتصادية لمملكة غانا قبل أن تصبح العاصمة السياسية للقبائل الصنهاجية ومن ثم منطلقا للحركة المرابطية في طورها الحركي.

ب- الحواضر الحية (ولاته وودان نموذجاً):

■ ولاته

تصنف ولاته بكونها من أقدم الحواضر الصحراوية في منطقة غرب إفريقيا، ويذهب بعض الدارسين إلى أن تاريخ تأسيس الحاضرة يعود إلى القرن الثاني الهجري مع أن تاريخ هذه الحاضرة يعتبر مثار جدل كبير، ولعل ما يفسر هذه الجدلية الكبيرة هو غياب تأريخ مضبوط لتأسيسها³، وأول من ذكر ولاته هو السعدي في كتابه تاريخ السودان في معرض حديثه عن تنبكتو التي ذكر أن ازدهارها كان مرتبطاً بتراجع المكانة الثقافية والاجتماعية لبيرو⁴ ولاته الأولى "وبعد السعدي ورد ذكر ولاته مع ابن بطوطة الذي زارها وقدم عنها معلومات هامة تعتبر حتى اليوم أهم المصادر المكتوبة حولها، وقد عرفت ولاته عبر تاريخها بعدة تسميات عبرت عن المراحل التاريخية التي مرت بها: بيرو وهي التسمية الأولى ثم إيولاتن حسب بن بطوطة، وأخيراً ولاته والتسمية الأخيرة هي التي استُقر عليها، وقد ذكر الخليل النحوي في كتابه بلاد شنقيط أرض المنارة والرباط: أن ولاته تأسست في القرن الأول الهجري كما أضاف أن زيارة الرحالة بن بطوطة للحاضرة ذكر أنها تظهر عليها علامات الشيخوخة، ولعل هذه الإشارة من ابن بطوطة تؤكد أن الحاضرة ضاربة في القدم، أما المختار بن حامد فيقول: " قيل أسسها سرغلات سنة 1214م\611هـ عندما تفرقوا من غانا (...) والمحاجيب أول من سكن ولاته من أهلها اليوم وكانت لهم الرئاسة فيها ..."⁴ أما الناني ولد الحسين فيرى أن ولاته تأسست منذ قرون عديدة وكانت تعرف باسم بيرو، وكانت لها صلة وطيدة بغانا وذلك منذ القرن 2هـ\8م، ثم ما لبثت أن أصبحت تعرف باسم ولاته وذلك من القرن 13م، ولكن الرأي السائد عند أهل ولاته هو أنها تأسست قبل ظهور الإسلام قبل أن يفتحها عقبة بن نافع في القرن 1هـ\7م وتذهب الروايات المحلية الولاتية

¹ - البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ص 862

² - أبو عبد الله البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت. ن، ص 158
³ - Jacques-Meunié (D.) , Cites Ancienne de Mauritanie, Provinces du Tagant Et du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961, p, 71

⁴ - ابن حامد المختار، موسوعة حياة موريتانيا (التاريخ السياسي)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000، ص 62-63

أن قبر العاقب ابن عقبة يوجد بالقرب من المسجد العتيق فيها¹ ولها باع في التاريخ القديم للمنطقة" ... وقد انتقلت بعض الأسر السوننكية الثرية، والتجار العرب والبربر، سنة 625هـ بقيادة الشيخ إسماعيل إلى بيرو وأسسوا ولاته...² أما حماء الله ولد السالم فقد ذهب في التأصيل لنشأة ولاته مذهباً بعيداً حين قال: " التاريخ القديم لولاته موغل في القدم ولذلك فإن الحقائق في شأنه قليلة، فبعض الروايات ترجع تأسيس المدينة إلى بني إسرائيل قبل الإسلام خلال القرنين 6 و7 للميلاد، وخلال القرن 5هـ 11م سيطر المرابطون عليها فأضحت مدينة ولاته القرية الصغرى آن ذاك خاضعة لنفوذهم، وفي القرن 6هـ 12م سقطت مملكة غانا في أيدي الصوصو 1203م مما اضطر المسلمين بقيادة الشيخ إسماعيل إلى اللجوء إلى المدينة ليعيدوا تأسيسها على نحو فعلي حدود 1224م بوصفها حاضرة إسلامية كبرى ومحطة متقدمة على طريق التجارة بين المغرب والسودان وبذلك ورثت ولاته الدور التاريخي لمدينة كمبي صالح عاصمة مملكة غانا حسب ما تذكر الروايات...."³ يضيف ولد السالم "... واسمها الأول بيرو، وقد أطلقه عليها السوننكي، أو البمبارة وهو في لغتهم السودانية المدخل، حيث كانوا يقولون (بيرو بافه) أي مدخل المدينة، وإذا أضافوا المصر إلى سكانه قالوا بيرو كو أي سكان ولاته، وأقدم إشارة إلى هذه التسمية ما قدمه السعدي " كانت عمارة تنبكتو خراب بيرو، أما الاسم الحالي ولاته فهو في نظرنا النطق العربي الحساني للإسم الصنهاجي (إولاتن) وكان أطلقه على المدينة بطن من مسوفة لعله أول من قطنها من البيض، ومعناه السفح الجبلي، وفي لغة التوارق وهي فرع من الصنهاجية"⁴

■ ودان

وادان كغيرها من القصور الموريتانية تعاني من تضارب الروايات المتعلقة بتأسيسها، لكن أشهر هذه الروايات هي قصة الحجاج الثلاثة أجداد قبيلة إدو الحاج⁵ يقول بن حامد: "... وهم الذين بنو ودان الجديد على أن قاض ودان القديمة سنة 536هـ (...) وقد أيد صالح بن عبد الوهاب الناصري الرأي القائل بأن ودان القديمة كانت مجموعة قرى صغيرة لقبيلة مسوفة⁶ وبالتالي فإن وادان الحالية تأسست

¹ - الناني ولد الحسين، صحراء المثلثين، المرجع السابق، ص 319

² - ولد أيده أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، ص، 186

³ . ولد السالم حماء الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن، 2007، ص 166

⁴ . نفس المرجع، ص 165

⁵ - ولد أيده (أحمد مولود)، مرجع سابق، ص 182

⁶ - ابن حامد، حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، ص 61

على أنقاض قرى صنهاجية قديمة. وكانت عبر تاريخها الطويل ملتقى للهجرات البشرية القادمة من الشمال¹ كما كان موقعها الجغرافي أهم العوامل التي ساهمت في ازدهار حيث أكسبها هذا الموقع الاستراتيجي ميزات هامة لعل أهمها وقوعها على ملتقى الطرق التجارية ذات المنافع الاقتصادية الكبيرة حيث القوافل المحملة بالبضائع والسلع خاصة الملح القادم من مملكة الجبل شمال وادان بالإضافة إلى الذهب وغيره من المواد التجارية. فإلى الشمال كانت تصدر "المواشي والمصنوعات الجلدية والذهب والتوابل.. بينما كانت يصدر للجنوب الملح والتمور والأقمشة والمصنوعات المعدنية"².

ثانيا: أسباب تواضع وتراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية
(الجفاف وندرة الماء مثالا حالتي ولاته وودان)

1- ولاته:

ولاته كغيرها من الحواضر الصحراوية الواقعة ضمن المجال المعروف اليوم باسم موريتانيا ظلت عبر تاريخها الطويل تعاني من صعوبة المناخ وانعكاسه على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وذلك راجع إلى وقوع المنطقة بشكل عام في المجال الصحراوي نتيجة لموقعها الفلكي الحار والشديد الجفاف الناتج عن تعرضها للإشعاع الشمسي بشكل مستمر، وهو ما جعل مشكلة الجفاف وندرة الماء أكبر التحديات المطروحة أمام سكان الصحراء عامة وسكان ولاته بشكل خاص، وقد ظل المناخ والمشاكل المرتبطة به كالجفاف وندرة الماء أهم الأسباب المنطقية التي كان لها الفضل في ازدهار هذه الحاضرة وكنتيجة عكسية كان هذان العنصران من أسباب التراجع التي ستعرفها ولاته مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، ولكن قبل أن نغوص في الحديث عن دور الماء والجفاف في ازدهار وتراجع المكانة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لولاته، حيث تعتمد مقاربتنا على محاولة قراءة الحالة العامة للمناخ الولاتي والصحراوي بناء على المعطيات الحديثة واعتمادا على ما أورده المصادر العربية الوسيطة والحوليات المحلية وتقارير الرحالة الأوروبيين.

أ- الجفاف وندرة الماء في لاته الجذور التاريخية والإكراهات المناخية:

إن موقع ولاته الفلكي الذي جعلها في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية وبالتحديد في النطاق المداري على وجه الخصوص جعلها في منطقة يتجاذبها مناخان مختلفي الخصائص، المناخ الصحراوي

¹ محمد الأمين ولد الكتاب، المرجع السابق، وادان، ص 10

² النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط أرض المنارة والربا عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد اديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحضرة) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص 71

الشمالي الشرقي المتأثر بالصحراء الكبرى والمناخ السوداني الساحلي جنوبا والمناخ المتوسطي شمالا مما أضفى عليها اضطرابا مناخيا على مدار العام ومن فترة لأخرى.¹ وقد اتفق الرحالة والإخباريون العرب على ارتفاع درجات الحرارة خلال الفترة الوسيطة والفترات التي تلتها ولا زالت ولاته والصحراء الموريتانية بشكل عام تعاني من ارتفاع درجات الحرارة وصعوبة المناخ والجفاف والتصحر، فهذا الإدريسي يعلل سبب ارتفاع درجات الحرارة بالموقع الفلكي حسب استتطاق الناني ولد الحسين لهذه المقولة "... وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا، ولذلك فإن أهل الإقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء..."² ولعل المتمعن في كلام الإدريسي هذا سيلاحظ تطابقا بين كلام الرجل مع ما أثبتته الدراسات البيئية والفلكية المعاصرة التي ترد ارتفاع الحرارة في هذه الأرض لوقوعها بين المدارين (السرطان - الجدي) ودور ذلك في الإشعاع الشمسي المسلط على المنطقة أغلب أيام السنة وانعكاسه على مستويات درجات الحرارة فيها، ومناخ ولاته في الحقيقة هو جزء لا يتجزأ من مناخ المنطقة التي من ضمنها وهو المناخ الذي يتميز بالإشعاع الشمسي العمودي خلال أغلب أيام السنة وهو ما يترتب عليه درجات حرارة عالية مصحوبة بموجات جافة لها انعكاسات سلبية على المخزون المائي والغطاء النباتي في المنطقة الشيء الذي تتجر عنه درجات حرارة عالية أغلب أيام السنة حيث تكون الحرارة مرتفعة في الصيف ويكون البرد شديدا خلال الشتاء وهو ما يعبر عن ارتفاع كبير في المدى الحراري.³ وقد قدم الوزان وصفا دقيقا للحالة المناخية في ولاته والصحراء التي خبرها جيدا حيث عبرها مرتين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب بقوله: "إن هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة (...) وتسير جنوبا حتى أرض السودان عند مملكتي ولاته وتنبكتو، لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة مائة ميل أو مائتي ميل بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جدا، خصوصا في الطريق المؤدية من سجماسة إلى تنبكتو"⁴ كما قدم موسى بن سعيد المغربي صاحب كتاب الجغرافيا وصفا دقيقا للحالة العامة لمناخ الصحراء بقوله " لا ماء ولا مرعى ولا عمارة، بل رمال سائلة وطرق مضللة طامسة وأكثرها يكون فيه اللط وإنه صابر على العطش (...) وأول ما يلقاك من هذا الجزء صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجماسة وغانا، وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحر، وربما هبت ريح جنوبية ونشفت

¹ - بشيري محمد، ولاته بطاقة تعريفية، نشرية تصدر عن مركز البحوث والدراسات الولائية، 2014، ص 11

² - ولد الحسين الناني، نقلا عن الإدريسي، ص 28

³ -Toupet Charles, Le Sahel, Nathan Université, p. 61

⁴ - الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1983، ص 148

المياه في القرب"¹ إن هذه القساوة المناخية التي عرفتھا الصحراء بما في ذلك ولاته والتي ظلت متواصلة طيلة القرون الماضية وحتى هذا العصر، كانت مترامنة مع إشكالات من أهمها مشكل ندرة الماء في المفاوز والمسالك الصحراوية المؤدية من وإلى ولاته، ولعل أفضل وصف لهذه الحالة الصعبة ما أورده اليعقوبي في كتابه البلدان حين قال: "... قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم ... ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام..." أما صاحب كتاب صورة الأرض أبو القاسم بن حوقل فقد عبر عن مشكل ندرة الماء بقوله: "... وفيهم أصحاب ماشية وخيل وبغال (...) ويستتنجون البغال وغيرها، ومنهم من لا يقدر لعوز الماء على غير الإبل واليسير من المعز ولنأي الماء عنه."² ثم يضيف بن حوقل في وصف حال أهل الصحراء خاصة مسوفة التي كانت ولاته ضمن مجالها الجغرافي: "... وبنو مسوفا قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة، لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما إلا بالمثل، وأفواتهم الألبان، وفي بعض الأوقات اللحم، وفيهم من الجلد والقوة ما ليس لغيرهم..."³ وفي معرض كلام البكري عن قبيلة لمتونة يقول: "... وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرا ولا يعرفون خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم والبن (...) وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، ويبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وفؤثهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة..."⁴ وهذا الإدريسي يصف الظروف الطبيعية الصعبة التي تتميز بها الأجزاء الشمالية والوسطى من البلاد وما كان يعانيه سكانها والمسافرون عبرها من مشاكل في مقدمتها ندرة الماء "... وهذه الصحاري بها مجابات بلا مياه، وذلك أن الماء لا يوجد فيها إلا بعد يومين وأربعة عشر يوما مثل مجابة نيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة، وهي أربعة عشر يوما لا يوجد فيها ماء..." ولعل أقرب وصف لما كانت عليه ولاته وأحوازها من مشاكل جمة تتعلق بندرة الماء مقاله ابن بطوطة: "... ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض الرجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل وعليه ثيابه وفي يده سوط، وكان الماء على نحو ميل منه، ثم وصلنا إلى تاسر هلا وهي أحساء ماء تنزل

¹ موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، والتوزيع،

بيروت، 1970، ص 113

² أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص 100

³ ابن حوقل، صورة الأرض، نفس المصدر السابق، ص 98

⁴ أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، منشورات محمد علي بيضون، بيروت،

2002، ص 351.

القوافل عليها ويعتومون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنا يبعث الكشف والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيولاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع (...) وربما هلك الكشف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل إيولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم"

أما عن التساقطات المطرية فهي تتميز بالتذبذب حسب الفترات وحسب المناطق، فكلما اتجهنا شمالا تناقصت الأمطار، وكلما اتجهنا جنوبا زادت الأمطار، وقد ذكر الناني نقلا عن بعض الدارسين أن كميات الأمطار المتساقطة على غرب الصحراء عموما بما في ذلك ولاته قد تناقصت منذ العصر الوسيط بما مقداره 200 مليمترا سنويا وذلك راجع حسب هؤلاء الباحثين إلى تراجع الجبهة المدارية إلى الجنوب بمسافة قدرها 200 كلم، في حين يرى البعض الآخر أن الجفاف في المنطقة بدأ بشكل خطير منذ القرن 11م حيث بدأت كميات الأمطار منذ تلك الفترة في تناقص مستمر قرنا بعد قرن¹. كما ذكر Ch. Toupet أن الصحراء قد عرفت فترات من القحط وفترات ماطرة خلال العهد الوسيط². والناظر فيما تقدم يلاحظ تطابقا كبيرا بين مستوى التساقطات المطرية خلال الفترة الوسيطة وما عليه الحال في الفترة الراهنة حيث ظلت التساقطات المطرية في ولاته محدودة على مدى العام وذلك راجع إلى شدة تأثير المناخ الصحراوي القادم من الصحراء الكبرى على حساب المناخ السوداني الساحلي، وهو ما نتج عنه ارتفاع درجات الحرارة على مدى تسعة أشهر من العام في حين لا يتجاوز الفصل المطير ثلاثة أشهر، وهو ما أكدته الناني ولد الحسين أن بعض لمصادر العربية³ ذكرت أن المنطقة كانت تمر بسنوات قحط منذ بداية القرن 11هـ 11م وهو أمر غير مستغرب إذا عرفنا أن الصحراء بشكل عام يطبعها الجفاف وندرت الأمطار⁴، لذلك ظلت الأمطار متذبذبة في الكثير من الأحيان⁵

ب- مصادر المياه ووسائل الحصول عليها في ولاته ومحيطها تاريخيا:

كانت عملية الحصول على الماء عند أهل ولاته تعتمد أساسا على مصدرين هما المصادر الباطنية التي يتم الوصول إليها عن طريق حفر الآبار والاستفادة من المياه الجوفية، أو عن طريق المصادر

¹ - ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 29

² - أنظر حول هذا الموضوع

Ch. Toupet. Les conditions Climatiques et Vegetales et lamise en valeur de la région. In Tgdaoust. P.66

³ - ابن الأثير أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت، 1978، (ج8) ص 75

⁴ - ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، المرجع السابق، ص 30

⁵ - ولد الحسين الناني صحراء الملثمين، نفس المرجع، نفس الصفحة.

السطحية للماء التي تعتمد أساسا على التساقطات المطرية التي تغذي المسطحات المائية التي يعتمد عليها السكان، والحقيقة أن كلى هذين المصدرين يعتمد على التساقطات المطرية التي لها خصوصياتها في المجال الذي تنتمي إليه ولاته لذلك كانت مصادر المياه في ولاته عرضة للتقلبات المناخية. _ أما المياه السطحية فكانت تنحصر أساسا في الغدران التي كانت تنتج عن التساقطات المطرية خلال فترات الأمطار، وكانت الغدران عبارة عن خزانات مائية دائمة لأهل الصحراء ومثلت الملجأ الذي يلجئون إليه في الكثير من الأحيان وخلال فترات قلة الأمطار حيث كانت هذه الغدران المكان المناسب للشرب ولسقاية المواشي خاصة في المناطق التي لا توجد بها آبار، وحسب الناني ولد الحسين¹ فإن هذه الغدران كانت تحتفظ بالمياه طيلة فصل الخريف وحتى فصل الشتاء أحيانا، وربما تحتفظ بالماء طيلة أيام السنة وذلك تبعا لكميات الأمطار التي تشهدها المنطقة خلال فترة الخريف. _ أما بالنسبة للمياه الجوفية فهي المصدر الثاني للمياه في الصحراء حيث عمد أهل الصحراء إلى حفر آبار في المناطق التي توجد بها بحيرات جوفية، وقد تمكن سكان الصحراء منذ فترات تاريخية ليست بالقريبة من مراكمة الكثير من التجارب المتعلقة بالبحث عن مصادر المياه الجوفية وحفر الآبار وتطوير تقنية الحفاظ عليها كخزانات مائية دائمة لا غنى عنها، ومن الأمثلة على تلك التراكمات التي مثلت تجارب ميزت أهل الصحراء في بحثهم عن الماء ما ذكره الإدريسي² ... وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة...³ ومن الأمثلة على التجربة التي اكتسبها أهل الصحراء من تقنية حفر الآبار والاهتداء إلى مظان المياه الجوفية - وتحديد قرب أو عمق المياه- ما ذكره الناني ولد الحسين نقلا عن الإدريسي، وهو أن قافلة تجارية كانت في بحر من الرمال ونفذ ما لدى أصحابها من ماء وأشرفت على الهلاك لولا أن أحد سكان الصحراء كان مرافقا لهم حيث أخذ الصحراوي بعض الرمال في يده واشتمها ثم أمرهم بالحفر ففعلوا ووجدوا الماء على عمق لا يتجاوز نصف القامة.⁴ كما برع أهل الصحراء في صناعة الآبار وإعادة بناء ما تهدم منها فكلما تهدمت بئر حفروا بجانبها أخرى، يقول البكري: "... فتسير في هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس آبار يحفروها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن..."⁴.

1 - ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، ص 31

2 - ولد الحسين الناني، المرجع السابق، نقلا عن الإدريسي، ص 31

3 - ولد الحسين الناني، صحراء الملثمين، ص 32

4 - أبو عبيدة البكري، المسالك والممالك، (ج) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،

د، ت، ن.

تأثير الجفاف وتناقص الماء على ولاته ومحيطها:

من خلال الشهادات التي قدمها كتاب ومؤرخو الفترة الوسيطة يبدو جليا الصعوبات التي وجهها أهل ولاته فيما يتعلق بندرة الماء وصعوبة الظروف الطبيعية خلال تلك المرحلة، الشيء الذي نستنتج من خلاله أن جل الأزمات التي عرفت ولاته خلال تلك الفترات التاريخية لا يمكن أن تفصل في سياقها العام عن الماء الذي هو مصدر البقاء الأول للإنسان والحيوان، بالإضافة إلى دوره الكبير في التحكم في مناطق الانتجاع الذي هو السمة العامة والنشاط الأبرز لأهل الصحراء المستقرين وغير المستقرين لأن معاشهم اليومي وحياتهم مرتبطة ارتباطا مصيريا بما يمتلكون من مواشي، لذلك والحال هذه فنحن نرى أن أغلب الأزمات السياسية التي عرفت ولاته والاضطرابات الداخلية والخارجية التي عرفت كانت لصيقة إلى حد كبير بهذا المشكل، يبدو أن المشاكل الطبيعية المرتبطة بالمناخ والتي على رأسها مشكلة الماء لم تكن مرتبطة بالفترة الوسيطة فحسب بل استمر هذا الإشكال حتى فترات تاريخية متأخرة¹ وهو ما لاحظناه من خلال الحوليات المحلية والتقارير التي كتبها الأوروبيون وخاصة الفرنسيون منهم، كما أن الإشارة التي أوردها الحوليات الموريتانية حول صعوبة العيش في الصحراء بسبب الجفاف ونُدرة الماء وقلته يمكن أن تكون إخبارا صريحا عن الحالة الطبيعية في تلك الفترة ودورها في التأثير على حياة الناس وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية على الصحراء ودور ذلك في التأثير على البنية الاجتماعية الصحراوية ودورها في تراجع الحواضر الصحراوية الموريتانية خاصة ولاته، فهذه حوليات تيشيت خلال منتصف القرن 13هـ وتحديدًا 1240هـ قدمت تصورا عاما عن طبيعة المناخ خلال تلك الفترة "... وفي الموفى أربعين (...) سنة العرق..."² تعبيرا ارتفاع درجات الحرارة في الصحراء الموريتانية، كما تحدث ولد أمبوجة عن حادثة هلاك جماعة من الأقبال في شمال المنطقة، يقول ولد أمبوجة: "... وفي الخامس والعشرين عطش غزوة لغلل ببلاد الساحل"³ أي سنة 1225هـ - 1810م، وهي الحادثة التي وردت في حوليات تيشيت "... وفي الخامس

¹ _ Toupet Charles, Le Sahel, Nathan Université, op, cit, p, 103

² حوليات تيشيت، تحقيق، محمود بن لمرايط، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ، 1991\1992، ص 47

³ - ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، (ج2)، تحقيق محمد الأمين بن سيدي المختار، رسالة لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب، السنة الجامعية 1994 - 1995، ص 71

والعشرين عطش غز الأغلال...¹ 1225 هـ. وعن تفاصيل هذه الحادثة فقد قام الأغلال بغزو تجكانت حيث نهضوا من ولاته متجهين إلى تيندوف وبينها مع ولاته 25 رحلة وليس فيها إلا بئر واحد ردمها تجكانت فهلك جمهور جيش الأغلال بسبب العطش، ولعل ذكر وجود بئر واحدة بين تيندوف وولاته كفيلة بوصف حالة ندرة الماء في المنطقة ودورها في تراجع التعمير البشري في المجال الموريتاني بشكل عام ولنا أن نتصور الهاجس الذي كان ينتاب القوافل التجارية التي تعبر المنطقة الواقعة بين تيندوف وولاته بسبب بعد المسافة وشبه انعدام نقاط المياه، فبئر واحدة تعبر عن واقع مائي يكاد يكون منعدم، كما شهدت المنطقة بصفة عامة جفافا شديدا أهلك الحرث والنسل وكان ذلك سنة 1225 هـ حيث جاء في حوليات تيشيت ما نصه: "... وفي الخامس والعشرين (...) وهي سنة النجم المذنب (...) وهي سنة لعبارة..."² كما نجد عند ولد أمبوجة ذكرا لها "سنة لعبارة..." أو (سنة أم رقبة) التي شهدت الغلاء وكانت عبارة عن سنوات عِجاف من الجفاف الشديد، كما جاء في حوليات تيشيت إلا أن ولد أمبوجة اختلف مع صاحب حوليات تيشيت حول تحديد سنة وقوع الحادثة 1229 هـ 1814 م حيث أن صاحب حوليات تيشيت ذكر أنها سنة 1225 هـ، ونرى أن هذا الجفاف والشدة ربما استمر لعدة سنوات قد تكون ست سنوات أو أكثر يقول ولد أمبوجة: "... و في العام التاسع والعشرين وهي المشهورة بسنة لعبارة، وقد وقع فيها الغلاء المفرط ومعناها الشديدة ويسمى بعام أم رقبة..."³ كما ساهمت التقارير والرحلات الكشفية الأوروبية خاصة الفرنسية منها في التعريف بالحالة العامة لمناخ المنطقة، والناظر في هذه التقارير يلاحظ تطابقا بينها وبين ما أوردته المصادر الوسيطة والحوليات المحلية، فهذا محمدو أمين في كتابه المجتمع البيضاني نقلا عن الرحالة مولين Mollien: أن الرمال المتقلة الناتجة عن العواصف الهوجاء مثلت تحديا خطيرا ينضاف إلى المخاطر التي كانت تُحْدِقُ بسكان المنطقة وتهدد حياتهم بشكل يومي⁴. وقد وفق مولين في وصف هذه العواصف فهي أكبر تحد واجهه الإنسان في هذه المنطقة فهذه الرياح الهوجاء تساهم في ردم ينابيع المياه كما أنها تؤدي إلى ردم الآبار الموجودة في المنطقة وهو ما تسبب في هلاك الكثير من الناس، يضيف الدكتور محمدو أمين نقلا عن رني كي RENÉ CAILLIÉ " لقد قطعنا منذ الصباح ثلاثة وعشرين

¹ - حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 45

² - حوليات تيشيت، نفسه نفس الصفحة

³ ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، مرجع سابق، ص 72

⁴ - محمدو بن محمدن، المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001، ص 231

ميلا وما تزال أمامنا ثلاثة أميال قبل أن نصل إلى مخيم الأمير (...) والطريق التي نسلوها تتخللها كثبان رملية متحركة...¹ والغريب في الأمر أن رني كي هنا يتحدث عن منطقة لبراكنة القريبة من النهر وهي منطقة تشهد تساقطات مطرية لا بأس بها وهو ما يجعلنا أمام واقع مناخي صعب بالنسبة للمناطق الأخرى خاصة تلك الشرقية والشرقية الشمالية، ويضيف ابن أمين نقلا عن الضابط البحري ماج Mage الذي تحدث عن عواصف رملية تهب من الشرق وذلك منتصف القرن التاسع عشر وتحديدا يوم 12 ديسمبر 1859م وهو في طريقه إلى منطقة تكانت، يضيف كايي أن هذه العواصف المتوهجة (إرفي) تساهم في تجفيف الينابيع ما تقضي على الأعشاب الموجودة، يصف كايي هذا المشهد بقوله: "منذ ثلاثة أيام تعصف الرياح الشرقية بعنف وقد نفدت المراعي"² ولعله نفس المشهد يتكرر مع الرحالة سولي الذي كان في طريقه إلى آدرار كيف واجهته عاصفة هوجاء قوية محمل بكميات هائلة من الرمال، وكيف أنها أرغمته على ارتداء اللثام للاحتماء منها.

وخلاصة القول: فإن تناقص المياه الجوفية في الصحراء وتواصل موجات الجفاف لم تؤدي إلى انعدام الماء بشكل نهائي رغم ما أحدثته هذه الظاهرة من تطورات ستعرفها المنطقة خلال القرون اللاحقة ونهاية الفترة الوسيطة وحتى في الفترة الحديثة ليظل عامل ندرة الماء ملازم لتاريخ التراجع العمراني في المجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا حتى يوم الناس هذا كما هو الحال بالنسبة لولاياتها وغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية، ويرى الناني ولد الحسين أن الإنهاك الذي تعرضت له المياه الجوفية الصحراوية ليس فقط بفعل العوامل الطبيعية فحسب، بل يمكن أن تضاف له عوامل أخرى كدور القوافل التجارية العابرة للصحراء وما ساهمت به من استنزاف كبير لمياه الآبار خاصة أن القوافل التي كانت تعبر الصحراء تصل أحيانا إلى آلاف الجمال بالنسبة للقافلة الواحدة، ويمكن في هذا الإطار أن نذكر ما أورده سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم عن القافلة العامرة التي يبلغ عدد جمالها 32000 جمل والتي ذكر أنها انطلقت من شنقيط متجهة إلى زارا.³، وقد انعكس تراجع مستوى المياه الجوفية خلال تلك الفترة بشكل سلبي وانعكس على الآبار التي اختفى أغلبها وبعضها مازال سليما ولكنه خال من الماء بينما بعضها الآخر لم تبقى إلا آثاره في حين مازال بعضها يحتفظ بمياه على قلتها...

1 - المجتمع البيضاني، المرجع السابق، ص 232

2 - المجتمع البيضاني، نفسه، نفس الصفحة.

3 - ولد الحسين الناني، صحراء المثلثين، المرجع السابق، ص 33

لقد عانت الحواضر الصحراوية من شح المياه وتناقص منسوبها الجوفي للمياه فيها وبعد أن كانت تتوفر منازلها على آبار خاصة أصبح أهلها يردون لأبار تبعد عنهم مئات الأمتار في مجرى الأودية المجاورة لها كما حصل مع أودغست خلال العهد الوسيط،¹ ونرى أن نفس المشكل هو التحدي الذي عانت منه حواضر الجيل الثاني خاصة ولاته التي كانت ضحية للموقع الفلكي الحار والجاف والشديد التبخر الذي جعل الماء أكبر التحديات أمام سكانها وهو ما نعتبره سببا تمكن إضافته إلى عوامل ركودها و تراجعها مع الوقت حتى أضحت في الحالة التي هي عليها الآن .

2- ودان

أ- قساوة المناخ وندرة الماء ومتلازمة القرار والترحال في وادان:

وادان في الأصل جزء لا يتجزأ من الصحراء ومناخها من مناخها والإشكالات المناخية المطروحة دائما في الصحراء هي نفسها الإشكالات المطروحة في وادان، ولكن قبل أن نتحدث عن الإشكالات الوجودية التي كانت تطرحها ندرة الماء في الصحراء دائما وعلاقتها بودان ينبغي في البداية أن نتعرف على المناخ الواداني بشكل خاص، وكيف يمكن اعتبار مشكل ندرة الماء عاملا من عوامل تراجع هذه الحاضرة كغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية.

تتأثر وادان بالمناخ الصحراوي الذي يغطي المجال الذي تنتمي إليه وهو مناخ جاف يتميز باتساع المدى الحراري وانخفاض الرطوبة وندرة الأمطار التي تتسم بالتذبذب الحاد الذي تترتب عنه في الغالب ظروف طبيعية وبشرية مختلفة (قلة السكان - ندرة الماء وملوحته - صعوبة العيش والاستقرار - انتشار ظاهرة الترحال...) لذلك مناخ وادان هو مناخ قاري يتميز بالصيف الشديد الحرارة حيث تصل درجات حرارته قرابة 50° أحيانا، كما يتميز شتائه بالبرودة الشديدة التي قد تصل في بعض الفترات إلى قرابة 20° وهو ما يعبر عن المدى الحراري الشاسع للمنطقة.

أما بالنسبة للأمطار أو التساقطات المطرية فهي غير منتظمة في "الزمان والمكان..."² كما أنها فجائية في كثير من الأحيان، وتبدأ الفترة التي تشهد فيها وادان الأمطار من شهر أغسطس حتى شهر سبتمبر وهي الأشهر التي تعرف فيها الصحراء والمجال الموريتاني بشكل عام التساقطات المطرية، كما أن المنطقة قد تشهد بعض التساقطات المطرية خلال الفترة المعتدلة نتيجة لقدام موجات باردة من الشمال، وخلال فصل الصيف تشهد المنطقة بشكل عام بما في ذلك ودان رياحا

¹ - ولد الحسين الناني، صحراء المثلثين، المرجع السابق، ص 34

² - المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141هـ حتى نهاية القرن 18م، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، شعبة التاريخ والجغرافيا، السنة الدراسية، 1984\1985م. ص 9

شمالية شرقية ساخنة وحارة قادمة من أعماق الصحراء الكبرى محملة بالأتربة التي تتلف المحاصيل وتقضي على الأعشاب والمراعي .

أما عن الغطاء النباتي فهو في الأساس غطاء نباتي صحراوي بامتياز متكيف مع الحرارة المرتفعة والتساقطات المطرية المتذبذبة باستمرار . وأشجار وادان وأحوازا هي أشجار شوكية ذات جذور طويلة (الطلح - التمامات - أيكنين - بالإضافة إلى الحشائش الصحراوية المختلفة التي نذكر منها أم ركة - أسكاف ...)¹.

وأمام هذا الواقع المناخي الصحراوي الجاف والقليل التساقطات المطرية كان المخزون المائي لأهل وادان يعتمد على المخزون الجوفي الذي تحتفظ به الآبار والذي يعتبر أهم الخزانات المائية للشرب وسقي الحيوانات والزراعة، كما أن الغدران المائية التي تحتفظ بها بعض المناطق القريبة من وادان كانت معينة على بعض أنواع الزراعات في المنطقة، غير أن هذا الواقع المائي الصعب كان يجعل أهل وادان وغيرهم من سكان الحواضر الصحراوية الموريتانية أمام واقع مناخي صعب حتم عليهم التنقل من مكان لآخر خاصة الرحل الذين يحتاجون المياه لسقي مواشيهم كما يحتاجون للمراعي لتبقى هذه المواشي على قيد الحياة وهي التي تعتبر رأس المال بالنسبة لهم.

ومما ساعد على المخزون المائي في وادان أن السطح في هذا الموضع من آدرار يتميز بكونه غير مسامي² وقاعدته صلبة فهي أرضية تساعد على اختزان الماء الذي قد يكفي لفترات طويلة ويكون هاما خلال فترات الجفاف وندرة الأمطار (سنين القحط) ويعتمد عليها السكان سواء المستقرين أو الرحل، وبالنسبة للآبار الوادانية فهي تتباين من حيث العمق ومن منطقة إلى أخرى، فالمناطق القريبة من وادان تتميز بقرب مياهها من السطح كما هو الحال في بعض المناطق مثل (تنوشرت - مايعتك - اسعادة) غير أن هذه المنطقة لا تخلو من الملوحة التي تُنْقِصُ على المياه فكلما قلت التساقطات المطرية كلما زادت نسبة الملوحة في الماء، وكلما كانت السنوات الماطرة متوالية كلما

¹ - المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان، المرجع السابق، ص 9

² - غير مسامي: هو مفهوم من مفاهيم علوم التربة وهو يعبر عن تلك التربة الصلبة أو الصخرية التي لا توجد فيها منافذ وتحافظ على المياه التي تصل إليها: يعني أنها لا تمتص مياه الأمطار بقدر ما تحتفظ بها مشكلة بحيرات جوفية يستفيد منها البشر من خلال حفره للآبار التي تصل إلى تلك الخزانات الجوفية المليئة بالماء، عكس التلال والمرتفعات الرملية المسامية التي تمتص مياه الأمطار ولا تحتفظ بها وبالتالي تكون عرضة للتبخر أو التشتت بين الكتيبان الرملية.

كانت المياه أكثر عذوبة وأقل ملوحة، أما المناطق البعيد شيئا ما عن وادان فأبارها عميقة كما هو الحال في الباطن مثل (أدرك - ترزموت ...¹.

ب- المظاهر التاريخية للجفاف وندرة الماء وتأثيرها على وادان:

ظل هاجس ندرة الماء يفرض نفسه على سكان المجال الموريتاني بشكل عام وسكان القصور بشكل خاص (ولاته- وادان- شنقيط- تيشيت...) حيث قضى الكثير من سكان لقصور الموريتانية بسبب العطش بل واختفت بعض هذه الحواضر والقرى لعامل ندرة الماء الناتج عن قلة التساقطات المطرية وبسبب تراجع منسوب البحيرات الجوفية وطمر الكثير من الآبار والعيون بسبب زحف الرمال الناتج عن الجفاف بالإضافة إلى ارتفاع درجات الحرارة الناتج عن توهج الإشعاع الشمسي الذي يعتبر أهم العوامل وراء عملية التبخر التي ساهمت في تراجع المخزون المائي في المنطقة مع الوقت، لذلك طالت المسافات الفاصلة بين نقاط المياه من مكان إلى آخر خاصة في الأقاليم الشمالية حيث توجد وادان، وهو ما سيلاحظه المتتبع لأخبار الصحراء الموريتانية في المصادر العربية الوسيطة، وفي الحوليات وفي تقارير الرحلات الأوروبية عن المنطقة حيث لا تخلو من مآسي تتعلق بهلاك الكثير من الناس بسبب العطش، أو باختفاء قرى وظهور أخرى لعامل الماء، فهذا البكري الذي عاصر القرن الخامس هجري الثاني عشر ميلادي في معرض كلامه عن قبيلة لمتونة التي كانت مضاربها في المناطق الوسطى من الصحراء وهي المناطق التي من ضمنها وادان وأحوازها، يقول: "... وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرا ولا يعرفون خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن (...) وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، ويبقى الرجل منهم لا يشرب الماء، وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة..."²، بالإضافة إلى ما قدمته المصادر الوسيطة من معلومات وافرة حول حياة أهل الصحراء وجوهية المشكل المناخي وعلاقته بندرة الماء، فقد أسهبت الحوليات أيضا في وصف هذه الحالة كما جاء في حوليات تيشيت: "... وفي الثالث والثمانين ومائة وألف وفاة الناجم والشريف إمام الهدى، وألفظ الأمين الودانيين وهو عام بوزايلة ..."³ كان ذلك سنة 1183هـ، حين هلك خلق كثير بسبب العطش في مرتفع بوزايلة الواقع في ظهر تيشيت، و لم تكن حادثة بوزايلة فريدة من نوعها بل كانت تتكرر كثيرا من وقت لآخر مذكرة سكان القصور الموريتانية بضرورة الحيطة والحذر في التعامل مع عدو لا يرحم وهو الصحراء كما حصل مع غزي لقلال في الشمال الموريتاني الذي كان متجها من

¹ - المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان، المرجع السابق، ص 10

² - أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المصدر السابق، ص 358

³ - حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 32

ولاته نحو تيندوف، يقول ولد أمبوجة صاحب كتاب فتح الرب الغفور ما نصه: " وفي الخامس والعشرين عطش غزوة لغالل ببلاد الساحل"¹ أي سنة 1225هـ 1810م، ويعني ولد أمبوجة ببلاد الساحل المجال الواقع في الشمال الموريتاني ربما شمال أو شمال شرق منطقة وادان وشرق منطقة تيرس الزمور المعروفة حاليا وهي مجابات صحراوية رملية خطيرة وفتاكة، وهي الحادثة نفسها التي ذكرها صاحب حوليات تيشيت والمتعلقة بعطش غزي الأغلال، جاء في حوليات تيشيت "... وفي الخامس والعشرين عطش غز الأغلال..."² 1225هـ. وعن تفاصيل هذه الحادثة فقد قام الأغلال بغزو تجكانت حيث نهضوا من ولاته متجهين :إلى تيندوف وبينها مع ولاته 25 رحلة وليس فيها إلا بئر واحد ردمها تجكانت فهلك جمهور جيش الأغلال بسبب العطش، كما ذكر ولد أمبوجة في كتابه فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور أن ابن ملك السودان منع الزرع عن أهل تيشيت وغيرها من الحواضر "... وفي السابع والعشرين ... وهي سنة منع الزرع ، منعه (داع) مسكت فيها السودان الزرع عن أهل تيشيت..."³ والقصة هي أن ابن ملك السودان داع بن منز منع حمل الزرع من بلاده ومناطق نفوذه مما تسبب في مجاعة القصور والحواضر الموريتانية، وكان ذلك سنة 1227هـ ونحن نفهم من هذا الخبر أن أهل الصحراء الموريتانية على الأغلب لم تكن ظروفهم البيئية مواتية للزراعة ربما " لندرة الماء ولقلة التساقطات المطرية" مع وجود استثناءات محدودة في المناطق الرطبة في الجنوب والجنوب الغربي وفي بعض المناطق التي كانت توجد بها زراعات مطرية محدودة أو زراعات تحت واحات النخيل، لذلك أصبحوا ضحية للاحتكار الذي كانت تمارسه ضدهم بعض السلط السياسية المجاورة لهم من حين لآخر كما حصل خلال هذا القرن بعد أن منع السودانيون المواد الزراعية عنهم مما كانت له عواقب وخيم على سكان القصور لعل أرحمها تلك المجاعات التي كانت لها انعكاسات كارثية على أهل الصحراء عامة والحواضر خاصة.

لقد قدم الرحالة الفرنسيون معلومات هامة عن المحيط الطبيعي للمجال الصحراوي المعروف اليوم بموريتانيا وهو المجال الذي يعيش فيه البيضان ومن الملاحظ إجماع هؤلاء الرحالة على قساوة المنطقة وصعوبة مناخها وندرة الأمطار ونقاط الماء فيها، وفي هذا الإطار يذكر محمود أمين في كتابه المجتمع البيضاني نقلا عن رني كي " لقد قطعنا منذ الصباح ثلاثة وعشرين ميلا وما تزال أمامنا ثلاثة أميال قبل أن نصل إلى مخيم الأمير (...) والطريق التي نسلوها تتخللها كثبان رملية

¹ - ولد أمبوجة، فتح الرب الغفور، المصدر السابق، ص 71

² - حوليات تيشيت، المصدر السابق، ص 45

³ - أمبوجة، فتح الرب الغفور، نفسه، ص 72

متحركة"¹ والغريب في الأمر أن رني كي هنا يتحدث عن منطقة لبراكنة القريبة من النهر وهي منطقة تشهد تساقطات مطرية لا بأس بها وهو ما يجعلنا أمام واقع مناخي صعب بالنسبة للمناطق الأخرى خاصة المناطق الشرقية والشرقية الشمالية التي من ضمنها ودان، ويضيف ولد أمين نقلا عن الضابط البحري مانج الذي تحدث عن عواصف رملية تهب من الشرق وذلك منتصف القرن التاسع عشر وتحديدًا يوم 12 ديسمبر 1859 وهو في طريقه إلى منطقة تكانت، يضيف كايي أن هذه العواصف المتوهجة (إريفي) تساهم في تجفيف ينابيع الماء كما تقضي على الأعشاب الموجودة، ويصف كايي هذا المشهد بقوله: " منذ ثلاثة أيام تعصف الرياح الشرقية بعنف وقد نفدت المراعي"² ولعله نفس المشهد يتكرر مع الرحالة سولي الذي كان في طريقه إلى آدرار حينما واجهته عاصفة هوجاء قوية محملة بكميات هائلة من الرمال، وكيف أنها أرغمته على ارتداء اللثام للاحتماء منها.

ج- تأثير الجفاف وتناقص الماء على ودان ومحيطها:

تعرفنا في الصفحات السابقة على الطبيعة العامة لمناخ ودان الذي هو في الأصل جزء لا يتجزأ من المناخ الصحراوي العام الجاف والشديد الحرارة الذي انعكس منذ فترات قديمة على المستوى المائي في المنطقة والذي تمثل في الندرة والتذبذب من فترات لأخرى، لذلك ظلت وادان وعبر التاريخ تحت رحمة التقلبات المناخية الغير مستقرة والتي شهدت على فترات من القحط كانت لها انعكاسات على المنطقة بشكل عام بما في ذلك ودان وغيرها من الحواضر الصحراوية الموريتانية.

بعد ما قمنا به من مسالة لبعض ما أورده المصادر الوسيطة والحواليات المحلية وتقارير الرحلات الأجنبية، نرى أنه من المعقول والجلي الحديث عن تأثير واضح وعلاقة وطيدة بين المشكل المناخي المتمثل في الجفاف وندرة الماء وتراجع حاضرة ودان، وعليه فإننا نرى أن ظاهرة قلة السكان والتواضع العمراني وسيطرة مظاهر التراجع في حاضرة ودان، كما عليه الحال في الحواضر الصحراوية الموريتانية، ناتجة عن التناقص المستمر في المستوى المائي لآبار المنطقة نتيجة لفترات الجفاف التي كانت تضرب المنطقة من حين لآخر، والتي نتجت عنها سنين عجاف أهلكت الحرث والنسل وساهمت في نزوح الكثير من السكان الرحل عن هذه الحاضرة، وهو ما نرى أنه كان عاملا يضاف إلى العوامل الأخرى غير المباشرة التي أفرغت الحواضر من سكانها أو على الأقل حجمت من الكم الديمغرافي فيها، بل وربما كانت وراء فترات من انقطاع القوافل التجارية عنها نتيجة لطمر الآبار وتناقص منسوب الباقي منها كما أشارت إلى ذلك بعض المصادر والمراجع التي تناولت المشكل

1 - محمدو محمدن أمين، المجتمع البيضاني، المرجع السابق، ص 232

2 - نفس المرجع والصفحة،

المناخي في الصحراء بشكل عام، وبالتالي يكون مشكل ندرة الماء في وادان والصحراء بشكل عام عاملا من العوامل التي ساهمت في تراجع هذه الحاضرة خاصة وأن نقاط المياه تتناقص كلما اتجهنا من الصحراء نحو الجنوب وتقل كلما توغلنا في الصحراء شمالا وفي الشمال الشرقي من نفس المنطقة، وعليه يمكن تفسير هذه الظاهرة بتناقص مستوى التساقطات شمالا ووفرته جنوبا نسبيا، وهذه الحالة تنعكس على مستوى البحيرات الجوفية التي تغذي الآبار الموجودة في كلى الجانبين، وقد تأثرت المياه الجوفية في المنطقة الشمالية بفعل التغيرات المناخية التي عرفتتها المنطقة منذ القرن 11م، ولكن Serge Robert يرى أن مستوى الآبار لم كما أن التبخر الحاد لمياه المستنقعات أدى إلى الحد منها.¹ وقد انعكس تراجع مستوى المياه الجوفية خلال تلك الفترة بشكل سلبي على الآبار التي اختفى بعضها وبعضها مازال سليما ولكنه خال من الماء بينما بعضها الآخر لم تبقى إلا آثاره في حين مازال بعضها يحتفظ بمياه على قلتها، كما يمكن فهم إنشاء أهل وادان لبئر محصنة مخفية في القصر نوع من التعبير عن ندرة هذه المادة الغالية في حياة أهل وادان، ولئن كان الهاجس الأمني والخوف من الإغارات هو السبب إلا أنه من المشروع لنا أن نعتبر هذه الفكرة وهي إنشاء بئر محصنة ليس إلا تجسيد للواقع المقلق لدى أهل القصر من ندرة الماء الذي ظل يلزمهم منذ فترات طويلة كما هو الحال بالنسبة للحواضر العالمية الأخرى التي تحولت مع الوقت إلى مدن كبرى مع الوقت وذلك لاحتوائها على عوامل التطور والتمدد والتي من أهمها عنصر الماء الذي ظل عبر التاريخ عامل ركود وتراجع كما كان عامل ازدهار. إن عشرات الآبار إن لم نقل المئات لم تعد موجودة والمتبقي أصبح جافا بلا ماء، وهو ما نرى أنه مؤشر واضح على تراجع منسوب المياه الجوفية في المنطقة نتيجة لتتابع سنوات الجفاف من فترات لأخرى، وبالتالي فإن قلة الآبار انعكست بشكل واضح على قلة العمران وضعف قدرة وادان عن التوسع والتمدد بل ساهمت فترات الجفاف في الكثير من الأزمات التي كانت وراء نزوح الكثير من السكان.

الخاتمة:

وخلاصة القول: فإن ثنائية الجفاف وندرة الماء في المجال الصحراوي المعروف اليوم باسم موريتانيا كان لهما تأثير كبير على حياة سكان المنطقة في حلهم وترحالهم، كما كان لهما بالغ الأثر على مسار العمران البشري في المنطقة وحتى مسار الأحداث التاريخية في المجال بشكل عام، وإليهما يرد عجز أهل المنطقة عن تحقيق تراكم عمراني حضري، فكما كانت الظروف المناخية سببا في

¹ - ولد الحسين الناني نقلا عن: Serge Robert ; Archéologie ; p. 49

ظهور جيل من المراكز الحضرية التي عبرت عن مستويات من التعمير البشري في المنطقة فإن ظروفًا مناخية طارئة كانت وراء اختفاء العديد من هذه المراكز الحضرية وتراجع البقية وتحجيم أعدادها وأدوارها واستنزاف الكثير من سكانها بشكل جزئي أو كلي..

إن الظروف المناخية الصعبة المتمثلة في الجفاف ونذرة الماء التي كانت وراء موت الكثير من الحواضر مثل (أودغست - كمبي صالح - بانكلايين - مدوكن - أبير ...) هي نفسها الظروف التي أثرت على حاضرتي ولاته وودان وساهمت ولا تزال تساهم في تراجعهما المستمر، فعبّر تاريخ هاتين الحاضرتين كانت موجات الجفاف تراودهما من فترات لأخرى بل كادت أن تفرغهما من سكانهما في بعض الفترات، حيث كان موت تازخت نذير شؤم لولاته، وموت تينيكي نذير شؤم لودان، وإن كانت بعض الروايات المحلية ترى أن سبب اختفاء هاتين الحاضرتين راجع إلى عوامل أخرى فإنه من خلال الكثير من إشارات نفس الروايات تأكد لنا أن الجفاف و تناقص الماء كان أهم تلك العوامل وأشدّها فتكا بل كان هو مرد كل تلك العوامل الأخرى سواءً كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، لأن كل الأزمات في الصحراء مردها إلى الماء ولا شيء غير الماء كما شاهدنا في ولاته وودان.

البيبلوغرافيا المعتمدة

1- مصادر ومراجع بالعربية:

- ابن الأثير أبو الحسن علي ابن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، (ج8)، دار الفكر بيروت، 1978.
- أبو عبيدة البكري، المسالك والممالك، (ج) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د، ت، ن.
- أبو عبد الله البكري، المسالك والممالك، ج2، دار الغرب الإسلامي، 1992.
- أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، المسالك والممالك، ج2، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 2002.
- أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.
- أبو القاسم محمد بن حوقل، صورة الأرض، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1938.
- ابن حامد المختار، حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.
- ابن حامد المختار، موسوعة حياة موريتانيا (التاريخ السياسي) دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000.
- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، 1983.
- موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، 1970.

- ولد أيده أحمد مولود، موريتانيا العتيقة قصور ولاته وودان وتيشيت وشنقيط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2014.
- ولد السالم حماه الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، منشورات الزمن، 2007
- ولد أطوير الجنة، مقال منشور في مجلة الثقافة الموريتانية
- النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط أرض المنارة والربا عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحضرة) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987
- الحسن بن أحمد المهلب العيزي، المسالك والممالك، د. ت. ن.
- _ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م
- _ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ط2 دار صادر، بيروت، 1995م
- أحمد بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي، البلدان، المكتبة الحيدرية، النجف، العراق، 1957
- محمّد بن محمّد، المجتمع البيضاوي في القرن التاسع عشر قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001،
- ابن أمبوجة، سيدي عبد الله بن سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي، فتح الرب الغفور في تواريخ الدهور، (ج2)، تحقيق محمد الأمين بن سيدي المختار، رسالة لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة نواكشوط، كلية الآداب، السنة الجامعية 1994 - 1995.
- بشيري محمد، ولاته بطاقة تعريفية، نشرية تصدر عن مركز البحوث والدراسات الولائية، 2014
- حوليات تيشيت، تحقيق، محمّد بن لمرباط، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط، قسم التاريخ، 1991\1992
- محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ
- المراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1986م
- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، ج1، دار صادر، بيروت، 1995
- صفّي الدين عبد المؤمن عبد الحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، ج1، دار الجبل، بيروت 1954م
- _ شرح عقيدة الطالب جدو الغلاوي، الطالب أحمد ولد أطوير الجنة الحاجي الوداني، غير منشور.

- المصطفى بن احمدان، مساهمة في كتابة تاريخ وادان منذ تأسيسها 1141هـ حتى نهاية القرن 18م، مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، شعبة التاريخ والجغرافيا، السنة الدراسية، 1984 \ 1985م.
- مجموعة باحثين، تحولات المدينة الصحراوية الجزائرية، ج1، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الأغواط، الجزائر

مراجع أجنبية:

- _ Jacques-Meunié (D.), Cites Ancienne de Mauritanie, Provinces du Tagant et du Hodh, Librairie C, KLINCKSIECK, Paris, 1961,
- _ Ch. Toupet. Les conditions Climatiques et Végétales et la mise en valeur de la région. In Tadaoust.
- _ Mohamed Ould Khattar, Préhistoire du Sud-est Mauritanien, Le Dhar Tagant, Dossiers et Recherches, sur l'Afrique, NO2

الدبلوماسية الكنتية من خلال أحمد البكاي التنبكتي

البارة محمد الطالب

طالبة دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص المقال:

يعالج هذا المقال دبلوماسية الشيخ أحمد البكاي شيخ الطريقة القادرية في تنبكت والذي يعد من الشخصيات الهامة في القرن التاسع عشر وأكثرها انفتاحا على الآخر حيث كانت تجربته مع الانجليزي (آنريش بارث) خير مثال على تقبله للآخرين وروحه الدبلوماسية القوية بالإضافة إلى أن مكانته الروحية مكنته بوصفه زعيما للطريقة القادرية البكائية في تنبكت من أن يلعب أدوارا كبيرة في تغيير الخارطة السياسية والدينية في بلاد السودان عبر نفوذه السياسي والعسكري وتصديه الفكري لخصومها التيجانيين واستخدامه نوعا من الدبلوماسية الثقافية تجسد في المناقشات العلمية والفكرية على شكل مراسلات، وإن كان الصراع السياسي والعسكري بين الطرفين أدى في النهاية إلى زوال تلك الدول الإسلامية التي كانت قائمة في منطقة السودان الغربي بما فيها الزعامة القادرية الكنتية في تنبكت لتصبح الساحة مفتوحة للاستعمار الفرنسي الذي واكب انهيار تلك الدول ليبسط سيطرته على منطقة السودان الغربي، إلا أنه أنعش المنطقة ثقافيا وأثراها علميا حيث كانت فترة الشيخ أحمد البكاي واحدة من أخصب الفترات التي مرت بها المنطقة على الصعيدين العلمي والفكري.

مقدمة:

إن الحديث عن أي شخصية سواء كانت دينية أو علمية أوهما معا يتطلب التعريف بها أولا والشخصية التي هي في متناولنا هي شخصية من شخصيات القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي الشيخ سيد أحمد البكاي الكنتي التنبكتي وهو ابن الشيخ سيد محمد الخليفة ويعتبر الشيخ أحمد البكاي رابع مشايخ الزاوية الكنتية في تنبكت وله مكانته الثقافية والروحية الخاصة حيث اشتهر بمراسلاته الفقهية وسجلاته الفكرية في الذود عن طريقته البكائية القادرية والرد على مشايخ التيجانية كما تميز بانفتاحه على الأجانب وحمانيته لهم مما سبب له البعد من زملائه في الطريقة قبل نظرائه التيجانيين وهذا ما أثرى عصره الثقافي قبل أن يصل الحوار الفقهي بينه مع التيجانيين في السودان الغربي في مرحلة من المراحل إلى طريق مسدود ولجوء قادة الدول الإسلامية في منطقة السودان الغربي إلى

حروب مدمرة في صراع كان الحدث الأبرز الذي شهدته المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والذي كان الشيخ أحمد البكاي من أبرز شخصياته.

ثم من ناحية ثانية لا بد لاستجلاء صورة هذه الشخصية من الحديث عن الأدوار المهمة التي اضطلع بها سواء على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو تراثه العلمي، وتأثيره الروحي وإشعاعه الشخصي. ويمكن تلمس هذه الأدوار من خلال الأعمال التي قام بها مؤثراً ومتأثراً بمحيطه الاجتماعي والسياسي حتى بوأته المكانة المرموقة التي احتلها في عصره وحتى بعد وفاته، وكذلك من خلال آثاره العلمية التي بقيت شاهدة على علو كعبه خصوصاً في السجلات الفقهية والعقدية.

ويمكن القول بحق إنه من بين أكثر الشخصيات السياسية والروحية إشعاعاً في القرن التاسع عشر ميلادي في منطقة السودان الغربي، ومن أكثر الزعماء حنكة ودبلوماسية من خلال المفاوضات في حل الصراعات والرسائل المشبعة بالسياسة والعلوم والمعارف الدينية إلى الفاعلين والمؤثرين في محيطه سواء في الشمال أو في الجنوب، بل وحتى خصومه الذين لجأ إلى الحوار معهم ومحاولة إقناعهم قبل أن يضطر لخوض صراع عسكري مرير معهم.

المحور الأول: أحمد البكاي وتأثيره الثقافي والوحي

1- مولده ونشأته: هو الشيخ أحمد البكاي بن سيدي محمد الخليفة بن سيد المختار الكنتي ولد الشيخ أحمد البكاي بن الشيخ سيد محمد في العام 1803م في بلدة المبروك وهي ضاحية من ضواحي مدينة تنبكت¹ التاريخية تقع إلى الشمال الشرقي منها. وتنتمي أسرته إلى قبيلة كنت العربية الأصل. وحسب شجرة نسبه التي نشرها بول مارتي إضافة إلى ما كتبه الشيخ أحمد البكاي في بعض رسائله المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، فإن نسبه يقترن بالصحابي الجليل عقبة بن نافع قائد جيوش المسلمين التي فتحت الشمال الأفريقي في القرن السابع الميلادي².

وينتسب البكاي لقبيلة كنته العربية والتي تنتشر في معظم دول المغرب العربي وبلاد السودان الغربي، ولها مكانة تاريخية وسياسية وروحية ودينية وثقافية كبيرة.

¹ - مدينة من أشهر المدن في منطقة أزواد في الشمال المالي وهي مقر الزاوية الكنتية البكائية القادرية. (للاطلاع على تفاصيل أكثر عن المدينة التاريخية راجع: فيليكس ديبوا، تمبكت العجيبة، ترجمة: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2003.

² - عمر عبد الماجد: الشيخ أحمد البكاي والحراك السياسي والديني في بلاد السودان الأوسط والأدنى منتدى السودانز أونلاين أورغ.

يقول د. مصطفى بوضيف متحدثاً عن أدوار هذه القبيلة المرموقة في نشر الإسلام في غرب إفريقيا: "... على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة كان لها أثر عظيم في إسلام الزنوج في منطقة جنوب الصحراء الكبرى ومنطقة النيجر الوسطى وتلك هي قبيلة كونتا (كننتة) العربية التي هاجرت في القرن التاسع الهجري من مواطنها في اتوات إلى أطراف تنبكتو ..."¹

وقد ولد الشيخ سيد أحمد البكاي في مطلع القرنين الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي اللذان تميزا بتراجع قوة ونفوذ الخلافة العثمانية، وياوازي ذلك الانحطاط تعاضم قوة بريطانيا الاستعمارية، وهو أمر لم يفت شخصيتنا. كما سنرى. مما يدل على ذكائه الشديد واتساع اطلاعه وفهمه لمجريات الأحداث، كما تميزت هذه الفترة بترسخ قدم فرنسا الاستعمارية في شبه المنطقة؛ شمالاً في الجزائر بإعلانها الحماية عليها، وجنوباً بتعزيز وجودها في الضفة اليسرى لنهر السنغال، تمهيداً للأطماع التوسعية باتجاه منبع النهر وحتى مصب نهر النيجر.

وفي هذه الظروف شب سيد أحمد البكاي تحت رعاية والده الشيخ سيد محمد بن سيد المختار الكنتي كما تلقى العلم منذ نعومة أظافره على جده لأبيه الشيخ سيد المختار الكنتي الذي درس عليه الشيخ سيدي الكبير وقد خاطب أبناء مشايخه ومن ذلك أنه خاطب سواد العيون ونزهة القلوب والذهون البكاي وحثه على الصبر في قصيدته التي مطلعها

تكلف جميل الصبر في كل حين... وعوده نفساً اشتداد ولين

وكذلك في قصيدة أخرى مطلعها

عماد الصبر منك يا سواد.... عراه يصدم فرقتك انهداد

كما يخاطب سيد أحمد البكاي وحماد بن سيد اعمر في هذه الأبيات:

إن تملئ العين من إنسانها البادي وعين إنسانها البكا وحماد

فاملاً شذوقك من أسنى السلام على كلا الحبيبين في جمع وإفراد

وقل وخير مقال المرء أصدقه إنني إلى لقيكما صاد²

¹ - مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين، مطبعة دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، 1982، ج 2، ص: 269

² - هارون ابن الشيخ سيديا: الأخبار المدون في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، الشركة الإفريقية للطباعة والنشر، د، ن 1998، ص، ص 150-153.

وقد ترعرع الشيخ البكاي في هذا الوسط الأسري الذي تميز بالتربية الصوفية ونشر العلم والكرم ودمائة الخلق ولذلك كان، شأنه في ذلك شأن جميع آل الشيخ سيد المختار الكنتي، يحظى بالتقدير والعرفان من الجميع، يقول الشاعر محمد يحي بن أبوه اليعقوبي:¹

ألا إن آل الشيخ حلة ذا العصر وذلك لا يخفى عليك سنى الفجر
لهم رتب يعلو على النجم قدرها ويعلو على هام الفراق والنسر
وأخلاق صدق يقصر الوصف دونها رقاق كما يجري النسيم إذ يسري

انتقل الشيخ البكاي بعد وفاة جده الشيخ سيد المختار سنة 1811م إلى 1226هـ² إلى حلقة درس والده الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الذى آلت إليه خلافة السجادة القادرية البكائية إلا أن وفاة الشيخ سيد محمد المفاجئة في يونيو 1826م جعلت ابنه الأكبر الشيخ سيد المختار الصغير المعروف بالسلطان بادي يخلفه في قيادة الزاوية الكنتية في تنبكت والذي دامت خلافته 21 سنة حيث توفي عام 1847م وآلت الخلافة إلى الشيخ أحمد البكاي الشيء الذي أثار بعد عدة سنوات الكثير من المشكلات بين الشيخ أحمد البكاي وابن أخيه حمادي وقت كان فيه ابنه لا يزال طفلا صغيرا أدت إلى شق أسرة البكاي مما خلق من حمادي وأتباعه جماعة معارضة سياسيا ودينيا للشيخ أحمد البكاي ولكن رغم ذلك فقد استطاع الشيخ أحمد البكاي بشخصيته الكارزمية وتفقهه في الدين أن يسيطر سيطرة كاملة على خلافة السجادة القادرية في تنبكت بل وفي بلاد السودان الغربي والأوسط بصفة إجمالية خاصة في الفترة التي سبقت انتشار الطريقة التجانية على يد المجاهد التكروري الحاج عمر. والفضل يرجع كذلك إلى الشيخ أحمد البكاي في استعادة مدينة تنبكت لازدهارها الثقافي والاقتصادي الذي فقدته منذ انهيار امبراطورية السونغاي نهاية القرن السادس عشر الميلادي. وقد أكد ذلك الرحالة الألماني بارث الذي زار المدينة حينذاك بقوله إنه لم يرجع فقط لمدينة تنبكت أهميتها التجارية التي اشتهرت بها من قبل بل خلغ عليها أيضا الكثير من الأبهة والأهمية، فقد أصبحت في عهده مقرا لشيخ من مشايخ الدين في هذا الجزء من العالم لا يقل أهمية عن أهمية البابا بروما بالنسبة للأوروبيين. فقد امتدت سلطاته الروحية والسياسية لتشمل مناطق شاسعة من الغرب الأفريقي.

¹ - فردوس حناني وابن نعيمة عبد المجيد: محمد الخليفة الكنتي: شيخ الطريقة القادرية بغرب إفريقيا ومريديه، مقال منشور بمجلة الحضارة الإسلامية، العدد 29، رمضان 1437/ يونيو 2016

² البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله و د. أحمد جمال ولد الحسن. مركز نجيبويه ص: 272

2- تأثيره الثقافي والروحي: يرتبط معظم السكان في غرب إفريقيا برجال دين بواسطة إحدى الطريقة القادرية أو التيجانية بل إن هاتين الطريقتين لم تقتصر على الطبقة العامة في غرب إفريقيا وإنما اعتنقها الزعماء الأفارقة فقد اعتنق كل عثمان دان فوديو أمير بلاد الهوسا¹ وأحمد لوبو أمير ماسينا الطريقة القادرية بينما اعتنق التيجانية الحاج عمر الفوتي.

والطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ أبي صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المولود سنة 470هـ 1077م في قسبة من بلاد جيلان التي ينتسب إليها، والمتوفى ببغداد سنة 1165م 561هـ، وقد نبغ عبد القادر الجيلاني في العلم واشتهر بالزهد والورع، وله مؤلفات منها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، وفتوح الغيب.²

وورد القادرية الأصلي يتألف من:

- أستغفر الله مائة مرة
- سبحان الله مائة مرة
- اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه مائة مرة
- لا إله إلا الله الملك الحق المبين مائة مرة.

ولكل مذهب من مذاهب القادرية ورد خاص بها ينطلق أساسا من الورد الأصلي للشيخ عبد القادر الجيلاني. وقد لعبت الطريقة القادرية دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في إفريقيا الغربية ومنطقة السودان الغربي وموريتانيا والسنغال بالأخص، وإليها يعود كثير من الفضل في انتشار الإسلام في المنطقة، ويشهد على ذلك تخوف بعض الإداريين والكتاب الفرنسيين من انتشار هذه الطريقة وتهديدها للمصالح الاستعمارية، ومن ذلك ما كتب الميسو تائيلي: "إن الإسلام مدين في كل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق الصوفية هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على مصالح الأوروبيين".

¹ - سبعة أقاليم أبركها وأكرمها إقليم كاشنة، وتقع في المنطقة المحصورة بين الصحراء الكبرى شمالا وبين الربع الساحلية لخليج غينيا وهضبة حوصا جنوبا وبين برنو في الشرق وثنية نهر النيجر في الغرب حسين مراد: دولة كانم الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن 15م بحوث في الدراسات الإفريقية معهد البحوث الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1997، ص: 5. . غلادنت (شيخو أحمد سعيد): حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف، القاهرة، د، ت، ص: 40 . 50.

² - الكتبي: فوات الوفيات، ت محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السادة، القاهرة، مصر، 1951، د. ط. ج: 2، ص ص: 4، 5

ويقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا: " كانت هناك طرق صوفية تعمل على نشر الاسلام، ومن أبرز هذه الطرق الطريقة القادرية، فهي أوسع الطرق انتشارا في إفريقيا عموما وموريتانيا خصوصا..."¹.

وقد انتشرت الطريقة القادرية في إفريقيا الغربية منذ القرن الخامس عشر بواسطة المهاجرين الذين قدموا من أتوات² ثم انتقلوا إلى ولاته ثم تنبكت التي أصبحت مركزا رئيسيا لهم، كما انتشرت القادرية من السنغال حتى مصب نهر النيجر وقد نهضت مراكز رئيسية لتنظيم دعوة القادرية في كل من تمبكتو وكنكان وفوتا جالون وفي بلاد الماندنغو وكانت المدن تؤلف مراكز دينية وسط شعب وثني رحب بالقادرية التي من أشهر روادها محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت 909هـ) الذي اتجه بجهوده إلى وسط الصحراء³، وقد أخذ عنه في أتوات الشيخ سيد أعمر ولد الشيخ سيد أحمد البكاي في القرن العاشر الميلادي الذي أسس فرع القادرية البكاية الذي بلغ أوج مجده مع الشيخ سيد المختار الكنتي (1730-1811)⁴.

ويقول الشيخ سيد المختار الكنتي في الارشاد عن لقاء سيد أعمر الشيخ بالمغيلي: "(...) ثم حج، ورجع إلى المغرب، فجال في بلاد التكرور، فلقى بها الشيخ الجليل القطب الكامل سيد محمد بن عبد الكريم المغيلي، وقد أقبل من بلاد هوص⁵ يريد التكرور، وبلاد المغرب الأقصى برسم دعوى الناس إلى الاسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحمل الناس على السنة والحجاب..."⁶.

¹ محمد الأمين محمد فاضل، الطرق الصوفية في موريتانيا، والتعريف بمشايعها، مقال منشور بمجلة العلوم الإنسانية والطبيعية (المجلد 2، العدد 4) بتاريخ: ابريل 2021، ص، ص: 557. 559

² اتوات: يطلق هذا الإقليم على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراست جنوب الجزائر. وتحتل موقعا جغرافيا استراتيجيا ما بين شمال الصحراء والساحل الإفريقي المسمى ببلاد السودان (لمعرفة تفاصيل أكثر راجع: أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنثوري في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، جامعة أدرار، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية/الجزائر، 2012)

³ - إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك السودانية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914)، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1988، ص 34.

⁴ - علي بدوي علي سلمان: الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير، د، م، 2003، ص 46.

⁵ - هي نفسها الهوسا

⁶ - أج ولد محمد ولد أمينوه: دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 8 و 19 - مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية - العدد الثامن - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط، ص: 5

وبعد الشيخ سيد المختار تولى ابنه الشيخ سيد محمد قيادة الزاوية الكنتية البكاية في تنبكتو والذي اشتهر بدبلوماسيته وتوفي عام 1826م ليتولى ابنه الكبير الشيخ سيد المختار الصغير الذي توفي سنة 1847م ليكون الشيخ أحمد البكاي رابع زعيم روجي للزاوية الكنتية البكاية والذي دافع عن طريقته بالقلم والسيف. ويعتقد يحي بن البراء أن هذه الطريقة تنسب إلى سيدي أحمد البكاي بن سيد محمد الكنتي (ت 920هـ/ 1514م) الذي لا يعرف عنه "إلا رحلته السياحية التي قادته من الشمال (مشارف وادي نون الساقية الحمراء) إلى قرية ولاتة¹، فاستقر بها بعد أن رغب فيه أهلها، عندما رأوا من لائح بركته وصلاحه، فرضي بالمقام معهم، إلى أن توفي وقبره هنالك مزور مشهور"².

وقد عرفت القادرية الكنتية فيما يبدو فتورا بعد حقبة الرعيل الأول من المشايخ الكنتيين إلى أن تجددت على يد الشيخ سيد المختار الكنتي وهو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن سيد امير بن أحمد البكاي بن سيد محمد الكنتي ينتهي نسبه عند عقبة بن نافع الفهري المولود سنة 1142هـ والمتوفى سنة 1226م وصفه البرتلي صاحب فتح الشكور بـ "القطب الرباني والغوث الصمداني الولي الصالح ذو البركات الشهيرات شيخ الأشياخ..³

توسعت الزاوية القادرية المختارية كثيرا في عهد الشيخ سيد المختار الكنتي جد الشيخ أحمد البكاي فتجاوزت نطاق أزواد..⁴ ثم تأسست فروع أخرى لها في تنبكت ومانسا، وارتادها مختلف الطلبة من غرب إفريقيا، ومن بينهم أبناء العائلات الوثنية في سيغو..⁴

وعلى ما يبدو، فقد كان الشيخ سيد المختار يحمل فكرا إصلاحيا قوامه فكرة التجديد انطلاقا من الحديث النبوي: "إن الله يبعث على رأس كل مائة من يجدد لها أمر دينها"⁵ فقد كان الشيخ سيد المختار يعتقد أنه مجدد تلك المائة سنة. يقول في أبيات له:

رأيت المصطفى في النوم حقا فبشرني وأدنانني إليه

¹ - تقع إلى الشمال الغربي من تنبكت وتعني كلمة ولاتة الأرض المرتفعة وتسمى ببيرو انظر السعدي "الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي": تاريخ السودان، تحرير وتعليق: حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012، ص: 65

² - محمد الأمين محمد فاضل: الطرق الصوفية في موريتانيا والتعريف بمشايعها، مرجع سابق، ص: 561.

³ - البرتلي، مصدر سبق ذكره، ص: 272، 273، 274

⁴ - فردوس حناني وبن نعيمة عبد المجيد: مرجع سبق ذكره.

⁵ - أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (ت 270هـ) سنن أبي داود/ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الجزء الرابع، ص: 109/

كتاب الملاحم/ باب ما يذكر في قرن المائة: حديث رقم 4291

إلى أن يقول:

إنك المبعوث صدقا تجدد سنتي فاصبر عليه
وأقبل بالثناء على ضيوفي وأخبر أنهم من صفتيه
ولوح نحوهم ببهاء نور وأتحفهم بنظرة لحظتيه¹

ولم تقتصر شهرة الزاوية الكنتية على إفريقيا الغربية وحدها، بل كانت ذائعة الصيت في شمال إفريقيا وفي مجال اتراب البيضان، ولا أدل من ذلك على كثرة العلماء من شتى القبائل البيضانية الذين أخذوا الفقه وعلوم القرآن واللغة والأوراد القادرية من الشيخ سيد المختار وابنه الشيخ سيد محمد وحفيديه بادي والبكاي وفي مقدمتهم عثمان دان فوديو (ت 1817م) والشيخ غالي ولد محمد فال البصادي (ت 1825 م) والشيخ سيد أحمد بونعامه (ت 1840م)، الشيخ أحمد لوبوا لمانسي (ت 1844م)، والشيخ سيديا بن الهيبه الانتشائي الأبييري (ت 1868م)، والشيخ محمد المختار بن بلعش (ت 1870م) وغيرهم. وفي الشمال الإفريقي نجد العربي المشرفي² يشيد بالزاوية الكنتية ويثني على شيخها الشيخ سيد المختار وينظم سلسلة مشايخ الطريقة القادرية المختارية الكنتية من خمسة وستين بيتا مطلعها:

الحمد لله الذي من اتصل بحبله المتين لا بد وصل³

وقد سار كل من الشيخ سيد محمد الخليفة على نهج والده في ترسيخ دعائم الزاوية الكنتية خلال مدة خلافته من 1811م وحتى وفاته 1826م، ومن بعده ابنه الشيخ سيد المختار الصغير الملقب بادي من 1826م وحتى وفاته 1847م، ثم من بعدهم صاحبنا الشيخ سيد أحمد البكاي من 1847م وحتى وفاته في ساحة المعركة ببلدة سارا دبنا بإقليم ماسنة في 1865م.

وخلال الثماني عشرة سنة التي تولى فيها قيادة الزاوية القادرية المختارية خلف أحمد البكاي إرثا ثقافيا وفكريا غزيرا ومتنوعا وثروة علمية هائلة ذكر أحد الباحثين أنه يوجد منها ستون مؤلفا محفوظا بمركز أحمد باب التبكتي من ضمنها ثلاثين قصيدة، وعشرين مراسلة، وثلاثة أدعية، وثلاث فتاوى.. إلخ.⁴

¹ - د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره

² - العربي بن عبد القادر بن علي بن محمد بن مسعود المشرفي الحسني المولود حوالي 1805م بقرية الكرط بالجزائر والمتوفى 1895م في مدينة فاس بالمغرب بعد هجرته نتيجة احتلال فرنسا للجزائر، وقد ألف في الرد على أكنسوس في إطار السجال القادري التيجاني (انظر: هشام البقالي، مساهمة العربي المشرفي في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر، دراسة ببلوغرافية/ المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 16، العدد 1 جوان 2020، ص ص: 44 - 61)

³ - فردوس حناني وابن نعيمة عبد المجيد: مرجع سبق ذكره.

⁴ - د. أج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره، ص: 10

وصادفت بداية خلافة الشيخ أحمد البكاي للطريقة القادرية المختارّة ظهور الطريقة التيجانية في السودان وانتشارها ومحاولة اكتساح منافسيهم من القادرية وخضد شوكتهم بوصفهم أبرز منافسيهم، ولهذا تعين على الشيخ أحمد البكاي الذب عن طريقته بالقلم والسيف باعتباره الشيخ الأعلى للقادرية في المنطقة فدخل في سجالات مريرة مع التيجانية العمرية في السودان ومع التيجانيين في المغرب. وقد خاض الشيخ أحمد البكاي معركة شرسة ضد التيجانية في المغرب على المستوى الفكري لكيلا تتمدد إلى ما وراء الصحراء من خلال مراسلته لعلماء المغرب الذي انطلقت منه التيجانية ودخل معهم في مساجلات فقهية ودينية كبيرة غاية في الروعة والإتقان من ناحية علمية وفكرية، وكان من نتائجها المباشرة تنشيط الساحة الثقافية بالمنطقة.

وكنماذج من تلك المساجلات نقرأ في رسائله إلى علماء المغرب ومشايخه من أتباع القادرية مثل: الفقيه الصوفي الحاج محمد بن أحمد الصحراوي¹ ومقدم الزاوية المختارّة الحاج محمد عمور² وإمام الزاوية مولاي المدني العلوي الشريف والفقيه السيد عبد الخالق بن أحمد الدباغ المراكشي³ والفقيه السيد عبد السلام بن طاهر ونقيب الشرفاء مولاي عبد الكريم بن مولاي الطايح.

وهذه الرسالة مؤرخة بتمتم شوال سنة 1270هـ/ 1854م، وفيها حث كل هؤلاء العلماء على التماسك ونبذ الفرقة والخلاف والتمسك بالطريقة، ثم يذكر أنه قرأ للتيجانية الطريقة الصوفية الصاعدة في المغرب آنذاك وربما قصد كتاب جواهر المعاني⁴ فوجد فيه ذكرا لعبد القادر الجيلاني بل وتقديرا له حيث يسمونه "سلطان الأولياء" ويقول في تلك الرسالة ما نصه: " .. فتعجبت منهم وقلت سبحان الله كيف كتبوا بلا إرادة منهم فإنهم يدعون أن لا مثيل للتجاني في الأشياء ولا لأصحابه في الأصحاب .."⁵

¹ - سليل أسرة الصحراوي في مدينة المدية بالجزائر حوالي 70 كلم جنوب الجزائر، وقد تولى منصب حاكم المدينة في 1837م خلال حكم الأمير عبد القادر بن محي الدين (انظر: مدونة تاريخ مدينة تيطري والمدية مقال منشور بتاريخ: 08 نوفمبر 2021).

² - الشيخ محمد بن يعقوب المتوفى سنة 1888م ومؤسس الزاوية برباط الفتح (انظر مدونة مجمع الشيخ سيد المختار الكنتي: مقال بعنوان تاريخ القادرية في المغرب)

³ - من أعيان زاوية مراكش، وكان يقدم دروسا في الفقه والتصوف بالزاوية القادرية بمراكش (انظر الإعلام بمن حل بمراكش وأغصات من الإعلام: العباس بن أحمد السملالي، مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 8، ط 2، المطبعة الملكية - الرباط، 1993م، ص ص: 54-55)

⁴ - جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني كتاب ترجم فيه على حرازم بن العربي براده المغربي الفاسي (ت 1801 م) لشيخه أحمد التيجاني مؤسس الطريقة المنسوبة إليه.

⁵ - د. أ.ج ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره. ص: 12

وهو هنا يحاول أن يبرز التناقض الذي لاحظته لدى التيجانية في تقدير شيخ القادرية والإقرار له بالتقدم على التيجاني ومع ذلك اتبعوا الأخير!

ثم يواصل الشيخ البكاي في ثانيا رسالته مشعرا أتباع طريقته وكل مطلع على رسالته بأنه لم يبق من الطرق الصوفية طريق موصل بغير انقطاع إلا طريقة شيخه عبد القادر الجيلاني، خلافا لما حدث لبعض الطرق الأخرى التي انفرط عقدها وانقطعت أيما انقطاع، كما يذكرهم أنه هو خليفة الجيلاني مثلما كان أخوه وأبوه وجده من قبله ومن الواجب طاعته، وأنهم على طريق الحق البينة والواضحة. وفي سياق آخر، يحاول البكاي أن يفت في عضد التيجانيين عن طريق التأكيد على وهن حجتهم القائمة على الشائعات المغرضة التي يروجون لها، وهي فتح أبواب الرزق، والبركات على كل من انتسب للطريقة التيجانية، ويعد الشيخ البكاي الداخل في طريقة بلا شيخ، ولا سند لغرض الحصول على الرزق أنه مصاب بخبال.

والرسالة المذكورة تمتدح القادرية، وتثني عليها وعلى مآثرها، وشيخها عبد القادر الجيلاني حتى يتمكن هؤلاء المشايخ التي وجهت إليهم الرسالة من استقطاب التلاميذ لاتباع القادرية، ومن ناحية أخرى يهاجم الطريقة التيجانية عن طريق مقارنتها بطريقتهم القادرية، وعرض كل أفعال أهلها على ميزان الشرع والدين لإظهار افتقارهم إلى التأصيل ولقربهم من البدع المخالفة للسنة.

ولعل الأهداف من هذه الرسالة باختصار هو تعبئة مشايخ القادرية في المغرب وحثهم على التصدي للتيجانية بالحجة والبرهان ومقارعتهم لها فكريا حتى يحجموا من سرعة انتشارها الذي بدا مقلقا للبكاي وأخيه من قبله سيد المختار الصغير الملقب بادي.

وقد بلغت هذه الرسائل بين الشيخ البكاي في مجملها إلى عشرة رسائل¹ بينه وبين أركان طريقته في مراكز والرباط وفاس مع الشخصيات المتقدم ذكرهم.

وقد وجه الشيخ أحمد البكاي لاحقا رسالة في الرد على التيجانية أرسلها إلى (أكنسوس) شيخ التيجانية في مراكز وفيها اعتبر البكاي أن مزاعم التيجانية في الاجتهاد الشخصي وغيره إنما هي من قبيل البدع ولا يجوز الأخذ بها لأنها مخالفة للإسلام وقد أبدى في هذه الرسالة مدى التمكن الذي كان يتمتع به في الميدان الفقهي وكذلك براعته في الأسلوب اللغوي السلس والمتين لمراسلته مع أكنسوس سيدي محمد بن أحمد بن يونس بن مسعود أكنسوس السوسي) المولود سنة 1796م-1211هـ والمتوفى في 1877م-1294هـ السياسي والوزير السابق للمولى سليمان، وقد تفرغ أكنسوس للتصوف والعلم

¹ - انظر تقديم كتاب الجواب المسكت لأكنسوس على موقع المكتبة السكيرجية التيجانية: https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-post_31.html

واستقر بمراكش منذ سنة 1248هـ/ 1833م في حي المواسين مؤسسا زاويته هناك، وكانت مراكش قد عرفت كمدينة للتصوف حيث تنتشر بها زوايا لمختلف الطرق الصوفية لعل أوفرها حظا في المريدين القادرية، وبسبب موقعها الفريد كبوابة للمغرب على الصحراء والسودان الغربي توسعت التيجانية أكثر بعد أن وصلت لبلاد شنقيط عن طريق الشيخ محمد الحافظ وبلاد السودان عن طريق الحاج عمر الفوتي. وكان الشيخ البكاي في رسالته الأولى قد كتب إلى أتباع القادرية في المغرب أن يسلموا له على الشيخ أكنسوس مبديا قدرا كبيرا من التبجيل والتقدير له، قد كتب لهم ما نصه: "وسلموا مني على أختنا في الغيب المبرأ من العيب، الفقيه النبيه الصالح الراجح سيدي محمد أكنسوس، وأخبروه عني أنني أحبه في الله وأحبه أنتم، ولا يزدهكم فيه أنه على طريق التجاني، فإن أخوة الإسلام تجمعنا إنني أندبه إلى طريق الشيخ عبد القادر، وأخذ ورده"¹.

استهل الشيخ البكاي رسالته إلى أكنسوس بكل معاني التقدير والاحترام مبينا أن هذه الرسالة إنما هي للتبنيه، يقول في رسالته: "والعالم ربما كان واهما في علمه حتى إذا وجد منها تنبه لحينه وتقطن في يقينه..² وكان من أبرز الأفكار التي قدمها الشيخ البكاي في رسالته لأكنسوس:

- التيجانية ليست طريقة، ويعبر عن ذلك بقوله: " .. وأما الطريق الذي يذكر التجانيون فليست بطريق، وإنما ذكروا مواجدا ورقصا وهجرانا لأولياء الله تعالى هذا ما بلغني من طريقهم.." ولذلك فهو يربأ بالشيخ أكنسوس أن يتبع مثل هذه الطريق إلا أن يأخذ بورد التجاني ويعرضها على شيخ ماهر في التصوف ليرخص له في أخذه، ومن لم يعترض على شيخ في أخذ الأوراد عليه انتقاص.
- أكنسوس لم يأخذ عن التيجاني، فلم يلقيه ولم يلق أحد العلماء الثقات ممن لقيه، والعلماء لا يأخذون إلا من المصدر الموثوق أو بسند صحيح من الثقات، يقول: " .. ولا شيخ في طريقه، فإن لكل صاحب ورد طريقا تشاكل ورده وتناسبه ..".
- ينفي الشيخ البكاي عن الشيخ التجاني صفة التربية الصوفية وإن كان يعترف أنه من أهل الصلاح، وهو بالنسبة له يحبه ويجله.
- يؤكد أن منطلق خطابه ليس حسدا للتيجانيين أو شيخهم وإنما حب النصيحة وإسداء المعروف.

¹ - د. أ.ج. ولد محمد ولد أمينوه: مرجع سبق ذكره. ص: 13

² . نفس المرجع والصفحة.

▪ يشيد الشيخ البكاي بشيخه الجيلاني وينوه إلى فضله على سائر الأشياخ ويرجو أن يعدل أكنسوس إلى اتباعه بدل شيخه الذي لا يعرف له شيخ ويعتبر ذلك في أعراف الطرق الصوفية قادحا ومنفرا، فلا مجال للاجتهاد في مجال العقائد عنده.

▪ يختم الشيخ البكاي بإرشاد أكنسوس إلى أحد مشايخ القادرية في المغرب يدعى عبد الله بن الفاعم للكلام معه لعله يجد في ذلك عزوة عن شدة لهجة الرسالة وينظر تلميذ الشيخ البكاي عن قرب حتى يشفي الغليل.

يظهر من هذه الرسالة أن البكاي كان يطمح من خلال مبادرته هذه بمراسلة أكنسوس إلى في مركز من مراكز التيجانية بالمغرب إلى استمالة أحد أركان الطريقة التيجانية لإحداث شرخ بها، وبالتالي الحد من الانتشار السريع للتيجانية والذي يهدد القادرية.

لم يكن أكنسوس في بادئ الأمر يستعجل الرد على رسالة الشيخ البكاي، إلا أن بعض التيجانيين ألح عليه في الرد بسبب أن بعض القادرية في مراكش صاروا يخرجون إلى الأسواق وينادون فيها أن طريقتهم هي أحسن الطرق وأن من رجع عنها إلى التيجانية يخشى عليه من الكفر وهو ما شوش على المريدين حديثي العهد بالتيجانية¹، فألف أكنسوس كتابه في الرد على البكاي والدفاع عن الطريقة التيجانية أسماه الجواب المسكت.

وعموما لقد تميز منهج أكنسوس في الاعراض عن منتقدي التيجانية لأنه كان مقتنعا أن الجدل معهم بلا طائل، ومن خبرته في الرد على هؤلاء المنتقدين مثل: إدييج الكمليلي وأبي القاسم الزباني وأحمد بن عبد السلام البناني استطاع أكنسوس أن يحضر ردا قويا فكريا وعلميا على الشيخ البكاي حيث لم يكن بمقدور أكنسوس تجاهل عميد الطريقة القادرية في المنطقة نظرا لمكانته العلمية والروحية وهذا ما عبر عنه من خلال قوله: "وما كانت مقاولتنا وجوابنا للسيد أحمد البكاي حفيد الشيخ المختار الكنتي إلا لكونه عالما يفهم ما يقال له، ويعلم ما يقول، وقد قيل من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا"².

أرسل أكنسوس رده المسمى "الجواب المسكت في الرد على من تكلم في طريقة الإمام التجاني بلا تثبت" واعتمد فيها تكتيكا مضادا لما قام به الشيخ البكاي حيث رد بلباقة وجراءة واستمال البكاي إلى طريقة التيجانية، فقد أبان عن فرحه وسروره برسالة الشيخ البكاي الذي يعتبره من "أولئك الأئمة العالية الأقدار التي عليها المدار" معترفا بمكانته في علوم الظاهر والباطن ومقدار أسرته البارزة.

¹ - ربيع الرشيد: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء السابع منشور بتاريخ: 2022/04/09

² - ربيع الرشيد: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء الثالث، منشور بتاريخ: 2022/04/05

وبعد هذه المجاملات واللباقة أراد أكنسوس استمالة البكاي منطلقا من القاعدة الزروقية قائلا: "العلم بالمزية لا يبيح السكوت بعد تعين الحق إلا بعد العلم بحقيقة ما عليه الفاعل من غير شك ثم إن وقع إنكار فليس بقادح في واحد منهما كما قال الخضر لموسى عليه السلام" إلى أن يصل إلى أن "الساكت عن الحق كالمتكلم بالباطل وكاتم الشهادة كالشاهد بالزور ومحرم الحلال كمحلل الحرام". كما نبه الشيخ أكنسوس مراسله الشيخ البكاي إلى نصيحته تحولت إلى فضيحة وخرجت أصداؤها إلى أن وصلت السلطان الذي اعتبر الأمر فتنة بين طائفتين عظيمتين من المسلمين.

واستخدم الشيخ أكنسوس كل مهاراته التي درب عليها-أثناء ممارسته للسياسة وتوليه الوزارة-في الحجاج المنطقي في الرد على دعاوى الشيخ البكاي في رسالته اعترف اكنسوس ضمنا بمكانة أحمد البكاي في التربية والصلاح والإفتاء وفض النزاعات وشدذ الهمم باعتباره شيخ طريقة ذات أصول تاريخية عريقة. وفي مقام آخر وضمن رسالته الجوابية حاول أكنسوس إيضاح ما التبس على المنكرين والمنافحين للطريقة التجانية حيث رتب أجوبته بشكل منطقي وتسلسلي؛ ففي البداية حاول الدفاع على أحقية التجاني بالتربية الصوفية والقبطانية مؤكدا أنه لا يمكنه نقض علاقته بشيخه أحمد التجاني وأن انخراطه في الطريقة كان بناء على قناعاته الشخصية وارتياحه لمظانها وانسجامها مع ميوله وتطلعاته سيما وأنه قرأ لعدة طرق صوفية لم تسم على الطريقة التجانية، وأن قول البكاي بكون القادرية هي أحسن الطرق وأمثلها كلام مردود على صاحبه، ففي منظور أكنسوس، على المريد أن يرى شيخه أكمل الشيوخ، وطريقته أحسن الطرق حتى لا ينقطع المدد لأن من "يدخل في صحبة شيخ من المشايخ وهو يرى أن في الوجود مثل شيخه أو أكمل، يبقى متشوقا إلى ذلك الأكمل في اعتقاده فيراه شيخه متشوقا إليه فيقطع عنه المادة فلا يكون بالأول ولا بالثاني". وبالتالي فمبايعة الشيخ حسب أكنسوس هي مبايعة لله ونقضها هي نقض لعهد الله. ولإضفاء الشرعية على أقواله وظف محمد أكنسوس جهازا مفاهيميا انتقاه من كتب وأقوال كبار الصحابة والتابعين والمحدثين والمتصوفة كأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، وعبد العزيز الدباغ، وأبو العباس الشريشي، ومحي الدين بن عربي¹. لم يتوقف النقاش على هذا الحد بل رد الشيخ البكاي ردا مطولا بعنوان: "فتح القدوس في الرد على أكنسوس" فلم يستغ جرأته في الرد عليه بالطريقة التي ذكرنا ليؤكد أنه لم يقتنع بحججه التي ساق، والملاحظ في هذه المرة أن الشيخ البكاي كان جوابه مطولا وأكثر حدة أو عنفا من سابقه على الرغم من أنه أشاد بعلو كعب أكنسوس أدبا وعلماء، واستمر البكاي في إنكاره على التجاني أن يكون من

¹ - ربيع الرشدي: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء الخامس، منشور

شيوخ التربية، وحشد في هذه المرة من العلوم الفقهية لإنكار مقولات الشيخ التيجاني حتى أطنب في ذلك مظهرها مهارات ووسع باع كبير في مجال الفقه والقواعد الأصولية.

ولعل ذلك ما دعا الشيخ أكنسوس إلى الرد عليه بعنف في جوابه لرسالته "فتح القدوس" واعتمد على أمهات كتب المتصوفة عكس البكاي الذي اعتمد على أمهات كتب الفقه، وعلى أقوال كبار المتصوفة المعتدلين مثل: القاضي عياض والغزالي وابن عبد البر والزرقاني وابن رشد وزروق والشاطبي وغيرهم منبها الشيخ البكاي أن ما استشهد به في ثانيا رسالته لا يقدح في التيجانية خصوصا وإنما هو ضد التصوف والطرق الصوفية بما فيها القادرية، وختم رسالته أن جواب البكاي قد زاغ عن النصيحة وتحول إلى حسد مبيت ملمحا إلى مريديه باعتزال الحوار والجدال مع الشيخ أحمد البكاي وتلاميذه.¹ إن هذه الجهود الفكرية للشيخ البكاي وأسلافه جعلت الباحثين يعتبرون أن القادرية الكنتية لعبت دورا محوريا في الربط الثقافي بين المغرب العربي وإفريقيا الغربية.

وبعد أن فشلت كل مساعي الشيخ أحمد البكاي السلمية ومناوراته لإيقاف مداها الذي صار في تصور البكاي يهدد الأعناق والأرزاق بعد أن انطلق من فاس في بداية ق19م يخترق كل الآفاق ووجد البكاي نفسه مضطرا لاستخدام القوة ضد شيخ الطريقة التيجانية بالسودان الغربي.²

3- أحمد البكاي والمستكشف الإنجليزي هنريش بارث: كان الرحالة الجغرافي الألماني "هنريش بارث" ثالث أوروبي يصل إلى مدينة تمبكت سنة 1853م، فقد سبقه إليها الرحالة الإنجليزي "غوردون لاينغ" (Laing) الذي اغتيل في ظروف غامضة قرب تمبكت في 30 سبتمبر 1826، وسبقه كذلك الرحالة الفرنسي رينيه كاييه ("ولد كيجه النصراني" كما يقول الموريتانيون) الذي حل بتتبكت في 20 إبريل 1828 بعد أن مر بموريتانيا وأقام أشهرها بمنطقة البراكنة.

لقي "هنريش بارث"، أو عبد الكريم كما كان يسمى نفسه تخفيا وتخوفا، حفاوة وضيافة الشيخ سيدي أحمد البكاي بن الشيخ سيدي محمد الخليفة. وكانت رحلة "هنريش بارث" بتمويل بريطاني وبرعاية مباشرة من صاحبة الجلالة فكتوريا. وقد تحدث "بارث" باستفاضة عن حفاوة الشيخ الكنتي وضيافته في كتابه "رحلات ومشاهدات في شمال ووسط إفريقيا".

¹ - ربيع الرشيد: جريدة الاتحاد الاشتراكي: مقال بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي الجزء السابع، منشور بتاريخ: 2022/04/09

² - سيد أعمار ولد شيخنا: الفكر السياسي في غرب الصحراء، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الرباط، المملكة المغربية، 2012، ص، ص 207-208.

وحسب ما أورده الرحالة بارث الذي عرف الشيخ أحمد البكاي معرفة لصيقة فإن هذا الأخير كان يتمتع بذكاء حاد وحب استطلاع ينم عن شخص شغوف بالمعرفة فضلا عن حسن الخلق والروح المنفتحة نحو الآخر دون تمييز عرقي أو ديني.

وكان "بارث" أقام زمنا طويلا في الحضرة الكنتية مع الشيخ سيدي أحمد البكاي، وقد أعلن الأمير الفلاني أحمدو بن أحمد لبو، أمير ماسنة، هدر دم الرحالة الألماني فبعث رسالة إلى الشيخ سيدي أحمد البكاي يطالبه فيها بتصفيد "بارث" بالأغلال وإرساله إلى حمد الله عاصمة إمارة ماسنة، وفي تلك الرسالة حديث عن الحكم الفقهي في التعامل مع الذمي، وفيها كذلك نوع من التهديد للشيخ سيدي أحمد البكاي الذي آوى هذا النصراني الكافر. لكن يبدو أن الشيخ الكنتي أفقه من أن تقنعه آراء ابن أحمد لبو الفلاني، وأقوى من أن تخيفه تهديداته. فرد الشيخ البكاي مخاطبا أمير ماسنة ومتحدثا عن "بارث": "إنه جاء إلى تنبكت - كما قلت - بغير استئذان ولا إذن وذلك لا يبيح لك ماله ولا سجنه، فإني أنكر عليك أمرك بسجنه وطلبك لماله؛ فإنه حرام عليك وظلم له، فإنه إنما وصل في عهد المسلمين. فإن جميع قبائل النصارى في العهد والصلح إلا الموسكو¹. بلغني هذا العام أنهم حاربوا السلطان عبد المجيد. وعلى كل فإنك لست بإمام المسلمين، إنما إمام المسلمين مولاي عبد الرحمن أو السلطان عبد المجيد، فمولاي عبد الرحمن هو أهلها بالشرعية، والسلطان عبد المجيد هو الأكبر والأكثر في الملك. وإنما أنت أمير من حمد الله إلى تنبكت: مسيرة خمسة أيام في الأخصاص، في منتهى أرض السودان في المغرب. وإمام المسلمين في أرضهم لا يجوز لك أن تنقض أو تنقص عهده وصلحه مع النصارى وقد صالحهم وعاهدهم كل من السلطانين²".*

¹ - يقصد امبراطورية روسيا القيصرية اتي كانت في حالة حرب مع الدولة العثمانية فيما عرف بحرب القرم 1853 - 1856م والتي كان من نتائجها خسائر كبيرة للعثمانيين كفرض استقلال اليونان والحكم الذاتي لرومانيا وبلغاريا (انظر: موقع المعرفة: الحروب الروسية العثمانية (www.marefa.org))

² - وكالة الطواري الاخبارية: سيد أحمد ولد الأمير: رسوم لشخصيات موريتانية في القرن التاسع عشر. * المقصود بالسلطانين: سلطان المغرب: المولى عبد الرحمن وكانت جدة جده هي اخنائه منت بكار البركنية المغربية (عاصر البكاي ثلاثة سلاطين علويين هم المولى سليمان 1797 - 1822، والمولى عبد الرحمن: 1822 - 1859، والمولى محمد الرابع الذي يذكر أنه أخذ الورد القادري من الشيخ أحمد البكاي مباشرة: 1859 - 1873) والسلطان الآخر يقصد به السلطان العثماني: عبد المجيد الأول (وقد عاصر البكاي خمسة من السلاطين العثمانيين هم: السلطان سليم الثالث: 1789-1807 والسلطان مصطفى الرابع: 1807 - 1808 والسلطان: محمود الثاني: 1808 - 1839 والسلطان عبد المجيد الأول: 1839 - 1861 والسلطان عبد العزيز الأول: 1861-1876) انظر قائمة السلاطين

العثمانيين والعلويين في موقع المعرفة: www.marefa.org

وكغيره من المكتشفين الأوروبيين الذين أوفدتهم الجمعية الجغرافية البريطانية إلى القارة الأفريقية فقد درج بارث على الدعاية لبريطانيا واصفا إياها بالصدى والنصير للمسلمين في العالم وهو نفس النهج الذى سار عليه من قبل المكتشف البريطاني كلابرتون إبان زيارته للشيخ محمد الأمين الكانمي في برنو العام 1824 إذ ظل هذا يؤكد لحاكم دولة برنو فضل بريطانيا في إنقاذ مصر من الهيمنة الفرنسية لهذا فقد أفلح المكتشف بارث هو الآخر في التأثير علي الشيخ أحمد البكاي جعله يعتبر الانجليز أهم أصدقاء المسلمين وأن الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا حينذاك أقوى الحكام الأوروبيين في زمانها الشيء الذي جعله يرسل إليها عدة رسائل عن طريق المكتشف بارث من أجل التحية والمجاملة وإبداء الرغبة في خلق علاقات صداقة بين بلاده وبريطانيا. ليس ذلك فحسب، بل قام في العام 1862 بإرسال وفد من خيرة سفرائه إلى ملكة بريطانيا يطلب معاونتها العسكرية في التصدي لجيوش الحاج عمر الفتوي التجاني التي أخذت تهدد بصورة مباشرة إمبراطورية ماسينا الفولانية، فالصراع الديني الذي استمر بين الطريقة التيجانية الآخذة حينذاك في الانتشار في بلاد السودان الغربي والأوسط تحت قيادة الحاج عمر الفتوي التجاني هو السبب في محاولة الاستجداد بالملكة فكتوريا لاسيما وأن قادة إمبراطورية ماسينا الفولانية كانوا من اتباع الطريقة القادرية البكائية كما ذكرنا من قبل، وأن العون العسكري البريطاني في حال الحصول عليه، سوف يمكنه من ترسيخ قواعد نفوذه السياسي والعسكري في كل منطقة منحني نهر النيجر التي أخذ الزحف التكروري التيجاني المتصاعد يشكل خطرا داهما بالنسبة لها. غير أن ملكة بريطانيا لم تستجب لمناشدة الشيخ أحمد البكاي ربما بسبب عدم رغبة بريطانيا حينذاك في الدخول في مواجهات مباشرة أو غير مباشرة مع المطامع الفرنسية في تلك المنطقة، لاسيما وأن فرنسا كان لها وجود منذ القرن السابع عشر في مستعمرة سانت لويس بالسنغال وقد كانت حينذاك في مواجهات شرسة مع جيوش الحاج عمر الفتوي في أعالي نهر السنغال¹.

المحور الثاني: أحمد البكاي والصدام مع الحاج عمر الفتوي.

1- استيلاء الحاج عمر على ماسينا حليف أحمد البكاي

لقد تسبب الحاج عمر بحربه على الوثنية وهجومه على سيغو في صراع بينه والدولة الإسلامية الموجودة في ماسينا رغم أن الحاج عمر كان يأمل في انضمام الماسينا إليه في حربه ضد البمباري الوثنيين². حيث كان لاعتناقه التيجانية أثر كبير في حياته فقد كانت هذه الطريقة ترى ضرورة

¹ - عمر عبد الماجد: الشيخ أحمد البكاي والحراك السياسي والديني في السودان الأوسط والأدنى مقال سبق ذكره.

² - في جي دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتعليق: يوسف ناصر، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية،

1982، ص: 301.

استخدام القوة والعنف ضد الوثنيين لإجبارهم على الدخول في الدين الإسلامي ولذلك استمر الحاج عمر في شن حروبه ضد البمبارى الوثنيين¹.

رفض حفيد أحمد لوبو المعروف بأحمد الثالث الذي حكم ما بين (1852-1862) طلب الحاج عمر لأنه يعتبر أن مملكة سيغو تحت نفوذ دولة ماسينا الإسلامية وأن تحويلها إلى الإسلام ينحصر في عمله (أحمد الثالث) وحده، وقد أدى هذا الموقف إلى صراع سياسي يغذيه وجود عنصر مذهبي بين التيجانية العمرية من جهة والقادرية ممثلة في شخص أحمد الثالث فبعد أن استولى الحاج عمر على سيغو لم يعد أمامه خيار إلا إرسال قواته ضد الماسنيين² خاصة بعدما فر ملك البمبارى وتيلا من سيغو إلى دولة الماسينا وطلب من أميرها أحمد لوبو (أحمد الثالث) أن يحميه من خصمه الحاج عمر وأخبره بأنه اعتنق الإسلام، لكن الحاج عمر أرسل في طلب وتيلا ودعا أمير ماسينا إلى تسليمه مستكراً مزاعمه بأنه يدين بالإسلام وأصر بأنه وثني العقيدة والممارسة ولا يستحق الاحتماء بالجوار الإسلامي لكن أحمد الثالث أصر على رفضه خاصة بعد أن جمع علماء ماسينا واستفتاهم في شأنه واحتدم الخلاف الفكري بين الطرفين الفوتي والماسنوي حيث جرى تبادل للرسائل بينهما وحاول كل طرف الدفاع عن وجهة نظره شرعياً لكن حسم الخلاف كان في النهاية بقوة السلاح حيث كان الجيش العمري بقيادة ألفا عمر متحالفاً مع بعض القبائل كدوغون وبوزو وغيرها أما الجيش الماسنوي بقيادة لوبو عم أمير ماسينا أحمد الثالث فكان متحالفاً مع البمبارى وقبيلة كنتة تتبكت بقيادة أحمد البكاي وقد التقى الجيشان عند مكان يعرف بجغرابي بالقرب من مجرى نهر بانى وهزم الجيش العمري جيش ماسينا و دخل عاصمتها حمد الله في العاشر من شوال (1278هـ-1862م) بعد أن قتل أميرها أحمد الثالث الذي أصيب في المعركة³.

2- موقف أحمد البكاي من الاستيلاء على ماسينا

بعد القضاء على أحمد الثالث حليف أحمد الكنتي المعروف بالبكاي زعيم الطريقة البكاية في تتبكت - الذي كان يحثه على محاربة الحاج عمر وجه أحمد البكاي انتقادات لاذعة للحاج عمر حيث اتهمه بأنه رجل عنيد ودجال يريد فقط بناء إمبراطورية⁴.

¹ - جهاد الممالك السودانية مرجع سبق ذكره، ص 51.

² - تاريخ غرب إفريقيا: مصدر سبق ذكره، ص 302.

³ - عثمان ابريما بارى: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي دار الأمين، القاهرة جمهورية مصر العربية، 2000، ص ص 228، 227.

⁴ - عبد الله عبد عبد الرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص 77.

وبعث أحمد البكاي برسالة استتكار إلى الحاج عمر لما حدث منه وذكره بعدم جواز اعتبار عائلة أحمد الثالث وخاصة زوجته أسرى في يده¹.

وفي نظر أحمد البكاي الكنتي أن حرب الحاج عمر ضد السودان كانت خاطئة من أوجه عدة من بينها أن الحاج عمر توسع شرقا وترك الفرنسيين خلف ظهره في سان لويس بالسنگال لذلك كان من الأفضل له مواجهة الجيوب الاستعمارية بدل إدخال السودان في حروب مدمرة، وثانيا كان على الحاج عمر أن لا ينقل الحرب من فتح الأقاليم الوثنية -إن صح أنها وثنية ولا تخضع لنفوذ دولة إسلامية- إلى هجوم على دولة ماسينا الإسلامية واجتياحها وإعدام أميرها وعدد من قادتها البارزين. وإلى جانب العوامل السابقة كان أحمد البكاي يخشى من الأجندة الطائفية التيجانية في مشروع الحاج عمر التي لا تخلو حسب وجهة نظره من إكراه وفتنة للناس في دينهم².

3- الصدام بين أحمد البكاي والحاج عمر الفوتي

بعد أن سيطر الحاج عمر على العاصمة الماسينية حمد الله قام بعد ذلك بشهور بإرسال عامله إلى تنبكت لاستحصال الضرائب التي كان أهلها يدفعونها لإمارة ماسينا سنويا، لكن رفض أحمد البكاي وأهل إمارة تنبكت لاستجابة لهذا المطلب جعل الحاج عمر الفوتي يرسل إليهم كتيبة بقيادة قائد جيشه ألفا عمر لكن أحمد البكاي غادر المدينة (تنبكت).

ولجأ إلى أماكن نائية في الصحراء ليستجد بقبائل الطوارق الصحراوية فاحتل الجيش العمري المدينة في شهر ذي القعدة 1279هـ - 1863م، لكن أحمد البكاي عاد بعد ذلك إلى تنبكت ومعه جيش من الطوارق وقتلوا قائد الكتيبة العمرية ألفا عمر في مكان يدعى ماني قرب بحيرة ديبو وأسروا آخرين وعاد الباقيون إلى مدينة حمد الله العاصمة الجديدة للدولة العمرية³.

لم يكتف أحمد البكاي بتلك العملية التي راح ضحيتها قائد جيش الحاج عمر بل بدأ يخطط لثورة فلانية في ماسينا ضد الحاج عمر وقد جاءت الفرصة المناسبة لذلك عند ما هرب بالوبو⁴ وأخاه عبد السلام من السجن في حمد الله حيث كانا محتجزين من طرف الحاج عمر وقد ساعدا أحمد البكاي في تأسيس حلف جديد في ماسينا التي هبت في ثورة عارمة ضد الحاج عمر في عام 1863م واشترك في هذا التمرد البمباري والفلان المسلمون ولم يعد للحاج عمر أي حلفاء في المنطقة فتحصن في

¹ - جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي مرجع سبق ذكره، ص 228.

² - الفكر السياسي في غرب الصحراء، مرجع سبق ذكره، ص 207.

³ - جذور الحضارة الإفريقية في الغرب الإفريقي: مرجع سبق ذكره، ص 229.

⁴ - بالوبو: هو قائد جيش أمير ماسينا أحمد الثالث وعمه

حمد الله في الوقت الذي تحرك فيه أهالي تنبكت بقيادة أحمد البكاي لحصار المدينة التي شيد الحاج عمر أسوارا ضخمة حولها وحاصر المدينة تحالف القادريين في ماسينا وفرقة أحمد البكاي من تنبكت ومعه بالوبو واستمر الحصار حوالي تسعة شهور وطول هذه الفترة كان ابن الحاج عمر غائبا في سيغو يحاول القضاء على تمرد هناك وأثناء الحصار أرسل ابن أخيه أحمد التيجاني في 21 يناير 1864م ليطلب مساعدات الفلاني لكنه لم يتمكن من العودة إلى المينة المحاصرة وعند ما أدرك الحاج عمر أن مؤونة الطعام لا تكفي إلا لفترة قليلة وأنه فقد الأمل في المساعدات الخارجية قرر اتباع الطريق الخطر الذي لا سبيل غيره ألا وهو محاولة اختراق الجيش المحاصر وفي 7 فبراير 1864م نجح الحاج عمر في خطته لكن عناصر من الجيش المحاصر من اتباع أحمد البكاي كانت تتعقبه حتى وصل قرية جورو حيث حاصروه في أحد الكهوف قربها وأضرموا النار في مداخله حتى توفي هو ومن معه فيه اختناقاً في يوم الجمعة 3 رمضان 1280هـ - 1864م¹.

و بعد هذا الحدث البارز لم يعمر الشيخ أحمد البكاي الكنتي التنبكتوي طويلا حيث توفي في شهر رمضان للسنة 1281هـ - 1865م أي بعد مرور سنة واحدة على وفاة الحاج عمر الفتوي².

خاتمة

من أكثر الملاحظات والاستنتاجات أهمية والتي استوقفتني في نهاية هذا البحث ما يلي:

- طبيعة شخصية أحمد البكاي والمنفتحة على الآخر والتي تتمثل في معاملته الحسنة للإنجليزي بارث وكانت إشكالية حماية الذمي أبرز أوجهها والتي ربما يكون مردها الانفتاح والتسامح الذي تميزت به الطريقة القادرية.
- أسبقية الطريقة القادرية في الانتشار في منطقة السودان الغربي والتأقلم مع مجتمعاتها الوثنية وقوة رد فعل الطريقة القادرية على التيجانية الدخيلة والآخذة في الانتشار.
- أن كلا من زعماء القادرية والتيجانية رجع إلى القوى الغربية لطلب الدعم فكما طلب الحاج عمر من الفرنسيين تسليحه في حربه ضد الوثنيين طلب أحمد البكاي من فكتوريا ملكة بريطانيا تسليحه ضد الحاج عمر الذي أصبح نفوذه المتزايد يشكل خطر عليه وعلى طريقته في السودان الغربي.
- أن كل القوى الغربية سواء الفرنسية أو الانجليزية رفضت تسليح القادة التيجانيين والقادريين في حروبهم ضد بعضهم وإن كانت تلك القوى خاصة فرنسا هي المستفيد الأكبر من تلك

¹ - المسلمون والاستعمار الأوربي لإفريقيا: مرجع سبق ذكره، ص 78

² - جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي مرجع سبق ذكره، ص 232.

الحروب التي دمرت الدول الإسلامية في السودان الغربي بحيث أصبح لمطامعها الاستعمارية التوسعية سبيل أكثر تمهيدا.

● أن الشيخ أحمد البكاي كان بعيد النظر فيما يخص التعامل مع خصومه الذين يهددون طريقته ونفوذه السياسي والروحي فكان يلجأ إلى النقاش معهم في كل المسائل الخلافية مستهدفا إقناعهم واستمالتهم قبل الدخول في أي صراع، وبالتالي كان يتمتع بحس دبلوماسي محنك اكتسبه من إرث أسلافه وفترته الطويلة كنائب لخليفة القادرية أخيه الشيخ سيد المختار الصغير (بادي) والتي دامت أكثر من عشرين سنة.

● أن جل المراجع التي سمح لي بها الوقت القصير والجهد القليل بالاطلاع عليها والتي تتطرق للشيخ أحمد البكاي تركز بشكل كامل إما على حروبه مع الحاج عمر أو مساجلاته مع التيجانية وشيخها أكنسوس وهو ما يعني حسب اعتقادي أهمية تلك الحروب لدى الباحثين وتلك المساجلات.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

. البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق: فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور. تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله و د. أحمد جمال ولد الحسن. مركز نجيبويه .
السعدي" الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي": تاريخ السودان، تحرير وتعليق: حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012.
. العباس بن أحمد السملالي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغامت من الأعلام: مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، الجزء 8، ط 2، المطبعة الملكية - الرباط، 1993م
. الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السادة، القاهرة، د. ط. ج: 2، 1951
. سنن أبي داود/ المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، الجزء الرابع.

ثانيا: المراجع:

1. المؤلفات العربية:

- إلهام محمد علي ذهني: جهاد الممالك السودانية في غرب إفريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914)، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1988
- حسين مراد: دولة كانم الإسلامية تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن 15م بحوث في الدراسات الإفريقية معهد البحوث الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1997

- سيد أعر ولد شيخنا: الفكر السياسي في غرب الصحراء، المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية الرباط، المملكة المغربية، 2012.
- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة، الكويت، 1990.
- علي بدوي علي سلمان: الطريقة القادرية والاستعمار الفرنسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير، د، م، 2003.
- مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، مطبعة دار النشر المغربية، الطبعة الأولى، ج2، 1982.
- هارون ابن الشيخ سيديا: الأخبار المدون في أخبار الموريتانيين ومن جاورهم من النواحي المحيطة بهم، الشركة الإفريقية للطباعة والنشر، د، ن، 1998.

2. المؤلفات الإفريقية:

- عثمان ابريما باري: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي دار الأمين، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2000.
- غلادنت (شيخو أحمد سعيد): حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف، القاهرة، د، ت.

3. المؤلفات الغربية المترجمة:

- . في جي دي: تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة وتعليق يوسف ناصر دار المعارف القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1982
- . فيليكس ديبوا، تمبكت العجبية، ترجمة: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل، الطبعة الأولى 2003، المشروع القومي للترجمة.

4. المقالات المنشورة وغير المنشورة

- . أج ولد محمد ولد أمينوه: دور القادرية الكنتية في التبادل الثقافي بين بلاد شنقيط والمغرب خلال القرنين 8 و19- مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية - العدد الثامن - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط
- أحمد بوسعيد، الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنثوري في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام، جامعة أدرار، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية/ الجزائر، 2012.
- محمد الأمين محمد فاضل، الطرق الصوفية في موريتانيا، والتعريف بمشايعها، مقال منشور بمجلة العلوم الإنسانية والطبيعية (المجلد 2، العدد 4) بتاريخ: ابريل 2021

- ربيع الرشيدى: سلسلة مقالات بعنوان: بين محمد أكنسوس والبكاي، جريدة الاتحاد الاشتراكي، ما

بين 2022/24/02 و 2022/04/9

. فردوس حناني وابن نعيمة عبد المجيد: محمد الخليفة الكنتي: شيخ الطريقة القادرية بغرب إفريقيا

ومريديه، مقال منشور بمجلة الحضارة الإسلامية، العدد 29، رمضان 1437/ يونيو 2016

- هشام البقالي، مساهمة العربي المشرفي في الحياة الفكرية لمغرب القرن التاسع عشر، دراسة

ببلوغرافية/ المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 16، العدد 1 جوان 2020

5- المدونات والمواقع الالكترونية:

- مدونة مجمع الشيخ سيد المختار الكنتي: مقال بعنوان تاريخ القادرية في المغرب على الرابط:

http://elkintyorg.blogspot.com/2012/07/blog-post_23.html

- موقع المكتبة السكيرجية التيجانية: [https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-](https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-post_31.html)

[post_31.html](https://www.library-skiredj.com/2021/07/blog-post_31.html)

- موقع المعرفة: الحروب الروسية العثمانية www.marefa.org

- وكالة الطواري الإخبارية: سيد أحمد ولد الأمير: رسوم لشخصيات موريتانية في القرن التاسع عشر.

- مدونة تاريخ مدينة تيطري والمدية على الرابط:

[https://web.facebook.com/103169235014458/photos/a.103194325011949/28948](https://web.facebook.com/103169235014458/photos/a.103194325011949/289486379716075/?type=3&locale=ms_MY&rdc=1&rdr)

[6379716075/?type=3&locale=ms_MY&rdc=1&rdr](https://web.facebook.com/103169235014458/photos/a.103194325011949/289486379716075/?type=3&locale=ms_MY&rdc=1&rdr)

منطقة الساحل والصحراء

عوامل التأزيم ومعوقات الاستقرار

سيدي محمد ولد حديذ

طالب دكتوراه: مكونة التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

حدد معهد السلام العالمي (IPI) في تقريره الصادر بتاريخ يناير 2013 تحت عنوان "مالي والساحل والصحراء: من إدارة الأزمة إلى الاستراتيجية المستدامة"، ثلاثة تحديات رئيسية مزمنة، تواجه منطقة الساحل عموماً، وهذه التحديات هي: التخلف المزمن الناجم عن المعضلة الديموغرافية والبيئية، الأزمات الإنسانية الدورية المرتبطة بانعدام الأمن الغذائي والتحديات الأمنية والسياسية الأساسية كالإرهاب والجريمة المنظمة¹. كما أشار تقرير للأمم المتحدة، صادر سنة 2013، حول التداعيات الأمنية المستقبلية للمعضلة الأمنية في منطقة الساحل، وخطورة التراخي في معالجتها إلى أن هذه المعضلة قد تحولت إلى "القارة إلى أرض خصبة للمتطرفين، ومنصة انطلاق لهجمات إرهابية واسعة النطاق في جميع أنحاء العالم"². وبعد عقد من تاريخ صدور هذا التقرير تتجلى وجهة الاستشراف، من خلال انتشار وتمدد نشاطات جماعات التطرف العنيف في العديد من دول خليج غينيا، أو ما تُعرف بالدول الشاطئية المحاذية لمنطقة الساحل، بل وحتى تجذرها واكتسابها لمصادر القوة والاستمرارية في بلدان المنبع، خاصة منها مالي. لقد ساعدت عوامل عديدة في إنتاج هذه الوضعية التي تتدهور باستمرار، وعلى رأس هذه العوامل، الطبيعة الجيوسياسية للمنطقة والهشاشة الاجتماعية والسياسية لمعظم بلدان المنطقة.

ويتهياً من خلال تتبع منحى الأزمة منذ ظهورها مع بداية الألفية الثالثة، أن الثلاثي المشكل من المهربين والمتطرفين وتجار المخدرات، هو الذي يغذي الأزمة ويخلق باستمرار عوامل ديمومتها وتجذرها، ويتجلى ذلك من خلال قدرة هذا الثلاثي على خلق دورة اقتصادية خارج إطار الشرعية، لتبادل المنافع والمصالح المدرة للدخل، وليس بالضرورة استجابة لحوافز دينية أو عقدية، كما يحاول

¹ – (IPI) Mali and the Sahel-Sahara: From Crisis Management to Sustainable Strategy- International Peace Institute, New York, USA, FEBRUARY 2013, P 10

² ثني المنحنى، مقال منشور في مجلة "منبر الدفاع الإفريقي" adf، المجلد 7، الربع 2 من سنة 2014، ص 8

قادة جماعات التطرف العنيف الإيحاء به¹. ومن الواضح أن هذا النظام الاقتصادي الذي يُوفر فرص عمل ويؤمن دخولا معتبرة، يُحيل بالضرورة إلى وجود دوافع "دنيوية"، وهو ما يعني أن الحافز العقدي لم يعد المحرك الأساسي لأفراد جماعات التطرف العنيف، بل إن هناك منافع اقتصادية يسعى الجميع إلى جنيها. وقبل تناول أثر هذه الدورة الاقتصادية المستندة إلى ممارسات خارج إطار الشرعية، وما يغلفها من دعاوى دينية، ويرافقها من عوامل مرتبطة بالإنسان والمكان، في منطقة الساحل والدول الإفريقية الشاطئية، لا بد تناول أسباب انتشار العنف الذي مهد لظهورها.

أولا: العمل المسلح

ولد الصراع المسلح في منطقة الساحل والصحراء من رحم الأزمة السياسية الجزائرية سنة 1992، فقد مهدت هذه الأزمة وما أعقبها من تداعيات أمنية خطيرة لظهور جماعات التطرف العنيف، التي انزاحت لاحقا من الجنوب الجزائري إلى الشمال المالي، لتبدأ فعليا ملحمة الصراع المسلح في المنطقة، مع إعلان "الجماعة السلفية للدعوة والقتال" الولاء لتنظيم "القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي". وقد نجم عن هذا الانزياح جنوبا والاستقرار في شمال مالي تحالف غير معلن بين هذه الجماعات المتطرفة وشبكات محلية تمارس أنشطة اقتصادية خارج إطار القانون، والحركات الانفصالية من العرب والطوارق، وهو التحالف الذي سرعان ما تحول إلى هجوم عسكري كاسح في منتصف سنة 2012، على خلفية انفصال الشمال وإعلان الحركة الوطنية لتحرير أزواد عن استقلال "دولة أزواد". وقد نتج عن هذا الهجوم انهيار مفاجئ للجيش المالي، ما شكّل تهديداً جدياً لوجود الدولة المالية، خاصة بعد نجاح المتمردين في السيطرة على العديد من المدن في شمال ووسط البلاد، وهو ما جعل المنظومة الدولية تتنادى لإنقاذ كيان الدولة المالية في وجه التقدم السريع للمتمردين، وقد تجسد ذلك في عملية "سرفال" التي نفذتها فرنسا بطلب من الحكومة المالية. وبعد نجاح فرنسا والقوات الإفريقية في طرد المتمردين من الوسط والشمال المالي، أسند مجلس الأمن الدولي مهمة حفظ السلام والأمن في الشمال المالي إلى "بعثة الأمم المتحدة المتكاملة متعددة الأبعاد لتحقيق الاستقرار في مالي MINUSMA". ويبدو أن عوامل تغذية الصراعات المسلحة في الساحل والمناطق المحاذية شرقا وجنوبا هي في تصاعد مستمر، حتى أثناء فترة تواجد القوات الفرنسية في مالي، وفي ظل ما بدا حينها أنها هزيمة "ظاهرة" ألحقها فرنسا بتنظيمات التطرف العنيف والحركات الانفصالية في شمال مالي بعد سنة

¹ - Abderrahmane, Abdelkader, "Terrorisme et trafic de drogues au Sahel ", Le Monde, 19 juillet 2012

مقال منشور في صحيفة Le Monde الفرنسية، 19/07/2012، على الرابط التالي:

http://www.lemonde.fr/idees/article/2012/07/19/terrorisme-et-traffic-de-drogues-au-sahel_1735046_3232.html

2013. ويتأكد انتشار وتوسع هذا الصراع المسلح في ضوء تمدد التنظيمات المتطرفة المسلحة في عموم منطقة الساحل ودول الجنوب ودول خليج غينيا، خاصة جماعة "تصرة الإسلام والمسلمين" وتنظيم "الدولة الإسلامية" بفرعيه في الصحراء الكبرى وفي غرب إفريقيا.

لقد شكل الانتشار الأفقي للسلاح في فضاء الساحل والصحراء وخاصة إقليم أزواد، بعد "انفجار" مخزون السلاح الليبي وازدهار تعاطي وتجارة السلاح في المنطقة، أحد أهم الروافد التي تغذي العمل المسلح وتُمدّه بعوامل الاستمرار، غير أن رافداً آخر لا يقل أهمية، حسب تقارير الخبراء الأميين ظل دائماً مصدراً للسلاح المستخدم من طرف الجماعات المتطرفة في شمال مالي، وهو ثكنات الجيش المالي، ف"الكمية الكبرى من السلاح والعتاد التي جمعوها (...) متأتية من نهب مخازن [السلاح] المالية، إثر هجمات مباشرة ضد الجيش...".¹

لقد مهد الصراع المسلح وغياب القانون والنظام لترسيخ دعائم اقتصاد محلي، نشأ وازدهر خارج الأطر القانونية، لكنه أرسى "نظاماً اقتصادياً"، له آلياته وفواعله وأدواته الخاصة، بل وفرصة المربحة ومدخله المدرة.

ثانياً: النشاطات الاقتصادية غير الشرعية

في دراسة² أعدها خبراء في مجال الجرائم المالية وخاصة تبييض الأموال، لصالح قطاع العدالة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2003، ورد أن "مئات المليارات من الدولارات يتم ضخها سنوياً عبر "نظم تحويل القيمة غير الرسمية" IVTS Informal Value Transfer Systems. وإذا أضفنا صيغة الحساب المراسل the correspondent account method. وهي صيغة معتمدة، يتم إجراؤها من خلال الخدمات المصرفية الدولية المعترف بها، رغم أنها لا تتضمن معرفة للعملاء المسجلين في الولايات المتحدة ولا الغرض من التحويل، والمتلقي النهائي غير معروف للبنوك الأمريكية والبنوك الضامنة. فإن الحجم الإجمالي سوف يرتفع إلى تريليونات الدولارات.... وقد عرّفت الدراسة المذكورة هذه النظم أو "الحيل" بأنها "مجموعة من الأساليب والشبكات، تعمل بطرق متشابهة وتؤدي خدمات أو وظائف

¹— Peter Tinti, Le trafic de drogue dans le nord du Mali, Un équilibre criminel fragile, RAPPORT DE RECHERCHE, Numéro 14, ENACT, Institut d'études de sécurité (ISS) et INTERPOL, Global Initiative Against Transnational Organized Crime, septembre 2020, P13

المزيد من المعلومات حول هذه الدراسة الممولة من الاتحاد الأوروبي سنة 2020، على الرابط أدناه، 02 03 2021:
<https://enact-africa.s3.amazonaws.com/site/uploads/2020-09-17%20drug%20trafficking-research-paper-french.pdf>

² - Nikos Passas, INFORMAL VALUE TRANSFER SYSTEMS, TERRORISM AND MONEY LAUNDERING, The U.S. Department of Justice, A REPORT TO THE NATIONAL INSTITUTE OF JUSTICE, Northeastern University, November 2003, P7

مماثلة، تضمن نقل الأموال وتحويلات القيمة من مكان إلى آخر، نيابةً عن الجهات الفاعلة القانونية أو الإرهابيين أو الجماعات الإجرامية الأخرى، بحيث تتم هذه العملية بشكل غير رسمي ودون ترك آثار واضحة، وربما دون ترك أي أثر على الإطلاق.

وتشمل الجرائم الناجمة عن "نظم تحويل القيمة غير الرسمية" IVTS "الإفلات من مراقبة حركة الأموال (هروب رأس المال)، التهرب الضريبي، شراء الأسلحة غير القانونية أو المخدرات أو شراء سلع غير قانونية/أو خاضعة للرقابة، دفع الرشاوى، انتهاكات الملكية الفكرية، تلقي فدية، إتمام إجراءات الدفع الخاصة بالتهريب غير الشرعي للأجانب، إتمام إجراءات الدفع الخاصة بالتجارة غير القانونية لأعضاء جسم الإنسان، تشجيع الاحتيال المالي، تمويل الأنشطة المسلحة أو الإرهابية، تبييض عائدات الجريمة..."¹.

لكن اللافت في التعريف الذي أوردته الدراسة، هو أنه ينطبق على الكثير من الممارسات في مجال تحويل وتلقي الأموال في منطقة الساحل بصفة عامة، فقد حددت الدراسة في تعريف أكثر دقة لـ "نظم تحويل القيمة غير الرسمية" IVTS أنها تشمل "أي شبكة أو آلية يُمكن استخدامها لتحويل الأموال أو القيمة، من مكان إلى آخر دون ترك أثر ورقي رسمي للمعاملة بأكملها، أو دون المرور عبر مؤسسات مالية رسمية."²... وهو تعريف ينطبق على القطاع المالي غير المصنف في هذه المنطقة، والذي شهد نموا كبيرا لوكالات تحويل الأموال، وهو ما يعني إمكانية توظيف هذا القطاع المالي الخارج عن الرقابة لتمرير المعاملات غير القانونية بمختلف أشكالها، وإعادة توجيه الأموال المتأتية من الممارسات والأنشطة غير الشرعية، بغية تبييضها ودمجها في الدورة الاقتصادية المحلية بكل سهولة. لكن الدراسات أثبتت أيضا أن هذا التبييض يمكن أن يمر حتى من خلال البنوك نفسها، باستخدام تقنيات احتيال توفرها الشبكة العنكبوتية، من قبيل "قرصنة حسابات بنكية وبطاقات قرض لأشخاص آخرين لسرقة أموال [...])، فعملياتهم [جماعات تبييض الأموال] تمر غالبا من خلال البنوك، أي بواسطة الخدمات المصرفية عبر الإنترنت web banking، أو الدفع عن بُعد، وهي أنواع مختلفة لعمليات الدفع الإلكترونية. وتعني عمليات الدفع بواسطة الخدمات المصرفية web banking وعبر الهاتف المحمول mobile banking، معاملات مالية من خلال الإنترنت أو الهاتف المحمول أو الجهاز

¹ - Idem, P 12

² -Ibid, P P 14, 15

المحمول، وبصفة عامة، فهي خدمات يمكن القيام بها دون امتلاك حساب بنكي.¹ وإذا كان غسيل الأموال "القذرة" قد وصل إلى هذه المستويات في العالم حسب هذه الدراسة، التي تم نشرها سنة 2003، فمن المرجح أن اكتشاف شبكات تهريب المخدرات، خاصة منها الهيروين والكوكايين لفضاء الساحل "السائب"، واستخدام طرقه ومسالكه "الأمنة نسبيا" في تنشيط تجارة المخدرات، منذ بداية الألفية الثالثة، قد ساهم في الرفع من حجم الأموال التي يتم تبييضها عبر العالم وفي منطقة الساحل والصحراء على وجه الخصوص.

وفيما يلي استعراض لأهم عوامل الأزمة ذات المنشأ الاقتصادي.

1. تهريب السلاح

في أحدث إحاطة لها حول انتشار الأسلحة في العالم بتاريخ 5 فبراير 2020، أشارت الممثلة السامية لشؤون نزع السلاح السيدة إيزومي ناكاميتسو إلى أن "التراكم والنقل غير المشروع للأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة وإساءة استخدامها، يواصلان تأجيج النزاعات المسلحة والجرائم وإدامتها وتفاقمها" في مناطق عديدة حول العالم، خصوصا في أفريقيا². والحقيقة أن بداية النشاط المرتبط بتهريب السلاح في منطقة الساحل والصحراء كانت في الجنوب الجزائري، مع الصراع بين الجماعة السلفية للدعوة والقتال وأجهزة الأمن الجزائرية، حيث تمكنت هذه الجماعة من الاستحواذ على كميات معتبرة من الأسلحة، فحسب جهات أمنية فإن ما يقدر بمئات الآلاف من البنادق من نوع كلاشنكوف، بالإضافة إلى الراجمات والمتفجرات تنتشر في المنطقة، غير أن ما ساهم بالفعل في تعزيز ظاهرة الاتجار بالأسلحة هو الارتباط بين الفصائل المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والقتال، منذ إعلانها فرعا تابعا لتنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي سنة 2006³.

وسوف تشهد سنة 2011 حدثا استثنائيا، وهو انتشار ترسانة السلاح الليبي في كامل منطقة الساحل، بعد سقوط معمر القذافي، حيث صرح مسؤول أممي معني بالموضوع قائلا: "إن الأرقام المقدمة

¹— Mamadou Mouth Ban, LE CRIME ORGANISE DANS LE SAHEL, L'utilisation du numériques et les politiques de prévention, L'Harmattan, Sénégal, 2018, P 141

²— المزيد من المعلومات حول انتشار السلاح في منطقة الساحل في دراسة على موقع الأمم المتحدة، 2020 02 05، على الرابط التالي: <https://news.un.org/ar/story/2020/02/1048692>

³. عقيد محمد المختار العلوي، التعقيبات الوضعية الأمنية في الساحل وارتداداتها على المغرب العربي، أزمة الأمن في منطقة الساحل وانعكاساتها على بلدان المغرب العربي، مجموعة مؤلفين، صادر عن مؤسسة كونراد أدناور والمركز المغاربي للدراسات الاستراتيجية، التوفيق 2004، ص 95

مقلقة: ما بين 1080000 قطعة سلاح خفيفة، وبضعة آلاف من الأسلحة الثقيلة، وإذا لم تكن ليبيا قد وصلت إلى استعادة استقرارها وأمنها، فما ذلك إلا بسبب هذه الترسانة من التسلح الذي يصعب على الدولة مراقبته.¹

ومن المرجح أن عناصر كتائب القذافي من المقاتلين الأزوايين قد اصطحبوا معهم، عند عودتهم إلى إقليم أزواد ترسانة كبيرة ومتنوعة من الأسلحة النوعية، وهو ما يُعزز فرضية أن يكون لعودتهم علاقة مباشرة بإطلاق التمرد الأخير، الذي شهدته شمال مالي سنة 2012. وتُشير الدراسات إلى أن تدفق الأسلحة الليبية قد حوّل شمال النيجر إلى مركز لتفريب الأسلحة، حيث غدت منطقة آكاديز سوقاً جهوية كبيرة لتجارة الأسلحة، كما تحول بالمثل جنوب الجزائر إلى معبر للأسلحة إلى النيجر وشمال مالي²، ومن هناك إلى معظم دول الساحل والدول الإفريقية الشاطئية.

وخلافاً للتقديرات السابقة، فإن ذات المصادر تشير إلى أن أسلحة الجيش المالي شكلت النسبة الأكبر من الأسلحة التي غنمها الجيش الفرنسي في حربه مع الجماعات المتطرفة في شمال مالي، وليست الأسلحة الليبية، وهو ما يوحي بأن الصراعات القديمة في المنطقة هي من أهم مصادر الأسلحة المنتشرة في الساحل³، بل إن استهداف التنظيمات المتطرفة لثكنات الجيوش في منطقة الساحل، ونجاحها في أحيان كثيرة في الاستيلاء على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة، يشي بأن مصدراً جديداً لتسليح هذه الجماعات أصبح متاحاً، وهو مخازن أسلحة الجيوش النظامية.

2. تجارة المخدرات

يعود تاريخ ظهور تجارة تهريب المخدرات عبر إفريقيا الشمالية والغربية إلى الثمانينيات، حيث فتح نشاط تهريب السجائر والسلع المشروعة شهية شبكات الجريمة المنظمة حول إمكانية استخدام فضاء الساحل والصحراء لتهريب مختلف أنواع الممنوعات، ليبدأ بالفعل تاريخ هذه التجارة غير المشروعة في المنطقة. ولهذه التجارة مساران، المسار الأول يمر من شرق إفريقيا ويتم عبره تهريب الهيروين، والمسار الثاني يعبر غرب إفريقيا ويتم عبره تهريب الكوكايين، ويلتقي هذان المساران في الصحراء، ليسلكا

¹. المرجع نفسه، ص 96

²—RAPPORT D'INFORMATION N° 720, fait au nom de la commission des affaires étrangères, de la défense et des forces armées par le groupe de travail "Sahel", SÉNAT, SESSION EXTRAORDINAIRE DE 2012-2013, P 111

³— Idem, Op, Cit, P 111

طرقا جديدة عبر التشاد، النيجر ومالي¹. ويمكن خطر تجارة المخدرات في كونها غدت مع بداية الألفية الثالثة، تُشكل أحد أهم مصادر التمويل المحتملة للجماعات المتمردة الناشطة في دول الساحل وللنشاطات الاقتصادية غير المشروعة والمتطرفين، حيث تساعد في شراء المعدات ودفع الرواتب للأفراد²، وهو ما ساهم إلى حد بعيد في انتشار التمرد والأعمال الخارجة على القانون بمختلف أشكالها، بالإضافة إلى عدم الاستقرار السياسي والأمني في عموم منطقة الساحل، فمع "بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، بدأ المهربون في نقل شحنات كبيرة من الكوكايين عبر شمال مالي، باستخدام شبكات إجرامية تمتد بالأساس الاتجار بالقنب الهندي والسجائر المهربة.

لقد شكل ظهور مادة الكوكايين بصفة خاصة مع بداية الألفية الثالثة، مرحلة هامة في مسار تجارة المخدرات في منطقة الساحل، لكن هذا المخدر الغالي والتمين ساهم أيضا بشكل فعال في ازدهار "اقتصاد الجريمة"، وقوض جهود الدول الرامية إلى القضاء على النشاطات الاقتصادية خارج الأطر القانونية، وساهم في ظهور جماعات فاسدة في جميع أجهزة الدولة، تساعد على تسهيل عبور وإعادة نقل وتصدير الكوكايين، وهي "تسهيلات" تعود على هذه الشبكات العابرة للأنظمة الحاكمة والمجتمعات المحلية، بعوائد تصل إلى مليارات الدولارات سنويا³. ومن تجليات نجاح هذه الشبكات المحلية التي غدت ظهيرا لمهربي المخدرات، في الدور المسند لها هو قدرتها على توظيف موانئ بحرية لبعض الدول الإفريقية الشاطئية لتأمين مرور هذه المخدرات، الموجهة إلى أوروبا باستخدام المسالك البرية ووسائل النقل الجوي، عبر دول الساحل⁴.

ويشكل غياب الدولة عن مناطق شاسعة في منطقة الساحل والصحراء، عامل إغراء لشبكات تجارة المخدرات لمواصلة نشاطاتها، بالتحالف مع الشبكات المحلية وأحيانا مع بعض جماعات التطرف العنيف. وتشير المصادر إلى أن هذه التجارة بلغت ذروتها بين سنتي 2007 و2008 "بتقديرات بلغت 47 طنا بين سنتي 2007 و2008، قبل أن تتناقص هذه الكمية خلال السنوات التالية، لتصل إلى النصف في سنة 2017، وفي سنة 2018 قدر مسؤول أممي رفيع في غينيا بيساو أنه "لا أقل من 30 طنا" من

¹ - MOHAMED FALL OULD BAH, Travaux du Colloque des Think Tanks Sahéliens, Nouakchott, Mauritanie les 14 et 15 Décembre 2019, N 09, Institut Mauritanien des Etudes Stratégiques IMES, Première édition 2020, P 61

² - Idem, P 61

³-RAPPORT D'INFORMATION N° 720, Op, Cit, P 108

⁴. عقيد محمد المختار العلوي، مجموعة مؤلفين، مرجع سابق، ص ص 95، 96

الكوكايين تدخل إلى غينيا بيساو كل سنة، ولكن لا يوجد أي تقدير يوثق به للنسبة المئوية من هذه الكمية التي تمر عبر مالي.¹

وتتخذ القوافل البرية لتجارة المخدرات من المحطات (المدن) والطرق الصحراوية القديمة في منطقة الساحل، وخاصة شمال مالي معبراً دولياً نشطاً لتهريب المخدرات القادمة من أمريكا اللاتينية، لكنها تضطر في كل مرة أمام الملاحقة إلى تغيير هذه المسالك والمحطات.

ويعود سبب تغيير مسار تهريب الكوكايين من أمريكا اللاتينية إلى أوروبا والشرق الأوسط، من الجو والبحر إلى طرق القوافل الصحراوية القديمة، إلى "تشديد التدابير الهادفة إلى الحد من إنتاج ونقل وبيع هذا المخدر الذي تنتجه أقوى العصابات في أمريكا الجنوبية، ولا سيما في كولومبيا وبوليفيا وبيرو والاكوادور، وذلك بعد تزايد استهلاك الكوكايين في الولايات المتحدة وأوروبا في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، حيث استُكمل تشديد التشريعات باعتماد عدة تدابير تهدف إلى تفكيك شبكات النقل الجوي والبحري للمخدرات بين أمريكا اللاتينية وأوروبا، وقد أجبرت هذه الإجراءات المهربين في أمريكا الجنوبية على تغيير الطريقة التي يزودون بها أوروبا بالكوكايين. وابتداءً من العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، حدث تحول كبير في الطرق المستخدمة لنقل المخدرات إلى أوروبا، ليصبح غرب إفريقيا منطقة عبور إلى الدول الغربية، حيث يتم نقل المخدرات عن طريق القوارب أو الطائرات إلى دول، مثل غينيا بيساو وسيراليون وغينيا وغانا ونيجيريا، قبل شحنها إلى أوروبا.² ويُرجح أن تجارة المخدرات بالذات وما يترتب عليها من سيطرة على الطرق والمسالك الصحراوية³، هي الأصل والسبب الرئيسي في الصراعات التي تنشب بين بعض الأطراف المحلية، رغم أنه في الغالب يتم الدفع بأسباب أخرى سياسية أو قبلية، للتغطية على السبب الحقيقي للصدامات المسلحة، التي تحدث من حين إلى آخر في شمال مالي.

لقد ساعدت العوائد الكبيرة، المتأتية من تجارة وتهريب المخدرات في بعض دول الساحل على تشكل أقطاب نفوذ من كبار ممتنهي هذا النشاط غير المشروع، داخل الدولة والمؤسسة الاجتماعية والهيئات السياسية العاملة من الأحزاب والحركات السياسية، وهو ما أضعف سلطة الدولة وحولها إلى جهاز

¹ - Peter Tinti, Op, Cit, P5, P6

² - Serigne Bamba Gaye, Connections between Jihadist groups and smuggling and illegal trafficking rings in the Sahel, Friedrich-EbertStiftung, Peace and Security Centre of Competence Sub-Saharan Africa (FES PSCC), Senegal, 2018, P10, P12

³ - المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع في مقال على موقع مركز الجزيرة للدراسات، 19 01 2015، على

الرابط التالي: <https://studies.aljazeera.net/en/node/3800>

إداري مترهل، مرهون لهؤلاء النافذين الذين حوّلوا، في محاولة لإضفاء صفة الشرعية على نشاطاتهم المشبوهة جزءا كبيرا من عائدات تهريب المخدرات إلى القطاع الاقتصادي المصنف، مثل الاستثمار في شركات النقل وشراء الأراضي والعقارات ومشاريع البناء والتنمية الحيوانية والأغذية، وكذلك في الأصول والشركات. وقد نجم عن هذا الواقع توازن "إجرامي" هش، يسمح باستمرار الاتجار بالمخدرات، رغم حالة تقاسم النفوذ التي تطبع المنطقة بين مختلف الجماعات المسلحة المتصارعة في الساحل، بل إن هذا التوازن قد نجم عنه مع مرور الوقت تقبل اجتماعي لظاهرة تهريب وتجارة المخدرات، لدرجة ظهور حي في مدينة غاوه يسمى Cocaïne-bougou، وهذه التسمية تعني حرفيا باللهجة المحلية قرية الكوكايين¹.

3. أموال الفدى

شكلت محنة السواح الأوربيين، الذين تعرضوا للاختطاف سنة 2003 في جنوب الجزائر على يد عمار الصايفي [المكنى عبد الرزاق البار]، بداية اهتمام جماعات التطرف العنيف بأهمية الأموال المتأتية من الفدى لتمويل نشاطاتها، حيث اضطرت حكومات هؤلاء السواح حينها إلى دفع أموال ضخمة من أجل الإفراج عنهم².

كانت تلك هي البداية الفعلية لظهور "صناعة أخذ الرهائن" في منطقة الساحل والصحراء، حيث أضحت هذه الصناعة منذ ذلك التاريخ المصدر الرئيسي لتمويل الجماعات المتطرفة. وقد قُدرت "مداخل تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي وحده من أموال الفدى، بين عامي 2005 و2011 فقط، بمبلغ 65 مليون دولار، وهو ما شكل حينها نصيب الأسد من ميزانية هذا التنظيم السنوية البالغة 15 مليون يورو أي ما يعادل 18 مليون دولار .. حيث استهدفوا بصفة أساسية العاملين في المجال الإنساني، الفاعلين الاقتصاديين وأسرهم، السواح والدبلوماسيين..."³. ومن المرجح جدا، في ضوء استمرار "صناعة الخطف" في منطقة الساحل، وما يعقبها من عمليات إطلاق سراح الرهائن التي يلفها الغموض غالبا، "أن يكون خطف الرهائن قد غدا النشاط الأكثر مردودية، إذ إن تحرير كل

¹ - Peter Tint, P 2,3,9,10,12

². محمد محمود أبو المعالي، القاعدة وحلفاؤها في أزواد، النشأة وأسرار التوسع، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 1435هـ، 2014م، ص 37

³. المزيد من المعلومات حول حجم مداخل جماعات التطرف العنيف من أموال الفدى في دراسة بتاريخ 05 2018 03، على الرابط التالي:

<https://www.aa.com.tr/fr/afrique/la-prixe-dotage-contre-rancon-premi%C3%A8re-source-de-financement-du-terrorisme-en-afrique-expert-1133556#>

رهينة ترافقه . سواء كان ذلك علنا أم لا . تسوية مالية، فسيناريو المحادثات هو نفسه: التبنّي، الأدلة، الفدية، ويتضمن غالبا جانبا معلوما للجميع (تحرير الأفراد المحتجزين)، وجانبا غامضا (...)، فقد ضاعفت أموال الفدى بشكل سريع من قدرات الحركات "الجهادية" (...)، التي وجهت كل نشاطاتها بشكل فعلي إلى مجال خطف الرهائن الغربيين.¹

وتمر هذه "الصناعة" بمراحل، تبدأ بـ "توظيف شركاء محليين مقابل أجر، للحصول على المعلومات ومراقبة الضحايا قبل القبض عليهم، وقد يقتضي الأمر الدفع لجماعات محلية مسلحة لتتولى تنفيذ عملية الاختطاف، وبمجرد القبض على الرهائن، يقوم تنظيم "القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" بنقلهم إلى ملاجئه في شمال مالي، لتبدأ عملية مفاوضات معقدة من أجل تحرير الرهائن، وهي العملية التي شاركت فيها في أحيان كثيرة حكومات إفريقية (مالي، بوركينا فاسو والنيجر)، والأعيان المحليون وحتى زعماء المتمردين"². وحول أوجه توظيف وصرف أموال الفدى التي تحصل عليها الجماعات المتطرفة في المنطقة ودورها في تعميق الأزمة الأمنية واستمراريتها، فإن هذه "الأموال الناتجة عن عمليات الاختطاف تُزود الجماعات الإرهابية بالموارد التي تحتاجها لتمويل أنشطتها الدعوية والتجنيدية، ولكن قبل كل شيء لشراء الأسلحة والأدوية والطعام والآليات والهواتف التي تعمل بالأقمار الصناعية، حيث يتم إنجاز هذه المشتريات من خلال المهربين المنتشرين في الصحراء، إذ بدونهم، سيُحرم تنظيم "القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي" من الخدمات اللوجستية التي يحتاجها"³. وقد دفع هذا التجاوب الذي أبدته حكومات غربية في مجال دفع الفدية عن مواطنيها، بعض الخبراء الأمنيين إلى اعتبار الدول الأوروبية مسؤولة عن القوة التي أصبح تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي يحظى بها، بسبب الأموال الضخمة التي حصل عليها هذا التنظيم، مقابل الإفراج عن مواطني دول أوروبية⁴.

والحقيقة أن الدول الغربية ليست هي المصدر الوحيد لهذه الفدى، بل قد تكون الحكومات المحلية في أحيان كثيرة أحد هذه المصادر . ففي المرات النادرة التي تتكشف فيها خيوط وتفاصيل فدية معينة،

¹ – MOHAMED FALL OULD BAH, Op, Cit, P P 56, 58

² – Serigne Bamba Gaye, Op, Cit, P15

³ – Idem, P15

⁴. نفوذ القاعدة يهدد القارة السمراء بعد خسارة قواعدها في المغرب العربي، مقال منشور في صحيفة "العرب" الإلكترونية،

بتاريخ 2014/03/06، العدد 9491، ص 6

يظهر أن هذه الحكومات لا تتردد في التواصل مع الجماعات الخاطفة عبر قنوات خاصة و"معتمدة"، لتأمين دفع المبالغ المطلوبة وحتى إطلاق سراح بعض أعضاء هذه الجماعات المتطرفة، لقاء إطلاق سراح رهائن من هذه الدول.

ورغم التدابير القانونية المُجرّمة لدفع الفدية، المتخذة من طرف مجلس الأمن الدولي والمُلزمة للدول والهيئات، فإن منحى الاختطاف في منطقة الساحل آخذ في الارتفاع، فقد تم تسجيل زيادة كبيرة في عمليات الاختطاف في منطقة الساحل، حيث تم الإبلاغ عن 7 حوادث في سنة 2016، مقابل 111 حادث اختطاف في سنة 2019، وقد أُنّت عمليات الاختطاف هذه لتنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي أكثر من 110 ملايين دولار أمريكي، منذ سنة 2003¹.

4. التنقيب السطحي عن الذهب

في دراسة أعدها ونشرها الاتحاد الأوروبي في سبتمبر 2020، في إطار مشروع "إيناكت"، وهو برنامج مخصص "لتعزيز قدرة إفريقيا على استجابة أكثر فاعلية للجريمة المنظمة عبر الوطنية"، ورد أن "بعض الاقتصادات غير المشروعة تنمو بالفعل في هذه المناطق، خاصة قطاع التنقيب (الأهلي) غير القانوني عن الذهب، والذي تستفيد منه بشكل مباشر الجماعات "الجهادية" المرتبطة بـ"القاعدة" و"الدولة الإسلامية"... [إل إن] العديد من المصادر يؤكد، على سبيل المثال، أن أرباح الاتجار بالمخدرات تُستثمر في قطاع تعدين الذهب الأهلي سريع النمو في كيدال. وتستند هذه الاستثمارات إلى الرغبة في غسل الأموال غير المشروعة، ولكن أيضًا لتحسين العوائد التي يمكن أن تساهم بعد ذلك في زيادة القوة أو النفوذ..."². و"وفقًا لمجموعة الأزمات الدولية (ICG)، فإن "الإرهابيين" يهرعون إلى الذهب في منطقة الساحل"³. وتُبرز هذه المعطيات الخطر الكبير الذي يمكن أن يشكله هذا القطاع غير المصنف، من حيث إمكانية استغلاله من طرف الجماعات الخارجة على القانون، في حالة غياب أي رقابة أمنية أو قانونية لتنظيمه وضبطه، ومراقبة حركة العوائد المالية الكبيرة المتأتية منه. فقد توفر السوق السوداء الموازية، التي تتشأ وتنمو بسرعة في مناطق التنقيب السطحي عن الذهب إمكانات هائلة للجماعات المتطرفة، لتبييض ما لديها من أموال الفدى والمخدرات وتجارة

¹ –Global Terrorism Index 2022: Measuring the Impact of Terrorism, Institute for Economics & Peace. The ninth edition of the Global Terrorism Index (GTI), Sydney, March 2022, P 50

² –Peter Tinti, Op, Cit, P P 11, 13

³. المزيد من المعلومات في مقال منشور على موقع صحيفة MALIWEB المالية، 05 10 2020، على الرابط التالي: <https://www.maliweb.net/la-situation-politique-et-securitaire-au-nord/nord-du-mali-comment-eviter-que-lor-ne-serve-au-financement-du-terrorisme-2898300.html>

السلاح وتأمين ثرواتها، من خلال استهداف المنقبين وإغرائهم بالتعامل مع وكلاء هذه الجماعات، وتقديم أسعار تفوق أسعار الهيآت المالية الرسمية، وخاصة البنوك المركزية.

والظاهر أن دول الساحل تستند في تشجيعها لهذا النشاط الاقتصادي المدر للدخل على معطيات موضوعية، من أبرزها أنه شكل خلال السنوات الأخيرة رافعة حقيقية للقطاع غير المصنف، وهو ما يظهر جليا في تعزيز الدخل القومي وتوفير فرص عمل لفئات عريضة من الشباب. ورغم هذه المنافع الاقتصادية، إلا أن الاستمرار في فتح المجال للتنقيب السطحي عن الذهب، يُحتم تطبيق معايير وتدابير قانونية وأمنية صارمة وموازية، تؤمن استمرار هذه المنافع، لكنها تضمن في المقابل ضبط ومراقبة مداخل هذا النشاط الاقتصادي.

وتستند مخاوف الكثير من المراقبين حول إمكانية توجيه جزء من مداخل هذا النشاط لتمويل نشاطات جماعات التطرف العنيف إلى تجارب دول الجوار، خاصة دولة مالي، مهد الأزمة، حيث تردد بالفعل صدق هذه المخاوف في صحيفة مالي ويب MALIWEB، في مقال لها تحت عنوان: "كيف يمكن تجنب أن يتحول الذهب إلى أداة لتمويل الإرهاب؟"، فقد أشارت الصحيفة إلى أن "الجماعات المسلحة بدأت بالفعل منذ سنة 2016 سيطرتها على مواقع التنقيب عن الذهب في المناطق التي تعاني من غياب أو ضعف الدولة، ويغذي جشع هذه الجماعات ازدهار قطاع الذهب الأهلي منذ اكتشافه سنة 2012. وتسعى الجماعات الإرهابية إلى خنق دول الساحل اقتصاديا، وكما هو الحال في الحرب، يجوز استخدام كل الوسائل، فهم يحاولون السيطرة على مناجم الذهب من أجل تأمين قدرة مالية وعسكرية، وهذا ما يفسر تكاثر الهجمات في مناطق التنقيب عن الذهب في مالي وبوركينا فاسو والنيجر".¹ وأشارت الصحيفة إلى أن مناطق التعدين الأهلي هذه تشكل "أرضا خصبة للتجنيد والتدريب، والتمرن على استخدام المتفجرات... فقد تم العثور على نترات الأمونيوم، وهو مكون يستخدم في تعدين الذهب في الشمال، في العبوات النافسة المستخدمة في الهجمات في المنطقة (...). فالجماعات "الإرهابية" تعرف كيف تستغل غضب وإحباط بعض عمال مناجم الذهب السطحي، الذين قد يشعرون بأنهم مُستبعدون من طرف نظام حكم المجتمعات الصناعية".²

5. الزكاة والمغرم "الشرعية"

تُشير بعض الدراسات التي تتناول مصادر تمويل الجماعات المتطرفة، إلى أن هذه الجماعات تفرض غرامات على الأثرياء من سكان المناطق الخاضعة لسيطرتها، تحت دعوى المساهمة في المجهود

¹ -Idem

² - Idem

الحربي "الجهادي" وتوفير الحماية للسكان المحليين، وهو إجراء "ربما يجد مسوغه في تقليد فقهي قديم، يسمح بتقديم "المساهمة المالية" بدلا عن الاشتراك في القتال"¹. وقد ترسخ هذا "التقليد الفقهي" بعد سجال دار بين علماء منطقة الصحراء وجوارها، خلال القرون الماضية حول سبل مواجهة الفوضى الأمنية وغياب سلطة مركزية في المنطقة، حيث أفضى هذا السجال إلى إجماع "كبار فقهاء المنطقة [على] ضرورة الإدارة بوصفها الوسيلة المتاحة لحماية الأموال والأنفس والأعراض..[ف] المغرم بالشكل الذي كان معروفا لدينا هو ما يُعطى بصفة منتظمة من المال، على كره ومشقة اعتمادا على الممارسات العرفية، ويُوظف على الأفراد والجماعات."²، وربما كان لهذا التأصيل الفقهي لمثل هذه الممارسة دور في تقبل السكان المحليين لدفع هذا "المغرم"، نظرا للوحدة المذهبية والثقافية لعموم سكان الصحراء³. وقد أوجدت هذه الممارسة مصدر دخل ثابت ومضمون للجماعات المتطرفة في مناطق سيطرتها، وتشمل هذه المغارم المفروضة بقوة الأمر الواقع المداخل المتأتية من الزكاة، التي تتم جبايتها كرها أو اختيارا. وفي سبيل تأمين مصدر دخل إضافي لهذه الجماعات، شرعت بعض هذه الجماعات، إلى مصادرة قطعان الماشية المملوكة للسكان المحليين في مناطق نفوذها. والواقع أنه من بين جميع المصادر التي تؤمن مداخل ثابتة للجماعات المتطرفة، وتساهم في ازدهار "اقتصاد الجريمة"، تبرز ثلاثة مصادر، غدت رئيسية بالنسبة لهذه الجماعات، وهي الزكاة المدفوعة كرها أو طوعا، والمداخل المتأتية من مصادرة قطعان الماشية، والتتقيب السطحي عن الذهب كأهم هذه المصادر، نظرا لانتشار هذا النشاط في أغلبية دول الساحل المشمولة بهذه الأزمة. فرغم الجهود الأمنية والقانونية الأممية، والحصار وسياسة تجفيف منابع المتبعة من طرف الدول والجيش النظامية في المنطقة، فإن خطورة الاعتماد على هذه المصادر الثلاثة حصرا، تكمن في أنها أصبحت مع الوقت تشكل دعائم مقارنة اقتصادية ومالية، تؤمن لهذه الجماعات المتطرفة إمكانية الاعتماد الكلي على مصادرها الذاتية والاستمرار في تمويل عملياتها في مناطق نفوذها، ذلك أنه حتى مع تشديد الحصار وتوقف تجارة المخدرات وتهريب السلاح والسلع المشروعة والمحركة وعمليات

¹ - MOHAMED FALL OULD BAH, Op, Cit, P 57

² . محمد المختار ولد السعد، الفتاوى والتاريخ، دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال

فقه النوازل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ص ص 84، 85

³ . عبد الودود ولد الشيخ عبد الله (ددود)، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثاني عشر . (18م)، مركز

الدراسات الصحراوية، طبعة 2015، ص 38

الاختطاف، فإن هذه الحركات سوف تظل، من خلال المصادر الثلاثة المذكورة، قادرة على الحركة وتنفيذ عمليات ضد المدنيين والجيش النظامية.

6. تهريب السلع

مع بداية الثمانينيات، ظهر النشاط المرتبط بتهريب السلع المشروعة، خاصة منها المواد الغذائية والسجائر وبيع الغش التجاري، وكان ذلك قبل ظهور الأنواع الأخرى من التهريب في المنطقة. ويُرجح أن البداية الفعلية لهذا النشاط كانت "مع نزاع الصحراء الغربية، حيث استقر اللاجئين الصحراويون في مخيمات قرب مدينة تيندوف الجزائرية، وقد استفادوا بسبب هذه الوضعية من المساعدات الإنسانية المقدمة من طرف المجموعة الدولية، وتم بيع بعض هذه السلع الموزعة على اللاجئين في المخيمات في هذه المنطقة، بل وحتى في جميع مناطق الصحراء، وذلك إلى جانب سلع أخرى قادمة من شمال مالي وشمال النيجر. وتوجد هذه السلع في المناطق الموريتانية الحدودية".¹ ويستهدف مهربي السلع الاستهلاكية أنواعا محددة من هذه السلع، تحظى بالدعم من طرف بعض البلدان في المنطقة، مثل الجزائر وليبيا قبل سقوط نظام القذافي، وتشمل هذه السلع السكر، السميد، الحليب والمحروقات. ونظرا لسياسة الدعم الهادفة إلى تعزيز القدرة الشرائية لمواطني الدول التي تتبنى هذه السياسة، تصبح السلع المدعومة أقل سعرا من مثيلاتها في الدول الأخرى، وهو ما يشكل فرصة للربح، من خلال شرائها وتهريبها وبيعها خارج الحدود، بأسعار أكثر بكثير من أسعار بيعها في البلدان التي توفر هذا الدعم.

لكن أهمية هذا النشاط في مسار تطور الجريمة المنظمة، والذي اقتصر في البداية على تهريب السلع المشروعة والسجائر، تكمن في أنه فتح عيون المهربين مع الوقت على إمكانية تهريب سلع أخرى غير مشروعة، بما في ذلك أنواع المخدرات وحتى تهريب البشر. لقد أدى الجفاف والتهريب إلى تغييرات جذرية على مستوى المؤسسة الاجتماعية المحلية، ونجم عنه تحول جماعي عن المهن التقليدية التي تربط السكان بالأرض، فبعد موجات الجفاف في السبعينيات والثمانينيات، تحول العديد من البدو إلى الأنشطة الاقتصادية غير المشروعة من أجل البقاء، فقد "تشكل سوق حقيقي، غير مهنة سكان هذه المناطق. ليتخلوا عن حياتهم المهنية كزراعة ومزارعين، وينخرطوا في الاتجار غير المشروع"²، لقد "نشأ اقتصاد الجريمة" العابر للحدود من التواطؤ مع بعض السلطات التقليدية المحلية، مع قليل أو كثير من الدعم الضمني من طرف السكان المحليين... وتدرجيا، أصبحت اقتصادات

¹ - MOHAMED FALL OULD BAH, Op, Cit, P 59

² - Serigne Bamba Gaye, Op, Cit, P 9

المناطق الحدودية منفصلة عن الاقتصادات الوطنية، ومرتبطة بشبكات متعددة الجنسيات، يهيمن عليها المهربون ومتهنو التجارة غير الشرعية، وهذه التجارة يسيطر عليها التجار المرتبطون بالأرستقراطيات المحلية، الطوارق والعرب على وجه الخصوص، وقد توسعت مع استخدام السيارات العابرة للصحاري. ومع الوقت، حلت هذه السيارات محل الجمال وعادت طرق القوافل القديمة المهجورة إلى الخدمة، مع انتشار واسع النطاق للمنتجات المهربة في المناطق التي يكون فيها وجود الدولة محدودًا للغاية...¹.

وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة في مالي، فإن الفوضى الأمنية في ليبيا قد ساعدت شبكات التهريب على تطوير الأنشطة غير المشروعة والتكيف بسهولة مع الاضطرابات الجيوسياسية الداخلية وفي شبه المنطقة، فعلى سبيل المثال، تشير التقديرات إلى أن 75% من السجائر المستهلكة في ليبيا دخلت البلاد بشكل غير قانوني عبر منطقة الساحل، كما تشير ذات المصادر إلى أن تجارة السجائر في شمال إفريقيا تبلغ قيمتها أكثر من مليار دولار. أما في النيجر، فإن قيمة صادرات السجائر من هذا البلد في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كانت أعلى 40 مرة من قيمة صادرات الماشية.² ومن الواضح أن أهمية هذا الصنف من التهريب، رغم استمراره أصبحت في تراجع أمام التنامي المضطرد لأنواع التهريب الأخرى، التي تشهد إقبالا متزايدا من طرف شبكات التهريب، نظرا لمداخيلها الهائلة. لقد خلق تهريب السلع دخولا شبه ثابتة في شمال مالي والنيجر، كما وفر سلعا استهلاكية بأسعار في متناول السكان، وذلك في ظل غياب مصادر دخل بديلة من أي نوع، وهو ما يعني أنه "وإلى أن تتوفر بدائل اقتصادية عملية، فإن من شأن تضيق الخناق على التهريب مفاقمة عزلة المجتمعات المحلية عن دولها".³

ثالثا: التطرف العقدي

يُعد الدافع العقدي أحد أهم عوامل بروز وتجذر المعضلة الأمنية، متعددة الأوجه والأبعاد في منطقة الساحل، فمن خلال هذه "العقيدة" التي تستند في الغالب على فتاوى خاصة، صادرة عن تيار السلفية الجهادية، تسعى جماعات التطرف العنيف إلى خلق "المبرر الفكري أو المرجعية الشرعية" لارتكاب أعمال العنف في حق المسلمين وغير المسلمين، فهذا العنف "ليس فعلا جنائياً يستهدف قتل الأبرياء

¹ - Idem, P 8, 9

² - Ibid, P12, 13

³. ولفرام لآخر Wolfram Lacher، الجريمة المنظمة والصراع في منطقة الساحل والصحراء، أوراق كارنيكي، الشرق الأوسط، عن مؤسسة كارنيكي للسلام الدولي، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، سبتمبر 2012، ص ص 22، 23

لإزهاق أرواحهم أو أخذ أموالهم لأسباب إجرامية بحتة، بل هو فعل يقترفه أصحابه بدوافع دينية ومبررات فكرية، يسعون من ورائها إلى تجسيد قناعتهم الدينية على أرض الواقع، وهذا ما يبيّن أن الأفعال التي يقومون بها حتى وإن وصفت بأنها إرهابية، تستمد "شرعيتها الدينية ومبرراتها" من المنظومة الفكرية التي تشكل عقلياتهم وتصورهم للعلاقة بين المسلمين وبين غيرهم، وتحدد منهجهم العلمي للتغيير الحضاري الذي ينشدونه..."¹.

ويستند معظم أعضاء هذه الجماعات في موقفهم على المفاهيم الفكرية التالية²:

1. القول بأن الأصل في العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم الحرب وليس السلم
2. الفتوى بوجوب جهاد الطلب: "الهجوم على الآخر"
3. القول بأن الكافر يقاتل لكفره وليس لرد عدوانه
4. تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب
5. الفتوى بحرمة عقد صلح دائم بين المسلمين وغيرهم
6. القول بعدم عصمة دماء أموال الكفار ودمائهم
7. القول بالنسخ في التشريع الإسلامي

ويدفعنا هذا الانتشار والتقبل الظاهر للعقيدة السلفية، والجهادية منها على وجه الخصوص في منطقة الساحل إلى البحث في جذور "الشرعية الدينية لهذه الجماعات ومبرراتها"، من خلال استنطاق التاريخ الثقافي والسياسي للمنطقة. وعلى هذا الأساس، يمكن تلمّس ما يمكن اعتباره نزوعاً مبكراً إلى التطرف في الفتاوى المحلية، في أجوبة المغيلي³ على أسئلة أسكيا محمد الأول سنة 1503م، وما يهمننا في

¹. محمد المهدي ولد محمد البشير، الجذور الفكرية للعنف في بعض الفتاوى الفقهية، أزمة الأمن في منطقة الساحل وانعكاساتها على بلدان المغرب العربي، مجموعة مؤلفين، صادر عن مؤسسة كونراد ادناور والمركز المغاربي للدراسات الاستراتيجية، التوفيق 2004، ص 47

². المرجع السابق، ص ص 49، 57

³. هو محمد بن عبد الكريم التلمساني (ت 909هـ)، الفقيه المتكلم الرحالة، ذو الأثر الكبير في الحياة الفكرية والاجتماعية لبلاد السودان الغربي.

يُنظر:

الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان، تحقيق وتعليق عبد الودود ولد عبد الله والدكتور أحمد جمال ولد الحسن، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، 2010، ص 58

استعراض هذا "الحوار الفقهي"، الذي يعود إلى أزيد من خمسة قرون من الزمن، هو ما إذا كان لهذه الأجوبة التي جاءت على شكل فتاوى دينية، لسلطان عائِد لثوه من الديار المقدسة وحصل على لقب "خليفة بلاد السودان"، دور في نشأة نزعة التطرف الحالية وانتشار أعمال القتل والعنف، التي تستهدف المسلمين مثلما تستهدف غيرهم. ويدخل هذا المسعى في إطار إثارة السؤال الذي يسعى العديد من الباحثين إلى الإجابة عليه، وهو ما إذا كان للتطرف العقدي الحالي، الذي تعاني منه منطقة الساحل جذور تاريخية محلية بالفعل. فبعد عودته الشهيرة من الحجاز، وجه الحاج آسكيا محمد الأول، مجموعة من الأسئلة، تضمنتها سبع "مسائل" على شكل نوازل فقهية، إلى الفقيه والعالم المغيلي. وقد سعى الآسكيا محمد الأول من خلال هذه الأسئلة إلى معرفة "رأي الشرع" فيها، على ضوء ما اعتبره حينها تصرفات ومسلوكيات شاذة وخارجة على الإسلام. وسوف نستعرض "المسائل" النوازل التي اقتضت من المغيلي تقديم فتاوى صريحة للآسكيا محمد الأول، بقتل وسبي ومصادرة ممتلكات من ينطق بالشهادتين.

ففي "المسألة" الثانية من أصل سبع، يسأل الآسكيا محمد الأول عن الحكم في سني علي¹ الذي "كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، إنما يقول ذلك بلسانه (...) ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا من الذبائح عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم (...) ومن صفته أيضا أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، فيقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان الرضع وغيرهم... [وكان جواب المغيلي] أن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، الذين يقطعون ما

¹. و"الحقيقة أن سني علي قامت ضده نعمة العلماء في أيامه لأنه لم يكن ليقرّبهم منه، ولا يأبه لهم، وهذا ما جعل الآسكيا محمد يلقي منهم كل تأييد بعد ثورته على سني علي، أما الكتابات التي كتبها العلماء السودانيون حول سني علي فلا شك أنها احتوت شيئا غير يسير من المبالغة، لأنهم كانوا متأثرين فيها بالموقف الخاص الذي وقفه حيالهم السني علي. وهذا لا ينفي أن الرجل كان اهتمامه الأول منصبا على الفتوحات والتوسع، ولذا كان يتخذ بطانته وعترته من الفرسان والجنود، ولم يكن يأبه لغيرهم إلا نادرا، أما الأعمال الحربية والولع بالانتصارات، فهي التي كانت تأخذ النصيب الأكبر من أوقاته وجهده، ولذا لم يكن للعبادة من يومه إلا الجانب الثانوي".

يُنظر:

محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق الأستاذ عبد القادر زبايدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 36

أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض (...) فإن كان الأمر كما ذكرتم، فهو كافر وكذلك كل من عمل بمثل عمله، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك...¹.

وفي المسألة "الثالثة"، يسأل الآسكيا محمد الأول عن الحكم في أناس "يشهدون ويقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعتقدون مع ذلك أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا (...) [وكان جواب المغيلي] وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك.. فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار، الذين لا يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم... فجاهدهم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذرائعهم ونهب أموالهم..."².

وفي المسألة "الرابعة"، يسأل الآسكيا محمد الأول المغيلي قائلاً: "قولكم إذا كان فيه المسلمون وسلطانهم ظالم أو كبيرهم يأخذ أموالهم ظلماً وعدواناً، فهل لي أن أرد عنه ذلك الظلم، ولو أدى إلى قتل الظالم... (...) [وكان جواب المغيلي] وليس من المنكر قتل الظلمة والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، فقاتلهم ولو قتلوا منكم كثيراً وقتلتهم كثيراً..."³.

وسوف تظهر أشكالاً أخرى من التطرف في تفسير وتطبيق الحدود، في إمارة أوتوقراطية أخرى ظهرت في المنطقة لاحقاً، وهذه الإمارة هي في حقيقة الأمر امتداداً بشرياً وثقافياً وحتى سياسياً لمملكة السونغاي بل ووريثها العقدي، وهي إمارة ماسينا، فقد خضع رعايا هذه الإمارة لقواعد صارمة، تترتب على مخالفتها عقوبات شديدة في مجال تطبيق حدود الشريعة الإسلامية، أشرف على تنفيذها "مجلس الأربعين الذي كان بمثابة مجلس شورى"، حيث "توصف [إمارة دينا أو مملكة ماسينا] عادة في الأدبيات التاريخية بـ"أشد الأنظمة السياسية ثيوقراطية"، [فقد] وجدت شرطة خاصة تحت مسمى "الحسبة" لمراقبة المكاييل والموازين بالأسواق، وملاحقة مهربي الخمر والمسكرات بما في ذلك التبغ،

¹. المرجع السابق، ص ص 35، 37، 39، 40

². نفسه، ص ص 43، 45، 46

³. نفسه، ص ص 47، 51

حتى إن عددا من مناصري لوبو¹ انشقوا عنه، لشدة صرامته في تطبيق الشريعة الإسلامية في أقصى مظاهر الالتزام².

وتُوجي الفاصلة الزمنية³ بين بداية تطبيق المنهج المغيلي "التكفيري" على يد الأسكيا محمد الأول، والتشدد الذي طبع تعامل مجلس الأربعين مع الرعية بقيادة أحمد لوبو، بما يُشبه تجذّر التطرف الديني في الذاكرة الجمعية للنخب الدينية المحلية على الأقل، واحتفاظها بالإرث العقدي الذي رسخته فتاوى المغيلي، والأهم من كل ذلك هو توفر الحاضنة الثقافية وعوامل تقبل وانتشار وتعاطي التطرف الفكري، وما ينجم عنه من أعمال عنف وقتل وتدمير.

رابعا: الانفجار الديموغرافي

حدد معهد السلام العالمي (IPI) في تقرير له صادر سنة 2013 الانفجار الديموغرافي كأحد أهم التحديات الرئيسية، التي تواجه منطقة الساحل على المدى البعيد⁴. وقد برزت المعضلة الديموغرافية خلال العقود الأخيرة، وتجلت على شكل انفجار سكاني كبير، يحمل في طياته مآسي وأزمات منطقة الساحل، من بطالة ومجاعة وفقر وهجرة واضطرابات إثنية ونزوح إلى الجريمة ... وتشير دراسات ديموغرافية حديثة إلى أن منطقة الساحل "تشهد نموا سكانيا لم تشهده أي منطقة أخرى من العالم، ففي غضون 20 عامًا المقبلة، وهي فترة قصيرة جدًا، من المرجح أن يتضاعف عدد سكان

¹ . هو الشيخ أحمد الفلاني مؤسس مملكة ماسينا وهو المشهور بأحمد لوبو. وقد بدأ حركة جهادية إسلامية سنة 1231هـ / 1816م انطلقت من ماسنه (منطقة تجمع إلى شرق مالي غرب النيجر)، فجمع حوله جيشا قويا، يدفعه عامل الدعوة إلى الإسلام وتغذية العصبية الفلانية، فأسقط في البداية سلطنة فلانية تسمى آردو، ثم امتدت فتوحات جيشه غربا منتزعة جزءا من مملكة سيكو البيمبارية".
يُنظر:

المختار بن حامد، حياة موريتانيا، حوادث السنين، أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تقديم وتحقيق: د. سيد أحمد بن أحمد سالم، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011، ص 326
² . القاضي محمد كعت التبتكي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفریق أنساب العبيد من الأحرار، دراسة وتعليق الدكتور آدم بمبا، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى 2014، ص 53

³ . تأسست إمارة ماسينا سنة 1816، بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من قيام مملكة السونغاي، وكان تاريخ صدور فتاوى المغيلي سنة 1503، مع بداية تأسيس هذه المملكة.

⁴ - (IPI) Mali and the Sahel-Sahara: From Crisis Management to Sustainable Strategy, Op, Cit, P10

دول مجموعة الخمس في الساحل (بورкина فاسو، مالي، موريتانيا، النيجر والتشاد)، وهو ما يعني أن عدد سكان هذه الدول سيقفز من 80 إلى 160 مليون شخص في سنة 2040¹.

وتذهب دراسة أخرى، تصنيف دولة السنغال لدول الساحل الخمس إلى أن "بلدان الساحل الستة تتحوا في اتجاه زيادة عدد سكانها من 89 مليون نسمة في سنة 2015، إلى 240 مليون نسمة في سنة 2050، ثم 540 مليون نسمة في سنة 2100، وبحلول هذا التاريخ، سيزيد عدد سكان النيجر وحدها على 200 مليون نسمة، مقابل 15 مليون اليوم"². ورغم أن هذا "الانفجار الديموغرافي" الذي بدأت ملامحه تلوح في الأفق بالفعل، ليس هو السبب المباشر في الأزمات متعددة الأبعاد التي تشهدها منطقة الساحل والصحراء حاليا، إلا أنه أصبح من أهم عوامل ترسيخ وديمومة هذه الأزمات، والأخطر من كل ذلك هو أن هذه الأزمات تحولت إلى معضلات بنيوية، اجتماعية واقتصادية وحتى مناخية.

ويمكن تلمس الآثار الناجمة أو المصاحبة لظاهرة "الانفجار السكاني"، من حيث علاقتها بانتشار التطرف والإرهاب والجريمة المنظمة في الساحل والصحراء من خلال تقاوم أزمة البطالة، خاصة في صفوف الشباب الذين يشكلون الغالبية العظمى من سكان هذه الدول، وقد أدى هذا الواقع المزمن إلى أن تصبح "بطالة الشباب هي المحرك الرئيسي للإرهاب، إذ يخلص بنك التنمية الأفريقي الذي أعد دراسة عن بطالة الشباب في 24 دولة نامية على مدى 30 سنة، إلى أن هذا العامل الاقتصادي يلعب دورًا مهمًا في خطر عدم الاستقرار السياسي لأي دولة"³.

خامسا: التدهور المناخي والأزمات الانسانية

أشار التقرير الاستراتيجي لمركز الجزيرة للدراسات لسنتي 2022-2023، إلى أن "أنحاء كثيرة في إفريقيا شهدت خلال العام 2022 ارتفاعا ملحوظا في درجات الحرارة، واتساعا لرقعة الجفاف، وتغيرا في أنماط هطول الأمطار، وزيادة في وتيرة تقلب المناخ. حدث ذلك رغم أن إفريقيا لا تساهم إلا بنسبة 3% من إجمالي انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية، مع أنها تمثل نحو 17% من سكان العالم. ويؤكد الدمار الواسع الذي رافق موجة الفيضانات لعدة أشهر، خطورة الآثار الاقتصادية

¹ - المزيد من المعلومات على موقع THE CONVERSATION.COM، 2018 07 02 9h54، الرابط التالي:
<https://theconversation.com/le-sahel-au-defi-de-son-peuplement-99111>

² - المزيد من المعلومات في مقال على موقع صحيفة Le Monde الفرنسية، 16/01/2017، على الرابط التالي:
https://www.lemonde.fr/afrique/article/2017/01/16/le-sahel-est-une-bombe-demographique_5063147_3212.html

³ - المزيد من المعلومات على موقع worldpolicy.org، 15/08/2017، الرابط التالي:
<https://worldpolicy.org/2017/08/15/youth-unemployment-and-the-fight-against-terrorism-in-west-africa/>

والاجتماعية والبيئية لتغير المناخ وزيادة الظواهر الجوية المتطرفة على الشعوب الإفريقية¹ وتعاني دول الساحل على وجه الخصوص من أزمات إنسانية خطيرة بسبب هذه التقلبات المناخية، وهو ما يؤثر بشكل مباشر على شعوب المنطقة ويساهم في تفاقم الأزمات الاجتماعية والسياسية، ويلقي بظلاله القاتمة على الأوضاع الأمنية، ف" في هذه المنطقة من إفريقيا، يمكن أن تنشأ الجريمة المنظمة من العديد من العوامل، خاصة الكوارث الطبيعية والمصائب الأخرى الناجمة عن المناخ، مثل الفيضانات، التلوث، ارتفاع درجات الحرارة، الجفاف، التصحر، فهذه الأحداث الطبيعية المدمرة قد تصبح مصدرا للأعمال الإجرامية، لأنها تجعل السكان في حالة عوز وتبعية، وفي الغالب، تستغل الجماعات الإجرامية حالة الفوضى التي يعيشها السكان ضحايا الكوارث لممارسة نشاطاتها." ² ف" وفقاً لتقرير التهديد البيئي ETR³ الصادر عن IEP⁴، فإن مخاطر المياه هي أخطر تهديد كارثي بالنسبة لست دول في منطقة الساحل، تليها مخاطر الغذاء في ثلاثة بلدان، وتعد منطقة الساحل موطناً لأعلى تركيز في العالم من البلدان ذات النقاط الساخنة، وهذه البلدان هي الأكثر عرضة للانهايار عند تعرضها لمزيد من الصدمات." (....) مما يعني أن لديها مستويات منخفضة من المرونة ودرجة عالية أو عالية للغاية من التهديدات الكارثية⁵. ويبدو أن معضلة نقص المياه ستتحول إلى عنوان للأزمة الإيكولوجية المتفاقمة في منطقة الساحل والصحراء عموماً، وهو ما يفتح الباب أمام نشوب الصراعات على المصادر القليلة الآخذة في النفاذ، ويوفر فرصة إضافية للحركات المتطرفة لمزيد من التحكم في مصادر الحياة بالنسبة للسكان المحليين، ذلك أن "نقص المياه أو المخاوف بشأن النفاذ إليها أو المشكلات المتعلقة بنوعيتها وكميتها، كلها تساهم في خلق الظروف التي تنمو وتزدهر فيها الجماعات الإرهابية، كما يمكن استخدام المياه كأداة إكراه، تؤدي إلى تفاقم انعدام الأمن المائي، بحيث يمكن لمن لديهم إمكانية الوصول إلى المياه أو شن الحرب، استخدامها كأداة للتجنيد... فحوادث العنف المسجلة في منطقة الساحل تقترب من نقاط المياه، مما يعني أن علاقة تربط نشوب النزاعات المسلحة وندرة المياه في المنطقة..." ⁶.

¹ . سيد أحمد ولد أمير، التقرير الاستراتيجي 2022-2023، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، قطر، يناير 2023، ص 90

² - Mamadou Mouth Ban, Op, Cit, P 51, 52

³ . مختصر لتسمية مؤشر التهديد البيئي

⁴ . مختصر لتسمية معهد الدراسات السياسية في باريس

⁵ - Global Terrorism Index 2022, Op, Cit, P 52

⁶ - Idem, P 53

ويبدو أن نقص المياه والغذاء تحول مع تفاقم الأزمات الإنسانية الناجمة عن التدهور البيئي إلى وسيلة للاكتتاب، وأداة فعالة لإكراه السكان المحليين على تأمين احتياجات الجماعات المسلحة، المسيطرة والمتصرفة عادة في مصادر المياه والغذاء، من العنصر البشري الذي تحتاجه هذه الحركات وتوفير المجندين، فالتجنيد مقابل الغذاء، غدا القاعدة المعمول بها في الكثير من مناطق الساحل¹.

سادسا: النزعات الانفصالية

تشكل الدولة الفاشلة أو الهشة عادة إطارا مناسباً لتفريخ النزعات الانفصالية، خاصة منها ذات الطابع العرقي. وقد لوحظ مؤخرا في بعض دول منطقة الساحل ظهور ما يمكن تسميته بـ "وعي عرقي" أو "نزعة العودة إلى الأصول"، وهي ظاهرة تتجسد عادة في النزوع المتنامي نحو الاعتزاز بالهوية العرقية لدى بعض المجموعات المحلية في المنطقة، وإن كان الأصل في ذلك هو غياب أو ترهل جهاز الدولة الذي يفترض أن يشكل إطارا سياسيا وقانونيا عاما، يضمن حق المواطنة لجميع الأفراد من مختلف العرقيات.

وقد ثبت من خلال استقراء التجارب السياسية لمعظم الدول الإفريقية ما بعد الاستقلال، أن القبيلة والعرق شكلا عاملي هاشاشة للدولة في منطقة الساحل على وجه الخصوص، فـ "التاريخ السياسي لإفريقيا ما بعد الاستعمار، ينزع إلى تأكيد ترسيخ أطر الحشد والتجمع التي يتطلبها البحث عن هويات "قبلية" أو "عرقية"، وإن كانت هذه الأخيرة تتداخل وتشمل أحيانا عوامل أخرى في الحقل السياسي: الدين، اللغة الرسمية، "الاتصالات" الاقتصادية والسياسية الخارجية.² وبغض النظر عن مدى اتفاق الباحثين حول الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة، إلا أنها لا تأخذ أبعادها الخطيرة في الغالب إلا عندما تندثر بلبوس الفكر المتطرف وتتبنها الجماعات المتشددة، وهو ما يشكل خطرا على وحدة الدول القائمة وعلى التعايش السلمي بين المذاهب والإثنيات المختلفة، فالمناطق التي تنشط فيها هذه المجموعات تقطنها أغلبية، تنتمي لنفس المجموعات العرقية لقادة الحركات الانفصالية، وهي مناطق في الغالب تتميز بغياب الدولة وانتشار الأمية والفقر. ضف إلى ذلك أن نمط النظام السياسي "المستورد" و "الغريب"، غدا في الكثير من الحالات سببا في القطيعة بين الدولة والمواطنين، بل وعامل ضعف وتفكك للدولة الوطنية، ليس في الأطراف فحسب وإنما في المركز أيضا، فـ "في هذه البلدان التي تكون فيها الدولة أساسا بمثابة نبتة خارجية، موروثة عن الاستعمار، فإن الجهاز المركزي

¹ - Ibid, P 54

² . عبد الودود ولد الشيخ، القبيلة والدولة في إفريقيا، ترجمة محمد بابا ولد اشغف، سلسلة أوراق الجزيرة رقم 32، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى 2013، ص 86

للسلطة لا يكون عامل هيمنة طبقية يأتي لإقرارها وشرعنتها، بقدر ما هو عامل إنشاء وترقية للكتل التوسعية التي تولد من رحمها، وقد عمقت الدولة الاستعمارية بشكل متسارع الفجوات بين الحكام والمحكومين، بإدخالها أدوات بيروقراطية مركزية، مزودة بوسائل قمعية تكنولوجية وتنظيمية، لا وجه للمقارنة بينها وبين وسائل السلطات المحلية القديمة.¹

سابعاً: العجز التنموي وغياب الدولة

أصبح غياب الحكامة الرشيدة اليوم من أهم عوامل عدم الاستقرار السياسي والوهن الاقتصادي في غالبية بلدان الساحل والصحراء، نظراً للانعكاس المباشر لفشل السياسات التنموية على الأوضاع العامة للبلاد. وقد أدى هذا الفشل التنموي المزمن إلى غياب الدولة عن مناطق واسعة من أراضيها، أو تأخرها في توفير الخدمات الأساسية لمواطنيها، خاصة في المناطق النائية، البعيدة عن العواصم والمراكز الحضرية التي توفر فرص العمل ومختلف أنواع الخدمات، وهو ما يفتح المجال واسعاً أمام المهربين والجماعات المتطرفة لممارسة مختلف أنواع النشاطات غير القانونية، ف"في المناطق المعروفة أكثر بممارسة تهريب المخدرات في منطقة الساحل، تسود فكرة أن المهربين يسعون لاستغلال المناطق الخارجة عن القانون، والمناطق التي غابت عنها الدولة لممارسة نشاطاتهم."² وغياب الدولة هو في حقيقة الأمر "يعني غياب القوة العمومية (الجيش، الشرطة، الدرك، الإدارة...) وبصفة عامة، فإن الجماعات الإرهابية تنتشر في المناطق التي لا يوجد بها قانون"³. وقد قادت هذه الوضعية الخطيرة الناجمة عن غياب الدولة إلى ظهور مجموعات الدفاع الذاتي، حيث بادر السكان المحليون في الكثير من بلدان الساحل إلى "اتخاذ إجراءات للدفاع عن أنفسهم من خلال إنشاء ميليشيات محلية، مما أدى إلى اتساع دائرة العنف، وبروز ظاهرة التنازع على السيطرة على الإقليم بين الجهات الحكومية وغير الحكومية."⁴

وقد أدى غياب الدولة بالفعل إلى إحياء النزعات العشائرية والقبيلة من مرقدتها القديم، وأصبحت هذه البنى الاجتماعية البدائية مقصداً للفرد في المناطق النائية البعيدة من السلطة المركزية، حيث تحول من مواطن إلى عضو منضبط ومنتظم في كيان قبلي يوفر له الأمان، ويقدم له الخدمات الأساسية من أمن وغذاء وصحة.

¹ . نفسه، ص 82

² –Peter Tinti, Op, Cit, P12

³ – Mamadou Mouth Ban, Op, Cit, P 39

⁴– Global Terrorism Index 2022, Op, Cit, P 54

لكن عجز هذه البنى الاجتماعية التقليدية عن توفير مثل هذه الخدمات لأفرادها، في ظل انتشار الفقر والعوز في العديد من بلدان الساحل، لا بد أن يفتح المجال أمام جهات أخرى وكيانات موازية للتدخل وملاً الفراغ الناجم عن غياب الدولة وعجز القبيلة أو العشيرة، وهذه الكيانات هي الحركات المتطرفة وجماعات الجريمة المنظمة، التي تحرص في الكثير من الحالات إلى توجيه جزء من مداخيلها المتأتية من نشاطاتها الخارجة على القانون، لتوفير الاحتياجات الأساسية للسكان المحليين، بل إن هذا الاستثمار قد يوجه بالإضافة إلى ذلك إلى بناء المساجد وتمويل الأنشطة الدينية والدعوية. ويُضاف إلى العوامل المذكورة آنفاً تدني المستوى التعليمي، حيث تعاني مناطق شاسعة من دول الساحل، خاصة الأطراف أين تتواجد الأقليات الإثنية من تدني نسبة التمدرس، وهي معضلة بنيوية، يبدو أن معظم بلدان المنطقة تواجه تبعاتها حتى الآن، وهو ما يعكس مستويات منخفضة من رأس المال البشري الماهر الذي يرمز إلى "مستوى الجهد الذي تبذله المجتمعات في سبيل تعليم المواطنين وتعزيز تنمية المعرفة، وبالتالي تحسين الإنتاجية الاقتصادية، ورعاية الشباب، والمشاركة السياسية ورأس المال الاجتماعي. وبسبب غياب رأس المال البشري الماهر في منطقة الساحل، أصبح الأفراد بحاجة إلى البحث عن طرق لإعالة أنفسهم وأسرتهم".¹

ويتهياً أن المشاكل والأزمات الراهنة التي تعصف بالدول الإفريقية عموماً، وبلدان الساحل والصحراء على وجه الخصوص في جانب كبير منها مرتبطة بمخلفات الاستعمار، والظروف التي حصلت فيها هذه الدول على استقلالها، ذلك "أن السياسات الاستعمارية التي خلقت كيان الدولة في منطقة الساحل بعيداً عن المعطيات البشرية الموضوعية التي تراعي التجانس الثقافي البشري والعرقي، ومعطيات الجغرافيا من حيث الموارد وإمكانية استغلالها، جعلت الدول الإفريقية عموماً وبلدان منطقة الساحل خصوصاً تبرز إلى الوجود ككيانات مصطنعة، تعاني كثيراً من المشاكل البنيوية، مما حال دون اندماجها وتطورها خلال العقود الماضية وجعلها عرضة لعدم الاستقرار وتلاحق الأزمات، ومع الزمن تفاقمَت تلك الأزمات حتى أصبحت تهدد كياناتها..."². تُضاف إلى ذلك الجغرافيا القاتلة التي تعاني منها الضفة الجنوبية للصحراء الإفريقية الكبرى، حيث تقع معظم بلدان الساحل، وتشكل هذه المنطقة فضاء قاحلاً يفتقر إلى أبسط مقومات الحياة، لكن يبدو أن هذه الخصوصية الإيكولوجية الطاردة، قد

¹ - Idem, P56

². ديدوي ولد السالك، أزمة الأمن في منطقة الساحل وانعكاساتها على بلدان المغرب العربي، مجموعة مؤلفين، صادر عن مؤسسة كونراد أدناور والمركز المغاربي للدراسات الاستراتيجية، التوفيق 2004، ص ص 10، 11، 12

تحولت إلى عنصر جذب لجماعات التطرف العنيف وشبكات الجريمة المنظمة، حيث غدا هذا الفضاء الصحراوي ملاذا آمناً، يضمن لهذه الجماعات عدم الملاحقة ويوفر لها حاضنة طبيعية وحتى بشرية. وقد ساهم فشل السياسات الأمنية لدول الساحل في هذا "الاستيطان" الجديد، فرغم الوسائل البشرية والمادية الكبيرة والدعم الدولي القوي، ماليا وأمنياً واستخباراتياً، إلا أن معظم دول الساحل قد فشلت، وإن بنسب متفاوتة في مواجهة التهديد المسلح للتنظيمات المتطرفة، باستثناء موريتانيا التي لم تشهد أي عملية إرهابية على أراضيها منذ سنة 2011.

ويمكن القول إن تأثير وتعاقد كل هذه العوامل، قد خلق الظروف الموضوعية لتجذر المعضلة الأمنية وتداعياتها المدمرة في عموم منطقة الساحل، ولاحقاً دول خليج غينيا الشاطئية، لكن عوامل ازدهار ما يطلق عليه بعض الخبراء "اقتصاد الجريمة" منها خاصة، وبسبب المداخل الهائلة المتأتية من هذه النشاطات الاقتصادية، قد ساهمت في تشكل ملامح مقاربة موحدة، أرست بالفعل دعائم شبكة أمان لوجستية وأمنية لجماعات الجريمة المنظمة في المنطقة، تضمن توفير المؤونة والسلاح والأموال لجماعات التطرف العنيف.

خصائص الجغرافيا السياسية لموريتانيا وأثرها على استقرار وقوة الدولة

محمد محمود ولد محمد الأمين

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة انواكشوط

مشكلة الدراسة: تتلخص مشكلة هذه الدراسة في محاولة الإجابة على الأسئلة البحثية التالية:

ماهي خصائص الجغرافيا السياسية للدولة الموريتانية؟

هل يتأثر استقرار الدولة الموريتانية أو تتأثر قوتها بخصائصها الجغرافية؟

ما العمل للاستفادة من مقدرات الجغرافيا السياسية للدولة الموريتانية ومواجهة التحديات التي تطرحها؟

أهداف الدراسة:

التعرف على خصائص الجغرافيا السياسية التي تؤثر في استقرار وقوة الدولة الموريتانية
وضع تصورات ومقترحات تساعد الدولة على استثمار نقاط قوة الجغرافيا السياسية لديها، ومواجهة
نقاط الضعف

منهجية الدراسة:

تتم الاستعانة بعدة مناهج حسب الحاجة إليها في كل جزء من أجزاء الدراسة، ونعتمد بصفة خاصة
على المنهج التاريخي لتتبع تطور ظاهرة معينة في الزمن لتفسيرها وكشف العوامل التي أدت إليها،
والمنهج المورفولوجي الذي يهتم بدراسة المظاهر الطبيعية والبشرية للدولة وأثرها على قوتها.

موريتانيا كمفهوم مكاني لم يوجد في السياسة الدولية الحديثة إلا في الأيام الأخيرة من القرن الـ19
(27 ديسمبر 1899)، عندما صادقت وزارة المستعمرات الفرنسية على المقترح الذي قدمه مبعوثها
لجمع المعلومات عن المنطقة، اكزافى كبولاني والقاضي بإنشاء ما يسمى بـ "موريتانيا الغربية"
وإخضاعها للنفوذ الفرنسي، على أن تمتد حدود الدولة المقترح إنشاؤها من نهر السينغال جنوبا إلى
تخوم المغرب والجزائر شمالا، ومن خاي وتمبكتو شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وهذا ما جعل
موريتانيا تمتد على مساحة كبيرة في الطرف الشمالي الغربي من إفريقيا والركن الجنوبي من الوطن
العربي، وأدى هذا الموقع إلى تأثر البلاد منذ أقدم العصور بالعديد من الأحداث المهمة جدا التي
عرفتها منطقة شمال وغرب إفريقيا، ورغم أن موريتانيا دولة حديثة في السياسة الدولية، إلا أنها
بمقاييس الجغرافيا السياسية دولة قديمة وعمرها بعديد القرون منذ أصبحت وحدة سياسية أصيلة،

ومثلت وطنًا لشعب واضح الهوية، ومن أبرز خصائص الجغرافيا السياسية لموريتانيا تأثيرًا في قوة واستقرار الدولة: الموقع الجغرافي، شكل الدولة، موقع العاصمة، حجم وتوزيع السكان، القبائل والأعراق العابرة للحدود.

أولاً: الموقع الجغرافي:

تكتسي دراسة الموقع الجغرافي للدولة أهمية كبيرة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيك، لأن كثيراً من الأنشطة الممكنة والموارد وصفات الدولة تعتمد كثيراً على موقعها الجغرافي، كما يؤثر الموقع الجغرافي كثيراً على نشاط الدولة واتجاهات سكانها وسلوكها السياسي.

مميزات الموقع الجغرافي لموريتانيا: تتمتع موريتانيا بموقع استراتيجي بالغ الأهمية حيث تقع في الركن الشمالي الغربي من قارة إفريقيا والجنوبي الغربي من الوطن العربي تحدها من الشمال الجزائر والمغرب (مناطق الساقية الحمراء وواد الذهب في جنوب المغرب متنازعة مع جبهة البوليزاريو وتسمى أحياناً بالصحراء الغربية) ومن الغرب المحيط الأطلسي على ساحل يبلغ طوله 750 كلم ومن الجنوب الغربي نهر السنغال الذي يمثل الحدود الطبيعية مع دولة السينغال¹ أما من الجنوب الشرقي والشرق فتحدها مالي على امتداد خط حدود يصل طوله 2237 كلم. وللموقع الجغرافي الموريتاني عناصر قوة وعناصر ضعف.

1 - نقاط قوة الموقع الجغرافي لموريتانيا

فبالنسبة لعناصر القوة:

أ- موريتانيا ليست دولة حبيسة وإنما تملك شاطئاً طويلاً حوالي 750 كم على أهم محيطات العالم نشاطاً، وهو المحيط الأطلسي الذي يقود معظم علاقاتها التجارية مع أوروبا وآسيا وأمريكا وإفريقيا والشاطئ الموريتاني هو جزء من **الإنبيعاج الإفريقي** الذي جعل الأجزاء الغربية في القارة أقرب مناطق العالم القديم إلى العالم الجديد وهي ميزة استغلتها الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية حيث كانت ترسل المساعدات لحلفائها من ميناء رصيفا في البرازيل إلى ميناء داكار في السينغال² كما أن الصين في إطار بناء حضور عسكري يواكب حضورها الاقتصادي في إفريقيا ضمن مشروعها مبادرة الحزام والطريق، حاولت بناء قاعدة عسكرية في الشواطئ الموريتانية لتمكين سفنها الحربية من الصيانة والتزود بالمؤونة والإمدادات اللوجيستية ونظراً لقرب هذه القاعدة العسكرية المحتملة من السواحل الشرقية للولايات المتحدة فقد اعتبرتها أمريكا تهديداً لأمنها القومي ونصح دبلوماسيون

¹ حدد نهر السينغال حداً فاصلاً بين موريتانيا والسينغال بموجب مرسوم فرنسي صادر في 25 فبراير 1905

² محمد محمود إبراهيم أنيب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1995، ص: 187

أمريكيون سلطات انواكشوط برفض المساعي الصينية لبنائها ما حال دون تحقيق هدف الصين في موريتانيا¹ لكن الصين عملت على بناء نفس القاعدة العسكرية في جمهورية إفريقيا الاستوائية؛
ب- الموقع الجغرافي مثل أحد مقومات الدور التاريخي والحضاري الموريتاني باعتبارها همزة وصل بين إفريقيا الشمالية العربية ودول جنوب الصحراء الإفريقية؛

ج- وجود الصحراء الكبرى في شمال وشرق موريتانيا والمحيط الأطلسي غربا ونهر السينغال في الجنوب الغربي حافظ على الشخصية الموريتانية وتميزها في الإقليم عبر التاريخ، من دون أن تجعل هذه الحواجز الطبيعية من موريتانيا دولة منعزلة أو قابعة في أرضها، بل كانت تؤثر وتتأثر وكأن قدرها يفرض عليها ذلك، ولم تفلح الصحراء الكبرى في يوم من الأيام أن تمثل لموريتانيا ستارا للعزلة أو الانطواء بل كانت دائما طريقا سالكا تستخدمه موريتانيا للأخذ والعطاء والتكامل بين جيرانها، بل إن هذا الموقع الاستراتيجي لموريتانيا بين شمال إفريقيا وغربها، بين الوطن العربي وإفريقيا الغربية السوداء وبين إفريقيا الغربية وأوروبا وأمريكا، جعل من البلد ممرا مهما بين غرب إفريقيا وشمالها، كما جعل منها نقطة لالتقاء القوافل التجارية القادمة من الشمال والجنوب، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في أن تكون ميدانا لصراع طويل الأمد بغرض الاستحواذ على خيراتها وطرق تجارتها، فكانت مسرحا لأطماع العديد من الغزاة البرتغاليين والهولنديين ولبريطانيين، وأخيرا الفرنسيين².

وبالنسبة لعناصر الضعف فإن موريتانيا تقع في منطقة الصحراء الكبرى والساحل الأفريقي والصحراء الكبرى هي منطقة فاصلة بين شمال إفريقيا وإفريقيا السوداء وتوجد بها عشر دول ستة منها عربية، هي: مصر السودان ليبيا تونس الجزائر المغرب موريتانيا، وأربعة من إفريقيا السوداء اتشاد مالي النيجر بوركينا فاسو³.

أما الساحل الإفريقي فيطلق على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا بمحاذاة الصحراء الكبرى ودوله هي السودان اتشاد النيجر مالي وموريتانيا ويتم توسيع حدوده أحيانا ليصل بوركينا فاسو نيجيريا السنغال جزر القمر الرأس الأخضر ومنطقة الساحل والصحراء مثل المناطق القبلية بين باكستان وأفغانستان ومنطقة زينغيانغ على حدود الصين القارية يعتبر حضور

¹ خالد البوهالي، الحضور العسكري الصيني في غرب إفريقيا: غينيا الاستوائية نموذجا، الميادين نت، 18 شباط 2022، 23:40

² محمد سعيد بن أحمدو، موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي: دراسة في إشكالية الهوية السياسية 1960-1993، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت 2003، ص: 68.

³ Chauprade Aymeric : géopolitique : constantes et changements dans l'histoire, Paris, Ellipses, 3^{ème} édition, p : 171

الدولة فيها ضعيفا ولذلك أصبحت منطقة عبور مثالية لمختلف أشكال التجارة المحظورة كالاتجار بالبشر إلى تجارة السلاح والمخدرات وهو ما يمثل تهديدا لأمن واستقرار دول الإقليم

2- أثر الموقع الجغرافي على موريتانيا عبر التاريخ

ظلت موريتانيا خلال الفترة الممتدة ما بين القرن التاسع إلى القرن 16 الممر الأساسي للقوافل التجارية الناشطة بين شمال إفريقيا وجنوب الصحراء وكانت الدولة الرستمية التي تأسست في شمال إفريقيا (الجزائر اليوم) حوالي سنة 776م أول الدول الإسلامية التي أقامت علاقات اقتصادية مع شعوب جنوب الصحراء حيث اضطرتها إلى ذلك أوضاعها السياسية إذ كانت في حالة عداء مع العباسيين في الشرق والغالبة الموالين لبني العباس في إفريقيا والأدارسة في المغرب الأقصى وهذا الواقع حتم عليها التوجه نحو جنوب الصحراء الكبرى بحثا عن حاجياتها ولتصريف منتوجاتها المحلية¹ ويمكن التمييز بين محورين طريقين قديمين كانا يخرقان الصحراء باتجاه بلاد السودان أحدهما المحور الشرقي ينطلق من فزان إلى بحيرة اتشاد ومنها إلى النيجر والآخر (المحور الغربي) تنطلق طرقة من جنوب المغرب الأقصى وجنوب غرب الجزائر إلى منعطف نهر النيجر مروراً بالصحراء وكان المحور الغربي أكثر أهمية وارتباطاً بحياة سكان موريتانيا القديمة، وهو يشتمل على ثلاث طرق رئيسية هي²:

أ . الطريق الساحلي ينطلق من نول لمطه في جنوب السوس الأقصى على الساحل الأطلسي للمغرب ويتجه جنوباً ليصل إلى مملحة أوليل (أنترت الحالية قرب مدينة كرمسين) طوله حوالي 1600 كلم تقطعها القوافل بعد شهرين من السير ومن نهايته (مملحة أوليل) ينطلق طريق آخر يتجه من الغرب إلى الشرق مسافة شهرين من السير تؤدي إلى أوداغست

ب . طريق تامدلت أوداغست (الطريق اللمتوني) ينطلق من تامدلت في جنوب المغرب الأقصى وصولاً إلى أوداغست ومن المحتمل أنه كان يمر بسبخة الجل للتزود بالملح وأهم محطات هذا الطريق من الشمال إلى الجنوب هي: تيندوف الفارسية عين بنتيلي بير أم اكرين - أناجيم - تورين - بير الطالب - اجرير - شنقيط وعند قيام الدولة المرابطية أصبح هو الطريق الأساسي للجيش المرابطية ما جعله يعرف بالطريق اللمتوني

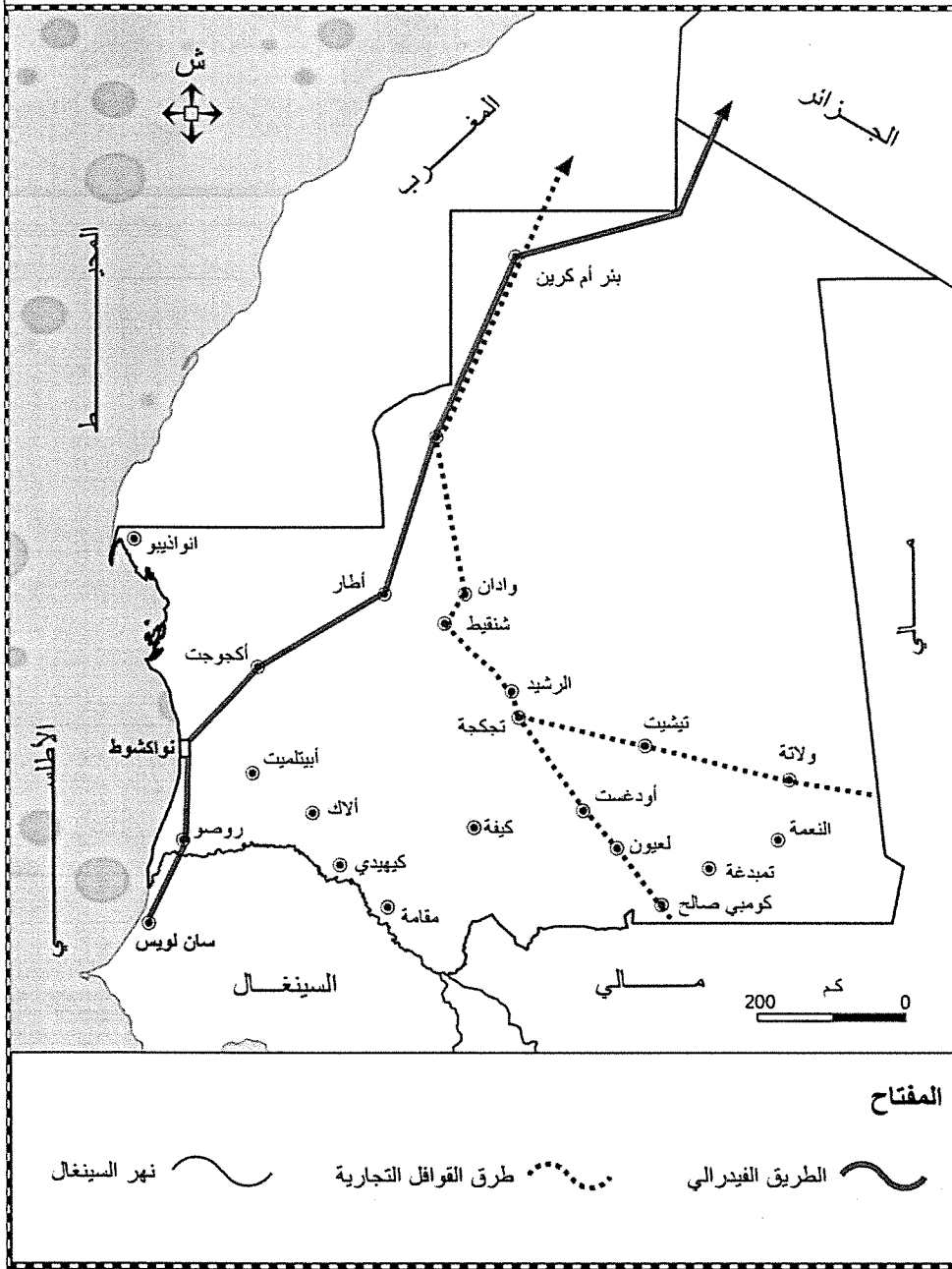
¹ قاسمي يختاوي، القوافل التجارية وأثرها في نشر الإسلام، مجلة العلوم الاجتماعية الصادرة عن المركز الديمقراطي

العربي في برلين، العدد 4، يونيو 2018

² الثاني ولد الحسين، صحراء المثلثين، دار المدار الإسلامي 2007 بيروت، ص: 268

ج. طريق وادي درعه - الصحراء - بلاد السودان، يصل طوله من 40 إلى 50 يوما من السير وهو يمر بمملحة تغازه وآخر مراحل قريّة مدوكن الصنهاجية وهي ليست بعيدة من ولاته إن لم تكن هي ذاتها، وهي من غانه مسافة 4 أيام.

خريطة 1: طرق القوافل التجارية العابرة لموريتانيا والطريق الإمبراطوري



المصدر : من إعداد الباحث

عبر هذه الطرق الثلاثة: أوليل أوداغست مدوكن، كانت موريتانيا القديمة ترتبط بمدينة سجلماسة ملتقى القوافل المتجهة من شمال إفريقيا إلى الصحراء والسودان واستمرت حيوية هذه الطرق دون انقطاع من القرن 9 إلى القرن 16 وتمثلت مواد التبادل التجاري في

- المواد المصدرة من شمال إفريقيا إلى الصحراء : هي النحاس المواد الفخارية والزجاجية والمواد الغذائية (التمر العنب القمح والملح) ومواد علمية مثل الكتب والمخطوطات
- الموارد المصدرة من الصحراء إلى شمال إفريقيا¹: هي الذهب، الرقيق والحبوب من بلاد السودان وجلد اللط وریش النعام من أوداغست وساهمت هذه الطرق العابرة للصحراء في توفير مصادر للدخل للكثير من سكان موريتانيا القديمة (قبائل الملتمين) حيث كانوا يعملون كأدلاء وحراس لهذه القوافل نظرا لخبرتهم في معرفة الطريق، كما ظهرت عدة مدن موريتانية قديمة على طول الطرق التجارية مثل آبير (شنقيط الأولى) أزوكي- تيشيت- ولاته- أوداغست وقدر سكان هذه المدن بالآلاف للمدينة الواحدة².

كان للتجارة عبر الصحراء دورا أساسيا في تعاظم أهمية الموقع الجغرافي لموريتانيا خلال الفترة من القرن 9 إلى القرن 16 فكانت مركز الثقل الرئيسي وحجر الزاوية في المنطقة من وجهة النظر الحضارية والسياسية ولم يكن غريبا آنذاك أن تمثل الموقع الجغرافي الأخطر والأهم لكن الكشوف الجغرافية وما نتج عنها من إقامة موانئ ومراكز تجارية على الأطلسي جعل ثقل النشاط التجاري ينتقل إلى غرب البلاد وأخذت التجارة الأطلسية تنتعش على حساب التجارة الصحراوية وهو ما أدى إلى تناقص القيمة الفعلية للموقع الجغرافي للبلاد في وقت من الأوقات.

3- أثر الموقع الجغرافي على السياسة الخارجية لموريتانيا

موقع موريتانيا الجغرافي في الركن الجنوبي الغربي للوطن العربي والشمال الغربي لقرارة إفريقيا كان من أبرز الدوافع التي جعلت فرنسا تقرر احتلال هذا البلد " غير المفيد اقتصاديا " لكن موقعه الاستراتيجي يسمح لها بربط مستعمراتها في المغرب العربي بتلك الموجودة في غرب إفريقيا³، وبعد

¹ الناني ولد الحسين، صحراء الملتمين، المرجع السابق، ص: 287

² نفس المصدر، ص: 316

³ Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : Nouakchott (Mauritanie) et khartoum (Soudan) étude comparée, thèse pour l'obtention du doctorat en géographie, université paris I panthéon Sorbonne 2006, p 91

الاستقلال تبنت موريتانيا سياسة خارجية تمليها إلى حد بعيد مقتضيات الموقع الجغرافي بحيث تمد يدا إلى العالم العربي وأخرى إلى إفريقيا مع الحرص على التوازن في علاقتها بالطرفين وعدم تغليب أي منهما على الآخر، وهكذا اتسمت علاقتها بالدول العربية بمستويين من التفاعل هما المستوى الجماعي من خلال مؤسسة الجامعة العربية والمستوى الثنائي بينها وأي من الدول العربية حيث يتم عبر اتفاقيات التعاون في مختلف المجالات وعبر التمثيل الدبلوماسي المتبادل وبانضمام موريتانيا للجامعة العربية 1973 فإن موقعها الجيوبوليتيكي في طرف خريطة الجغرافيا السياسية للنظام الإقليمي العربي جعل منها عمقا استراتيجيا¹ لهذا النظام حيث أن موقعها يربطها بدول عربية كما يربط حدودها بدول أخرى غير عربية تشكل نظاما إقليميا آخر وهو ما يتيح لها أن تلعب دورا مهما في العلاقات العربية الإفريقية وفي التقارب العربي الإفريقي الذي هو أحد أهداف السياسة العربية الإقليمية نظرا لأهمية إفريقيا كعمق استراتيجي واقتصادي للعالم العربي كما أن دور موريتانيا يمكن أن يكون مهما جدا بين الدول العربية بالنظر إلى موقعها الطرقي الذي يجعلها لا تنغمس في خلافات الدول العربية وخصوصا بعد انسحابها من حرب الصحراء وكونها لا تسعى إلى الزعامة الإقليمية وهكذا فمن خلال علاقتها الحسنة بالجميع تستطيع التوسط في النزاعات التي قد تنشأ بين الدول العربية والمساهمة في حلها بالطرق الودية ولذلك كانت موريتانيا عضوا في لجنة المصالحة العربية 1993 بعد حرب الخليج الثانية وعضوا في اللجنة السباعية العربية للأزمة الصومالية وعند استضافة موريتانيا لأول مرة القمة العربية السابعة والعشرين سنة 2016 حرصت في البيان الختامي على إبراز المسائل الاجتماعية كالقضية الفلسطينية وغيرها، وابتعدت عن المسائل الخلافية فحذفت بند إدراج حزب الله اللبناني كمنظمة إرهابية في جدول الأعمال رغم مصادقة مؤتمر وزراء الداخلية والخارجية العرب عليه قبلها.

ظلت الدبلوماسية الموريتانية حريصة على أن تلعب موريتانيا دورها الحضاري كحلقة اتصال بين المجموعتين العربية والإفريقية باعتبارهما تلتقيان في ميراث مشترك وتجمعهما كذلك مصالح مشتركة وعملت في هذا الإطار على تعزيز التقارب العربي الإفريقي، وتأسيس النظرة الموريتانية إلى إفريقيا على مقتضيات الموقع الجغرافي الذي أتاح للموريتانيين نشر الإسلام في إفريقيا عموما والمناطق المجاورة للصحراء خصوصا ويرى الموريتانيون أن بلدهم يمثل همزة وصل بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا جنوب الصحراء وباعتبارها عضوا مؤسسا لمنظمة الوحدة الإفريقية 1963 لعبت موريتانيا

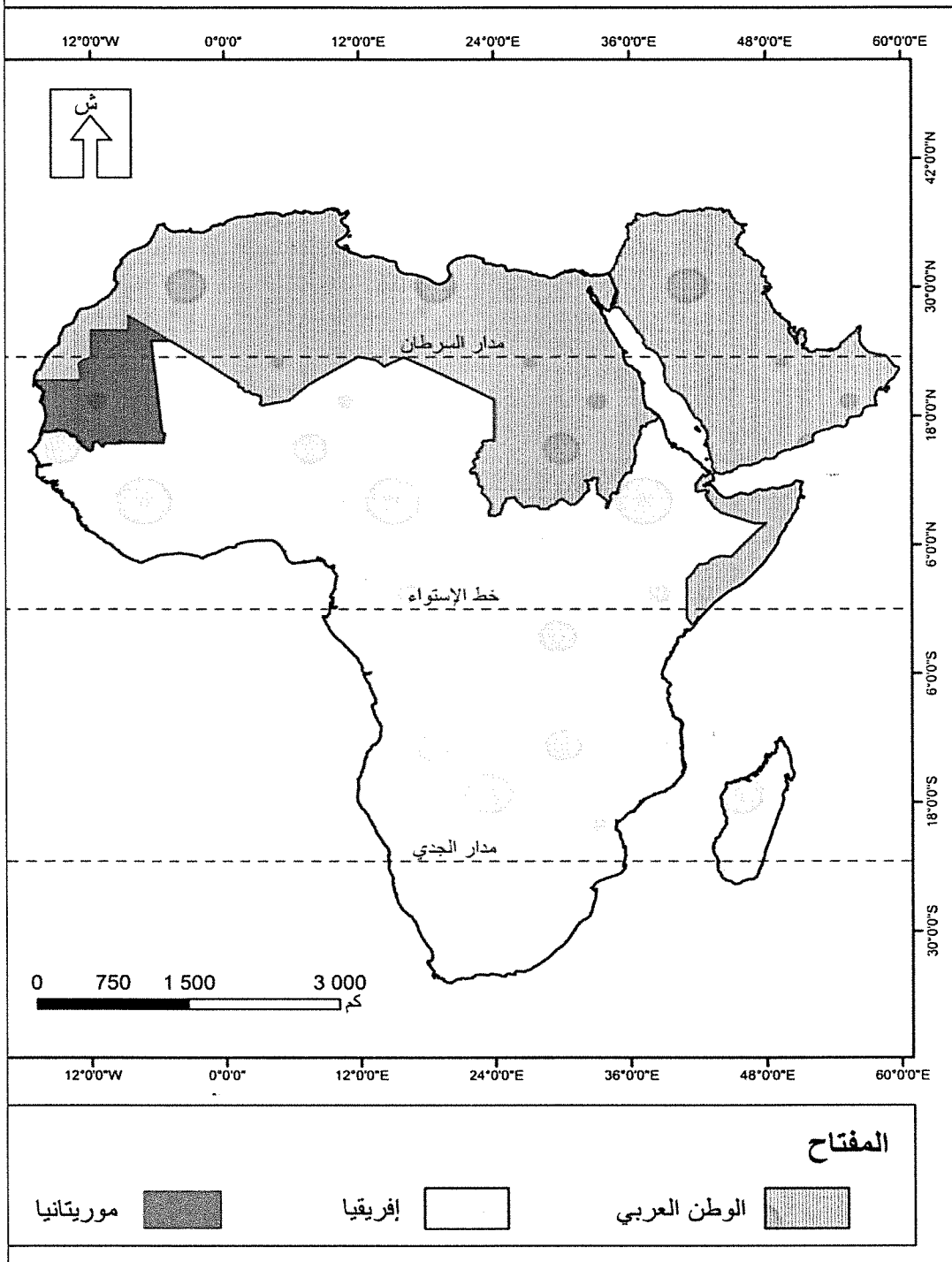
¹ محمد سعيد بن أحمدو، موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي، مرجع سابق، ص: 220

أدوارا مهمة في العلاقات العربية الإفريقية واستعملت نفوذها في إفريقيا للحصول على تأييد الدول الإفريقية للقضايا العربية وخاصة الصراع العربي الإسرائيلي كما طالب الرئيس الموريتاني في أول قمة عربية تحضرها موريتانيا قمة الجزائر 1973 الدول العربية أن تتجاوب مع موقف الدول الإفريقية التي بادرت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني وأن تقطع الدول العربية علاقتها مع النظام العنصري في جنوب إفريقيا.

كما اقترح إنشاء آلية اقتصادية للتنمية والتعاون وتأسيس بنك عربي إفريقي لتموله الدول العربية ووافق العرب على تلك المقترحات كلها¹.

¹ محمد سعيد بن أحمدو، موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي، مرجع سابق، ص: 297

الخريطة رقم 2: موريتانيا همزة وصل بين الوطن العربي وإفريقيا



المصدر: من إعداد الباحث

ثانيا -شكل الدولة

يتطلب الشكل المثالي للدولة التوفر على ميزتين أساسيتين، هما¹:

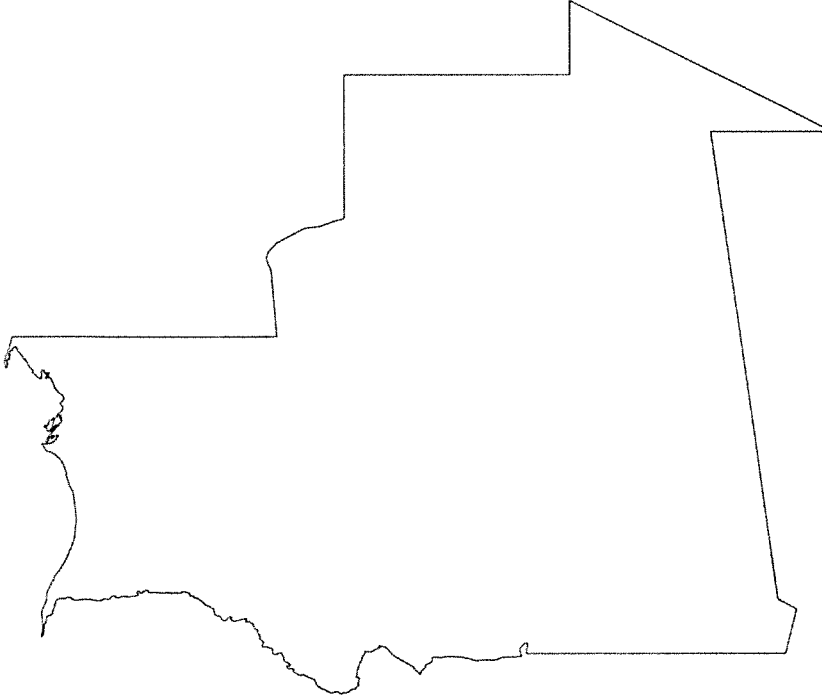
الترابط والتماسك بين أطراف المساحة، لأن الشكل الذي لا يكفل التماسك بين أجزاء الدولة ينطوي على معنى من معاني الانفصال تحت أي ضغط من الضغوط أو استجابة لبعض المتغيرات، وقد يترتب على ذلك صعوبات اقتصادية أو استراتيجية بسبب فقدان الاتصال بين الأجزاء، وقد يؤثر على الأحاسيس والعواطف التي تشد ولاء الناس، كما يضر بعمق الإيمان بالأفكار التي يستند إليها وجود الدولة فيكون مدعاة للإحساس بالضعف أو الانفصال.

أما الميزة الثانية فهي: انتظام الشكل والامتداد المعقول بالنسبة للدول المحيطة: فعدم انتظام شكل الدولة وامتداد "جيب أو نتوء" منها داخل حدود الدول المجاورة قد يعرض مساحة الدولة للبتز أو التمزق. تعتبر الدولة المندمجة ذات الشكل الهندسي الدائري أو المربع أو المعين مع عاصمة في الوسط، هي الدولة المثالية لأنها تتميز بتماسك أجزائها وعدم وجود حواجز وفواصل بين أجزاء أراضيها وهو يساعد الدولة على مد شبكات المواصلات واتصال العاصمة بجميع أطراف الدولة مما يساعد في حفظ النظام والأمن وسرعة الدفاع عن الوطن كما يقلل من صعوبات السفر والتنقل بين مناطق الدولة وفي حالة الحرب - لا قدر الله - تصبح السيطرة على جميع أجزاء الدولة من المركز أمر سهل والجيش يتصرف من داخل دائرة يقوى على قهر أي جيش آخر خارج هذه الدائرة والدولة ذات الشكل الدائري تكون حدودها جميعا متساوية في عدم قابليتها للاختراق مما يجنبها الغزو الخارجي، ويعتبر شكل الدولة الموريتانية قريب من الشكل المثالي من حيث ترابط وتماسك أجزاء الدولة وانعدام الحواجز الطبيعية، وكذلك من حيث الشكل الهندسي الدائري أو المربع لأن بُعد أقصى نقطة في الجنوب (ادياكيلي) عن أقصى نقطة في الشمال (حاسي أسبط)، هو 1450 كم، وهو مساوٍ تقريبا للمسافة بين (باسكنو) في أقصى الشرق واناوذيبيو في أقصى الغرب 1250 كم².

¹ صلاح الدين علي الشامي، دراسات في الجغرافيا السياسية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999، ط 4، ص 5756

² وزارة الإعلام، الجمهورية الإسلامية الموريتانية: تقديم وتعريف، منشورات وزارة الإعلام 12 دجمبر 1987، ص 5

الخريطة 3: شكل الدولة الموريتانية



© Vemaps.com

المصدر: من إعداد الباحث

رابعاً: موقع العاصمة

العاصمة الموريتانية انواكشوط هي عبارة عن بئر قديمة تنسب ملكيتها إلى قبيلتين من قبائل الزوايا في موريتانيا هما تندغه وتاشمشه، وظلت لقرون عديدة جزءاً من أراضي إمارة اترارزه، بعد توقيعه اتفاقية الحماية مع أمير اترارزه، اقترح كيولاني إقامة مركز عسكري في انواكشوط سنة 1903 وجعل هذا المركز العسكري من انواكشوط محطة توقف رئيسية على الطريق الإمبراطوري رقم 1 الذي يربط سانلوي بأطار ثم تيندوف، كانت انواكشوط آنذاك بلدة صغيرة على بعد 7 كم من ساحل المحيط الأطلسي تضم حصناً فرنسياً يراقب من خلاله الجنود الطريق التجاري الذي يربط المستعمرات الفرنسية في غرب إفريقيا والمغرب العربي، وتم التخلي عن هذا الموقع العسكري سنة 1908 وانسحبت الحامية التي كانت فيه نحو المذرذرة، ولكن الفرنسيين أعادوا بناء حصن آخر في بيله بانواكشوط سنة 1927 وصمد هذا الحصن أمام فيضان النهر سنة 1951

عشية استقلال البلاد وقع الاختيار على انواكشوط لتكون العاصمة الجديدة وذلك من بين خيارات أخرى هي: الموقع القديم لحامية كبولاني في خليج بورتانديك غير بعيدة من اجريدة (30 كم شمال غرب انواكشوط)، وشريط الكثبان الرملية على شاطئ البحر، ومدينتي انواذيبو وروصو¹.

وكان لبلدة انواكشوط عديد المزايا فهي محطة على الطريق الإمبراطوري رقم 1 بين سانلوي وأطار وتيندوف وهي بعيدة نسبيا من المغرب الذي كان يرفض استقلال البلاد ويريد ضمها، كما أن موقعها يتيح الانفتاح على الساحل البحري وعلى المناطق الداخلية في نفس الوقت، ورغم وجود انواكشوط تاريخيا ضمن نفوذ إمارة اترارزه، إلا أن موقعها الطرقي في الإمارة جعل منها منطقة محايدة إلى حد ما بين جهات البلاد الشمالية والجنوبية وعلى الحدود بين موريتانيا البيضاء والسوداء، يضاف إلى ذلك استفادة انواكشوط من هبوب تيار كناريا البارد طيلة أيام السنة ما يمنحها مناخا معتدلا مناسباً جداً للعاصمة² ومن المعلوم أن العامل التاريخي هو الآخر يؤثر في اختيار العواصم مثل أثينا وروما وباريس وبغداد والقاهرة، ولذا فاختيار موقع العاصمة انواكشوط على المحيط الأطلسي قريبا من "الرباط" الذي تأسست به الدولة المرابطية يجسد عودة الموريتانيين بذكرياتهم إلى أيام ازدهارهم حينما مدوا نفوذهم إلى المغرب العربي والأندلس (إسبانيا الحالية).

ورغم تلك المزايا إلا أن مما يعاب على العاصمة انواكشوط هو أن موقعها على المحيط الأطلسي مثل داكار وآبيدجان وغيرها من عواصم عديد الدول في غرب إفريقيا جاء قبل كل شيء بتأثير المستعمر الفرنسي، حيث كان سائدا أن تتركز مراكز إدارة المستعمرات في الموانئ الرئيسية ونقاط الاتصال الهامة بحكام إمبراطورياتهم، وفي أعقاب نهاية الاستعمار ورثت الدول المستقلة الجديدة عواصم تتوسط التجارة العالمية غير أنها في موقع غير مركزي إداريا وحضاريا في الدولة، لكنه موقع يضمن انتظام تزويد الدولة الاستعمارية بالمواد الأولية لمستعمراتها السابقة، بينما تقتضي المصلحة الاستراتيجية وجود عاصمة البلد في الوسط لا في الأطراف كما هو الحال بالنسبة لباريس وغيرها³، وربما يؤدي ذلك لاختيار الدولة بعد الاستقلال لعاصمة جديدة في موقع أكثر توطنا كما حدث في الهند باستبدال مدينة كلكتا بمدينة دلهي، فالموقع المتوسط للدولة مهم جدا لأن العاصمة تعتبر قلب الدولة النابض، وموقعها في وسط البلاد يشد لحمة الوحدة الوطنية ويساهم في تنظيم توزيع السكان

¹ Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : Nouakchott (Mauritanie) et Khartoum (Soudan) étude comparée, thèse pour l'obtention du doctorat en géographie, université paris 1 panthéon Sorbonne 2006, p 123

² Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : op, cite, p 124

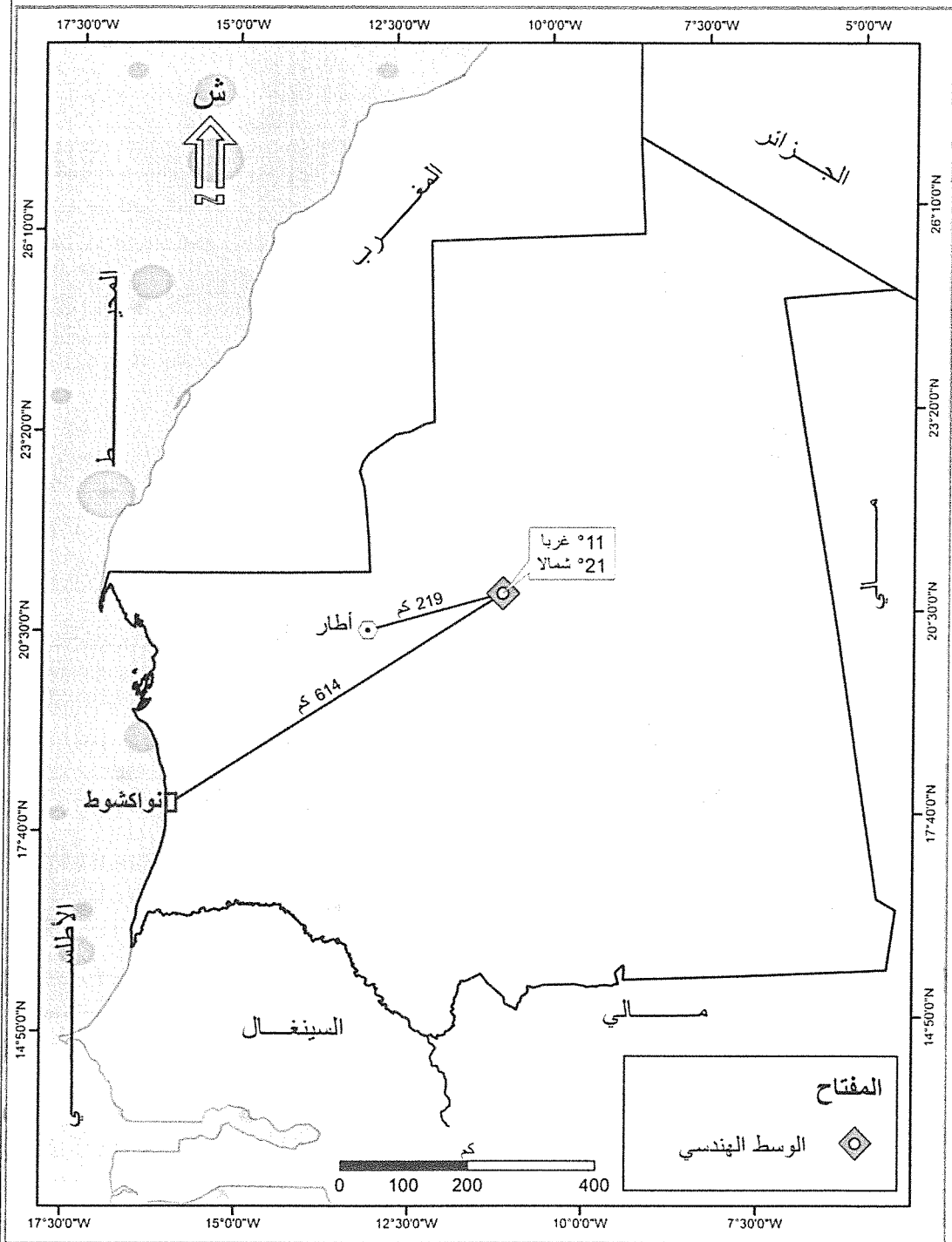
³ هنالك دول اختارت لعاصمتها منطقة الحدود كإسلام أباد في باكستان المطلة على الحدود الهندية

وإنماء المناطق الداخلية ويتيح سهولة الاتصال بمختلف أجزاء الدولة فيسهل بذلك العمل الإداري لقصر المسافات ويعطي الحكومة مظهرا انتمائيا أكثر¹ كون العاصمة هي مركز إداري لكل من الأرض والسكان، وإذا كان من المهم للدولة أن تأخذ شكلا متماسكا فإن العاصمة هي أداة هذا التماسك حيث أن وظيفة العاصمة الأساسية ومبرر نشأتها يتمثل في تنظيم المنطقة السياسية وإدارتها ومن الأفضل أن تتوسط العاصمة محيط الدولة وإطارها الخارجي وأن تكون مركز النقل الهندسي وإحداثيات هذا المركز الهندسي لموريتانيا، هي: 11 غربا و 21 شمالا، في حين أن العاصمة انواكشوط تتحرف كثيرا عن مركز الوسط كما توضح الخريطة 4، مسافة 613 كم إلى الجنوب الغربي منه ، وبالتالي فهي قريبة جدا من الحد الغربي وبعيدة جدا من الحد الشرقي ، ويؤدي تطرف موقع العاصمة إلى صعوبة الضبط السياسي وإضعاف قبضة الدولة على الأقاليم الهامشية والأطراف² بينما يوفر الموقع الوسط توازنا بين المناطق لاسيما في الدول ذات المساحة الكبيرة والنقل غير المتطور مثل موريتانيا، وتعد مدينة أطار أقرب مدن البلاد الكبرى من هذا المركز الهندسي لوقوعها على بعد 220 كم إلى الغرب منه، إلا أن موقع مدينة أطار مع ذلك ليس مثاليا في مركز البلاد بل يبدو متطرفا نحو الشمال لوقوع المدينة في القسم الصحراوي ضعيف الكثافة السكانية.

¹ يسري الجوهري، الجغرافيا السياسية والمشكلات العالمية، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1993، ص: 104

² عبد السلام رضوان وعلي يونس، الجغرافيا السياسية، دراسة نظرية وتطبيقات عالمية، دار الوفاء للنشر والتوزيع

خريطة رقم: 4: الوسط الهندسي لموريتانيا ودرجة انحراف العاصمة



المصدر: من إعداد الباحث

ويجب على العاصمة أن تكون في أكثر المواقع أمانا وقدرة على الحماية، وإذا كانت العاصمة على الساحل أو قريبة منه، مثل انواكشوط، فلا بد من أسطول قوي لحمايتها فقد سقطت أوصلو عاصمة النرويج بسهولة سنة 1940 عندما أبحر الأسطول الألماني في الخليج الذي تقع فيه¹. وتضح أهمية العاصمة كمركز للأمة في نقل بعض الدول أحيانا للعاصمة من المناطق الهامشية إلى الداخل لتكون أكثر تمثيلا للدولة مثل أنقره بدل إسطنبول، وموسكو بدل سان بترسبورغ وإبرازيليا بدل ريودجينيرو.

واختيار انواكشوط كعاصمة غلبت عليه الاعتبارات السياسية ولم يضع في الاعتبار بعض المعايير الموضوعية مثل مراعاة ظروف الوسط الطبيعي والأخطار البيئية المتعددة التي تهددها كزحف الرمال وسيادة السباح والتربة الملحية وفيضانات النهر التي غزتها قبل ذلك بفترة قصيرة أي سنة 1951²، ولأن العاصمة عادة هي المدينة الأولى سكانيا في الدولة والأسرع نموا فتزداد حاجتها إلى المنتجات الزراعية والصناعية ولذلك كان من الأفضل أن يكون موقع العاصمة انواكشوط في منطقة سهلة خصبة، كباريس ولندن مثلا، وذلك لتوفير حاجة السكان من الخضروات والفواكه واللحوم والألبان والمنتجات الصناعية إذ أن بعد العاصمة عن المناطق الزراعية والصناعية يجعل من الضروري نقلها من المناطق البعيدة مما يزيد أسعارها.

خامسا: حجم وتوزيع السكان:

يعتمد بعض الجغرافيين مثل موير خمسة عوامل لقياس قوة الدولة، من بينها عدد السكان فكلما زاد عدد السكان كلما اتسعت فرص الإنتاج بتوفر اليد العاملة والتسويق بكثرة المستهلكين، وكلما زاد عدد السكان كان مفيدا للقوات المسلحة التي تحمي الدولة من الاعتداءات الخارجية فإذا ما قامت حرب بين دولتين فلا شك أن صاحبة الكثرة العددية لديها القوة البشرية الضرورية لتدعيم جيوشها وتعويض ما يفقد منها من جنود في المعارك، وهذه الميزة لا تتوفر للدول ذات الأعداد السكانية المحدودة، كما أن عدد السكان يعطي للدولة الفرصة في تعدد الكفاءات واختيار أحسنها، وعادة مما يتولد لدى مواطني الدولة الكثيرة السكان شعورا بالأمن والثقة، والعكس عندما يكون عدد السكان قليلا إذ يتولد لديهم شعور بالخوف وعدم الطمأنينة، لكن بعض الجغرافيين يعتبر أن عدد السكان لا يمثل في حد ذاته عامل قوة جيوبوليتيكية وإلا لكانت الهند (سكانها حوالي 1.4 مليار نسمة) والصين (سكانها 1

¹ نفس المرجع، ص 182

² Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : op cite, p 126

مليار و400 مليون نسمة)، أقوى من الولايات المتحدة الأمريكية (سكانها حوالي 332,7 مليون نسمة)، ولكانت أندونيسيا (272,7 مليون نسمة) ونيجيريا (208 مليون نسمة) وبنغلاديش (171 مليون نسمة) أقوى من فرنسا (65,5 مليون نسمة) وبريطانيا (66,5 مليون نسمة) وألمانيا (79,9 مليون نسمة)¹. كما أن حجم سكان الدولة ليس ضماناً في كل الأحوال لامتلاك قوة عسكرية كبيرة وهناك حالات تبرهن على ذلك، فالهند رغم ضخامة عدد سكانها، إلا أن جيشها لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من هذا التعداد لكون التجنيد لديهم ليس إجبارياً، في حين تمتلك إسرائيل القليلة السكان حسباً كبيراً يمثل 10% من سكانها بسبب التعبئة العسكرية.

والعدد الكبير للسكان قد يكون عبئاً على الدولة نظراً لزيادة الحاجة إلى الغذاء والخدمات والضروريات الأخرى وهو ما دفع بعض الدول مثل مصر إلى تشجيع الحد من النسل والصين إلى اعتماد أسرة الطفل الوحيد ولذا يعتمد بعض الجغرافيين مثل كارساوند أن الحجم الأمثل لسكان الدولة يعتمد على دخل الفرد، فإذا كان دخل الفرد آخذاً في الزيادة المستمرة كلما زاد عدد السكان فإن هذا دليل على أن الدولة فقيرة في سكانها ولا يمكنها استغلال موارد الثروة فيها وهو دليل على أنها بحاجة إلى المزيد من السكان أما إذا أصبحت أي زيادة في عدد السكان تؤدي إلى انخفاض في دخل الفرد ففي هذه الحالة نستطيع القول إنها وصلت الحد الأمثل وليس في مصلحتها أن يزيد عدد سكانها بعد ذلك، وإذا أخذ دخل الفرد في التناقص فيمكن القول إن هذه الدولة تعاني من اكتظاظ سكاني وبعبارة أخرى فإن أمثل حجم لسكان الدولة هو ذلك العدد الذي يجعل كمية الإنتاج لكل فرد من الأفراد أكبر ما تكون.

يتضح من التعداد العام لسكان موريتانيا أنه تطور من 1.338.800 نسمة سنة 1977 إلى 3.537.368 نسمة سنة 2013، ووصل حسب تقديرات الأمم المتحدة سنة 2020 إلى 4,6 مليون نسمة، وهذا الحجم يعتبر ضعيفاً مقارنة بمساحة الدولة وطول الحدود والموارد الطبيعية.

كما يلاحظ ضعفاً لحجم سكان موريتانيا مقارنة بدول الجوار الجزائر: 43.4 مليون نسمة، المغرب 36.6 مليون نسمة، السينغال: 17.6 مليون نسمة، مالي: 20.5 مليون نسمة وبذلك فإنها تمتلك العدد الأقل من السكان في المنطقة، ومن المرجح أن حجم سكان موريتانيا مستمر على حاله كأدنى حجم مقارنة بدول الجوار للعقود المقبلة.

¹ تقديرات الأمم المتحدة لسكان العالم سنة 2020

ويمكننا أن نعبر عن الحقيقة نفسها بطريقة أخرى، ونعني بذلك¹ تكتيك الانحدارات الجيوبوليتيكية فإذا نحن نسبنا مجموع سكان كل الدول المجاورة لموريتانيا إلى عدد سكانها هي ثم قارناها بالنسب المماثلة لهذه الدول الجارة، لوجدنا فارقا ديمغرافيا وبالتالي انحدارا جيوبوليتيكيًا شديدًا بين الأخيرة وموريتانيا، لا يقارن بما بين كل دولة من تلك الدول ومجموع جاراتها كما يوضح الجدول التالي:

الجدول رقم 1: الانحدار الجيوبوليتيكي لسكان موريتانيا مقارنة بجيرانها

الدولة	عدد السكان بالمليون	عدد الجارات	عدد السكان المليون	نسبة السكان الجيران إلى سكان الدولة
موريتانيا المغرب	4.6	4	118,1	25,65
الجزائر	36.6	2	48	1,31
مالي	43.4	7	103,4	2,38
السينغال	20.5	7	153,8	7,5
	17.6	5	54	3,06

المصدر: من إعداد الباحث بناء على تقديرات الأمم المتحدة لسكان العالم سنة 2020 والخانة الأخيرة في الجدول هي مقياس حدة الانحدار الجيوبوليتيكي أو اعتداله حيث يشتد الانحدار وتزداد الحدة كلما زادت النسبة، ويقل ويعتدل ويقترب من التكافؤ كلما قلت النسبة، وهو مرتفع بالنسبة لموريتانيا مقارنة بجميع جيرانها.

وأعداد البشر ليست محدودة فقط في موريتانيا (4,6 مليون نسمة) بل هي أيضا مشتتة على رقعة جغرافية واسعة (1.030700 كم مربع)، بحيث لا يتجاوز متوسط الكثافة الحسابية: 4,4 ساكن للكم المربع، وهذا التبثر والتشتت للسكان يجعل الاندماج المكاني للدولة ضعيفا، ويفاقم من حدة الأمر التنافس السياسي والاجتماعي السلبي من خلال التقري الفوضوي ما يتقل كاهل الدولة بأعباء وتكاليف كثيرة. **سادسا: المواطنون والأجانب:**

تظهر بيانات التعداد العام للسكان المساكن في موريتانيا نسبة 2013 هيمنة جيدة للسكان الموريتانيين على الأجانب حيث يمثل الموريتانيون 97.5% من مجموع السكان بينما لا يمثل الأجانب واللاجئون سوى 2.5% وهذا الأمر يدعم قوة السكان وتجانسهم الوطني وفق المقاييس الجيوبوليتيكية لقوة الدولة، ولا سيما في إمكانية الاستغناء عن خدمات الأجانب بمدة قصيرة ومن دون تأثير أو انعكاسات سلبية

¹ - جمال حمدان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى: دراسة في الجغرافيا السياسية، مكتبة

على اقتصاد الدولة، وسهولة إحلال المواطنين الموريتانيين مكانهم في مفاصل الدولة ودعم مرتكزاتها السياسية والاقتصادية.

جدول 2: توزيع السكان المقيمين حسب الجنسية والجنس.

الجنسية	الجنس		المجموع
	ذكور	إناث	
موريتانيا	1.694.639	1754068	3448707
الدول المجاورة	72	64	136
الجزائر	657	558	1215
المغرب	8905	4770	13679
مالي (مقيمين)			

الجنسية	الجنس		المجموع
	ذكور	إناث	
مالي (لاجئين)	22078	24795	46873
السنغال	10435	7195	17630
دول غربية أخرى	717	385	1102
دول إفريقية أخرى	4278	1981	6259
أوروبا	450	253	703
بقية العالم	790	193	983
غير محدد	53	32	85
مجموع الأجانب	48435	40226	88661
المجموع	1.743074	1.794294	3537368

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والدراسات الديموغرافية والاقتصادية، نتائج التعداد العام للسكان والمساكن سنة 2013

ويظهر هذا الجدول أن قرابة 90% من الأجانب المقيمين في موريتانيا هم من الدول المجاورة لموريتانيا فمنهم 68.4% ماليين و20% سينغاليين.

كما توضح المعطيات الإحصائية أن الغالبية الساحقة من هؤلاء الأجانب (أي نسبة 72%) هم من الفئة النشطة إذ تتراوح أعمارهم ما بين 15 و 59 سنة في حين تخفض نسبة الذين يزيد أعمارهم عن 60 سنة لتصل إلى 2% فقط ويمثل الأطفال 26% الذين تقل أعمارهم 15 سنة 26% منهم كما يمثل الرجال 63.1% من مجموع هؤلاء الأجانب وهو ما بنفس أن الدافع وراء هجرتهم إلى موريتانيا هو البحث عن العمل.

وتوضح معطيات الجدول السابق أن بنسبة 52% من الأجانب المقيمين مع الأراضي الموريتانية هم لاجئون ماليون أكثرهم يقيمون في مخيم أمبره بسبب الأوضاع السياسية والأمنية في مالي.

سابعا: القبائل والأعراق الموريتانية العابرة للحدود:

- ورثت موريتانيا كغيرها من الدول العربية والإفريقية حدودا سياسية رسمها المستعمر، ومن أبرز عيوبها عدم مراعاة الوحدة العرقية والثقافية للسكان، وتخشى الدول اليوم من استغلال قبائلها وأعراقها العابرة للحدود من قبل دول مجاورة لتصفية الحسابات السياسية أو اللعب بتوازنها الإثني كما تطرح هذه المسألة خطورة ولاء هذه القبائل والأعراق للخارج ففي حدود موريتانيا الشمالية والشرقية توجد قبائل تكنه وكننته واركيبات وتجانك وأولاد أدليم كقبائل عابرة للحدود في الجزائر والصحراء ومالي والنيجر، وارتباط كل من هذه القبائل بفصيلتها يفوق أحيانا لحياتها مع القبائل التي تعيش معها في نفس المنطقة¹.
- وخلال حرب الصحراء 1976-1978 بدأت قبائل الشمال تكنه وأولاد أدليم، أركيبات خصوصا تظهر معارضتها لهذه الحرب لأن لديها ارتباطات أسرية في الصحراء ويعتبرونها حربا لا مبرر لها بين الأشقاء²؛
- أما في حدود موريتانيا في الجنوب والجنوب الغربي على امتداد النهر حيث تتمركز الإثنية الزنجية فإن لمكوناتها الثلاثة البولار، السونكي الولوف، امتدادات خارج الحدود؛
- فيتوزع البولار على 15 دولة إفريقية هي نيجيريا، النيجر، السينغال، مالي، الكاميرون، اتشاد، بنين، بوركينا فاسو، سيراليون غينيا بيساو، التوغو، كوت ديفوار، غانا حيث يمثلون أقليات إثنية في هذه الدول، بينما يمثلون الإثنية الأكبر في غينيا حوالي 4.53% من مجموع

¹ - يعقوب ولد السيف - التركيبة الإثنية والاستقرار السياسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير في العلوم السياسية - معهد البحوث والدراسات العربية - السنة الجامعية 1995 - 1996، ص 102

² Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : Nouakchott (Mauritanie) et Khartoum (Soudan) étude comparée, thèse pour l'obtention du doctorat en géographie, université paris 1 panthéon Sorbonne 2006, p :189

السكان ويعتبر البعض أنه ليس هناك بولاري أو تكرر في موريتانيا إلا ولديه ارتباطات أسرية في الجانب السينغالي والعكس بالعكس¹.

ويذكر الرئيس السينغالي عبدو ديوف في مذكراته أن بعض أصدقائه من بولار السينغال وجهوا له شتائم وإهانات خلال أحداث 1989 مطالبيته بدخول الحرب ضد موريتانيا² ولعله بذلك إنما كان يكشف فقط عن جانب من علاقة نظامه بقيادات وميليشيات حركة أفلام حيث تكفل بيان صادر عن هذه الحركة بتاريخ 2014/08/04 ووقعه أمينها العام بوبكر ادياغانا، والناطق باسمها السابق سيرى باه بكشف جوانب كانت مخفية من هذه العلاقة ووصلت إلى حد تورط الحركة في التخابر مع السينغال خلال أحداث 1989 وتزويدها بـ "الأخبار والمعطيات والوثائق الضرورية لفهم طبيعة نظام انواكشوط والشعب الموريتاني" ويضيف البيان: "كانت لدينا اتصالات خلال أحداث 1989 بجان كولين وزير الداخلية، وحافظنا على سرية هذه العلاقة" فقد "احتضنتنا السينغال ووفرت لنا الحماية"³ ولعل هذا "الاحتضان" هو ما شجع ميليشيات حركة أفلام على شن هجمات إرهابية على المواطنين الموريتانيين العزل في منطقة الحدود مع السينغال طيلة الفترة من 1989 إلى 1992 وشملت الاعتداء على الأرواح والممتلكات، ومثلت تلك الهجمات أكبر تهديد لأمن واستقرار الدولة بعد حرب الصحراء. توجد كذلك للسوننكي في ولاية كيدي ماغ ارتباطات قوية بالمصاهرات والعلاقات العائلية مع سكان المنطقة المقابلة لها من الحدود المالية كما أن لعرقية السوننكي تواجدا مهما كأقلية في كل من السينغال وغامبيا وبوركينا فاسو وغينيا بيساو.

أما الوولوف فيمثلون أكبر إثنيات السينغال 3,43% من مجموع السكان سنة 2011 ولهم كذلك حضورهم في دولة غامبيا المجاورة.

وفي امتداد الشروط الحدودي الموريتاني المالي توجد 14 قبيلة موريتانية مناطق استيطانها التقليدية ممتدة على جانبي الحدود، وهذه القبائل هي: أزبيرات، تتواجيو، لادم، لقلال، إفلان، أولاد الناصر، أولاد أمبارك (بتركز كبير في الشروط الحدودي لمقاطعة كوبني)، أهل الطالب مختار، أولاد موحمد، أزماريك، أرامه، أولا داود، اجعافره مشطوف، أولاد بله، أولاد عبد الواحد، وتعرض بعض هذه القبائل أحيانا لضغوط من السلطات الماليه من أجل إعلان الولاء لمالي كما حدث مثلا مع قرية

¹ Ely Ould Sneiba ,Mauritanie : vous avez dit vivre ensemble ?,Edilivre ,saint Denis, France 2020 ,p:129

² -Ibid, p 129

³ عبد الله حرمة الله تهيئة المستقبل ح:4: تبديد الوهم، مقال منشور في موقع البديل الإخباري بتاريخ: 2022/05/06، 11:12

أصنيكه حيث أن سكانها موريتانيون (تتواجيو)، وتقع على بعد 2 كم و200م داخل الحدود المالية وبحسب اتفاقية خاي يجب ضمها لموريتانيا لكن السلطات المالية ضغطت على سكانها لإعلان ولائهم لمالي وحدث نفس الشيء أيضا مع قريتي: أسبيلات وجلمايل سنة 2015 حيث أعلنوا ولاءهم لمالي بسبب ارتباطهم بحقولهم الزراعية الواقعة جنوب خط الحدود¹.

تعد غلبة الولاء للقبيلة على الولاء للوطن في منطقة الساحل الإفريقي عاملا أساسيا في تسهيل الجريمة المنظمة في هذه المنطقة، فأغلب قبائل المنطقة لها امتدادات عابرة للأوطان في ظل ضعف دول الساحل وغياب قدرتها على المراقبة الأمنية على أراضيها، الأمر الذي خلق الظروف المواتية لأنشطة الجريمة المنظمة إلى جانب حالات اليأس السائدة لدى الأفراد بسبب ما يعانونه من أوضاع اقتصادية مزرية وتهميش دفعت بالكثير منهم إلى الانخراط في نشاط الجريمة المنظمة، ويحضر الانتماء القبلي والعرقى كعنصر أساسي في تشكيل الجماعات المسلحة والتنسيق بين من يمتنح الأنشطة الاجرامية بدون ايديولوجيا معينة، ومن يمارس هذا النشاط تحت غطاء ايديولوجي ويوفر خطاب مشروعية له، لا يهم الانتماء الايديولوجي أو الديني فحتى المجموعات التي تدعي ذلك سرعان ما تتحول إلى مجموعات طائفية أو عرقية تمارس نفس الأسلوب من أجل تداول المنافع المادية²، وتستفيد شبكات التهريب من التسهيلات والمساعدات التي تقدمها قبائل الطوارق في شمال مالي والنيجر وكذلك قبائل "التبو" وغيرها من القبائل التي لها امتدادات عابرة للحدود بين تونس والجزائر، والجزائر وليبيا وتونس، وبين ليبيا ومصر.

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج ارتبطت بالأسئلة البحثية التي حاولت الإجابة عليها بأسلوب منهجي في إطار الجغرافيا السياسية، ونستعرض في ما يلي بعض تلك الإجابات:

1. جعل الموقع الجغرافي من موريتانيا حجر الزاوية في تجارة القوافل عبر الصحراء بين شمال وغرب إفريقيا خلال الفترة الممتدة من القرن 9 وحتى القرن 16م، لمرور معظم طرق هذه القوافل عبر أراضيها، لكن الكشف الجغرافي وما نتج عنها من تحول المراكز التجارية إلى المحيط الأطلسي أفقد موقع موريتاني الجغرافي تلك الحظوة، مثل ما حدث بعد شق قناة السويس سنة 1862 من تعاضم

¹ - الشيخ محمدو ولد انجاي، الحدود الموريتانية: الحدود مع مالي نموذجا، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا السياسية، جامعة انواكشوط العصرية، السنة الجامعية: 2017. 2018، ص 210

² محمد الطيار، طبيعة وأصناف الجريمة المنظمة في منطقة الساحل الإفريقي، مجلة الدراسات الاستراتيجية والعسكرية الصادرة عن المركز الديمقراطي العربي بألمانيا، العدد: 14، مارس 2022، ص: 151

أهمية الموقع الجغرافي لمصر حتى الآن على حساب جنوب إفريقيا، ومع ذلك مازالت لموقع موريتانيا الجغرافي أهمية كبيرة ،لاسيما في مجال النقل الجوي حيث تعبر مجالها الجوي الكثير من الطائرات المتجهة بين أوروبا وإفريقيا، وبين آسيا وأمريكا، وتدفع شركات الطيران رسوما مقابل ذلك، فعلى الدولة تسلم تسيير مجالها الجوي من الوكالة الإفريقية لأمن الملاحة الجوية (ASECNA) حتى تستفيد من تلك المداخل المعتبرة .

2. إن موقع العاصمة نواكشوط ليس مثاليا لجهة توسط الدولة والوقوع في مركزها، بل هو متطرف نحو الغرب وبعيد جدا من الأطراف الشرقية، ويمكن أن ينتج عن تشتت الأقاليم وابتعادها عن المركز إضعاف ولائها للدولة، وظهور تنافس سلبي داخل كيان الدولة، ومن شأن اختيار عاصمة إدارية تتوسط البلاد أن يسهل العمل الإداري ويقصر المسافات بين تلك العاصمة ومختلف أجزاء الدولة، ويعطي الحكومة مظهرا انتمائيا أكبر .

3. ضرورة مواجهة الدولة لتشتت السكان والتفري الفوضوي بتجميع القرى والبلدات في تجمعات سكانية كبيرة مزودة بجميع المرافق الأساسية، واختيار مواقع مناسبة لإقامتها من حيث توفر المياه والتوسط الجغرافي وغيرها من الاعتبارات الموضوعية بعيدا عن المحاباة، لتقوية الاندماج المكاني للدولة.

4. توجد في موريتانيا، مثل كثير من الدول الأخرى، عدة قبائل وأعراق عابرة للحدود، ويخشى على هذا النوع من الدول من استغلال أطراف خارجية لقبائلها وأعراقها بالتأثير على ولائها لزعزعة استقرار الدولة، أو استخدام تواجد العابر للحدود في منطقة الساحل والصحراء لتسهيل أنشطة الجريمة المنظمة في هذه المنطقة المضطربة.

المصادر والمراجع:

الكتب والأطاريح:

جمال حمدان الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى: دراسة في الجغرافيا السياسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.

محمد سعيد بن أحمدو، موريتانيا بين الانتماء العربي والتوجه الإفريقي: دراسة في إشكالية الهوية السياسية 1960-1993، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت 2003

محمد محمود إبراهيم أديب، الجغرافيا السياسية من منظور معاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1995

الناني ولد الحسين، صحراء المثلثين، دار المدار الإسلامي، بيروت 2007

صلاح الدين علي الشامي، دراسات في الجغرافيا السياسية، منشأة المعارف الإسكندرية 1999، ط4

عبد السلام رضوان وعلي يونس، الجغرافيا السياسية: دراسة نظرية وتطبيقات عالمية، دار الوفاء للنشر والتوزيع القاهرة 2021

الشيخ محمود ولد انجاي، الحدود الموريتانية: الحدود مع مالي نموذجا، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا السياسية، جامعة انواكشوط العصرية، السنة الجامعية: 2017-2018

وزارة الإعلام، الجمهورية الإسلامية الموريتانية: تقديم وتعريف، منشورات وزارة الإعلام 12 دجمبر 1987
يسري الجوهري، الجغرافيا السياسية والمشكلات العالمية، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، 1993
يعقوب ولد السيف، التركيبة الاثنية والاستقرار السياسي في موريتانيا، أطروحة ماجستير في العلوم السياسية - معهد البحوث والدراسات العربية - السنة الجامعية 1995 - 1996

الدوريات والمواقع الإلكترونية:

عبد الله حرمة الله، تهئية المستقبل ح6: رسل الوثنية، مقال منشور في موقع موريتانيا الآن الإخباري بتاريخ: 2022/ 05 /30

عبد الله حرمة الله، تهئية المستقبل ح4: تبديد الوهم، مقال منشور في موقع البديل الإخباري بتاريخ: 2022/ 05 / 06

محمد الطيار، طبيعة وأصناف الجريمة المنظمة في منطقة الساحل الإفريقي، مجلة الدراسات الاستراتيجية والعسكرية الصادرة عن المركز الديمقراطي العربي بألمانيا، العدد: 14، مارس 2022
خالد البوهالي، الحضور العسكري الصيني في غرب إفريقيا: غينيا الاستوائية نموذجا، الميادين نت، 18 شباط 2022

قاسمي يختاوي، القوافل التجارية وأثرها في نشر الإسلام، مجلة العلوم الاجتماعية الصادرة عن المركز الديمقراطي العربي في برلين، العدد 4، يونيو 2018

Ouvrages et Thèses :

Armelle Choplin, fabriquer des villes capitales entre monde arabe et Afrique noire : Nouakchott (Mauritanie) et Khartoum (Soudan) étude comparée, thèse pour l'obtention du doctorat en géographie, université paris 1 panthéon Sorbonne 2006

Chauprade Aymeric : géopolitique : constantes et changements dans l'histoire, Paris, Ellipses, 3eme édition,

Ely Ould Sneiba ,Mauritanie : vous avez dit vivre ensemble ?,Edilivre ,saint Denis, France

أثر إمكانات الصناعة السياحية على تنمية واحة وادان

محمد لمام عبد المومن

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص البحث

تزخر واحة وادان بعناصر جذب سياحية طبيعية وبشرية متنوعة، لعبت دورا كبيرا منذ التسعينات في جذب أفواج من السياح لزيارة الواحة فرادى وجماعات من مختلف الجنسيات أغلبهم من الفرنسيين، أسسوا لصناعة سياحية في واحة وادان كانت في أمس الحاجة إليها لأنها كانت تعاني من الجفاف والتصحر ونزوح السكان... وقد أنتجت هذه الصناعة أثارا إيجابية على تنمية واحة وادان منها: تحسين ظروف عيش السكان عن طريق توفير فرص عمل، وزيادة دخل الفاعلين السياحيين في الواحة وخارجها، ونشاط حركة البناء والترميم، وزيادة وتنوع الإنتاج الزراعي، وتثبيت السكان والحد من نزوحهم، كما ساهمت في التخفيف من الفقر والهشاشة... ورغم ما حققته الصناعة السياحية من نتائج إيجابية فإنها تعاني منذ سنوات من ضعف حركة السياح التي تعود إلى أسباب أمنية وصحية... (العمليات الإرهابية، جائحة كورونا)، ومع ذلك فقد شهدت السنة الماضية انتعاشا نأمل أن يتواصل حتى تستعيد الصناعة السياحية عافيتها لتحقيق آمال سكان واحة وادان المعقود عليها.

الكلمات المفتاحية: الأثر، الإمكانيات، الصناعة، السياحية، التنمية، الواحة، وادان...

مقدمة

تعد السياحة قطاعا مركبا من أنشطة تجارية وخدمية متنوعة تسهم في دينامية قطاعات إنتاجية مختلفة¹ من النشاطات الاقتصادية التي تترك أثارا تنموية إيجابية منها زيادة دخل الأفراد وازدهار وتطوير الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في المجتمعات الإنسانية بصفة عامة وفي الأقاليم غير النامية بشكل خاص التي تتوفر على إمكانيات قادرة على أن تمكن من قيام صناعة سياحية²

¹ الأنظمة الواحية: مظاهر التجديد وآفاق التنمية المستدامة، الخليفة عبد اللطيف، دور الاقتصاد السياحي في التنمية الاجتماعية بواحات الجنوب المغربي، حالة واحات درعة (المغرب)، ط1، مطبعة سوبر كوبي، 2020، ص 169

² سعيد صفي الدين الطيب، مقومات التنمية السياحية في ليبيا (دراسة في الجغرافيا السياحية)، رسالة دكتوراه في

الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2001، ص 27

خاصة منها الصناعة السياحية التي تقوم على تخطيط محكم¹ للاستثمار الأمثل لعناصر الجذب السياحية الممكنة والكامنة وتوفير التسهيلات والخدمات لإشباع رغبات السياح من أجل تحقيق أقصى درجات المنفعة² تلك المنفعة منذ التسعينات من القرن العشرين وسكان واحة وادان يبحثون عن تحقيقها عبر استثمار الإمكانات المتاحة لهم والتي منها المناظر الطبيعية الخلابة (هضاب وتلال وكثبان رملية ووديان من النخيل والأشجار...)، والمراكز التاريخية، والرسوم الحجرية، والمتاحف والمكتبات، والخدمات والتسهيلات الأخرى المختلفة التي تعد من العناصر الأساسية لجذب السياح. ونظرا للأهمية الكبيرة للنشاط السياحي في واحة تعاني من الهشاشة والكثير من التحديات التي تشكل خطرا كبيرا على حياة سكانها ولذلك فالواحة بحاجة إلى تنوع الأنشطة الاقتصادية، عبر استغلال كل الإمكانات المتاحة فيها، ومن هذا المنطلق جاء اختيار موضوع هذا البحث الذي أردنا أن نبث فيه عن أثر إمكانات الصناعة السياحية على تنمية واحة وادان.

1 - الإشكالية: ننطلق في هذا البحث من إشكالية يترجمها السؤال الرئيسي التالي: هل مكن استغلال إمكانات الصناعة السياحية في واحة وادان من خلق تنمية لها آثار إيجابية على السكان ومجالهم الذي يعيشون فيه؟ يتفرع هذا السؤال الرئيسي إلى عدة أسئلة فرعية وهي: هل تتوفر واحة وادان على إمكانات سياحية قادرة على خلق صناعة سياحية؟ وما هو مستوى حركة السياح في الواحة؟ وما هي أبرز أنواعها؟ وما هو أثر الصناعة السياحية على تنمية واحة وادان؟

2 - الفرضية: سمحت الإمكانات السياحية المتنوعة التي تزخر بها واحة وادان بقيام صناعة سياحية ساهمت في تنميتها ومكنتها من تجاوز بعض التحديات التي عانت منها ربحا من الزمن.

3 - أهمية الدراسة: تظهر أهمية هذه الدراسة بشكل واضح من خلال الموضوع الذي تبحث فيه والذي يعد من أهم المواضيع التي تحتاج إلى الدراسة خاصة في المجال الواحاتي الذي يعاني من العديد من التحديات (الجفاف، التصحر، نزوح السكان...) التي كانت سببا في تفاقم هشاشته بسبب تقهقر اقتصادي كبير ناتج عن التحولات الكبرى التي عرفت الواحات الموريتانية بشكل عام وواحة وادان بشكل خاص ... ولذلك فهي بحاجة إلى البحث عن أنشطة اقتصادية تقوم على الإمكانات المحلية تساهم بترك آثار إيجابية على التنمية في الواحة ومن أهم تلك النشاطات النشاط السياحي الذي يعد من أهم النشاطات القادرة على النهوض بالمجالات الواحاتية.

¹ يعد التخطيط السياحي أسلوبا علميا يهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من النمو السياحي بأقل كلفة ممكنة وأقصر وقت وجهد

² محمد دلف أحمد أدليمي، وفوارة أحمد موسى، جغرافية التنمية (مفاهيم-نظريات-تطبيق)، قسمي الجغرافيا في

4 - أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على إمكانات الصناعة السياحية التي تتوفر عليها واحة وادان، ومعرفة مستوى الحركة السياحية وأنواعها، وإبراز آثار تلك الحركة على تنمية الواحة، وتقديم مقترحات للنهوض بالصناعة السياحية لكي تلعب دورا حيويا في تنمية الواحة.

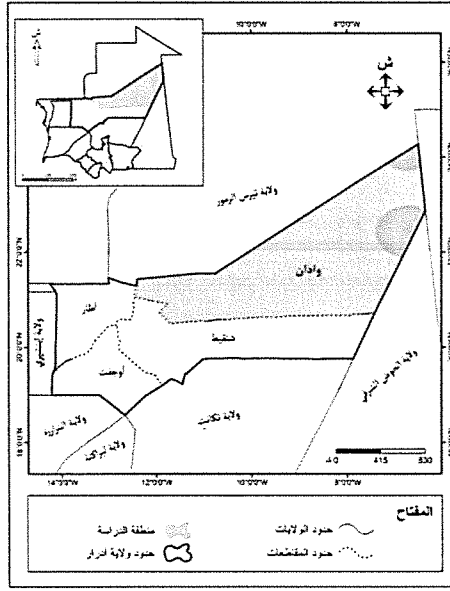
5 - المناهج والأساليب والأدوات: اعتمدنا لإجراء هذه الدراسة على منهج شمولية الواقع الجغرافي ومنهج التحليل المكاني والمنهج الوصفي التحليلي للظواهر موضوع الدراسة، كما قمنا بإجراء زيارات ميدانية مكنتنا من مقابلة بعض الأشخاص الذين لهم علاقة بموضوع البحث، ووزعنا استمارات تهدف إلى جمع معلومات وأخذ انطباعات السكان وآرائهم حول النشاط السياحي ومدى استفادتهم منه وتقييمهم لدوره التنموي.

6 - الدراسات السابقة: لم نتوصل إلى دراسات سابقة عن الموضوع خاصة بمنطقة الدراسة، ولذلك فقد لجأنا إلى دراسات سابقة أجريت على مناطق أخرى تشترك مع منطقة الدراسة في الكثير من الخصائص منها: مقومات التنمية السياحية في ليبيا، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الجغرافيا بكلية الآداب في القاهرة، من إعداد سعيد صفي الدين الطيب 2001، ومؤلف جماعي عن الأنظمة الواحية: مظاهر التجديد وآفاق التنمية المستدامة، 2020 تضمن مقالات عن السياحة في الواحات.

7 - منطقة الدراسة: تتمثل منطقة الدراسة في الحدود الإدارية لمدينة وادان التي تشمل كافة فروع الواحة، تقع فلكيا واحة وادان الرئيسية على تقاطع خط طول 11 درجة و38 دقيقة غربا، ودائرة عرض 20 درجة و53 دقيقة شمالا، وتقع جغرافيا في الشمال الشرقي من البلاد، في ولاية آدرار على بعد 174 كلم شرق مدينة أطار عاصمة ولاية آدرار، وتمتد مقاطعة وادان على مساحة جغرافية تقدر بنحو 120778 كلم² تحدها من الشمال ولاية تيرس الزمور، ومن الجنوب الغربي مقاطعة شنقيط، ومن الجنوب الشرقي ولاية تكانت، ومن الشرق ولاية الحوض الشرقي، ومن الشمال الشرقي دولة مالي والخريطة رقم 1 توضح موقع منطقة الدراسة وطنيا وجهويا. وحسب الإحصاء العام للسكان والمساكن 2013 فإن سكانها قد ناهزوا أربع آلاف نسمة، يتوزعون على أكثر من عشر تجمعات سكانية، يعيشون على الزراعة والتنمية الحيوانية والتجارة والسياحة.

¹ - Adrar en chiffre 2014 – 2018, office national de la statistique, service régionale de l'Adrar, Edition 2019, P 9,

الخريطة (1) موقع واحة وادان وطنيا وجغويا



المصدر: من إعداد الطالب

أولا - إمكانات الصناعة السياحية في واحة وادان: تتوفر واحة وادان على إمكانات سياحية طبيعية وبشرية تقوم عليها صناعة سياحية سنبرزها في النقاط التالية:

1 - المناظر الطبيعية الخلابة: تتوفر واحة وادان على العديد من المناظر الطبيعية الخلابة التي تعد من أبرز عناصر الجذب السياحي الطبيعية التي خلقها الله سبحانه وتعالى وجعل فيها جمالا يأسر القلوب وينفع الناس وهذه المناظر متناثرة في كافة أرجاء الواحة منها:

- الهضاب والتلال: توجد في واحة وادان العديد من الهضاب والتلال تشكل أبرز المناظر الطبيعية التي تجذب السياح إلى الواحة للتمتع بمشاهدتها من بعيد، ومن قريب يتمتعون بمشاهدة خوانقها ووديانها، ويتيح لهم الجلوس على حافاتها مشاهدة وديان النخيل والأشجار والشجيرات الصحراوية والسهول التي تغطيها الكثبان الرملية المتحركة، وتمكنهم من استنشاق الهواء النقي الخالي من الملوثات، وسماع هبوب الرياح، ومشاهدة غروب وشرق الشمس، ومن أشهر هذه الهضاب حافات أقماكم والبيض وأسبيل وأكرديل وباميره وعركوب آدمار وأنطويوز ومدينة وادان... هذا بالإضافة إلى العديد من التلال المنعزلة التي من أشهرها تل القلاوية وأطويرفات لكباش وظلعت مايعتك وتلال ما يعتك وتلال أهيرور...

- كلب الريشات (عين الصحراء): يعد قلب الريشات ظاهرة عجيبة ومنظر فريد مسجل ضمن العجائب العالمية، ويعرف عالميا بعين إفريقيا، وهو عبارة عن تل تحيط به تلال صخرية أقل ارتفاعا

منه على شكل دوائر تشبه إلى حد كبير عين إنسان، وتتكون المنطقة من أنواع مختلفة من الصخور من حيث اللون والشكل والحجم، يبعد قلب الريشات عن مدينة وادان حوالي 45 كلم شرق المدينة ويبلغ قطر منطقة الدوائر الصخرية المتداخلة حوالي 35 كلم. تحاك حول هذا الموقع الكثير من الأساطير التي منها أسطورة مملكة الجن¹، وقد زاره الكثير من العلماء الباحثين منهم عالم الطبيعة الفرنسي الراحل تيدور مونو، الذي كان يجوب مناطق آدرار بحثا عن الآثار الأركيولوجية والتاريخية، وعندما وصل إلى منطقة الريشات أعجب بها ولذلك زارها مرات لإجراء دراسات استنتج من خلالها أن الظاهرة ناتجة عن بركان ميت، كان نشطا منذ ملايين من السنين، وقد زاره العالم الحيولوجي الفرنسي أندري كايي سنة 1946م وقدم الأطروحة القائلة بأن الظاهرة ناتجة عن نيزك اصطدم بالأرض، ولكن هذه الأطروحة فندها عالم الجيولوجيا الأمريكي روبرت دييتر في العام 1969 بالقول بأنه لا توجد مكونات جيولوجية مخالفة للمكونات السائدة في المحيط الجغرافي لعين الصحراء، وفي سنة 2008 أجرى الباحث الكندي غيوم ماتون من جامعة كيبك الكندية دراسة على عينات صخرية وتوصل إلى أن الريشات عبارة عن قبة جيولوجية ناتجة عن انصهار تحت الأرض وقع قبل 90 مليون سنة نتج عن تشكل صخور نارية².

التقطت للمنطقة عدة صور من الفضاء فائقة الجمال، تنتشر بشكل كبير على الانترنت، ويعد قلب الريشات من أشهر وأجمل عناصر الجذب الطبيعية للسياح في واحة وادان وفي ولاية آدرار وموريتانيا والعالم، وبالإضافة إلى العلماء والباحثين فقد زار المنطقة الكثير من أفواج السياح ولا يزالون يحجون إليها للتمتع بجمالها ولأخذ عينات من حجارتها الملونة الجميلة.

● الكتيبان الرملية: تشرف الهضاب والتلال على سهول تكسوها كتيبان رملية متحركة ذات ألوان ذهبية رائعة الجمال تنتشر بشكل كبير في العديد من مناطق الواحة، خاصة منها المناطق الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية.

¹ أسطورة مملكة الجن هي أسطورة قائمة على اعتقاد ينسب للواديانيين سكان تلك المنطقة منهم خاصة مفاده أن تلك المنطقة هي مملكة للجن تخفي كنوزهم منذ عهد سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وتقول نفس الأسطورة أن ملك الجن يتجول في الليل على حصانه لا يرى لكن يسمع صوت وقع حوافره، وتروي الحكاية أيضا أن رجالا شجعانا حاولوا الحصول على بعض الكنوز المخفية هناك لكنهم اختفوا ويرى الناس أن الجن اختطفوهم.

² LECOQUIERRE B., 2008, parcourir la terre – le voyage, de l'exploration au tourisme, l'Harmattan (coll. La-bas). P. 273, et LECOQUIERRE B., 2015, le Sahara, un désert mondialisé, la documentation photographique n° 8106, juillet-aout 2015, la documentation française. P 64

● وديان من الأشجار والشجيرات: تزخر الطرق التي يعبر منها السياح بالعديد من الوديان التي تتبث فيها أشجار وشجيرات متنوعة، تزدان بها المناظر الطبيعية لأنها تزيد من جمالها بأوراقها الخضرة، وأغصانها المتفرعة، وجذوعها السمكية، وظلالها الوارفة، التي يستظل تحتها السياح في أوقات الزوال، ومن أكثر هذه الأشجار استخداما شجرة الطلح وتيشط...وهناك الكثير من الأشجار التي سميت على سياح أو مرشدين سياحيين بسبب كثرة ارتيادهم عليها كشجرة تيدور مونو في الريشات أو شجرة ساليمه ول سليمان في فرزي وشجرة ميشل وآليبير...

● مشاهدة شروق وغروب الشمس وضوء القمر والنجوم: يستمتع السياح كذلك في الواحة بمشاهدة شروق وغروب الشمس والقمر المنير على الكثبان الرملية والهضاب والتلال والأشجار، وفي الليالي التي يغيب فيها القمر أول الليل يستمتعون بمشاهدة سواد الليل الحالك وبالنجوم المنيرة التي تزين السماء الدنيا وتخفف الظلام ويهتدي بها الناس في ظلمات البر، تعد مشاهدة النجوم في الليل من أجمل المشاهد التي يشاهدها السياح في الواحة وفي جل صحاري العالم ويصيبهم جمالها وروعها بالذهول والحيرة.

● الهواء الطلق وأصوات هبوب الرياح: يستمتع السياح كذلك باستنشاق هواء طلق نقي غير ملوث صحي، يحس به السائح ويبعث في نفسه الراحة والاطمئنان وينسيه هموم الحياة ومشاكلها الكثيرة وتعب العمل وصخب المدن الكبرى خاصة إذا كان ذلك في الصباح الباكر والمساء، كذلك أيضا تعد أصوات هبوب الرياح الخالية من الغبار والأتربة من الأشياء التي يجد في سماعها السائح المتعة والراحة.

صور (1) نموذج من عناصر الجذب السياحية الطبيعية



المصدر: www.randozon.com

2 - المدينة القديمة: تعد واحة وادان من أقدم واحات النخيل في البلاد حيث توجد بها مدينة قديمة

تتكون من معالم عديدة شامخة بديعة شيدها رجال أشداء، وهذه المعالم هي:

● الدور القديمة: تتكون المدينة القديمة من آلاف الدور القديمة المندثرة، والتي لم يبق من معظمها إلا بعض الجدران الصامدة التي بنيت على أساس متين، ولا تزال بعض المنازل القديمة سليمة من الخراب خاصة عند الحد الفاصل بين المدينة الجديدة والقديمة، تعكس جمال العمارة الوادانية وروعته ومهارة وخبرة اليد التي شيدها، وتتألف من عدة غرف وفناء مفتوحة في الهواء الطلق.

● شوارع المدينة القديمة: تربط بين بيوت وأحياء المدينة شوارع طويلة تمتاز بالتعرج والضيق تماما كشوارع المدن الإسلامية القديمة منها شوارع رئيسية وأخرى فرعية تربط بين الأحياء والشوارع الرئيسية وبوابات السور، أهمها شارع أطوار وبولل وشارع الأربعين عالما الذي يربط بين المسجد الأول والثاني القديمين والذي يمتد من الشمال إلى الجنوب.

● سور وادان العظيم: يحيط بالمدينة القديمة سور عظيم، شيده الوادانيون قديما ليؤمن مدينتهم من صولات العدو في عصر كانت الأرض فيها سائبة والغلبة والسيطرة والحكم للأقوى حيث كان بعض سكان الصحراء يعيشون على قطع الطرق، ولا تزال بعض أجزاء السور باقية حتى يومنا هذا لم تندثر بشكل تام ولكن الغالبية العظمى منه سقطت، وفي سنة 2001 رمت أجزاء كبيرة منه، وذلك يعود لأهميته كمعلمة تاريخية هامة تجذب السياح.

● ثلاث دور للمؤسسين: في المدينة توجد ثلاث دور للمؤسسين الثلاثة الذين أسسوا المدينة، وهم الحاج يعقوب، والحاج عثمان، والحاج على.

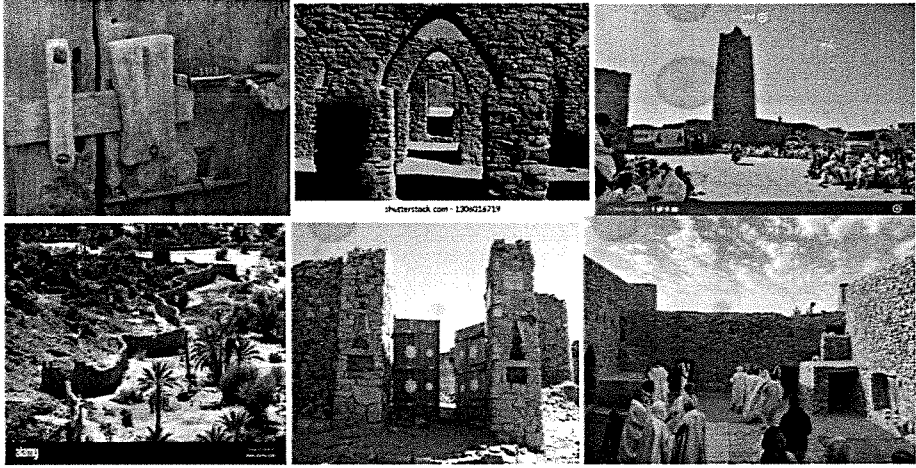
● البئر المحصنة: حفر الوادانيون بئرا داخل السور وحصنوها بسورين وشيدوا بالقرب منها منزلين للمراقبة الداخلية والخارجية للبئر وللمدينة، وهذه البئر كانت قديما مخصصة لشرب الساكنة في حالة الخطر والحصار وفي الليل عندما يحتاج السكان للماء بشكل مستعجل، وهي اليوم من أهم معالم المدينة القديمة التي يزورها السياح.

● المسجد العتيق: يقع المسجد العتيق في أقصى جنوب المدينة القديمة على بعد أمتار من بساتين النخيل ومن السور وبوابة تكنت يعد من أبرز معالم المدينة القديمة بناه المؤسسون الثلاثة بعد قدومهم من الحج في يوم عرفة عام 536 هجرية 1142 ميلادية تأسيسا برسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قدم إلى المدينة المنورة.

● المسجد الثاني (الجامع العتيق حاليا): يقع المسجد الجامع العتيق على سطح الهضبة عند الحد الفاصل بين المدينة القديمة والجديدة بناه العالم المنفق يحظيه ول الفاضل في العقد الرابع من القرن

التاسع عشر سنة 1835م، ويربط بينه وبين المسجد العتيق الأول شارع الأربعين عالما الذي يعد أكبر شارع في المدينة القديمة¹.

الصور (2) نموذج من أبرز معالم مدينة وادان القديمة



المصدر: www.alamy.com، منصة الرؤية، المدينة القديمة، 2019 ، 2021

3 - المتاحف والمكتبات: بالإضافة إلى المعالم التاريخية تتوفر واحة وادان على عدد كبير من المتاحف أشهرها المتاحف التي توجد في مدينة وادان، وتحوي هذه المتاحف الكثير من القطع الأثرية النادرة، كما توجد في الواحة مكتبات أهلية عديدة غنية بنفائس المخطوطات، بعضها مفتوحا أمام السياح والباحثين، وبعضها الآخر يحتفظ بها ملاكها في منازلهم في صناديق، ومن أشهر هذه المتاحف والمكتبات الموجودة في الواحة متحف وادان، ودار التراث، ومتحف البيظ... ومكتبة أهل الكتاب، ومكتبة أهل عابدين سيدي، ومكتبة أهل داهي... وتجسد المخطوطات التي تزخر بها المكتبات الأهلية الوادانية أصالة وعراقة التراث الفكري والثقافي في شتى العلوم، وقد تأسست مكتبات وادان بعد مجيء العلماء المؤسسون وتأسيسهم للمدينة²، وتوجد في وادان حاليا ثلاثة عشر مكتبة³ منها ثلاث مكتبات فقط هي التي يتم استغلالها في المجال السياحي. تعود هذه المتاحف والمكتبات

¹ زيارة ميدانية لمدينة وادان القديمة ولنقطة الاستعلامات السياحية فيها، بتاريخ 30 - 08 - 2022

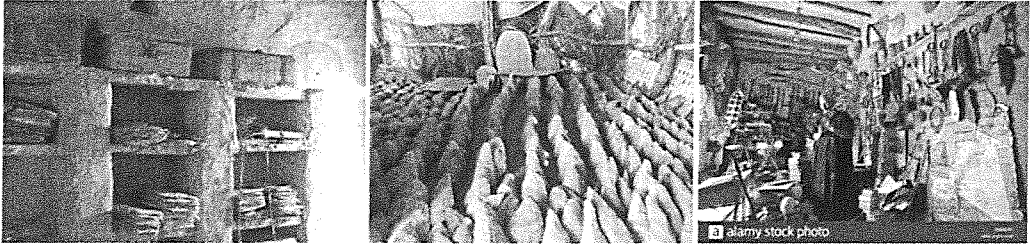
² أحمد ولد محمد يحيى، وإيل ريش ريبستوك، فهرس مخطوطات شنقيط ووادان، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،

لندن 1997، ص 10

³ نفس المرجع، ص 12

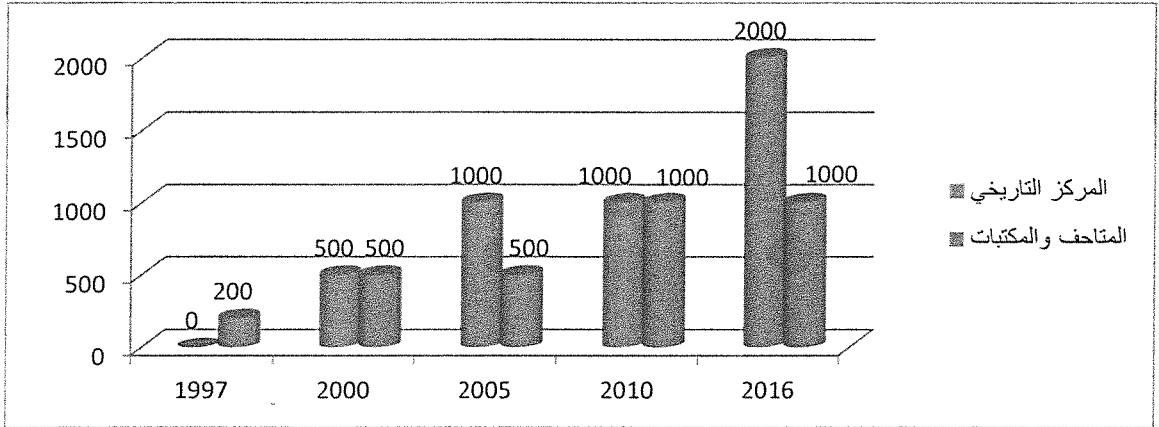
المستغلة في المجال السياحي بعوائد مالية تساعدهم في الحياة وقد استفاد بعضهم كثيرا من النشاط السياحي ويمكنهم ذلك من تطوير متاحفهم عبر شراء مزيدا من القطع الأثرية وجمعها واقتناء معدات لحفظها¹.

صور (3) المتاحف والمكتبات في الواحة



المصدر: www.alamy.com,

الشكل (1) تطور المقابل الذي يدفعه السياح مقابل زيارة المتاحف والمكتبات والمركز التاريخي بالأوقية.



المصدر: من إعداد الطالب اعتمادا على معلومات جمعت من الميدان

4 - المواقع الأثرية والرسوم الصخرية والمقابر الوثنية: توجد في واحة وادان عدة مواقع أثرية اندثرت ولم يتبق منها إلا بعض الآثار الشاهدة على أنها كانت يوما من الأيام معمورة تدب فيها الحياة والحركة والنشاط وقد تحدثت عن هذه المواقع المندثرة الكثير من كتب التاريخ وهي معروفة ومشهورة وقد كتب عنها باحثون وطنيون وأجانب² وتعد هذه المواقع من عناصر الجذب السياحي التي تزخر بها واحة وادان ومن أشهرها تينيكى وتامكونه وكولانه وتقتل وتقرله ومساكن البافور التي

¹ سيدي محمد عابدين سيدي، مالك متحف وادان، مقابلة بتاريخ، 01 - 01 - 2022، والبكاي عبدات، دليل سياحي في المركز التاريخي لمدينة وادان، مقابلة، بتاريخ 31 - 12 - 2021

² محمد الأمين ولد الكتاب، مدينة وادان التاريخية من تأمل الماضي إلى تمثل المستقبل، الثقافية مجلة -فصلية- ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة والعلاقة مع البرلمان الموريتانية، العدد 8، 2023، ص 59

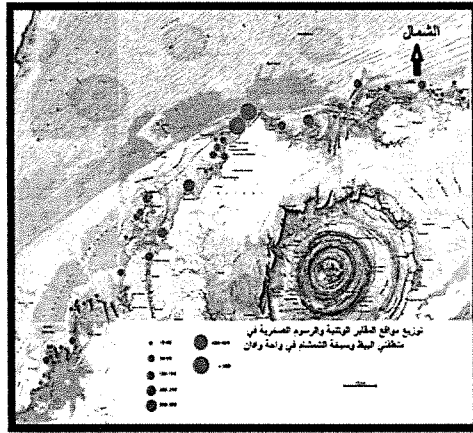
تتمثل أساسا في مغارات وكهوف...كما تزخر واحة وادان بالعديد من المواقع التي تحوي رسوما صخرية لأنواع مختلفة من الحيوانات التي كانت تعيش في المنطقة في عصور غابرة سحيقة تقدر بآلاف وملايين السنين وهذه المواقع بعضها قريب من مدينة وادان على بعد كيلومترات وبعضها على بعد عشرات الكيلومترات وهذه المواقع هي: القلاوية والبيض وأخنيك أهل عبد المالك وأودي الشوك...كما توجد في المنطقة أيضا مئات المقابر الوثنية في منطقتي القلاوية وسبخة الشمشام.

صور(4) المواقع الأثرية والآركيولوجية والرسوم الصخرية في الواحة



المصدر : www.alamy.com,

الخريطة (2) توزيع مواقع المقابر والرسوم الصخرية في البيض وسبخة الشمشام



المصدر : www.e.wordpress.com

6 - واحات النخيل: توجد في المنطقة عدة واحات نخيل غناء تتكون من آلاف النخيل تقع بين الوديان والخوانق والهضاب والكثبان الرملية المتحركة تضيء عليها جمالا يجعل منها مناظر تأسر العيون والقلوب، وهذه الواحات تعد من فروع واحة وادان وتابعة إداريا لها وهي: واحة وادي النخيل، واحة تتلبه، ما يعتك، تنوشرت، أقماكم.

7 - أماكن الإقامة (النزل والفنادق): منذ بداية توافد السياح إلى واحة وادان بدأ بعض السكان يفكرون في إنشاء أماكن إيواء للسياح من أجل الاستفادة منهم، فقام بعض أبناء الواحة ببناء أماكن مخصصة لاستضافة السياح، كان ذلك في أواخر العقد الأخير من القرن العشرين، ومع بداية القرن العشرين زادت مراكز إيواء السياح وأصبحت الواحة تتوفر على عدة نزل تعمل في المجال السياحي، هذه النزل ظلت إلى عهد قريب قدرتها الاستيعابية محدودة نظرا لأن أصحاب المبادرات الذين قاموا بها مواردهم المالية التي قاموا باستثمارها محدودة، ومع ذلك فإنها أيضا تكفي لاستقبال السياح الذين يأتون لزيارة الواحة لأن أعدادهم ليست كبيرة بالدرجة التي تجعل النزل عاجزة عن استيعابهم، بالإضافة إلى النزل يوجد في وادان فندقين أحدهما متوقف عن العمل منذ سنوات والآخر يعمل في بعض المناسبات. والجدول رقم 1 يبين أسماء وأعداد النزل والفنادق في المدينة وحجم ما تتوفر عليه من تجهيزات الإيواء.

الجدول (1) أسماء وأعداد النزل والفنادق في مدينة وادان وحجم التجهيزات فيها وقدرتها الاستيعابية

اسم الفندق أو النزل	سنة التأسيس	عدد الغرف والخيم	عدد العمال	القدرة الاستيعابية القصوى	متوسط الزيارة أسبوعيا
أكويدير	1997	29	8	150	50
فصك	2000	17	12	60	20
فرنّي	1994	16	13	80	10
وران 1	2000	25	9	40	24
ما يعتك	2005	09	5	50	3
بولل	2007	3	3	20	2
فندق وادان ¹		12			
فندق أبلاص ²					
نزل القلاوية	2004	13	4	30	5
OUADANE ECOLOGE	2019	17	1	30	30

المصدر: من إعداد الطالب بناء على العمل الميداني

8 - البنى التحتية والتسهيلات السياحية: تتوفر واحة وادان على جانب من البنى التحتية الضرورية للحياة وإيواء السياح كالماء والكهرباء والاتصالات كما أنها لا تقع بعيدا عن الطريق المعبد الذي يربط

¹ مغلق الآن ولا يفتح إلا في بعض المناسبات الثقافية والسياسية لاستقبال بعض الضيوف الرسميين

² مهجور منذ سنوات

عاصمة ولاية آدرار مدينة أطار بعاصمة البلاد حيث لا يبعد هذا الطريق عنها سوى 174 كلم، وتتوفر مدينة أطار على بنى تحتية تسهم بشكل كبير في جذب السياح لكافة المواقع السياحية في الولاية كمطار أطار الدولي والعديد من وكالات السفر السياحية التي تنظم رحلات متنوعة تجوب كافة أرجاء الولاية بما فيها المواقع الموجودة بواحة وادان.

ثانيا - مستوى الحركة السياحية وأنواعها: قبل التطرق لمستوى حركة السياح في واحة وادان من الضروري أن أتوقف قليلا مع أنواع السياحة التي تنشط في الواحة، التي من أهمها السياحة الثقافية التي يهدف السياح من خلالها إلى التعرف على ثقافة المجتمع وعاداته المتنوعة وتقاليد المخلدة ومنجزاته الحضارية الفريدة، والسياحة البيئية التي يتمتع هواؤها بمشاهدة المناظر الطبيعية الخلابة التي تزخر بها المنطقة، والرياضية التي يتخذ السياح من مجال الواحة أرضية للسباقات المختلفة ولكنها قليلة جدا من أهمها سباق السيارات والدراجات النارية (باريس دكار)، والسباق على الأقدام الذي نظم عدة مرات بين عدة مواقع سياحية في الواحة، ولكن السياحة الرياضية في الواحة قد توقفت سنة 2007 عندما أطلق تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي تهديداته بضرب القطاع وقام بتنفيذ بعض العمليات¹. كما نشطت في السنوات الأخيرة السياحة الداخلية خاصة بعد مهرجان المدن القديمة الذي نظمت منه ثلاثة نسخ في الواحة وقد أسهم في التعريف بالمدينة الواحة وطنيا ودوليا وفي جلب الكثير من السياح لها من داخل البلاد وخارجها، هذا إلى جانب السياحة العلمية حيث وفد إليها العديد من السياح الذين يقومون بإجراء بحوث علمية. أما فيما يتعلق بحركة السياح فمنذ سنة 1996² بدأ السياح يتوافدون فرادى وجماعات إلى واحة وادان في المواسم السياحية التي يبدأ موسمها السنوي من شهر أكتوبر إلى شهر أبريل، بعضهم يأتي في الرحلات الجوية المنظمة بين مدينة أطار ومدينة مرسيليا الفرنسية، وبعضهم الآخر يأتي في سيارته الخاصة، يتجولون في المدينة القديمة وضواحيها لزيارة المواقع السياحية على متن السيارات وعلى ظهور الجمال وعلى الأقدام، جلهم من الفرنسيين، تشرف على نقلهم وكالات سفر سياحية وطنية بالتعاون مع شركات أجنبية، وقد ظلت الحركة السياحية في نمو مستمر حتى موسم 2003 و2004³ ولكن تلك الحركة تراجعت بنسبة 90 بالمائة تقريبا عقب أحداث القلاوية وألاك 2007 وتورين 2008، وخاصة بعد قرار السلطات الفرنسية بتحذير رعاياها من

¹ جاك كارول، سادا وان، إبراهيم عبد القادر، الاستراتيجية الوطنية للتنمية السياحية والأنشطة ذات الأولوية (ملخص)،

إدارة السياحة، نوفمبر 2007، ص 2

² عبدوتي ولد عالي، مدخل إلى الاقتصاد الموريتاني، الطبعة الأولى، طوبرس، 2014، ص 64

³ عبدوتي ولد عالي، مدخل إلى الجغرافيا الاقتصادية، المركز الجامعي للنشر والإعلام، جامعة نواكشوط، 2015، ص 124

زيارة شمال موريتانيا باعتباره منطقة خطر غير آمنة مباشرة بعد الأحداث الأمنية، مما أدى إلى شبه توقف للنشاط، وقد كانت لذلك انعكاسات سلبية على الساكنة المحلية خاصة الأشخاص الذين استثمروا في القطاع، ولكن منذ سنة 2019 بدأت الحركة السياحية تعود بشكل تدريجي وعادت الرحلات المباشرة التي تنظمها وكالات سفر عالمية بين فرنسا ومدينة أطار، ولكن جائحة كورونا التي تضررت منها كل دول العالم أسهمت في تراجع حركتهم، وفي السنة الحالية 2023 سجل المكتب الوطني للسياحة في موريتانيا زيادة أعداد السياح الذين حطوا الرحال في الواحة عن طريق الرحلات التي تنظم في الموسم السياحي بين مدينة أطار وفرنسا.

صور (5) نموذج من أنواع الرحلات السياحية في الواحة



المصدر : www.randozone.com,

ثالثا - الأثر التنموي للصناعة السياحية على واحة وادان: لقد استطاعت الصناعة السياحية في واحة وادان أن تخلف أثارا إيجابية واضحة على السكان في واحة وادان وعلى مجالهم الجغرافي وقد شملت تلك الآثار العديد من مجالات الحياة المختلفة ولكن مستويات تأثيرها كانت متفاوتة، ومن تلك المجالات ما يلي:

1 - توفير فرص العمل: وفرت الصناعة السياحية في واحة وادان مئات فرص العمل للوادانيين فمنهم من يعمل في النزل يناهز عددهم 55 عاملا في النزل والفنادق كعمال دائمين ومؤقتين، كما يعمل العشرات في سياقة السيارات التي تقوم بنقل السياح بين المواقع السياحية، والمئات من الجمالة الذين يشرفون على رعاية الإبل التي تنظم على ظهورها رحلات سياحية، كما يعمل العشرات في إرشاد السياح، وهناك عشرات الشباب الذين يعملون كطباخين يرافقون السياح في رحلاتهم... هذا بالإضافة إلى الفرص غير المباشرة التي يوفرها النشاط.

2 - زيادة الدخل: تساهم السياحة في مواسم الحركة السياحية في زيادة دخل أصحاب الفنادق والنزل والمطاعم وأصحاب المحلات التجارية ونقاط بيع البنزين وملاك السيارات التي تعمل في النقل والمخابز ومحطات الوقود وملاك الإبل التي يتم تأجيرها لنقل السياح، والصناع التقليديين الذين يصنعون منتجات صناعية تقليدية تباع للسياح....

3 - تطوير البنية التحتية السياحية: لعبت الحركة السياحية دورا بارزا في تنمية النزل السياحية في الواحة حيث تضاعفت عدة مرات فقبل سنة 2000 لم يكن في واحة وادان سوى نزلين وما بين سنة 2000 و2007 زادت بخمسة نزل، وما بين سنة 2007 إلى اليوم زادت بواحد، كما زادت محطات بيع البنزين والمتاجر ومحلات بيع الصناعة التقليدية.....

4 - توسع المجال الحضري للمدينة: لقد ساهمت النزل التي تم بناؤها في المدينة والمحال التجارية في توسع المجال الحضري للمدينة وقد كان لمهرجان المدن القديمة أو ما بات يعرف اليوم مهرجان مدائن التراث دورا أساسيا في توسع المجال الحضري للمدينة بسبب الدعم الذي قدمته الحكومة للسكان من أجل تهيئة البيوت والمساكن لاستقبال ضيوف المهرجان الذي نظم ثلاث مرات في المدينة.

5 - زيادة التعاونيات النسوية: لقد كانت السياحة سببا في زيادة أعداد التعاونيات النسوية فقبل التسعينات لم تكن التعاونيات النسوية تتجاوز 10 تعاونيات، ولكن بعد النشاط السياحي تضاعفت أكثر من سبع مرات وأصبحت تزيد على 70 تعاونية نسوية تعمل في مجالات مختلفة من أهمها الصناعة التقليدية¹.

6 - نشاط في حركة البناء والترميم: نشطت الحركة السياحية في واحة وادان من حركة البناء في مدينة وادان خاصة في النزل حيث كانت النزل في كل سنة تقوم بتوسيع وترميم بعض المرافق داخل النزل وذلك دليل على استفادة صاحب النزل من النشاط، فهناك خمسة نزل في الواحة كانت في كل سنة تعمل على زيادة المرافق في النزل، كما أن المركز التاريخي شهد نشاطا كبيرا في ترميم المعالم التاريخية فيه منذ سنة 2001 وحتى النسخة الأخيرة من مهرجان مدائن التراث شهد حملات ترميم سنة 2021.

7 - زيادة الإنتاج الزراعي وتنوع المحاصيل: كان للنشاط السياحي دورا بالغ الأهمية في زيادة إنتاج واحة وادان من التمور والخضروات وذلك يعود إلى زيادة الطلب عليها خاصة على الخضروات التي تستهلك بدرجة كبيرة من طرف السياح، وقد كان ذلك دافع دفع بالمزارعين في الواحة إلى زيادة إنتاجهم منها وتنويعه حيث اهتموا بزراعة الجزر والبطاطس واليقطين والبطاطس والبانجان...

ورغم ما تقدم فإن استفادة السكان بشكل عام من الصناعة السياحية لا تزال ضعيفة أو متوسطة خاصة إذا قورنت بمستوى استفادتهم من الزراعة والرعي... لأن الذين يستفيدون بشكل مباشر من السياحة في الواحة لا تزال نسبتهم قليلة وقد أكد لنا الكثير من الأشخاص الذين أجرينا معهم مقابلات أن استفادتهم من السياحة محدودة وقد عبرت نسبة 59 في المائة من المستجوبين بأن استفادتهم من السياحة ضعيفة، بينما عبرت نسبة 36 في المائة بأنها متوسطة فيما اعتبرت نسبة 5 في المائة بأنها جيدة.

¹ مقابلة مع مريم منت أدويك، رئيسة تجمع التعاونيات النسوية على مستوى مقاطعة وادان، بتاريخ 12 - 09 - 2022

خاتمة:

نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى عدد من النتائج التي تدل بشكل واضح على صدقية الفرضية التي افترضناها للإشكال الذي عالجناه من خلال هذا العمل، وهذه النتائج هي:

● أن واحة وادان تتوفر على إمكانات سياحية كبيرة منها: هضاب وتلال وكثبان رملية وأشجار صحراوية وواحات نخيل ومكتبات ومتاحف ومراكز تاريخية وأثرية ونزل وفنادق وخدمات متنوعة... قامت عليها صناعة سياحية.

● أن واحة وادان تشهد منذ سنة 1996 حركة سياحية متنوعة رياضية وثقافية وعلمية وبيئية..

● أن الصناعة السياحية في واحة وادان كانت لها انعكاسات إيجابية على السكان ومجالهم تتمثل في توفير مئات فرص العمل وزيادة دخل النزل والفنادق والمحال التجارية... وكانت سببا في توسع المجال الحضري للمدينة وزيادة حركة البناء والترميم فيها، وزيادة إنتاج المزارعين وتنويعه وتنشيط السكان... كما استفادت منها الدولة والكثير من وكالات السفر السياحية الوطنية والدولية.

● وانطلاقا من هذه النتائج فقد توصلنا إلى أن الصناعة السياحية إذا واصلت التطور في واحة وادان قادرة على أن تنهض بالمدينة الواحة في كافة المجالات وتعيد لها ألقها الذي كانت تنعم به في عصور ماضية بسبب نشاط حركة القوافل التجارية الصحراوية وازدهار الزراعة والرعي، ومن أجل المساهمة في تطوير الصناعة السياحية في الواحة نقدم المقترحات التالية:

● استغلال الإمكانات السياحية التي لم تستغل بعد خاصة تلك الإمكانات القريبة من المسالك والدروب في الواحة التي يسلكها السياح وغيرها.

● بناء منتجات سياحية تستجيب لحاجات السياح القادمين من الداخل والخارج خاصة أن واحة وادان تفتقر للمنتجات السياحية التي تعد من أهم عناصر الجذب السياحي.

● تكثيف حملات الترويج للمقدرات السياحية التي تزخر بها الواحة وطنيا ودوليا عبر وسائل الإعلام والمعارض والمهرجانات....

● تطوير الفنادق والنزل بزيادة قدرتها الاستيعابية التي لا تزال ضعيفة وتزويدها بكافة الوسائل اللازمة لراحة السياح وتقديم خدمات إيواء واستقبال تنافسية.

● تعبيد الطرق التي تربط بين المواقع السياحية خاصة الطريق الرابط بين مدينة وادان ومدينة أطار.

● تزويد المدينة بخدمات مصرفية حيث أنها تفتقر لوكالات بنكية، ولشبكات اتصال قوية.

● تشجيع رجال الأعمال الوطنيين والدوليين على الاستثمار في المجال السياحي.

● الاهتمام بتنظيم المزيد من المعارض والمهرجانات في الواحة جهورية ووطنية ودولية، وتنمية أنماط سياحية مختلفة.

المراجع:

1. أحمد أدليمي، محمد دلف، وفويزة أحمد موسى، جغرافية التنمية (مفاهيم-نظريات-تطبيق)،
قسمي الجغرافيا في جامعتي حلب والأنبار، الطبعة الثانية 2009
2. الأنظمة الولحية: مظاهر التجديد وآفاق التنمية المستدامة، مؤلف جماعي، ط 1، مطبعة سوبر كوبي، 2020
3. سادا وان، جاك كارول، إبراهيم عبد القادر، الاستراتيجية الوطنية للتنمية السياحية والأنشطة
ذات الأولوية (ملخص)، إدارة السياحة، نوفمبر 2007
4. الطيب، سعيد صفي الدين، مقومات التنمية السياحية في ليبيا (دراسة في الجغرافيا السياحية)،
رسالة دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2001
5. عالي، عبدوتي، مدخل إلى الاقتصاد الموريتاني، الطبعة الأولى، طوبرس، 2014
6. عالي، عبدوتي، مدخل إلى الجغرافيا الاقتصادية، المركز الجامعي للنشر والإعلام، جامعة نواكشوط، 2015
7. الكتاب، محمد الأمين، مدينة وادان التاريخية من تأمل الماضي إلى تمثل المستقبل، الثقافية
مجلة -فصلية- ثقافية تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة والعلاقة مع البرلمان
الموريتانية، العدد 8، 2023
8. محمد يحي، أحمد، وإيل ريش ريبستوك، فهرس مخطوطات شنقيط ووادان، مؤسسة الفرقان
للتراث الإسلامي، لندن 1997
9. سيدي محمد عابدين سيدي، مالك متحف وادان، مقابلة بتاريخ، 01 - 01 - 2022
10. البكاي عبدات، دليل سياحي في المركز التاريخي لمدينة وادان، مقابلة، بتاريخ 31 - 12 - 2021
11. مريم منت أدويك، رئيسة تجمع التعاونيات النسوية على مستوى مقاطعة وادان، مقابلة
بتاريخ 12 - 09 - 2022
12. زيارة ميدانية لمدينة وادان القديمة، ولنقطة الاستعلامات السياحية فيها، بتاريخ 30 - 08 - 2022
13. Adrar en chiffre 2014 - 2018, office national de la statistique, service régionale
de l'Adrar, Edition 2019
14. LECOQUIERRE B., 2008, parcourir la terre - le voyage, de l'exploration au
tourisme, l'Harmattan (coll. La-bas).
15. LECOQUIERRE B., 2015, le Sahara, un désert mondialisé, la documentation
photographique n° 8106, juillet-aout 2015, la documentation française.
16. www.alamy.com
17. www.e.wordpress.com

الديناميكية الحضرية في المجال الموريتاني: النشأة والمسار

محمد الأمين ولد محمدن

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص

يعالج هذا المقال موضوع: الديناميكية الحضرية في المجال الموريتاني: النشأة والمسار، ويشتمل على محورين تناول الأول منهما: نشأة ومسار المجالات الحضرية في موريتانيا، في حين عالج المحور الثاني: العوامل المؤثرة في ديناميكية المجالات الحضرية في موريتانيا، هذا إضافة إلى مقدمة وخاتمة ضمت أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة والحلول التي من شأنها تصحيح الاختلالات البنوية التي تعاني منها تهئية المجال والتنمية الحضرية.

ففي المحور الأول وجدنا بأن مسار الديناميكية الحضرية في المجال الموريتاني مرّ بثلاث مراحل أساسية: مرحلة ما قبل الاستعمار، ومرحلة المدن الفرنسية، ثم مرحلة المدن في عهد الدولة الحديثة. وفي المحور الثاني عرجنا على العوامل المؤثرة في ديناميكية المجالات الحضرية في موريتانيا ووجدنا بأن هذه العوامل منها ما هو طبيعي (الجفاف والتصحر)، ومنها ما هو بشري (عجز خطط التنمية الاقتصادية عن تحقيق أهدافها، محاور الاتصال، وجود الخدمات الأساسية...).

الكلمات المفتاحية: الديناميكية، المجال، المدينة، السكان.

مقدمة

تؤثر ظاهرة النمو الحضري في شكل المدينة ومورفولوجيتها والوظائف الحضرية فيها، فالمدينة كيان مادي وموضوعي واجتماعي؛ حيث تجذب وتستقبل السكان وتشبع حاجياتهم بفضل إنتاجها وخدماتها، فهي المكان الذي تتم فيه الاتصالات المختلفة. وفي هذا السياق، فقد شهدت جل دول العالم الثالث نموا حضريا سريعا نجمت عنه عدة أزمات مثل: عدم القدرة على التحكم في تسيير نظامها الحضري، وعدم تحمل الضغط المتزايد جراء النمو السكاني المستمر والمتضاعف، وتشبع المجال بتركز السكنات والتجهيزات والمرافق العمومية والنشاطات في المدن التي استقطبت أعدادا كبيرة من السكان بهدف العمل ثم الاستقرار؛ مما أدى إلى ظهور حركات هجرة تصاعدية وتنازلية حسب درجة استقطاب الإقليم.

ويمثل تزايد وتيرة النمو الحضري والزيادة السريعة في أحجام المدن سمة بارزة في البلدان النامية، في الوقت الذي يشهد فيه الوسط الريفي أزمات خطيرة تجسدها تيارات الهجرة نحو المدن وتراجع الأنشطة الاقتصادية بفعل موجات الجفاف المتعاقبة التي أدت إلى تدمير المنظومة البيئية التي كان يعتمد عليها سكان الأرياف.

وهكذا، فقد شهدت موريتانيا مسلسلا حضريا متسارعا جسّدته شبكة حضرية ناشئة في معظمها، رغم قدّم بعض المدن التي لعبت دورا أساسيا في المبادلات التجارية باعتبارها مراكز جذب هامة ونقاط عبور أساسية للمنتوجات والبضائع من شمال إفريقيا باتجاه الإمبراطوريات السودانية الموجودة في غربها، إلا أن انهيار التجارة الصحراوية وتحول المسار نحو الشواطئ الأطلسية ونهر السنغال أدى إلى تراجع دور المدن الصحراوية وفتح المجال أمام تنامي المراكز العسكرية التي أنشأها المحتل الفرنسي لبسط نفوذه على كامل التراب الوطني.

وقد كانت لحركية التمدن انعكاسات جمة على مختلف الأصعدة؛ حيث نتج عنها زيادة مطردة لأعداد السكان في المراكز الحضرية والريف المستقر، وتراجع مستمر للبدو الرحل الذين يعتمدون في حياتهم على الرعي وما يتطلبه من تنقل؛ إلا أن التغيرات السوسيوإقليمية التي طرأت خلال العقود الأخيرة أدت إلى تداعي ركائز هذه الحياة، فوجد هؤلاء السكان أنفسهم أمام خيارين: إما الهجرة إلى المدن بحثا عن مصدر عيش جديد، وإما التجمع والتكتل حول نقاط المياه أو على جنبات المحاور الطرقية. وهكذا، بدأ سكان المنطقة يهجرون حياة البداوة والترحال، ويتجهون إلى حياة المدن والاستقرار، فتجمعوا في المراكز الحضرية أو في مراكز صغيرة بالريف المستقر تحت تأثير الهجرة؛ فتحول المجتمع من مجتمع يغلب عليه الرحّل إلى مجتمع يغلب عليه المستقرون. وقد حدثت كل هذه التغيرات دون أن تكون التهيئة الحضرية قد عرفت طريقها إلى المراكز الحضرية؛ مما أضاف تعقيدات جديدة إلى واقعها الأصلي الذي لم يضع أصحابه في الحسبان انعكاسات النمو الحضري على السكان وتوزيعهم عبر المجال.

1. إشكالية البحث:

عرفت معظم المدن الموريتانية ديناميكية حضرية معتبرة في السنوات الأخيرة بفضل وظائفها الاقتصادية والصحية والتعليمية والأمنية التي جعلتها تستقطب السكان، وقد لازم هذا النمو السكاني توسع عمراني عشوائي، ناجم عن تأخر إنجاز مشاريع التهيئة الحضرية التي تحتاج إليها المجالات الحضرية عامة.

ولم تستطع السياسات التي انتهجتها الحكومة والفاعلون المحليون في تصحيح الاختلالات البنوية التي تعاني منها التنمية الحضرية، نظرا لضعف تدخلات الدولة وضعف الإمكانيات المرصودة لهذه المجالات الحضرية، ومن هنا تبرز الإشكالية الرئيسية لهذا المقال، والتي يمكن صياغتها من خلال السؤالين الإشكاليين التاليين: كيف نشأت وتطورت المجالات الحضرية في موريتانيا؟ وما العوامل التي أثرت في دينامية هذه المجالات الحضرية وأدت إلى توسعها؟

2. فرضيات البحث:

تعتبر الفرضية من أهم عناصر البحث العلمي؛ إذ تقدم مجموعة من التوقعات التي تقدّم تفسيرات مؤقتة لإشكالية البحث، ومن أجل الإجابة على الإشكالية الرئيسية سننطلق من الفرضيتين التاليتين:

- المجالات الحضرية ذات نشأة مختلفة، وقد تطورت هذه المجالات دون أن يصاحب ذلك التطور عملية تهيئة ولم تُوضع لها مخططات عمرانية.

- أثرت عوامل عديدة في دينامية المجالات الحضرية وأدت هذه العوامل إلى توسع هذه المجالات.

3. منهجية الدراسة:

تختلف المناهج المتبعة في الدراسات الجغرافية والمعايير الاستمولوجية التي تتأسس عليها، باختلاف الظاهرة أو الظواهر المعالجة، وقد نجم عن هذا الاختلاف من جهة، تعدد المناهج العلمية (المنهج الوصفي، المنهج التحليلي، المنهج الاستنباطي، المنهج الاستقرائي، المنهج التاريخي، المنهج التجريبي، المنهج الإحصائي.....)، ومن جهة أخرى تتنوع الخطوات والأساليب والتقنيات التي تُوظف في المراحل المختلفة من طرق أو مناهج البحث.

وبما أن لكل دراسة مناهجها الخاصة بها، فإن هذه الدراسة ستتم من خلال الاعتماد على المنهج العلمي الوصفي والتحليلي، الذي يستخدم في الغالب مقاربات جغرافية تهتم بالعلاقة بين الظواهر وتوزيعها المجالي وتطورها وتأثير بعضها على بعض، وكذلك الاهتمام بالبنى والأشكال التي تتخذها تلك الظواهر في ظروف معينة؛ كما سيكون للمقاربات التاريخية والكمية والاجتماعية والاقتصادية حضور في مواقع مختلفة من هذا العمل.

4. المفاهيم المؤطرة للدراسة:

تعتبر مرحلة تحديد المفاهيم من أهم مراحل البحث العلمي، والهدف منها تحديد المفاهيم المؤطرة للدراسة تجنباً لأي التباس في الفهم، وسنقتصر على دراسة المفاهيم الآتية: الديناميكية والمجال، والمدينة.

☆ **مفهوم الديناميكية:** إن مفهوم الديناميكية مشتق من العلوم الفيزيائية ويقصد بها: "النشاط والحركة المستمرة والتطور". وقد أصبح هذا المفهوم متداولاً في حقل العلوم الإنسانية عامة¹ والجغرافيا الحضرية بصفة خاصة، والتي نجد أن الدينامية الحضرية فيها تشمل عدة أبعاد منها: أن الدينامية المجالية بمفهومها الواسع تعني كل تطور يهم المجال والبعد المجالي². أما Paul Robert فيعتبر أن الدينامية كفرع ميكانيكي يهتم بدراسة العلاقات التفاعلية بين العناصر المحركة تحت قوة داخلية وأخرى خارجية³. أما الدكتور المختار الأكل فيعرف الدينامية بأنها: "التحول والانتقال من حالة إلى أخرى في هيئة خطية أو دورية أو تصاعدية أو تراجعية؛ مما يقتضي مجالا يتحرك فيه وزمانا ينجز فيه ذلك التحول والانتقال؛ ومن ثم فإن الدينامية في العلوم الاجتماعية صيرورة لها بداية ومراحل تطور تعتبر الفترة الراهنة إحداها وتؤشر لتوجهات التطور المستقبلي⁴.

وتنقسم الديناميكية إلى ديناميكية حضرية ومجالية وترايبية، وسنضرب الصفح هنا عن الصنفين الأخيرين ثم نعطي تعريفاً للديناميكية الحضرية؛ التي يرتبط مفهومها بالتحويلات التي تعرفها المجالات الحضرية في بعدها الديمغرافي والعمراني، وتأثير ذلك على المجال في سياقه التاريخي والجغرافي؛ أي أن الدينامية الحضرية لها ارتباط وثيق بمكونات الظاهرة الحضرية سواء على المستوى الكمي أو الكيفي أو الإداري⁵.

☆ **مفهوم المجال:** من خلال إلقاء نظرة على القواميس الجغرافية نجد أن أغلب هذه القواميس لم تعرف كلمة المجال، وقد رأى "إبيار جوج" أنه ينبغي أن تعرف هذه الكلمة باعتبار أن علم المجال الجغرافي يعتبر موضوع الجغرافيا ذاتها. وقد عرف الأستاذ عمر بلهادي المجال الجغرافي بمعناه العام بأنه: "مساحة من الأرض ذات امتداد ولها حدود معروفة"⁶. ومن خلال تتبعنا لآراء الجغرافيين حول مفهوم

¹ - في علم الاجتماع فإن الديناميكية هي مصدر حركة المجتمع وتحوله ومبعث تطوره وتقدمه.

² - العزيز البقالي، دينامية المشهد الحضري لمدينة وادي زم، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011-2012، ص: 24.

³ - Paul Robert, dictionnaire de la langue française, deuxième édition, p 28.

⁴ - المختار الأكل، دينامية المجال الفلاحي ورهانات التنمية المحلية؛ هضبة بن سليمان، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2004، ص: 9.

⁵ - مصطفى الشويكي، مستقبل الدار البيضاء بين تعدد النماذج ووحدة المشروع في أفق القرن الواحد والعشرين بين الهوية الوطنية والبعد المتوسطي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص: 58-60.

⁶ - Belhedi A. Repère pour l'analyse de l'Espace, 1984, p 403.

المجال وجدنا بأنها متعددة، ورغم ذلك فإنه يمكن تحديده على أساس بعدين أساسيين هما: الحيز المكاني والحجم¹.

❖ مفهوم المدينة: يعتبر مفهوم المدينة² من المفاهيم المعقدة؛ نظرا لتعدد التخصصات التي تناولت هذا المفهوم، لكنها تكاد تجمع على أن المدينة ارتبطت نشأتها باستقرار الإنسان، وعكس نموها وتطورها أسلوبه في العيش وطريقته في الحياة وعلاقته بالآخرين؛ وهذا ما يجعل المدينة من خلال وظيفتها ونشاطها تتجاوز كونها مجالا عمرانيا لتصبح كائنا اجتماعيا متفاعلا³.

وهناك من يتجاوز المفهوم العمراني والمجالي للمدينة إلى ما هو أعمق وأشمل، حيث يعتبر "جوردن إست" المدينة بأنها: "المظهر المعبر في ثورة حضارية كبرى على مسيرة التطور البشري تهدف إلى تكريس المظهر الملموس للجانب الحضري المنظم والمعبر عن إدراك الإنسان لمتطلبات الحياة الاجتماعية وشروطها"⁴. ويعرف علي لبيب وآخرون في قاموس الجغرافيا (عربي-فرنسي-إنجليزي) المدينة بأنها: "تجمع عمراني، مهكل ومتجانس، يكون جماعيا مكونا وحدة حشرية، تكثر وتتنظم فيه المباني والمسالك، كما تزدهم فيه الحركة والأنشطة الحضرية كالتيجارة والصناعة والخدمات الأخرى. عموما، فإن المدينة ظاهرة مركبة ومعقدة تتداخل فيها العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية. وفي هذا السياق، لم تعرف المدن الموريتانية في العهد الحديث تعريفا ثابتا، ذلك أن المتتبع للإحصاءات والمسوح التي قامت بها الدولة الموريتانية، والتي تمثل أهم المصادر لتحديد المراكز الحضرية في موريتانيا، يلاحظ من خلال هذه الإحصاءات أن هنالك شرطين أساسيين إذا توفّر أحدهما في أي تجمع سكاني اعتُبر ذلك التجمع حضرياً، وهذان الشرطان هما:

¹ - محمد عالي ولد النقي، الخدمات والمجال في ولاية اترارزة، بحث لنيل درجة الدكتوراه، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2018، ص: 37.

² - لفظ مدينة مشتق من الفعل تَمَدَّنْ؛ وتمدّن الشخص أي تحضر في مكان يتوفر على جميع شروط الحضارة من صناعة وتجارة وخدمات. ويرى صبري فارس الهيتي أن لفظ مدينة مشتق من فعل: دان يدين أي حكم، فهي إذن مكان إقامة القاضي، راجع بهذا الخصوص: صبري فارس الهيتي، جغرافية المدن، ط1، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2002، ص: 28.

³ - ناصر الدين سعيدوني، المدينة تفاعل اجتماعي وتفاعل حضاري، مجلة عالم الفكر، العدد 2، المجلد 38، أكتوبر، 2009، ص: 7.

⁴ ناصر الدين سعيدوني، المدينة تفاعل اجتماعي وتفاعل حضاري، مرجع سبق ذكره، ص: 8.

➤ إذا بلغ عدد سكان التجمع 5000 نسمة فأكثر؛

➤ وإذا كان التجمع عاصمة لولاية أو مقاطعة تُقدّم خدمات إدارية واقتصادية وثقافية وصحية (المعيار الإداري والتجهيزي والوظيفي).

وقد اعتبرت الدولة الموريتانية في الإحصاءين العامين للسكان والمساكن لسنة 1988 و2000 أن جميع المراكز الحضرية التي يبلغ عدد سكانها 5000 نسمة تعتبر مراكز حضرية، أما في الإحصاء العام للسكان والمساكن لسنة 2013م، فقد اعتبرت الدولة الموريتانية أن كل عواصم المقاطعات مُدُنًا بغض النظر عن حجم سكانها، لكنها أبقت على المعيار العددي للسكان بالنسبة لباقي المستقرات البشرية. إجمالاً، فإن مختلف التعريفات التي عرفتتها المدينة الموريتانية، تبقى جزئية وغير كافية من الناحية الجغرافية؛ ذلك أنها تخفي العديد من أبعاد تطور المدن، خاصة وأن مفهوم المدينة يتطور باستمرار ويزداد تعقيداً يوماً بعد يوم.

i. نشأة ومسار المجالات الحضرية في موريتانيا

شهد المجال الموريتاني خلال العقود الأخيرة تحولات قوية من حياة الظعن والبداءة إلى حياة الاستقرار والتمدن؛ حيث تخطى جل المجتمع عن حياة الظعن والترحال تحت وطأة التحولات المناخية التي قوّضت ركائز الاقتصاد الريفي الذي تقوم عليه حياة سكان الريف في موريتانيا، وهو ما أدى إلى نزوح ريفي نحو المراكز الحضرية؛ وهذا ما جعل موريتانيا تصنّف في مقدمة الدول العربية التي تعرف تحضراً متسارعاً.

1- الاستيطان البشري القديم في المجال الموريتاني: البدايات الأولى لنشأة المدينة الموريتانية

تدل الشواهد الأثرية على قدم وجود الإنسان في الفضاء الموريتاني بصورة عامة منذ العصر الحجري القديم وخلال فتراته الرئيسية الثلاث: الآشولية والموسستيرية والعطرية، شأن البلاد الموريتانية في ذلك شأن مناطق كثيرة من الصحراء الكبرى. وإلى الجنوب الغربي من بلدة "فديرك" الحالية - الواقعة بالقرب من مدينة ازويرات - تم التعرف على مجموعة من الآثار التي خلفها إنسان الفترة الآشولية في موقع سكني أثري مهم بالقرب من تقاطع دائرة العرض 22° شمالاً مع خط طول 13° غرباً.

وتشمل هذه الآثار بقايا مواد غذائية، من بينها عظام أفيال وأبقار وتماسيح وحيوانات أخرى لم تعد موجودة اليوم مثل: قلب الراوي، وقلب الظليم...؛ وقد قُدِّر تاريخ هذا الموقع بنحو 90000 سنة قبل الحاضر¹؛ أي في فترة ظهور الإنسان العاقل. ويرى بعض الباحثين أن بدايات الوجود البشري في

¹ - تجدر الإشارة إلى أن المقصود بقبل الحاضر أي قبل سنة 1950م، ويوافق هذا التاريخ سنة البدء في تقدير التواريخ اعتماداً على الكربون.

الأرض الموريتانية الحالية تعود إلى تاريخ أقدم من هذا¹. يرتبط الوجود البشري في موريتانيا بشكل وطيء بالمناخ؛ حيث من المعلوم أن الصحراء الكبرى بدأت تتشكل منذ نحو مليون سنة، وأخذت تشهد تعاقب فترات جافة وأخرى رطبة تتفاوتان طولا وشدة، ويُرجَّح أن مناخ الصحراء الكبرى أخذ منذ ذلك التاريخ يسير في خط انحدار متجها نحو الجفاف. وفي مناطق متعددة من الصحراء الموريتانية التي كانت أكثر رطوبة وُجِدَت آثار تُثبت قِدم وجود الإنسان حول التلال الصخرية وشواطئ البحيرات في ظهر "ولاته" و"تيشيت" و"آدرار التمر" (الخريطة: 1) و"تيرس زُمور" ومنطقة الغلاوية في شمال شواطئ المحيط الأطلسي. وقد كان لإنسان العصر الحجري الحديث حضور كثيف في الأرض الموريتانية بشكل لافت للنظر، وخصوصا في المناطق التي سبق وأن استوطنتها إنسان العصر الحجري القديم، غير أن بؤر استيطان المجموعات البشرية منذ الألف الخامسة قبل الحاضر تقع بالقرب من شاطئ المحيط الأطلسي. وتؤكد الشواهد الأثرية أن إنسان العصر الحجري الحديث استوطن الشاطئ الموريتاني بشكل دائم تقريبا منذ 7000 سنة قبل الحاضر وبكثافة عالية، ومارس نشاطاته المعيشية بما تسمح له به البيئة الشاطئية مثل: صيد الأسماك والسلاحف، وتربية الأبقار والضأن، والقنص؛ وقد استعمل في غذائه المحار والرخويات². وقد اختار إنسان العصر الحجري الحديث مواضع مستقراته على ضفاف البحيرات وقرب الخلجان الضحلة التي تكونت أثناء الغمر البحري لأجزاء من الشاطئ الموريتاني فيما عُرف بعصر الغمر "النواكشوطي". وقد عاشت في الوسط البحيري مجموعة من المعديات (Gastropodes)؛ وهي أصداف تعرف محليا بعد موتها "بأغوافيل"، ويطلق عليها ما دامت حية "بوعلاله"، واستخدمت هذه القواقع منذ القرون الأولى والوسطى حليا وأنية. كما شهدت صناعة الأواني الفخارية في المنطقة التي تقع فيها مدينة نواكشوط اليوم انتشارا وتطورا كبيرين، وما تزال شواهدهما ماثلة للعيان في معظم نواحي هذه المدينة³. يمكن القول دون مبالغة، إن المناخ هو الذي نحت الكيان الموريتاني وأعطاه ملامحه الإثنية والاجتماعية، قبل أن تصبح لعوامل أخرى مثل الدولة الحديثة والعولمة أدوار أكثر تأثيرا منه⁴. جدير بالذكر أن إعمار المنطقة بلغ ذروته قبل 3000 سنة من الحاضر؛ حيث ثبت أن مجموعات كبيرة من أسلاف البربر

¹ – Robert Vernet, Préhistoire de Mauritanie, centre culturel français de Nouakchott, 1993, p 33.

² – روبير فرني، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية: الصحراء والساحل، ترجمة بوبا ولد محمد نفع، نواكشوط، 2002، ص: 139.

³ – محمد المختار ولد السعد، إمارة التراب وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، أطروحة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1989-1999، ص: 54.

⁴ – المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور، ط1، مكتبة القرنين 21/15، نواكشوط، موريتانيا، 2016، ص 35.

قَدِمَت من شمال إفريقيا؛ وهذا ما تؤكد المصادر التي تحدثت عن تاريخ الهجرات في المنطقة، والتي أكدت أن هنالك مجموعة من الليبيين البربر الذين هاجروا من ليبيا إلى منطقة آدرار في موريتانيا؛ وذلك ابتداءً من القرن الثالث الميلادي، وهو التاريخ نفسه الذي يُرجح أن تكون مجموعة صنهاجة، قد تركت فيه مواطنها متجهة صوب المغرب الأقصى ثم الصحراء متأثرة في ذلك بالضغط المتزايد الذي مارسه عليها قبائل "زناته". وقد تمكن هؤلاء البربر مستخدمين أسلحة حديدية وعربات تجرها خيول أولاً وجمال ثانياً في القرنين الثالث والرابع الميلادي من التوغل في المنطقة، والسيطرة عليها مُزحّين المجموعات النزنجية جنوباً¹. ويعتقد بعض الدارسين أن صُور تلك العربات بقيت على طول الطريق -الذي كان يسلكه أسلاف البربر- الرابط بين آدرار شمالاً مروراً بتگانت ثم أظهر "تيشيت" وولاته باتجاه نهر النيجر، كما توجد صور لتلك العربات في جبال "أفله" وكتلة "أركيز" الصخرية. وعموماً، فإن المعطيات لا تسعفنا بتفاصيل ملموسة عن الحضور الصنهاجي في المنطقة، فلم نعثر قبل المصادر العربية على معلومات دقيقة عن حضورهم جنوب الصحراء وإن كانت تلك المعلومات ظلت ناقصة سواء فيما يتعلق بتاريخ هجرتهم إلى غرب الصحراء أو فيما يخص تاريخ المنطقة الاجتماعي عموماً؛ لأن التركيز وقتها كان على التجارة عبر الصحراء ومسالكتها ومراكزها الأساس والقيمين عليها بشكل أو بآخر.

وقد أكد "موني" على وجود علاقات مستمرة على مدى ألف سنة (ما بين القرن السابع قبل الميلاد والقرن الرابع قبل الميلاد) بين طرفي الصحراء عن طريق الخيول أولاً ثم الجمال ثانياً، وأردف قائلاً إن بربر الصحراء الجنوبية الغربية كانت لديهم حضارة قديمة نقلوها إلى السكان الزنوج الذين كانوا على صلة بهم مثل: معرفة بعض المعادن، والتقنيات الجديدة، وزراعة بعض النباتات، وحتى بعض الأفكار الدينية. ومال إلى الاعتقاد بأن البربر هم الذين شقوا طريق العربات ما قبل التاريخية واستغلوها، وأنهم كانوا وقتها يشغلون تقريباً كل المجال الذي يقطنه حالياً أسلافهم البيضان باستثناء بعض الأراضي الساحلية مثل: تگانت والحوض التي استولوا عليها بعد ذلك من السودان. ويسود الاعتقاد أن ما سيعرف بصنهاجة اللثام كانوا قد هجروا سهول إفريقيا والمغرب الأوسط منذ القرن الثالث الميلادي وإنزاحوا نحو المغرب الأقصى ومنه رحلوا إلى الصحراء تحت ضغط قبائل زناته. ولا يسعفنا "بطليموس" وأضرابه من الكتاب القدامى بمعطيات تذكر عن الملتمين وصحرائهم مما يترك

¹ - محمد الأمين ولد سيدي أحمد، السلطة والفقهاء في إمارة الترارة خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ط1، مطبعة المنار، نواكشوط، موريتانيا، 2003، ص: 29.

فراغا كبيرا في المعطيات عنهم قبل الجغرافيين والمؤرخين العرب¹. وإذا كانت الهجانة العرقية هي الظاهرة القارة في تعمير الصحراء في العصر الحجري الحديث²، فإن العلاقة بين المكونات البشرية في المنطقة قد عرفت تطورا نوعيا منذ الألف الأولى قبل الميلاد تتمثل في انتشار حضارة ما يعرف في الكتابات الأوروبية المعاصرة" بالليبيين البربر" في عموم المنطقة الممتدة بين الصحراء ونهري السينغال والنيجر. ومعلوم أن التجمعات التي تُطلق عليها اسم مدينة، كانت معروفة قديما في إفريقيا؛ وهذا ما تثبته المواقع الأثرية التي تنتشر في القارة الإفريقية. فقد شهدت المجتمعات الصحراوية تجمعات أو جماعات منذ العصر "انيوليتيكي"، وهي ليست مُدنا بالمعني الحقيقي، غير أنها قرى معمرة بساكنة مستقرة؛ وهذا ما تشهد عليه مدن "أوداغوست" و"كومبي" صالح الضاربين بجذورهما في التاريخ؛ وقد ساهمت هاتان المدينتان في تنشيط التجارة عبر الصحراء وفي انتشار الإسلام³. وأخيرا، فإن المجال الموريتاني شهد أحداثا بالغة الأهمية سواء على الصعيد السكاني أو على الصعيد الاقتصادي، أبرزها: دخول الإسلام عبر خطوط التجارة بين شمال إفريقيا وبلاد السودان؛ أما الحدث الأخير فيتمثل في دخول الاحتلال الفرنسي إلى موريتانيا بعد فترة طويلة من الصراع بين الدول الأوروبية على الشواطئ الموريتانية (البرتغال، إسبانيا، هولندا، إنجلترا، وفرنسا) من أجل السيطرة على هذه السواحل والتحكم في تجارة الصمغ العربي والرقيق⁴.

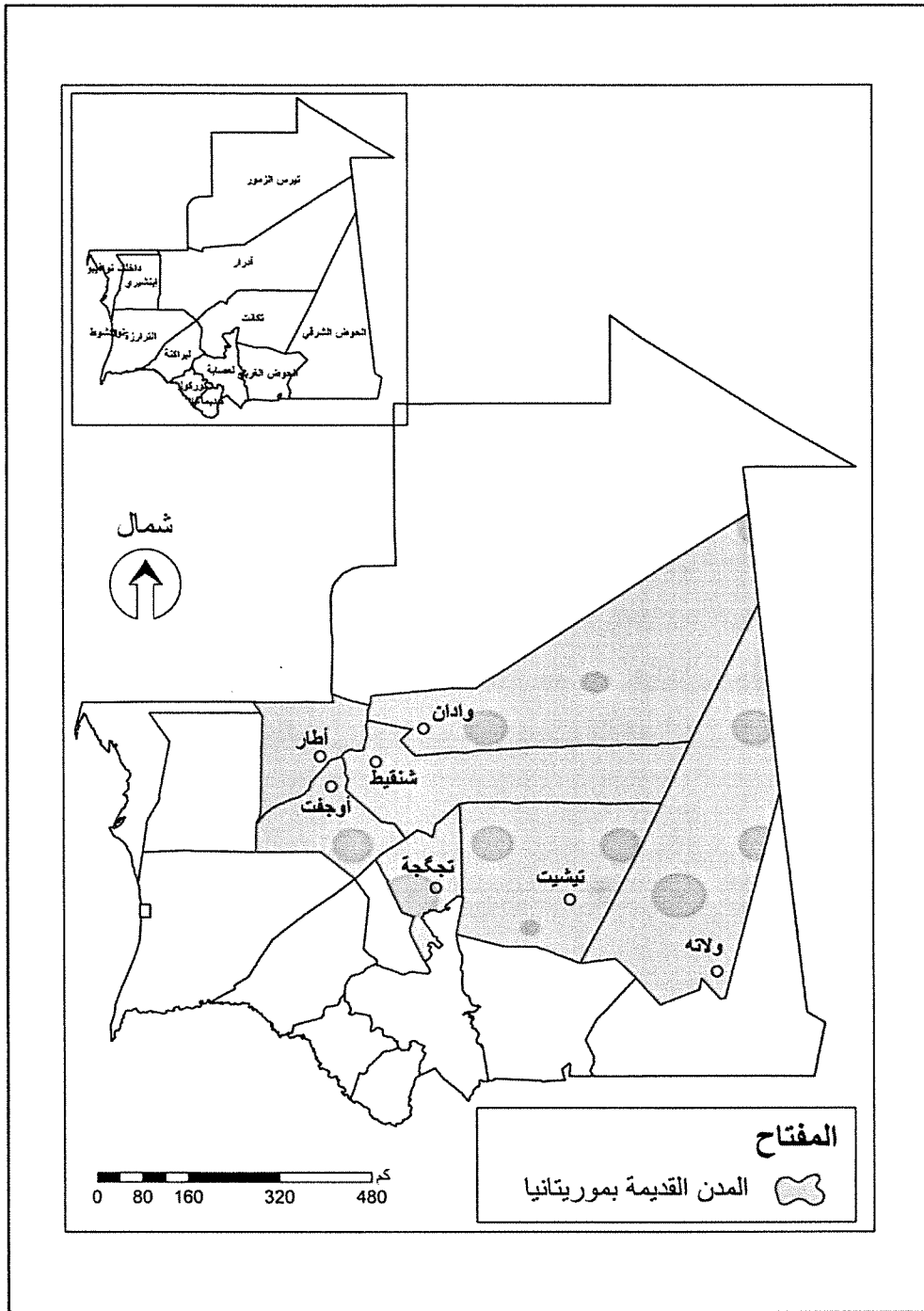
¹ - لا يتسع المقام لتتبع روايات هؤلاء عن المثلثين ومضاربهم في الصحراء؛ مما يجعلنا نقصر على هذه النماذج، ومن أجل التوسع أكثر في الموضوع، راجع محمد المختار ولد السعد، إمارة التراب وعلاقاتها التجارية مع الفرنسيين، مرجع سبق ذكره، ص: 58-59.

² - Chamla M. C, Les populations du Sahara et des régions limitrophes: études des restes humains néolithiques et protohistoriques, 1968, p 604.

³ - Armelle Choplin, op, cit, 2006, p 77.

⁴ - محمد المختار ولد السعد، حرب شر ببه أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، مشروع التقاليد المكتوبة والمروية، المطبعة الوطنية، نواكشوط، موريتانيا، 1993، ص: 11.

الخريطة (1): المدن القديمة في موريتانيا



المصدر: من إنجاز الباحث اعتمادا على مصادر متنوعة.

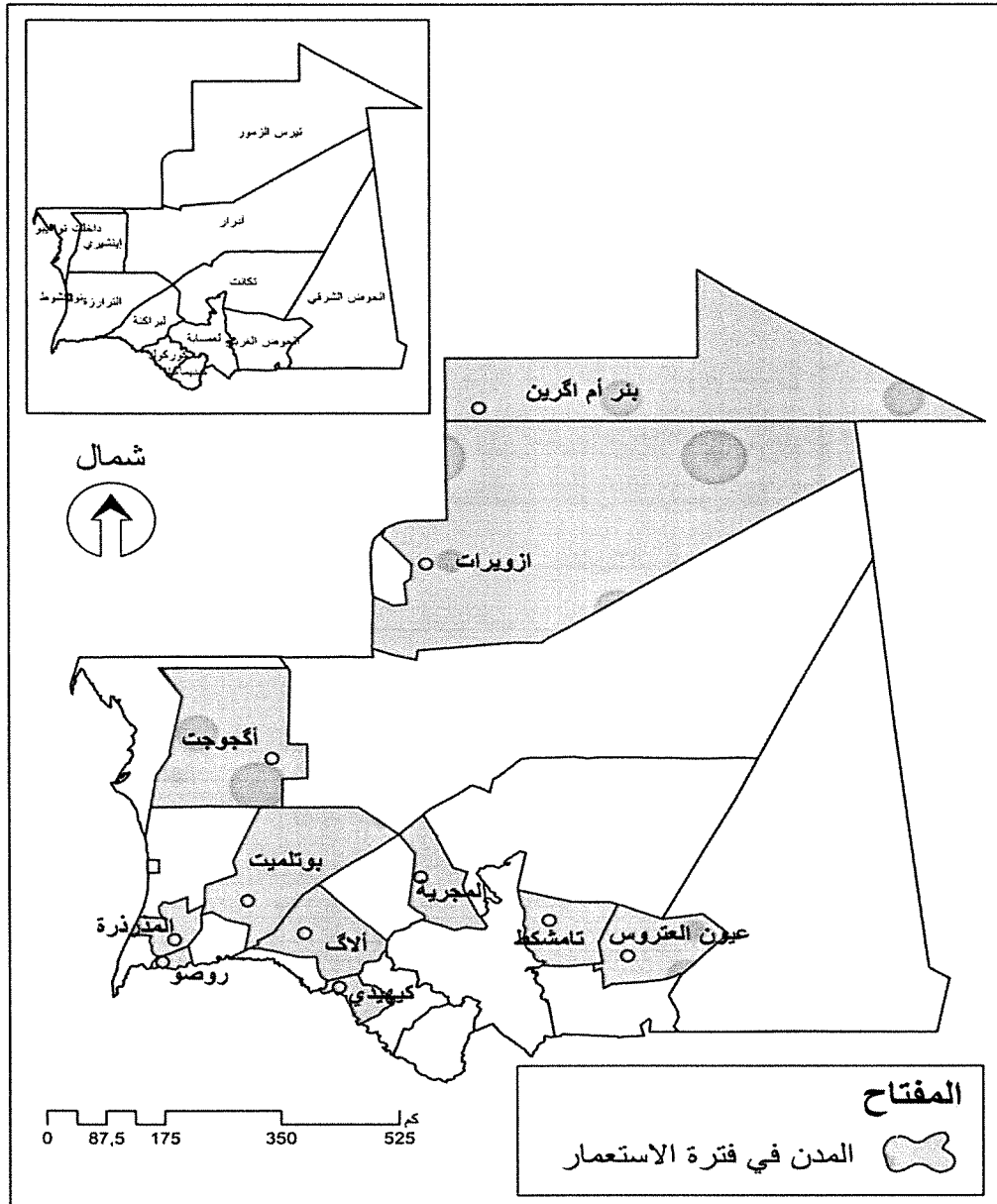
ومن خلال الخريطة أعلاه يتضح أننا أضفنا إجرائيا مدينة أطار وتجكجة وأوجوفت إلى المدن الأربع القديمة نظرا لأن هذه المستقرات الحضرية الثلاث كانت موجودة قبل المستعمر؛ الذي تبنى مدينة أطار وتجكجة.

2- الاستيطان البشري الحديث: من حياة الظعن والبداءة إلى الاستقرار والتمدين

لم تعرف موريتانيا على أيدي بني حسان قيام مستقرات حضرية جديدة، فقد كانوا يحتقرون سكان المدن، وسيطرون على مجموعات يعتمد أغلب سكانها على تربية الحيوانات، التي تتعرض غالبا للنقوص في سنوات الجفاف التي تحدث على شكل دورات في هذه المنطقة؛ وهو ما يجعل الإنسان في هذا المجال الصحراوي الضنين يلجأ إلى حلول يكون أولها في أغلب الأحيان الحروب؛ والحرب عندما تبدأ يكون سكان المستقرات الحضرية أول ضحاياها ما لم تكن تلك المستقرات تملك حصونا مادية أو معنوية منيعة تقيها؛ وقد تحدث الرحالة البرتغاليون الذين سجلوا ملاحظاتهم عن المجال الموريتاني في تلك الفترة عن هذه الوضعية، وإن بشيء من المبالغة والمركزية الأوروبية، في تلك الفترة مع تزايد اهتمام الأوروبيين بها منذ منتصف القرن الخامس عشر بالنسبة للبرتغاليين، أما الهولنديون فبدأوا تواصلهم بالشاطئ الموريتاني منذ القرن السادس عشر، في حين أن الفرنسيين والإنجليز بدأوا اهتمامهم بالجنوب الغربي من المجال الموريتاني منذ أواسط القرن السابع عشر كما تشير إلى ذلك المراجع المتوفرة.

2-1- تأثير الاستعمار في نشأة وتطور المجالات الحضرية: يمكن القول إن المستعمر الفرنسي لعب منذ تغلغله في المجال الموريتاني عبر البوابة التروزية دورا فاعلا ومؤثرا في إنشاء مراكز حضرية سعى إلى أن تلعب أدوارا عسكرية وإدارية كما هو الحال بالنسبة لكل من مدينة المذرة وبوتلميت وعيون العتروس والمجرية وألاگ وافديرك وبئر أم اكرين (الخريطة: 2) أو أدوارا اقتصادية مثل محطات نهر السينغال؛ التي ظل بعضها حتى وقت قريب يمثل ميدانا للتبادل خلال رواج تجارة الصمغ العربي، ثم تحول، لاحقا، إلى مراكز إدارية يسير من خلالها المستعمر الظهير الريفي القريب.

الخريطة (2): المدن الاستعمارية في موريتانيا



المصدر: من إنجاز الباحث بناء على مصادر مختلفة.

2-2- الاستقلال وتأسيس الدولة الحديثة: تبلور المدن وبداية التحول نحو التحضر

لم تستثمر فرنسا طيلة الفترة التي احتلت فيها موريتانيا غير جزء من عائدات هذا البلد الذي ظل خاضعا لرحمة السماء وما تجود به من أمطار شديدة التذبذب، سيئة التوزيع، وكانت البنى التحتية القليلة التي أنشئت فيه هزيلة ولا تفي بالغرض المطلوب؛ فالتعليم والصحة والنقل مثلا في وضعية كارثية؛ ففي سنة 1956م لم يتجاوز عدد الملتحقين بالتعليم 5500 طفل من أصل 185000 طفل تتراوح أعمارهم بين 6 سنوات و12 سنة؛ أي أن التعليم النظامي لم يشمل في هذه السنة سوى 3% من الأطفال الذين هم في سن الدراسة؛ ولا وجود لمستشفى واحد، أما الطرق فكلها ترابية رديئة التمهيد، وليس فيها إطلاقا طريق معبد. وفوق ذلك كله لم تكن لموريتانيا عاصمة تدار منها خلال فترة الاحتلال كلها، بل كانت موريتانيا تدار من مدينة " سينت الويس " السينغالية. ولم يكن من المعقول منح الاستقلال لمستعمرة ليست لها عاصمة، فأخذت فرنسا تعد العدة لإقامة عاصمة تضعف مطالب المغرب¹.

وبعد حصول البلاد على الاستقلال باشرت الدولة الناشئة، حينها، تهيئة مجالها الجغرافي وحوزتها الترابية، فركزت على إنشاء ودعم المراكز الحضرية الناشئة حينئذ مثل: نواكشوط ونواذيبو وازويرات (الخريطة: 3). وقد ساهمت عوامل عديدة في السنوات الأولى للاستقلال في تحريك الظاهرة الحضرية واستقرار السكان في موريتانيا، من أهمها: تكون سلطة سياسية مستقلة، وإنشاء العاصمة السياسية نواكشوط، وهيكلية المجال الموريتاني، وظهور وتكون المراكز الحضرية الجديدة، وبروز عوامل اجتماعية جاذبة بالوسط الحضري، وظهور حاجات جديدة، والتدخل الحكومي في مجال الاقتصاد، والاستثمارات العمومية ومشاريع الاستقلال الخصوصية، علاوة على دخول العملة الوطنية والعلاقات التجارية الجديدة، وتأسيس التعليم العصري².

إجمالا، فإن مرحلة ما بعد سنة الاستقلال (1960)، برزت بعدها معالم قفزة حضرية تمثلت في النمو السريع لمدينة نواكشوط عاصمة الدولة الموريتانية الفتية، وفي هذه المرحلة يعتبر قيام الدولة الموريتانية الحديثة بمثابة المحرك الأساسي للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المجتمع، فصارت مدينة بوتلميت بعد ذلك أهم المعازل الإدارية والسياسية والعسكرية للمحتل الفرنسي في

¹ - محمد بباة ولد محمد ناصر، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في موريتانيا؛ نواكشوط نموذجا، بحث لنيل شهادة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2008، ص: 52-53.

² - عبدوتي ولد عالي، الاقتصاد الموريتاني: المسيرة، الملامح، المؤشرات، المركز الموريتاني للدراسات، 2011، ص: 123-124.

موريتانيا، التي بنى فيها قلاعا ومباني لا يزال بعضها قائما إلى اليوم، والتي اتخذها مقرا لوجوده في موريتانيا؛ حيث ظلت المقر الرئيسي لـ "دائرة الحكم" (سركل) في ولاية الترارزة وإينشيري حتى استقلال موريتانيا. وقد لوحظ في هذه المرحلة أن معظم المدن التي ظهرت وتطورت قد ارتبطت في بدايتها وفي اكتسابها للوصف الحضري ببداية الاحتلال لموريتانيا¹ وبالديناميكية التي تحكمت في مسار ظروف السكان فيما بعد، والتي فرضت على نسب هامة من هؤلاء السكان الاستقرار في تلك المراكز الناشئة؛ التي لم تلبث أن جذبت إليها فئات محدودة من السكان كالتجار وبعض أفراد المجتمع البدوي الذين لفظتهم الحياة البدوية².

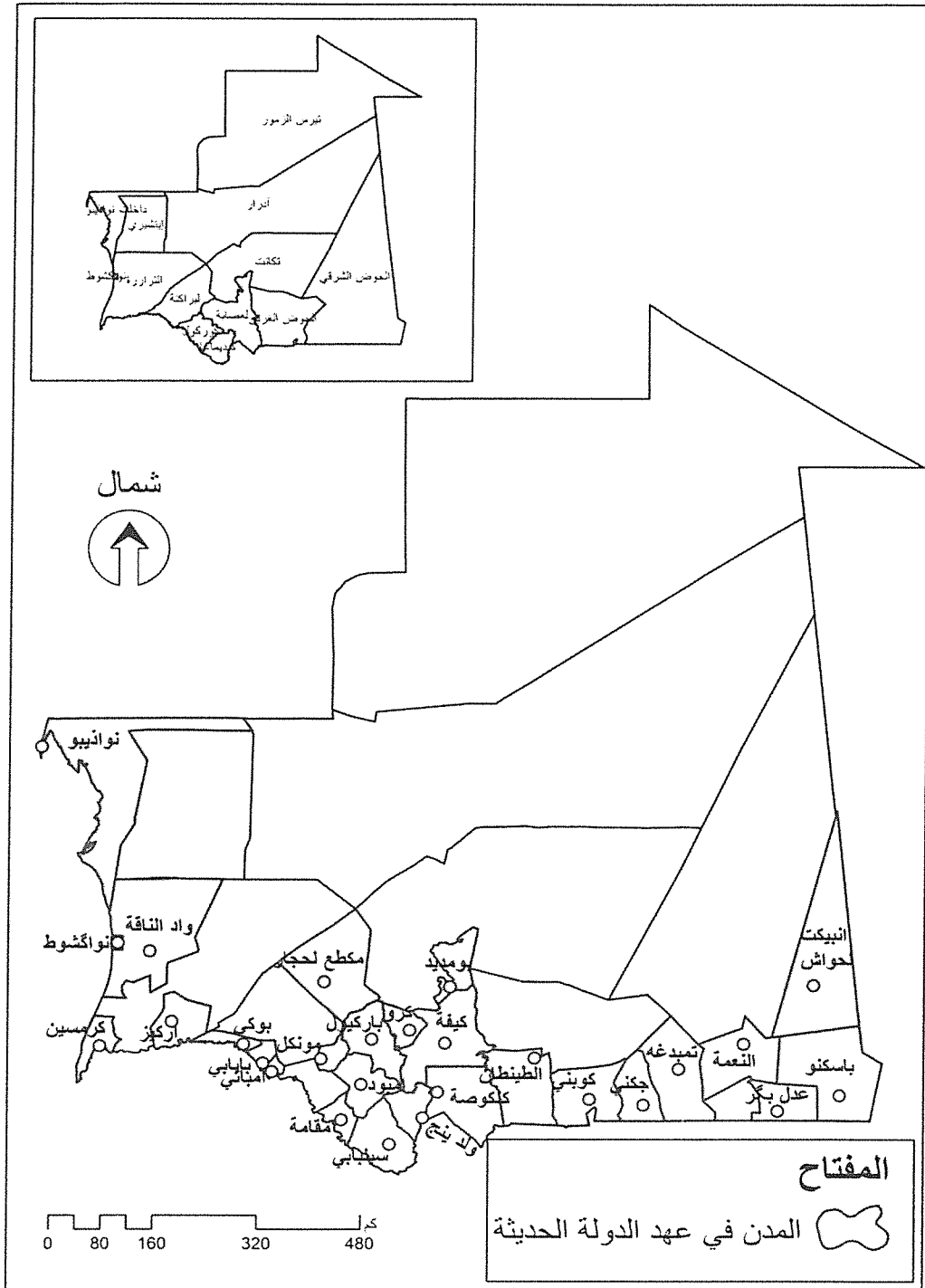
وقد كان لسياسة تشجيع البدو الرحل على الاستقرار والتحضر دور كبير في زيادة المستقرات الحضرية في مرحلة الاحتلال، والتي شهدت نشأة وتطور جزء هام مما يمكن أن يُطلق عليه "الجهاز الحضري" في أغلب المجال الموريتاني.

وعموما، يمكن التأكيد في هذه المرحلة مثلا على البدايات الأولى لنشأة مدينة روصو وبوتلميت والمذرزة والتحوالات التي طبعتهما من قرى وتجمعات حضرية ناشئة حينها إلى مدن.

¹ - يوسف عبد المجيد فائدة وآخرون، الجمهورية الإسلامية الموريتانية؛ دراسة مسحية شاملة، المنظمة العربية للترقية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، القاهرة، 1978، ص: 782.

² - وهناك المدن الصناعية الجديدة التي ارتبطت نشأتها ومسارها بشكل كبير باستغلال مناجم الحديد والنحاس والخدمات الإدارية مثل: مدينة ازويرات، وأكجوجت، ونواذيبو، ونواكشوط، راجع بهذا الخصوص: فرانسيس دي شاسيه، موريتانيا من 1900 إلى سنة 1975 (ترجمة محمد بن بوعلية بن الغراب)، منشورات دار جسر للنشر، نواكشوط، 2013.

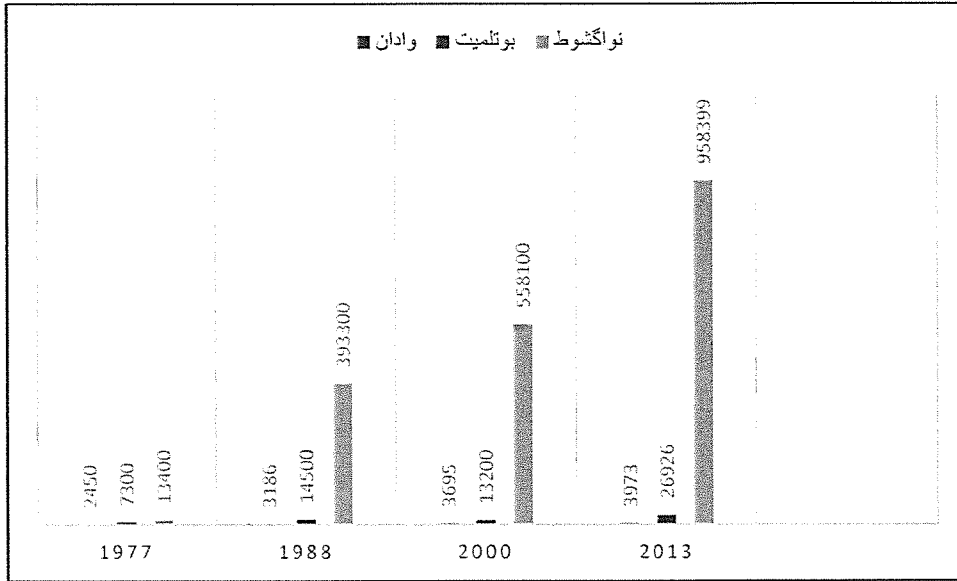
الخريطة (3): المدن ما بعد الاستقلال



المصدر: من إنجاز الباحث اعتمادا على مصادر متعددة.

وسنعمد في هذا السياق، من أجل توضيح هذه الديناميكية الحضرية التي شهدتها المراكز الحضرية، إلى تقديم مقارنة لثلاث مراكز حضرية (ما قبل الاستعمار، الفترة الاستعمارية، ثم ما بعد الاستقلال) (الشكل: 1).

الشكل (1): مقارنة ما بين مدينة وادان وبوتلميت ونواكشوط



المصدر: تجميع وإنجاز الباحث بناء على بيانات المكتب الوطني للإحصاء، الإحصاءات العامة للسكان والمساكن سنوات 1977، 1988، 2000، و2013.

ويلاحظ من خلال الشكل (1) أنه في البداية كانت الهيمنة للمدن القديمة نتيجة لانعدام أي مراكز حضرية أخرى، لكنها سرعان ما تحولت لصالح المدن الاستعمارية وما بعد الاستقلال؛ وهو ما يعكس بجلاء أن هنالك مدناً نمت بالتبني ومدناً اندثرت بعدم التبني. وفي هذا الصدد فقد أدت نشأة المدن الحديثة ببriqueها وجاذبيتها.. إلى تراجع تطور المدن القديمة، وهو ما حدث عكسه في المغرب مثلاً حيث نجد أن المدينة القديمة نمت وتطورت بموازية المدينة الحديثة دون أن تؤدي إلى اضمحلالها وأبرز مثال على ذلك مدينتا مراكش والدار البيضاء...

ii. العوامل المؤثرة في ديناميكية للمجالات الحضرية في موريتانيا

لقد ارتبطت نشأة المدن وتطورها قديماً وحديثاً بعوامل عديدة، نلخصها في الآتي:

- 1- طبيعة الموقع والموضع: لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الموقع الجغرافي الأمثل يتحكم في اختيار مواضع جميع المدن الموريتانية، حيث نجد أن بعض هذه المدن شُيد أساساً على سهول في موقع ملتقى محاور المواصلات بالقرب من النهر كما هو الحال بالنسبة لمدينة روصو وبوگي وكيهيدي أو بالقرب من الموانئ مثل: مدينة نواكشوط ونواذيبو أو حول المناجم المستغلة

مثل: مدينة ازويرات وأكجوجت. وفي هذا السياق، فإن لمواقع المدن القديمة خصوصيات ترتبط بطبيعة السياق الذي نشأت وتطورت فيه، حيث نجد أنها غالبا ما توجد بالقرب من مصدر مهم للمياه، وقد استفاد بعض هذه المدن من الطبيعة الطبغرافية للأرض في الحماية خطر الهجوم الخارجي.

عموما، فإن طبيعة الأرض التي شُيّدت عليها المدن الموريتانية فرضت عليها التوسع في الاتجاهات التي يسمح بها طبيعة الموقع، حيث نجد أن مدينة بوتلميت مثلا التي شُيّدت على أرض غير مستوية توسعت في الاتجاهات المنخفضة عكس الجهات المهددة بغزو الرمال.

2- موجات الجفاف المتتالية: لقد أخلّ تعاقب موجات الجفاف خلال العقود الماضية بتوازن أنماط العيش التقليدية التي كان يعتمد عليها السكان في معيشتهم، وهو ما دفع سكان الأرياف إلى المدن الموريتانية بشكل عام، ويعتبر جفاف نهاية الستينات بالنسبة للسكان الموريتانيين أقوى تأثير على المراعي والمزارع والغطاء النباتي نتيجة طول فترته مقارنة بنوبات الجفاف المحدودة التي ما تزال عالقة بالذاكرة (1940-1941) والتي رافقت الحرب العالمية الثانية. وقد يكون من الإنصاف القول إن فترة الجفاف الأخيرة عرفت قمتين حادتين (1971-1972) و(1983-1984) كانتا وراء كثير من عمليات الاستقرار والتحضر الفوضويتين كما ساهمت في تناقص نسبة الرحل من إجمالي السكان¹.

وبصورة عامة، فقد ساهمت ظاهرتا الجفاف والتصحر في تنامي ظاهرة التحضر وفق وتيرة أذهلت الباحثين، نظرا لوقعهما الشديد على الاقتصاد الريفي بشقيه الرعوي والزراعي، وهو ما دفع سكان البدو الرحل الذين كانوا يشكلون غالبية سكان موريتانيا إلى الهجرة من الأرياف نحو المدن مشكلين فقر بئيسة حولها، أو الاستقرار في تجمعات قروية بالقرب من مناطق طعنهم، وسوف تتطور هذه التجمعات فتصبح قرى تقف إلى مستلزمات الحياة والبقاء.

3- توفر الخدمات الأساسية عامل مؤثر في زيادة رقعة المدينة: تساهم الخدمات التعليمية والصحية والطرق والمواصلات في جذب أعداد كبيرة من السكان إلى المراكز الحضرية، وهو ما ينجم عنه تغيرات عمرانية واجتماعية واقتصادية على مستوى المدن، وقد تكون الخدمات جاذبة أو طاردة في نفس الوقت؛ حيث أن النقص الكبير لهذه الخدمات في المناطق الريفية تنجم عنه هجرة سكان الأرياف إلى المدن كما حدث في معظم البوادي القريبة من المدن الموريتانية والتي هجرها

¹ - سيدي عبد الله ولد المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1996، ص: 221-235.

جل سكانها، وهو ما أدى إلى اختفاء الكثير من الآبار المحيطة بهذه المدن أو نقل اسمها من المنطقة الأصلية إلى منطقة الظهير القريب منها؛ علاوة على أن توفر الخدمات بشكل نسبي في المراكز الحضرية يسبب هجرة سكان المدينة إلى مدن أخرى تكون أكثر حظا على مستوى توفر الخدمات، فقد حصل هذا الشيء بالنسبة لمدينة بوتلميت مثلا في الفترات الماضية حيث تركها معظم سكانها بحثا عن ظروف أحسن فانتقلوا مختارين أو مجبرين إلى مدينة نواكشوط كما عبّر عنه بعض أفراد عينة الدراسة.

4- عجز خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبرامجها عن تحقيق طموحاتها: نفذت موريتانيا من خلال نظام التخطيط الاقتصادي والاجتماعي الذي انتهجته منذ العام 1963 إلى 1985 أربع خطط اقتصادية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وقد تبنت هذه الخطط جملة من أهداف والاستثمارات في مختلف القطاعات، وتراوحت نتائجها بين التقصير المخل والحد الأدنى في بعض الحالات والتباين نتيجة لذلك بين المتوقع والمنفذ؛ مما جعل المحصلة النهائية للعملية تشكل إحدى اللبئات الأساسية في إطار العوامل التي ساعدت على خلق الحوافز والدوافع لدى السكان لاختيار سبيل الهجرة نحو المدن (المراكز الحضرية)¹، وقد كان من أبرز نتائج هذه الخطط: ترقية قطاع البنى التحتية ودعم الاقتصاد الحديث على حساب الاقتصاد الريفي (التقليدي).

إن إلقاء نظرة فاحصة على خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية تُمكن صاحبها من الخروج بنتيجتين هامتين تتمثل أولاهما في: عدم توحيد مجالها الزمني الذي تمتد عليه هذه الخطط (رباعية أو خماسية)، أما النتيجة الثانية فتتعلق بالانقطاعات التي تفصل أحيانا بين الخطة والتي تليها؛ حيث جاءت الخطة الأولى رباعية مُغطّية الفترة الممتدة ما بين 1963-1966، أما الخطة الثانية فجاءت رباعية وغطت الفترة الممتدة ما بين 1970-1973م، في حين جاءت الخطة الثالثة أولى خطة خماسية نظرا لأن سابقتها كانتا رباعيتين وقد غطّت هذه الخطة الفترة الممتدة من 1976-1980؛ وقد استفادت هذه الخطة من المسح الذي قِيم به للمراكز الحضرية (المُدن) مطلع سنة 1975م تمهيدا للتعداد العام لسنة 1977م؛ حيث قُدمت تقديرات أقرب للصواب بالنسبة للعدد الإجمالي للسكان وأعداد النشطين وتوزيعهم في مختلف القطاعات.

¹ - سيدي عبد الله ولد المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا (الثاني الحرج)، مرجع سبق كره، ص: 217.

أما الخطة الرابعة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية (1981-1985) فهي ثاني خطة خماسية تعرفها البلاد وآخر خطة تحمل هذا الاسم (خطة) حتى الآن؛ نظرا لأن الفترة اللاحقة لها أصبحت فترة برامج إصلاح هيكلي، وقد استفادت هذه الخطة من نتائج تعداد 1977م وأعطت تصوّرا يغطّي فترة أطول (حتى سنة 2000) معتمدة في منطقاتها على تشخيص الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي عاشتها البلاد مع نهاية عقد السبعينات ممثلة في تنامي القطاع الثالث على حساب القطاع الريفي، ووجود هجرات كبيرة متجهة صوب المدن؛ التي ستعرف اختلالات كبيرة بسبب تدفق موجات المهاجرين الذين تدهورت مقومات الحياة البدوية التي كانوا يعيشون فيها.

ثم إن مرحلة الخطط الاقتصادية السابقة استمرت ما يناهز عشرين سنة (1963-1984)، وقد شهدت العشرية الأولى منها نموا اقتصاديا قويا بفضل حيوية القطاع المنجمي الحديث، الذي انطلق بقوة دفع هائلة يقف وراءها اتحاد لشركات متعددة الجنسيات ممثلة في شركة "ميفرما" (MIFARMA) والقطاع الريفي الذي خُطي بظروف مناخية ملائمة، رغم عدم حصوله على ما يكفي من الدعم الحكومي الذي ركّز على القطاعات الحديثة (التعدين والخدمات والبنى التحتية)، ومن خلال استقرار للمؤشرات الاقتصادية عشية الاستقلال وخلال العشرية الأولى يتضح مدى أهمية الحيوية الكبيرة التي عرفها الاقتصاد الموريتاني في فترته الأولى¹.

4-1- مرحلة برامج التكيف الهيكلي (1985-2000): تقليص للمجهود التنموي في مجال الخدمات والتجهيزات الحضرية

دخلت البلاد هذه المرحلة منذ منتصف ثمانينيات القرن المنصرم بعد فترة من انعدام الاستقرار السياسي؛ أي منذ سنة 1979 وحتى 1984م عندما أطاح الرئيس السابق معاوية ولد سيد أحمد ولد الطابع بنظام الرئيس محمد خونه ولد هيداله واستولى على السلطة، وأوقف نزيف الصراع على السلطة بين العسكريين؛ الذين تعاقب منهم عليها أكثر من أربع رؤساء خلال خمس سنوات.

وقد دخلت موريتانيا بالتعاون مع البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في سلسلة من برامج التكيف الهيكلي بدأت منذ العام 1985م ببرنامج التقويم الاقتصادي والمالي، الذي غطّى الفترة الممتدة من 1985 وحتى 1988م؛ وقد أشفع هذا البرنامج ببرنامج الدعم والدفع الذي يغطّي الفترة ما بين 1989-1991م؛ وبعد هذين البرنامجين استمرت برامج التكيف الهيكلي المتمثلة في وثيقتي الإطار للسياسة

¹ - عبدوتي ولد عالي، الاقتصاد الموريتاني: المسيرة، الملامح، المؤشرات، مرجع سبق ذكره، ص: 18.

الاقتصادية اللتين اعتمدتا ما بين 1992-1995م، وكذلك الاستراتيجية التنموية التي تغطي الفترة ما بين 1998-2001م¹.

لقد اتسم الطرح الذي تبنته البرامج الهيكلية في خصوصيتها في كثير من الجوانب المتصلة بإعادة النظر في التوجهات الاقتصادية السابقة، التي نجم عنها فشل منحها التنمية وتراكم العجز في ميزان المدفوعات وتنامي المديونية الخارجية؛ ولذا جاءت برامج الإصلاح الهيكلي من أجل تلافي تلك الأوضاع وتصحيح مسارها مع ما يتطلبه ذلك من تخفيف التزامات الدولة تجاه المجتمع وضرورة مساهمة المواطنين في أعباء المشاريع المنفذة². وقد قُدر حجم الاستثمارات العمومية خلال الفترة التي يغطيها برنامج التقويم الاقتصادي والمالي ب 55.1 مليار أوقية³. وقد جاء برنامج الدعم والدفع من أجل تصحيح الاختلال الاقتصادي العميق المتراكم على مدى الفترات السابقة والشروع في مجموعة من الإصلاحات، وقد بلغ حجم الاستثمارات في هذا البرنامج 45317.7 مليون أوقية.

إجمالاً، فقد أوضحت الحصيلة التقييمية للأهداف المرسومة لبرنامج الدعم والدفع على المستوى الاجتماعي أنها كانت دون المأمول؛ حيث أن معدل الالتحاق بالمدارس لم يحقق النسبة المرسومة له كهدف (9% سنوياً)؛ ذلك أن نسبة التمدن انتقلت سنة 1989 من 46% إلى 50% فقط سنة 1991م (زيادة لم تتجاوز 5%).

وعلى مستوى الجانب الصحي فقد أدت عوامل عديدة إلى جعله أكثر تأثراً من المستويات الأخرى؛ نظراً لانتشار الأمراض المعدية، ونقص الوقاية، واستمرار سوء التغذية، وارتفاع نسبة الوفيات خاصة في صفوف الرضع (127%)، كما أن وفيات الحوامل إبان الرضع تصل إلى 559 وفاة لكل 100000 ولادة، غير أن هذه الحالة رافقها بيانات هامة بين الولايات ومختلف شرائح السكان⁴.

وفي هذا السياق، فقد عرفت التنمية الحضرية مشاكل عديدة ناجمة عن تفاقم مشكلة الهجرة المتزايدة من الريف نحو المدن والذي لم تغلح الخطط ولا البرامج الهيكلية في تثبيت السكان في مواطنهم الأصلية (الأرياف الطاردة) التي تدمر اقتصادها التقليدي مثل: النمو العشوائي الملحوظ الذي عرفته بعض المدن الموريتانية مثل العاصمة نواكشوط، ونواذيبو، وروصو وفي الدرجة الثانية مدينة بوتلميت مثلاً؛ وقد نجمت عن هذا النمو العشوائي أزمات متنوعة خاصة على مستوى السكن والتشغيل

¹ - عبدوتي ولد عالي، مدخل إلى الاقتصاد الموريتاني، مرجع سبق ذكره، ص: 23-24.

² - سيدي عبد الله ولد المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 234.

³ - أي ما يناهز 643 مليون دولار أمريكي.

⁴ - سيدي عبد الله ولد المحبوبي، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 239.

والخدمات والتجهيزات الحضرية، وقد زاد من هذه التحديات توقف العديد من التمويلات التي كان يمنحها الشركاء التنمويون لموريتانيا؛ وهو ما جعل الحكومة الموريتانية تشرك القطاع الخاص في تنفيذ بعض البرامج والمشاريع الصغيرة والمتوسطة في مجالات عديدة مثل بناء المدارس وتشبيد مشاريع المياه والسدود؛ وخلق مشاريع صغيرة مدرة للدخل ترمي إلى تثبيت السكان في مناطقهم الأصلية النائية.

4-2- الإطار الاستراتيجي لمحاربة الفقر (2000-2015): آثار إيجابية على مستوى الخدمات
دخلت موريتانيا مطلع الألفية الثالثة مرحلة جديدة باعتمادها إطارا استراتيجيا لمكافحة الفقر، لم يخرج عن المنطق الليبرالي رغم تأكيده على الأبعاد الاجتماعية، وضرورة تنمية المحيط الاقتصادي للفقراء، وتتلخص أهداف هذا الإطار في أفق 2015م في: إعطاء الأولوية لمحاربة الفقر في كافة النشاطات والاستراتيجيات التنموية؛ وتعتمد هذه الاستراتيجية على المحاور الأربعة التالية: تسريع وتيرة النمو الاقتصادي وتحسين تنافسية الاقتصاد الموريتاني وتقليل تبعيته للعوامل الخارجية، وإرساء النمو والإنتاجية في المحيط الاقتصادي للفقراء، وتنمية الموارد البشرية وتسهيل النفاذ إلى البنى التحتية الأساسية التعليمية والصحية، وتطوير التنمية المؤسسية بناءً على تطوير الحكامة الرشيدة والإشراك الفعال لكل الفاعلين في مجال محاربة الفقر¹.

وقد افترضت الحكومة في هذه المرحلة على أن قطاع الخدمات سيظل المحدد الرئيسي للنمو في موريتانيا، وبناءً على ذلك ستعمل على تذليل العوائق التي تعيق تطور القطاع الخاص طبقا للبرنامج الذي اتفقت عليه مع صندوق النقد الدولي، إضافة إلى تنمية قطاع البناء والأشغال عبر تنفيذ مشاريع هامة في قطاع النقل والتنمية الحضرية والريفية².

وعلى المستوى الاجتماعي فقد شهد معدل الولوج إلى التعليم ما قبل المدرسة ارتفاعا ملحوظا تمثل في انتقاله من 5% إلى 9.3% سنة 2014، كما عرفت نسبة التمدرس في التعليم الابتدائي تحسنا معتبرا؛ حيث انتقلت من 44.7% سنة 1988 إلى 72.4% سنة 2013³.

وأخيرا، فإن المسح العام الذي قيم به للظروف المعيشية للسكان في موريتانيا لسنة 2014 يوضح أن النفاذ إلى الخدمات مرتبط أساسا بالخدمات الأكثر توفرا في الوسط الحضري وهي: المدرسة الابتدائية (63.5%)، ثم الماء الصالح للشرب (62.1%)، ثم النقل العمومي (42.6%)، والكهرباء (76.9%)،

¹ - République Islamique de Mauritanie، Cadre Stratégique de lutte contre la pauvreté، 2001، p.2.

² - عبدوتي ولد عالي، مدخل إلى الاقتصاد الموريتاني، مرجع سبق ذكره، ص: 34.

³ - الجمهورية الإسلامية الموريتانية، الطاولة المستديرة لموريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 78.

والإعلام (32.6%)، والبنى التحتية للتعليم الثانوي (26.2%)، والإنترنت (17%)، والأمن (16.8%)، والمستشفيات (15.5%)، والقضاء (12%)، والمصارف البنكية (11.2%)، ثم الصرف الصحي (9.8%)، والترفيه (7.5%)، والبريد (4.6%)، والصحافة المكتوبة (3.2%)¹.

5- محاور الاتصال: شكل محور نواكشوط-النعمة، الذي يربط شرق البلاد بغربها بمسافة تصل إلى 1100 كم، قطبا متميزا في جذب السكان الذين اتخذوا من هذا الطريق ملاذا يوفر لهم سهولة الاتصال بالمركز الحيوي في موريتانيا (نواكشوط)، علاوة على ما يوافق جوار الطريق من تقليل لتكاليف نقل الركاب والبضائع مقارنة بالمناطق المعزولة.

عموما، فقد ساهمت محاور الطرق وخاصة محور طريق الأمل في استيطان سكان البدو الرحل بأعداد معتبرة بمحاذاة هذه المحاور الطرقية؛ حيث لم تمنع أحيانا ندرة المياه الصالحة للشرب وانعدامها أحيانا أخرى في بعض الأماكن من استقرار هؤلاء السكان حول هذه المحاور معتمدين على جلب المياه من مناطق بعيدة.

الخاتمة

لقد تأثرت نشأة ومسار الديناميكية الحضرية في المجال الموريتاني بعوامل عديدة، أهمها: العوامل الجغرافية، والعوامل الاقتصادية، والعوامل السياسية؛ ولئن كانت نشأة المدن ترجع إلى أسباب سياسية في المقام الأول ثم إلى أسباب اقتصادية في المقام الثاني، فإن كل مدينة تجد نفسها منذ نشأتها مرتبطة بشكل وطيد بطريقة الانتقال البدئي؛ وتكاد هذه القاعدة تنطبق إلى حد كبير على المدن الموريتانية بصفة عامة.

وفي هذا السياق، فقد مرّ مسار الظاهرة الحضرية في المجال الموريتاني بتاريخ طويل، يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل (مرحلة ما قبل الاحتلال، ومرحلة الاحتلال، ثم مرحلة ما بعد الاحتلال)؛ ففي المرحلة الأولى لم يكن يوجد في المجال الموريتاني سوى المراكز الحضرية التاريخية المبنية على أسس معمارية تقليدية، يمكن اعتبارها بمثابة تجمعات سكنية قارة، تعرف هذه المدن بالمدن القديمة مثل: "شنقيط"، "وادان"، "تيشيت"، و"ولاته". أما المرحلة الثانية فترتبط ارتباطا وثيقا بدخول المحتل الفرنسي إلى المجال الموريتاني عبر البوابة التروزية؛ ذلك أنه يمكن وصف كل التجمعات المتبلورة خلال هذه المرحلة بأنها مدن "فرنسية"؛ أي أن فرنسا لعبت دورا كبيرا في نشأة هذه المدن وساهمت

¹ - التقرير الوطني حول وضعية النظام التربوي في موريتانيا، 2014، ص: 89.

في رسم مسارها. في حين أن المرحلة الأخيرة تتمثل في استقلال الدولة الحديثة عن المحتل الفرنسي، وقد اتسمت هذه المرحلة ببداية الظهور الفعلي للمدن التي ستتطور فيما بعد لتصبح على ما هي عليه الآن. وهكذا، فإن العوامل التي تقف وراء ظاهرة استقرار السكان في المدن هي في المقام الأول عوامل مترابطة بدرجة كبيرة، حيث أن علاقة السبب والمسبب حاضرة بشكل جلي؛ فقد كان للجفاف والتصحر أثر بالغ على الواقع الاقتصادي الذي اتسم بسيادة قطاع ريفي ضعيف البنية يعتمد على أساليب ووسائل تقليدية في الإنتاج، مما هيأ الظروف الملائمة للبحث عن أماكن للاستقرار تكون بالقرب من المدن. وقد أزر العوامل السابقة عجز خطط التنمية وبرامجها عن تحقيق طموحاتها ومراميها مضيئة بذلك صعوبات إضافية إلى جدلية ظاهرة التمدن وموفرة في الوقت نفسه عاملا مهما للتباين بين المناطق المغبونة في الاستثمارات والمشاريع التنموية وتلك المحظوظة نسبيا.

قائمة المصادر والمراجع

- البقالي العزيز، دينامية المشهد الحضري لمدينة وادي زم، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2011-2012.
- الأكل المختيار، دينامية المجال الفلاحي ورهانات التنمية المحلية؛ هضبة بن سليمان، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2004.
- سعيدوني ناصر الدين، المدينة تفاعل اجتماعي وتفاعل حضاري، مجلة عالم الفكر، العدد 2، المجلد 38، أكتوبر، 2009.
- عبد المجيد فائدة يوسف وآخرون، الجمهورية الإسلامية الموريتانية؛ دراسة مسح شاملة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، القاهرة، 1978.
- فرني روبر، الأركيولوجيا في إفريقيا الغربية: الصحراء والساحل، ترجمة بوبا ولد محمد نفع، نواكشوط، 2002.
- فارس الهيتي صبري، جغرافية المدن، ط1، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2002.
- ولد السعد محمد المختار، إمارة التراب وعلاقاتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين من 1703-1860م، أطروحة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1989-1999.
- ولد المحبوبي سيدي عبد الله، الهجرات الداخلية والتنمية في موريتانيا (الثنائي الحرج)، بحث لنيل شهادة دكتوراه الدولة، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1996.

✍ ولد محمد بياه ولد محمد ناصر، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في موريتانيا؛
نواكشوط نموذجاً، بحث لنيل شهادة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية، 2007-2008.

✍ ولد عال عبدوتي، الاقتصاد الموريتاني: (المسيرة، الملامح، المؤشرات)، المركز الموريتاني
للدراسات، 2011.

✍ ولد النقي محمد عالي، الخدمات والمجال في ولاية اترارزة، بحث لنيل درجة الدكتوراه، جامعة
تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2018.

✍ ولد سيدي أحمد محمد الأمين، السلطة والفقهاء في إمارة الترارزة خلال القرن التاسع عشر
الميلادي، ط1، مطبعة المنار، نواكشوط، موريتانيا، 2003.

- ✍ Paul Robert, dictionnaire de la langue française, deuxième édition.
- ✍ Belhedi A. Repère pour l'analyse de l'Espace, 1984.
- ✍ Robert Vernet, Préhistoire de Mauritanie, centre culturel français de Nouakchott, 1993.
- ✍ Chamla M. C, Les populations du Sahara et des régions limitrophes: études des restes humains néolithiques et protohistoriques, 1968
- ✍ République Islamique de Mauritanie, Cadre Stratégique de lutte contre la pauvreté, 2001.

الموارد الاقتصادية في ولاية الحوض الغربي ودورها في تنمية المجال المحلي

دحان البناني الطالب حمادي

طالب دكتوراه: الجغرافيا

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس (9 أفريل)

الملخص:

تبين من خلال دراستنا للموارد الاقتصادية والبشرية في ولاية الحوض الغربي أن الولاية تتوفر على إمكانيات تنموية مهمة بفضل موقعها الجغرافي في الجنوب الشرقي من البلاد الذي يتميز بوجود تربة خصبة وغطاء نباتي مهم وموارد مائية معتبرة، والتي تمثل مجتمعة إمكانيات طبيعية مهمة وقادرة إذا استغلت استغلالاً أمثل على المساهمة في تنمية المجال، وتحسين ظروف سكانه اقتصادياً رغم وجود بعض الإشكالات المعيقة كالجفاف والتغيرات المناخية وتراجع الغطاء النباتي والاستخدام غير المعقلن لمختلف عناصر البيئة.

كما بينت دراسة الخصائص الاقتصادية للسكان ارتفاع نسبة الفقر والإعالة وانتشار البطالة كما كشفت أن القطاع الفلاحي (الزراعة والرعي) يشكل الركيزة الأساسية للتنمية المحلية في الولاية، وهو ما يستدعي تطوير وتنويع الأنشطة الاقتصادية الأخرى (التجارة والخدمات) لمواجهة انعكاسات التقلبات المناخية على استقرار السكان ومعاشهم وتطويراً للتنمية المحلية بالولاية.

الكلمات المفتاحية: الموارد الاقتصادية، التنمية المحلية، المجال المحلي، السكان، البنية الاقتصادية، ولاية الحوض الغربي.

المقدمة

تعاني ولاية الحوض الغربي من تأخر في مجال التنمية الجهوية والمحلية، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل أهمها ضعف الموارد الاقتصادية ورداءة الخدمات والبنى التحتية والمرافق فيها.

1. الإشكالية:

لمعالجة إشكالية تباطؤ التنمية الجهوية والمحلية في الولاية يحاول هذا البحث الإجابة على الأسئلة التالية:

أ. ما هي طبيعة الموارد الاقتصادية في ولاية الحوض الغربي؟ وهل بإمكانها المساهمة في خلق تنمية محلية تحسن من الظروف المعيشية للسكان، وتوفر بيئة محلية جاذبة للاستثمارات ومستوعبة للمشاريع التنموية وتطور الخدمات الاقتصادية والاجتماعية؟

ب. هل تساعد الخصائص الاقتصادية لسكان الولاية على الاستغلال الأمثل لمواردها خدمة

للتنمية المحلية؟

2. الفرضيات:

للإجابة على إشكالية مقالنا نقدم الفرضيات التالية:

أ. يقوم الاقتصاد المحلي في ولاية الحوض الغربي على القطاعين الفلاحي والتجاري، مع ضعف في وجود القطاعات الخدمية، ويمتلك موارد زراعية رعوية وتجارية قادرة إن استغلت استغلالاً أمثل على تحقيق تنمية جهوية مقبولة؛

ب. نظراً لارتفاع نسبة "السكان النشطين اقتصادياً" بين سكان الولاية فإن تنمية المجال المحلي وتطوير مختلف القطاعات الاقتصادية يبقى ممكناً إذا تمت إدارة التنمية المحلية بشكل يوظف هذه القدرات السكانية الهامة؛

3. المنهجية:

سنعتمد في كتابة هذا البحث على المنهج العلمي الوصفي والتحليلي الذي يستخدم مقاربات جغرافية تركز على العلاقة بين الظواهر من خلال توزيعها المجالي وتطورها....، ويهتم بدراسة أشكال وبنيات تلك الظواهر في فتراتها المختلفة، ثم يعمل على تمثيل بيانات الاستمارة الميدانية وتحليلها، وسيتم استخدام بقية المقاربات الأخرى (التاريخية، الكمية، الاقتصادية والاجتماعية) في هذا المقال حسب الحاجة.

4. المفاهيم المؤطرة للدراسة:

يهدف تحديد المفاهيم المؤطرة لهذه الدراسة إلى شرحها، وسنركز على مفهومي التنمية والمجال المحلي.

أ. مفهوم التنمية:

لقد تعددت تعاريف مفهوم التنمية، حيث تعني عند مراد بن جلول "الاستغلال الأمثل للموارد البشرية والمادية وتوظيفها للرفي بالإنسان وتحسين دخله وتوفير قسط وافر من الخدمات الأساسية له ولأسرته ولمجتمعه، أو بمعنى آخر هي" مجموعة من الوسائل أو الطرائق التي تستخدم بقصد توحيد جهود الأهالي مع السلطات العامة، وتحقيق التعاون الفعال بينهما من أجل تحسين مستوى الحياة العامة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات القومية والمحلية، وإخراج هذه المجتمعات من عزلتها لتشارك إيجابياً في الحياة القومية ولتسهم في تقدم بلادها" (بن جلول، 2015-2016)، أما ظريف بطرس فقد عرفها بـ "العملية التي بواسطتها يمكن تحقيق تعاون الجهود الشعبية مع الجهود الحكومية في الارتقاء بمستويات المجتمعات المحلية اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، وربط هذه المجتمعات بحياة الأمة لتمكينها من المساهمة في تحقيق التقدم والازدهار" (بطرس، 1971). كما ظهر مفهوم التنمية كتعبير عن التقدم المادي والاقتصادي بصفة ضمنية في خطاب الرئيس الأمريكي ترومان Truman سنة 1949، ليبدأ تداوله بعد ذلك في كل بلدان العالم بغض النظر عن مستوى

تقدمها، إلى أن أصبح كل الباحثين يتحدثون عن مفاهيم تنمية متعددة الأبعاد مثل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والتنمية المستدامة، ثم التنمية الإقليمية وصولاً إلى مفهوم التنمية المحلية، ومع كل هذا التفاوت الحاصل في المعنى بين المدارس المهمة بالتنمية نظرياً، يبقى الإجماع حاصلًا على دلالتها على مجموعة من المعاني والأهداف التي منها العدالة في توزيع الثروات والتجهيزات والخدمات داخل المجال المحلي، والحكامة الرشيدة (كريم منصري، أطروحة دكتوراه، 2019، ص 1).

أما مفهوم التنمية المحلية فقد ظهر بعد تطور الاهتمام بالمجتمعات المحلية كونها وسيلة لتحقيق التنمية الشاملة على المستوى الجهوي والوطني، حيث لا يقل دور الجهود الذاتية والمشاركة الشعبية في تحقيق التنمية عن الجهود الحكومية من خلال المساهمة في وضع وتنفيذ مشروعات التنمية المحلية، ومن هنا يعرف محمد الأمين ولد لمات التنمية المحلية بأنها "مسلسل يهدف إلى الرفع من المستوى المعيشي للسكان في مجال معين عبر تنويع وتطوير الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية بواسطة تفعيل وتنسيق موارد وطاقات ذلك المجال الترابي"، بينما يعرفها رضوان زهرو بأنها نظام إدارة الشأن العمومي المحلي عن طريق الوصول إلى أحسن تسيير محلي ممكن في أسرع وقت، وبأدنى مجهود وأقل تكلفة، وفي أفضل الظروف الممكنة، وبالدقة والنجاعة المطلوبين (رضوان زهرو، مجلة مسالك، العدد 30/29، السنة 11)، كما يعرفها كريم منصري بأنها وسيلة تمكن من لفت انتباه السلطات المحلية والجهوية والوطنية إلى المشاكل الأكثر خطورة مثل التشغيل ونقص التجهيزات الاقتصادية والخدمات القاعدية، إضافة إلى أنها عمل تشاركي بين الدولة وأهم الفاعلين المحليين من جمعيات، وتعاونيات، ونقابات، ونخب ورجال أعمال، ومهنيين، من أجل تحسين مستوى الحياة العامة للمجتمعات المحلية وتأهيلها للعب دور فعال في بناء (كريم منصري، 2019).

أ. مفهوم المجال المحلي:

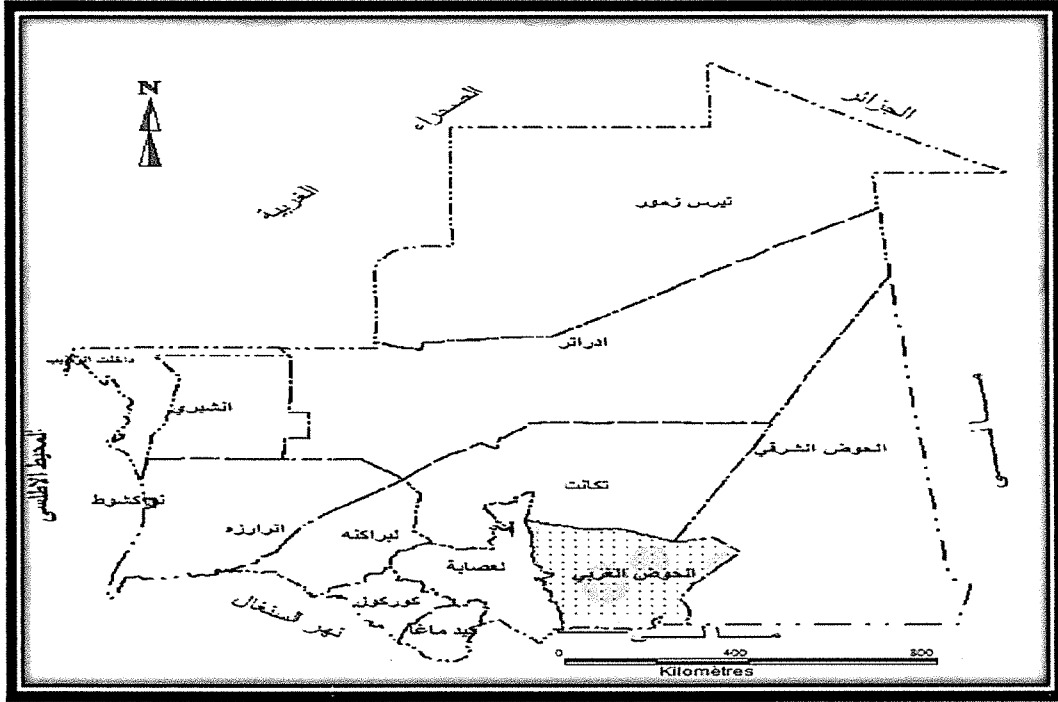
يطلق مفهوم المجال المحلي على المجال الترابي الأقرب للسكان، أو الإطار الجغرافي الأصغر الذي تعيش فيه جماعة من السكان، ويمكن أن يكون عبارة عن الوحدات المجالية الناتجة عن التقطيع الإداري (البلديات، المقاطعات، الولايات) والذي غالبا ما يعطي اهتماما كبيرا للخصوصيات الجغرافية (البشرية والطبيعية)، ويمكن أيضا أن يكون عبارة عن المجال المعيشي المرتبط بالهوية الجماعية للسكانة كالقبيلة أو العشيرة... إلخ (محمد محمود ولد لمات، ص 2).

5. مجال حدود الدراسة:

تقع ولاية الحوض الغربي في الجنوب الشرقي من موريتانيا، على الحدود مع مالي، وتضم خمس مقاطعات هي: أعيون العتروس، كوني، الطينطان، تامشكط، وأطويل بهما 29 بلدية (منها 5 بلديات

حضرية هي عواصم المقاطعات)، وذلك بمجموع سكان يصل 294.109 نسمة أي (8,3%) من مجموع سكان موريتانيا البالغ 3537368 نسمة حسب آخر تعداد عام للسكان والمساكن سنة 2013، وتشير تقديرات المركز الوطني للإحصاء نهاية سنة 2022 إلى بلوغ سكان الولاية عتبة 400.000 نسمة من فيما تجاوز سكان موريتانيا 4.500.000 نسمة حسب نفس التقديرات على مساحة تقدر ب 53400 كلم². وتصنف الولاية على أنها ذات إمكانيات طبيعية وبشرية واقتصادية مهمة نظرا لموقعها الجغرافي المتميز، وظروفها المناخية الملائمة، وتضاريسها المنبسطة، إضافة إلى مواردها المائية المعتبرة، مما جعلها مركز ثقل المجال الموريتاني من الناحية الاجتماعية (عدد السكان والتنوع العرقي)، والاقتصادية (الزراعة والتجارة)، إضافة إلى أنها تقع على طريق الأمل الوطنية التي تربط شرق البلاد بغربها، كما تقع على الطريق الذي يربط موريتانيا بجمهورية مالي المجاورة، ومنها ببعض دول إفريقيا (الخريطة).

الخريطة: الحدود الإدارية للولايات الموريتانية



المصدر: إنجاز الباحث اعتمادا على الخريطة الإدارية لموريتانيا

المحور الأول: الأنشطة الاقتصادية في ولاية الحوض الغربي

يقوم الاقتصاد المحلي في ولاية الحوض الغربي بشكل كبير على القطاع الفلاحي (الزراعة الرعي) والقطاع التجاري، مع ضعف شديد في وجود القطاعات الخدمية التي يتقاضى العاملون فيها رواتب

مع تأمين ثابت مثل القطاع العام والخاص، والتي ينحصر الموجود منها في عواصم المقاطعات حيث المؤسسات الحكومية، وتتركز أساسا في مدينة العيون عاصمة الولاية.

أولا: أنشطة القطاع الفلاحي:

تعد ولاية الحوض الغربي من بين الولايات الموريتانية المعروفة بنشاطها الفلاحي وذلك لتوفرها على مجموعة من الأودية ذات التربة الخصبة وعلى العديد من السدود الكبيرة والمناطق الرعوية الشاسعة.

1. في المجال الزراعي:

تعد الزراعة محرك التنمية الأساسي في بلدان المغرب العربي، لما تلعبه من أدوار اقتصادية واجتماعية وبيئية، حيث يسهم تطوير القطاع الفلاحي بشكل محوري في مكافحة الفقر وخفض البطالة إضافة إلى تحقيق الأمن الغذائي وتعزيز الصادرات.

ومع أن موريتانيا تمتلك مقدرات زراعية معتبرة تتمثل في نصف مليون هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة ومصادر مياه جيدة في الجزء الجنوبي الذي من ضمنه منطقة دراستنا، فإنها لا زالت تستورد ثلثي حاجياتها الغذائية، ويسجل الريف أكبر نسب الفقر، ولا تزال البلاد تصنف ضمن الدول التي تعاني من الجوع، كما يعتبر النزوح من الأرياف نحو المدن أحد أهم عوامل الأزمات الاجتماعية والتنمية التي تعيشها البلاد منذ عقود.

ولقد ظلت الزراعة في ولاية الحوض الغربي تعتمد على وسائل بدائية وخبرات تقليدية بعيدة عن الأنماط العصرية المستخدمة في الزراعة الحديثة، وهو ما نتج عنه تدني إنتاجيتها، وضعف مردوديتها على الاقتصاد المحلي والوطني بعد تتابع سنوات الجفاف وخاصة نهاية الثمانينات وبداية وتسعينات القرن العشرين وما نجم عنها من انتشار مظاهر التصحر وزحف الرمال على الأراضي الزراعية والمستنقعات المائية، إلى جانب تغير تركيبة الترب الخصبة وفقدها الكثير من عناصرها.

ولأن النشاط الزراعي يبقى المصدر الغذائي الرئيسي لأغلب سكان الولاية، ومصدر دخل للكثيرين منهم، فإن الولاية قد استفادت من القرارات الإصلاحية التي اتخذتها الدولة بعد تراجع القطاع الفلاحي بشقاية الزراعي والرعوي، والمتمثلة في رفع الضرائب والرسوم الجمركية عن مختلف المعدات الزراعية، وبناء السدود، ومكافحة الآفات الزراعية، مع وضع خطط استراتيجية لتحسين أساليب الزراعة تستهدف تكوين المزارعين ودعمهم، ما أدى بالعديد من السكان للتوجه نحو الزراعة بنوعيتها المطري والمروي، بعد هلاك أغلب المواشي التي كانوا يعتمدون عليها في حياتهم...

أ. الزراعة المطرية: تنتج الولاية كميات كبيرة من الحبوب المختلفة مثل: الدخن، والذرة، والفسق، والفول السوداني، ويرتبط هذا النوع من الزراعة بمياه الأمطار من خلال زراعة المنخفضات

والزراعة خلف السدود، وتختلف المساحة المزروعة من سنة لأخرى تبعا للأمطار التي يظل النشاط الزراعي مرتبطا بكمياتها وتوزيعها، حيث غطت زراعة الأراضي المنخفضة سنة 2016 حوالي 40.000 هكتار من أراضي الولاية القابلة للزراعة، بينما وصلت المساحة القابلة للزراعة خلف السدود في نفس الفترة حوالي 7736.7 هكتارا تستغل منها 1000 هكتار، ويعتبر هذا النشاط مصدر دخل للعديد من أفراد الطبقات الهشة والمتوسطة من سكان الولاية.

ونتيجة لعدم وجود إحصائيات عن كميات الإنتاج في الولاية، سننعمد التقديرات الرسمية الموجودة عن مقاطعة العيون في مختلف أنواع الإنتاج الزراعي. وتوضح الجداول (1 و 2) تطور منتجات الحبوب حسب النوع والمساحات الزراعية بين 2015-2020، حيث نلاحظ تذبذب كميات الإنتاج التي تعود إلى عدة أسباب منها: كميات التساقطات المطرية السنوية، وارتفاع درجات الحرارة، ونوع التربة.

الجدول 1: تطور منتجات الحبوب حسب النوع في مقاطعة العيون بين 2015-2020

السنة/المنتج	الذرة البيضاء (الهكتار)	الذرة الصفراء (الهكتار)	الفاصوليا (الهكتار)
2015-2014	6857	1200	3150
2016-2015	5200	750	2100
2017-2016	5240	800	2050
2018-2017	5700	1300	2210
2019-2018	3800	570	1140
2020-2019	7840	1720	4360

المصدر: المندوبية الجهوية لوزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية في ولاية الحوض الغربي، 2020.

الجدول 2: المساحات الزراعية في مقاطعة العيون بين 2015-2020

السدود	القيعان (التيمرن)	المساحة التقديرية للمنخفضات
العدد	م الهكتار	العدد
56	2297.7	8
	456	1080

المصدر: المندوبية الجهوية لوزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية في ولاية الحوض الغربي، 2020.

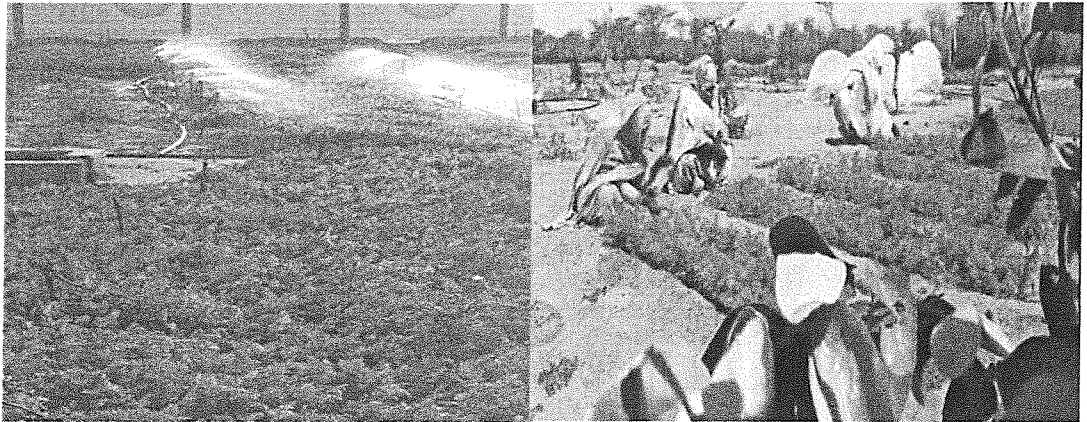
ب. الزراعة المروية: تعد زراعة الخضروات نشاطا قديما نسبيا على سكان ولاية الحوض الغربي، حيث كانت تمارس تحت الواحات، وفي بعض القطع الأرضية الصغيرة على أطراف المدن والتجمعات القروية الريفية من طرف نساء يحفرهن الحوصل على دعم تعهدت به المندوبية الجهوية للتنمية الريفية نهاية ثمانينات القرن الماضي، إلا أنها لاقت أهمية كبيرة في السنوات الأخيرة، حيث أصبحت تمارس من طرف بعض المبادرات الناشئة مساهمة منها في تحقيق الاكتفاء الذاتي المحلي والوطني ضمن استراتيجية الدولة الجديدة لتطوير القطاع الزراعي الوطني.

وتصنف مقاطعة العيون من بين أهم مقاطعات الولاية إنتاجا للخضروات في السنوات الأخيرة، وخاصة الطماطم والبصل والبطاطس والجزر، الصورتان (1 و2)، ومع ذلك لا يزال إنتاج الولاية من الخضروات ضعيف جدا، بحيث لم يتجاوز في مجموعه 1045 طنا سنة 2020 (المندوبية الجهوية للزراعة 2020)، وهي مردودية لا تكفي لتغطية الحاجيات الأساسية للسكان المحلية، بينما تعد مقاطعتا كويني والطينطان أهم مقاطعات الولاية في إنتاج الحبوب والتمور.

وتعاني زراعة الخضروات والنخيل بولاية الحوض الغربي جملة من الإشكالات أهمها: نقص المياه والآلات الزراعية، وسائل الحماية ضد الحيوانات، غياب الإرشاد الزراعي، ونقص الأسمدة والمخصبات.

وتشكل عملية تسويق المنتجات الزراعية أهم الإشكالات المطروحة لدى المزارعين نظرا لكون العديد منهم لا يمتلك وسائل لتسويق منتجاته بسبب ارتفاع التكاليف، ورداءة الطرق، وانعدام وسائل الحفظ، وهو ما يعود عليهم بالخسارة.

الصورتان 1 و2: نماذج من زراعة الخضروات في مقاطعة العيون



المصدر: (الصورة 1 بعدسة الباحث، الصورة 2 من تعاونية طبية الزراعية) 2022.

2. في مجال التنمية الحيوانية:

تمثل الثروة الحيوانية عماد اقتصاد سكان ولاية الحوض الغربي، وسوق عمل لأكثر من 70% من اليد العاملة، حيث قدرت سنة 2021 ب 2.5 مليون رأس منها حوالي 1 مليون رأس من الأبقار والإبل و1.5 مليون رأس من الأغنام (المندوبية الجهوية للتنمية الريفية، 2021)، وهو ما يقارب 10.5% على المستوى الوطني (24 مليون رأس).

ويمكن إرجاع ارتفاع حجم أعداد الماشية في الولاية إلى التحسن الملحوظ في الظروف المناخية في السنوات الأخيرة (2016-2020) كما هو مبين في الجدول رقم (3) إلى حملات التطعيم السنوية ضد

الأمراض، وانتشار الصيدليات البيطرية، واعتماد ظاهرة الانتجاع الذي يرتبط بموارد الكلاً والماء أثناء فترات الجفاف، حيث ترحل المواشي نحو الجنوب والجنوب الغربي من الولاية إلى أن تدخل أراضي الدول المجاورة (مالي والسنغال) عندما يشتد موسم الصيف ويتأخر نزول المطر. وتتأثر الثروة الحيوانية في الولاية في عددها وإنتاجيتها بثلاثة اعتبارات رئيسية تتمثل في مساحة وكفاءة المرعى، ومدى توفر مياه الشرب، إضافة إلى الأحوال الصحية للماشية. وإذا كان النشاط الرعوي في الولاية يبدو في تراجع واضح بسبب تنامي الأنشطة الحضرية وإقبال السكان على التمدن والاستقرار، فإن تسويق الحيوانات في هذه المنطقة لا يختلف في بدائية طرائقه عما هو موجود في مختلف مناطق الدولة.

وتتمثل المنتجات الحيوانية في اللحوم والألبان ومشتقاتهما، وتعرف هذه المنتجات رواجاً كبيراً في أسواق الولاية مما جعل ثمن كلغ واحد من اللحم يتراوح بين 2000 و 2500 أوقية قديمة للغنم، وبين 1500 و 2000 أوقية قديمة للبقر والإبل في أغلب مناطق الولاية، بينما يتراوح سعر لتر واحد من اللبن بين 500 و 700 أوقية قديمة في عموم تراب الولاية كل فصول السنة، في حين يتراوح سعر لتر الزيت الواحد (أُذْهَن) بين 12000 أوقية فصل الخريف و 24000 أوقية فصل الصيف، ورغم ذلك فإن الجهات الرسمية لا تمتلك معلومات دقيقة عن كمية الإنتاج السنوي.

ومع حجم الثروة الحيوانية وأهميتها، فإن الولاية لم تستفد منها كما هو مطلوب، حيث لا تزال تستورد اللحوم والألبان ومشتقاتهما، وتعاني نقصاً كبيراً في توفيرها بأسعار تناسب جميع السكان.

الجدول 3: تطور الثروة الحيوانية في ولاية الحوض الغربي 2013-2020

المقاطعات	عدد المواشي		
	البقر	الغنم	الإبل
2013	300.000	1.000.000	30.000
2014	280.000	1.400.000	70.000
2015	340.000	1.240.000	70.000
2016	430.800	2.568.000	--
2017	473.145	1.800.000	97.000
2018	540.000	1.810.000	130.000
2019	620.400	1.400.000	170.000
2020	772.180	1.500.000	220.000
			2492180

المصدر: المندوبية الجهوية للتنمية الحيوانية بولاية الحوض الغربي، 2020.

ثانيا: الأنشطة التجارية والخدمية:

يعد النشاط التجاري من أهم الأنشطة الاقتصادية التي تلعب دورا أساسيا في إنعاش الاقتصاد وتوفير الشغل والمستلزمات الضرورية للإنسان.

إن ولاية الحوض الغربي لوجودها على الطريق الوطني الذي يربط العاصمة نواكشوط بولايات الشرق الموريتاني، ووجودها على طريق طريف لعيون- انبور الذي يربطها بدولة مالي المجاورة، تعد ملتقى طرق للمبادلات التجارية بين ولايات الشرق الموريتاني، وبين موريتانيا ومجموعة من بلدان إفريقيا عن طريق جمهورية مالي.

وتعد الأسواق الكبيرة الثابتة في عواصم المقاطعات، والأسواق الأسبوعية البالغ عددها 20 سوقا خاصة الواقعة على الحدود مع جمهورية مالي (سوق مذبكو مثلا) قبلة للتجار القادمين من داخل موريتانيا وخارجها نظرا لما توفر من البضائع كما ونوعا.

وتعرف الأسعار في أسواق الولاية على غرار الحالة الوطنية ارتفاعا كبيرا نتيجة حرية السوق المقررة بالأمر القانوني رقم 91/09 الصادر بتاريخ 1991 والقاضي بحرية السوق.

وتنقسم التجارة في الولاية إلى تجارة جملة وتجارة تقسيط، فبحكم موقع الولاية استفاد تجارها من سهولة استيراد البضائع وتصديرها من وإلى العاصمة نواكشوط ودولة مالي المجاورة، وهو ما جعلها سوقا يؤمن البضاعة لمحيطه من بعض الولايات الأخرى (لعصابة والحوض الشرقي) زيادة على تموينها للأسواق المحلية بمختلف أنواع البضائع: الحبوب الزراعية، والآلات التقليدية (مختلف منتجات الصناعات التقليدية)...إلخ. وقد أصبحت الأنشطة التجارية والخدمية من أهم العوامل المؤثرة في توزيع سكان الولاية، حيث لعبت دورا كبيرا في الهجرة إلى عواصم المقاطعات، وإلى القرى (الأحياء) الواقعة على الطرق الرئيسية للاستفادة من مختلف عائدات الأنشطة الاقتصادية والخدمات الاجتماعية، لذلك تعد مدن العيون، والطينطان، وكوئني قبلة للسكان المهاجرين من مختلف المناطق الريفية خلال فترات الجفاف التي شهدتها الولاية.

المحور الثاني: البنية الاقتصادية لسكان الولاية

لقد عرفت موريتانيا في العقود الأخيرة تحولات اقتصادية واجتماعية هامة ظهرت نتائجها في تراجع أسس الاقتصاد الريفي، ونمو نسق التحضر من خلال نزوح السكان من الريف إلى المدينة، مما شكل ضغطا كبيرا على فرص العمل المتوفرة، والخدمات الاجتماعية المحدودة، وزاد من تفاقم ظاهرة البطالة في الوسطين الريفي والحضري. وسنتناول في هذا المحور الخصائص الاقتصادية لسكان الولاية من خلال دراسة الفئة العاملة (السكان في سن العمل) وطريقة توزيعها على القطاعات الاقتصادية وانعكاس ذلك على التنمية المحلية في الولاية.

يعتبر السكان في سن العمل جميع الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين العمر القانوني الأدنى للعمل والعمر القانوني المحدد للتقاعد (14-65 سنة) من كلا الجنسين، وتصل نسبتهم حوالي 52% على المستوى الوطني، بينما تصل في ولاية الحوض الغربي حوالي 7.6% من مجموع السكان في آخر مسح مرجعي للشغل 2012، ويقدر بأن نصف هؤلاء (52.3%) قد مر بالتعليم العام أو التعليم المهني والتقني، في حين أن 4% منهم وصلت إلى التعليم العالي. (تحليل نتائج التعداد العام للسكان والمساكن 2023).

وتظهر معطيات الجدول رقم (4) أدناه، اختلاف نسبة السكان في سن العمل بين الوستين الريفي والحضري، مما يعني أن الأنشطة الاقتصادية الريفية (الزراعة وتربية الماشية) تتوفر على النسبة الكبيرة من السكان في سن العمل.

الجدول 4: السكان في سن العمل حسب وسط الإقامة في ولاية الحوض الغربي سنة 2013

المجموع	الوسط						الولاية
	%	الحضر	%	الريف	%	البدو	
143500	17.3	24891	82	114073	3.2	4536	الحوض الغربي
1909936	52.9	1010244	45.2	864166	1.9	35526	موريتانيا

المصدر: تحليل التعداد العام للسكان والمساكن، 2013، ص 12.

وينقسم سكان الولاية في سن العمل إلى:

أولاً: السكان النشطون: وهم جميع الأشخاص القادرين على العمل والمستعدين له إلى مجموع السكان في سن العمل، وتظهر نتائج الجدول رقم (5) أن الوسط الريفي بأنشطته الاقتصادية المختلفة يوفر الكثير من فرص العمل مقارنة بالوسط الحضري الذي يقوم على الأنشطة التجارية والخدمات الاجتماعية، وهي مجالات لا تستوعب عددا كبيرا من اليد العاملة.

الجدول 5: السكان المشتغلون حسب الوسط في ولاية الحوض الغربي سنة 2013

الولاية	الوسط						المجموع	%
	%	الريف	%	الحضر	%	البدو		
الحوض الغربي	2140	4.3	39148	79.6	7909	16.1	49197	100
موريتانيا	17104	2.8	224094	36.7	369226	60.5	610425	100

المصدر: تحليل نتائج التعداد العام للسكان والمساكن، 2013، ص 16.

أما السكان النشطين (العاطلون عن العمل) فنسبتهم 25.7% في ولاية الحوض الغربي (مقابل 12% على المستوى الوطني)، منهم 88.7% من العاطلين الذين يبحثون عن العمل لأول مرة.

ثانيا: السكان غير النشطين: حسب التعداد العام للسكان والمساكن سنة 2013 فإن عدد السكان غير النشطين (الفئة المعالة) بلغ نسبة 42% من مجموع السكان على المستوى الوطني منهم 48% في الوسط الحضري، ويمثل جنس الإناث حوالي 25% من مجمل السكان غير النشطين أكثر من 58.4% منهم أقل عمرا من 30 سنة، وتتواجد غالبية في الوسط الريفي، فيما تصل نسبة الذكور غير النشطين المقيمين في الوسط الحضري إلى 51%. أما من الناحية العمرية فإن أغلب السكان غير النشطين من فئة الشباب ومن الذين تقل أعمارهم عن 35 سنة بنسبة تفوق 70%. ولم نستطع الحصول على نسبة هؤلاء السكان في الولاية.

ويبلغ معدل التشغيل على مستوى ولاية الحوض الغربي نسبة 49% كثاني ولاية على المستوى الوطني بعد ولاية كيديماغه بنسبة 51%، وذلك لاعتمادهما على الأنشطة الريفية التي تحتاج عمالة كثيرة من الجنسين، ومن مختلف الفئات العمرية والمهنية، بينما يصل معدل التشغيل على المستوى الوطني نسبة 40% (عبدوتي عال 2016-2017). ويوضح الجدول رقم (6) توزيع السكان العاملين حسب النشاط في ولاية الحوض الغربي من خلال دراسة أجريتها على مقاطعة العيون عاصمة الولاية كمثال، حيث أكدت المعطيات محورية دور القطاع الريفي في تشغيل اليد العاملة، يليه قطاع الخدمات (التجارة والنقل والمواصلات)، ثم القطاع غير المصنف. (العمل الميداني، 2021).

وبناء على هذه النتائج تتأكد سيادة القطاع الريفي والخدمي في التشغيل على كافة القطاعات الأخرى، وهو ما يستدعي من الجهات الرسمية الجهوية والمحلية، ومختلف الفاعلين في المجال التنموي بالولاية لتطوير هذه القطاعات والاهتمام بها من أجل تسريع وتيرة التنمية، وتوفير فرص التشغيل، وتوفير الاكتفاء الذاتي من المواد الفلاحية، وتحسين الخدمات الاجتماعية.

الجدول 6: السكان العاملون ونوعية النشاط في مقاطعة العيون 2021.

فرع النشاط الاقتصادي	العمال	%
القطاع الفلاحي	6850	38
التجارة والنقل والمواصلات	4980	28%
الصناعة التقليدية والمياه والكهرباء	2143	12
الإدارة والبنوك	1392	7
غير مصنف	2709	15
المجموع	18046	100

المصدر: العمل الميداني، 2021.

الخاتمة:

أثبتت الدراسة صحة الفرضيات التي انطلقت منها فيما يتعلق بالموارد والأنشطة الاقتصادية وخصائص السكان في ولاية الحوض الغربي وعلاقتها بالتنمية الجهوية والمحلية، فقد بينت الدراسة أن ولاية الحوض الغربي تمتلك عوامل إقامة تنمية اقتصادية واجتماعية جهوية ومحلية، إلا أن إطلاق هذه التنمية واستغلال هذه الموارد الاقتصادية والبشرية (الفئة العاملة أو السكان في سن العمل) ما زالت دونه تحديات كبيرة.

وبناء على ما أثبتناه ضمن تفاصيل هذا البحث يمكننا تقديم المقترحات التالية في سبيل النهوض بالتنمية الجهوية والمحلية في ولاية الحوض الغربي:

1. اعتماد استراتيجيات جهوية ومحلية فعالة لتنمية الولاية تنمية شاملة لمختلف المجالات التي تدخل ضمن البرامج التنموية للدولة وقطاعاتها ومؤسساتها.
2. إشراك مختلف الفاعلين التنمويين المحليين والسكان في العملية التنموية؛
3. تمكين الجماعات المحلية (البلديات والجهات) من الموارد المالية والبشرية الكافية، والصلاحيات اللازمة لتنمية المجال انطلاقا من برامجها وخططها التنموية.
4. تطوير القطاع الفلاحي - بوصفه ركيزة أساسية في تنمية المجال الريفي - من خلال توفير الوسائل والمعدات الزراعية والرعية المختلفة، وتكوين المزارعين والمنمين وتوفير سوق لبيع منتجاتهم، أو شرائها من طرف الدولة وتسويقها؛
5. بناء مصانع لمنتجات الثروة الحيوانية (الألبان ومشتقاتها والجلود)، ومصانع للأعلاف وتكوين العاملين فيها؛
6. تطوير البنى التحتية في الولاية (الكهرباء، المياه، الطرق ...) لتسهيل الحركة الاقتصادية؛
7. دعم الأنشطة التجارية، وتحسين الخدمات الاجتماعية من أجل جلب الاستثمارات الوطنية والأجنبية واليد العاملة المكونة.

المراجع:

1. ابن عثمان، اشويخ " دور الجماعات المحلية في التنمية المحلية" دراسة حالة بلدية" مذكرة لنيل شهادة الماجستير في القانون العام، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2010-2011
2. أحمدو ولد محمد محمود، مستشار والي ولاية الحوض الغربي المكلف بالشؤون الإدارية والقانونية، مقابلة مع التلفزة الموريتانية، ضمن حلقة عن التنمية في ولاية الحوض الغربي،

يوم 2022/06/08، <https://www.youtube.com/watch?v=IA-fTOzRUS0> آخر تفصح يوم
2023/7/04 الساعة 14:28 دقيقة.

3. أأمين ولد عبد الله، مشروع التنمية الريفية الجماعية بالحوضين الحصيلة والآفاق، أطروحة دكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط العصرية، السنة الجامعية 2017-2018.
4. ابن جلول مراد، محاضرة في مادة "الديناميات المحلية" ماجستير، المجال والتراب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2015-2016.
5. رضوان زهرو، الحكامة الترابية، أعمال ملتقى علمي تحت عنوان: الجماعات الترابية، الجهوية المتقدمة ورهان الحكامة الجيدة، مسالك، العدد 30/29، السنة 11.
6. ظريف بطرس، مبادئ الإدارة المحلية وتطبيقاتها في النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، 1971.
7. كريم منصري، التنمية الريفية وإشكالياتها في ولاية القصرين وانعكاساتها على البني الاقتصادية والاجتماعية أمثلة معتمديات (سببية؛ سببيلة؛ ماجل بالعباس؛ فوسانة والقصرين)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 06 ديسمبر 2019.
8. عالي، عبدوتي محمد احمد، التفاوتات الاقليمية في موريتانيا؛ دراسة في السياقات والمؤشرات، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الجغرافية، جامعة صفاقس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الدراسية 2016-2017.
9. ولد لمات، محمد الأمين، البلديات والتنمية المحلية بولاية لعصابة الموريتانية، مقاطعة كيفية بلديتي كيفية وأقورط نموذجاً بحث لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا المعمقة، جامعة شعيب الدكالي، الجزائر، 2006-2007.
10. تحتل موريتانيا المركز 87 من أصل 129 حسب مؤشر الجوع العالمي لعام 2022: <https://www.globalhungerindex.org/ranking.html> آخر تفصح يوم 2023/07/04 الساعة 17:03.
11. رئيس مصلحة البيطرة بولاية الحوض الغربي، مقابلة بتاريخ 2021/09/15.
12. العمل الميداني، 2021.
13. المركز الموريتاني لتحليل السياسات، عناصر تحليل النمو الاقتصادي في موريتانيا، نواكشوط، 2005.
14. مقابلة مع مسير المشروع الزراعي النموذجي لتعاونية طيبة الزراعية، بلدية أدويرارة ولاية الحوض الغربي، يوم 2023/06/18.

15. المندوبية الجهوية للتنمية الحيوانية بولاية الحوض الغربي، 2022.
16. المندوبية الجهوية للتنمية الريفية، انطلاق الحملة الوطنية لتحسين المواشي 2019، تقرير غير منشور.
17. المندوبية الجهوية للزراعة بالحوض الغربي، 2020.
18. المندوبية الجهوية للزراعة في ولاية الحوض الغربي، 2016.
19. وزارة التنمية الريفية، ورقة مقدمة في المعرض الوطني الأول للثروة الحيوانية المنظم في مقاطعة تمبوغه، ولاية الحوض الشرقي، 31 مارس 2021.
20. وزارة الزراعة، مصلحة الاستصلاح الريفي، 2022.
21. MDRE, DRAP, service statistique Agricole, données statistiques, 1998
22. Ministère du Développement rural et de L'environnement, Projet de Lettre de Politique de Développement de l'Agriculture Irriguée, Horizon 2010, Annexe 11.

Superviseur :
WANE Mohamedoune dit Doudou

Directeur de rédaction :
Mohamed Abderrahmane Ould Oumar

Comité de rédaction :
Mohamed Ould Cheikh Sidi Ahmed
Mariem Mint Cheikh
Mamadou Ould Dahmed

Comité de lecture :
Boudouaya Mebkhou: Algerie
Tourky Ben Leila Echeghlawy: le Royaume d'Arabie Saoudite
Fateh Abdel All : le Royaume du Maroc
Enahibi Majdouline: le Royaume du Maroc
Abdellahi El Awni El Anzi : le Royaume d'Arabie Saoudite
Ahmed Ould Habibou Allah : La Mauritanie
Mohamed Vadel Mohamed El Hattab: La Mauritanie
Mohamed Ould Cheikh Sidi Ahmed: La Mauritanie
Mariem Mint Cheikh : La Mauritanie
Mamadou Ould Dahmed: La Mauritanie

Comité consultatif :
Abdellahi Ould Seyid: Université de Nouakchott Al Aasriya, Mauritanie
Ahmed Chokri: Université Mohamed V, Maroc
Jezaa ben Verhan Echemery: Université Hail, Arabie Saoudite
Cherif Daba BA: Université Cheikh Anta Diop, Sénégal
Nani Ould El Housein: Université de Nouakchott, Mauritanie

ANNALES DE LA FACULTÉ DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES

Revue scientifique (annuelle) à comité de lecture publiée par la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de l'Université de Nouakchott

- Elle vise la publication des recherches et des études portant sur les différents champs des lettres et sciences humaines. Elle se propose d'offrir une opportunité aux chercheurs de s'informer sur l'évolution de la recherche et s'intéresse aux domaines suivants :
 - études et recherches fondamentales ;
 - textes et documents ;
 - textes traduits ;
 - études locales et exposés bibliographiques ;
 - exposés sur différentes œuvres et revues.
- Les articles proposés sont soumis à une évaluation scientifique faite des enseignants – chercheurs spécialisés. Les propositions qui ne sont retenues ne sont pas restituées.
- Les articles sélectionnés sont publiés conformément aux directives du comité de rédaction.
- Les articles soumis doivent nécessairement être manuscrits et novateurs. Ils ne doivent pas avoir été publiés ou être des parties d'un travail académique antérieur (Mémoire de Magister, Mémoire d'Etudes Supérieures, Thèses, etc.).
- Les renvois bibliographiques doivent être conformes à la norme en usage. Les sites électroniques à renommée scientifique peuvent être cités en référence à la condition d'indiquer la structure qui la gère.
- Il est souhaitable que le nombre de pages des articles soient entre 10 et 20 pages.
- Tout article doit être revu par son auteur au moment de la saisie ou remis sur un port USB ou envoyé par courrier électronique.
- Les propositions doivent être adressées au secrétariat de rédaction à l'adresse de la Faculté : FLSH@univ-nkc.mr

ISSN 2523-1883



**ANNALES
DE LA FACULTE DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES**

REVUE SCIENTIFIQUE A COMITE DE LECTURE

Numéro: 18/2023

Prix : 120 U\$